«سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ»

مدنيو آسيا في زمن الحرب

من ثورة التايبينغ إلى حرب فيتنام

ستيوارت لون

29.7.2017



ترجمة: أحمد لطفي

«سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ»

مدنيو آسيا في زمن الحرب

من ثورة التايبينغ إلى حرب فيتنام

المحرر الرئيس: ستيوارت لون

ترجمة: أحمد لطفي

مراجعة: سامر أبو هواش





الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

مدنيو آسيا في زمن الحرب: من ثورة التايبينغ الى حرب فيتنام
تحرير ستيوارت لون

DS34 .D3512 2011
[Daily lives of civilians in wartime Asia]
مدنيو آسيا في زمن الحرب : من ثورة التايبينغ الى حرب فيتنام / تحرير ستيوارت لون؛ ترجمة أحمد لطفي؛ مراجعة سامر أبوهواش.-ط. 1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
ص 379 ؛ 15.5×23.5سم.-(سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ)
ترجمة كتاب : Daily lives of civilians in wartime Asia
تدمك: 978-9948-01-866-7
1. آسيا - تاريخ -- القرن التاسع عشر. 2. آسيا- تاريخ- القرن العشرون. 3. آسيا- الأحوال الاجتماعية- القرن التاسع عشر. 4. آسيا - الأحوال الاجتماعية- القرن العشرون. 5. الحرب والمجتمع. أ. Lone, Stewart ب. أبو هواش، سامر، -1972 ج. لطفي، أحمد. د.العنوان. هـ.السلسلة.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Stewart Lone
Daily Lives of Civilians in Wartime Asia: From the Taiping Rebellion to the Vietnam War



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



مدنيو آسيا في زمن الحرب

المحتويات

شكر وعرفان

في إعداد هذا العمل، قدم لي البروفيسور ديفيد مار والبروفيسور روبين بريور والدكتور مينا روسيز والبروفيسور جوناثان سبينس- عظيم العون وكريم المشورة والتوجيه. كما أتقدم بخالص الشكر والعرفان لكل الذين تشاطروا معي ذكرياتهم عن الحياة في فيتنام خلال ستينيات وسبعينيات القرن الماضي. وأقدم خالص امتناني إلى «أونه كولينز»، وأشكر «ليم دونج» وأسرته على إتاحة الفرصة لي لإجراء العديد من المقابلات المهمة التي ساهمت في إعداد هذا العمل. وقد عمل محررو هذه السلسلة «مايكل هيرمان» في جرين وود بريس والدكتورين ديفيد وجين هيدلر، على نحو جعلهم قدوة تحتذى ومثالاً رائعاً في إخراج هذا المشروع إلى النور. وكما هي الحال دائماً، كان لزوجتي «إيمي» عظيم الفضل في مساعدتي في الوصول إلى خط النهاية. ولما كان لكل فرد مشارك في عمل جماعي مثل هذه السلسلة حق إهداء العمل، فإني أهدي هذا الجهد إلى ثلاثة أفراد كلهم من قيادات الجيش، تمتعوا بحسن الخلق والكرم وهم: كريستوفر كوكريل وباول لي دونج وأنيتا جروفز.

ستيوارت لون

المقدمة

يمتد تعريف قارة آسيا في هذه المجموعة من الدراسات بين شمال شرق القارة وجنوبها الشرقي، ذلك الجزء من الكرة الأرضية المقابل لما دأب المؤرخون- حتى القرن التاسع عشر- على تسميته بـ «النظام العالمي الصيني». فداخل هذا المتسع الجغرافي، ظلت الصين القوة المسيطرة على مدار أكثر من ألفي عام. وكان نفوذها ثقافياً واقتصادياً بالأساس، وامتزجت المبادئ الأخلاقية للصين (وفي دول أخرى كاليابان وكوريا- يمكن إضافة اللغة المكتوبة أيضاً) بمثيلاتها في أجزاء كثيرة من دول المنطقة قبل العصر الحديث. أما بالنسبة إلى المناطق البعيدة عن المدى الثقافي الصيني كالفلبين وإندونيسيا، وكلاهما رزح تحت استعمار القوى الأوروبية لفترات طوال (الفلبين مثلاً يرجع اسمها إلى الملك فيليب ملك إسبانيا، وإندونيسيا ظلت لعدة قرون تُسمى جزر الأنديز الشرقية الهولندية)، فظلت التجارة البحرية مع البر الصيني تتمتع بجانب كبير من الأهمية للاقتصاد المحلي. ويعني تركيز هذه المجموعة على شرق آسيا أننا نستبعد- وبشكل كبير- تلك المناطق التي احتفظ النفوذ الهندي والإسلامي فيها باليد الطولى والصوت الأعلى، فإن أردنا تناول جنوب آسيا ووسطها بالتفصيل، ربما نحتاج إلى مجلد آخر.

إن إحدى القيم التقليدية للصين فيما يتصل بموضوع هذا الكتاب هو الرغبة في تحاشي الصراعات. ففي أوج الكونفوشيوسية الصينية، ثمة نظام معقد من الشعائر اللغوية والاجتماعية يستهدف وضع هيكل لكافة العلاقات البشرية، وكذلك تقليل احتمال حدوث سوء تفاهم أو اعتداء. وفي جوهر الكونفوشيوسية الصينية هناك نظام طبقي اجتماعي يحظى فيه التعليم- الذي يُعرف بأنه فهم الفلسفة الأخلاقية- باحترام كبير. وعلى عكس ذلك، فإن المكانة الاجتماعية للجندي تتلخص في المثل الصيني الشهير

«الإنسان لا يستخدم الحديد الجيد لصناعة الأظافر، كما لا يستخدم الرجالَ الجيدين لصنع الجنود».

وحتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت النظرة العامة للجندي في الصين على أنه مجرد لص ليس أكثر. وكانت اليابان استثناء على النظام الصيني وأدخلت تعديلات عليه فاحترمت مكانة موظفي الجيش من «الساموراي»[1] (أفضل مكانة من الجيش)، ما يعني أنه غلبت على شرق آسيا مقاومة شديدة للحرب والمحاربين. وقامت الصين- بوصفها الدولة الإقليمية المسيطرة بحكم المساحة والتاريخ والثروة- بتأسيس نظام جغرافي ينهض على مبادئ الاحترام المشترك، وتجلى هذا الاحترام في منح الهدايا والعطايا. فكانت الدول الصغرى التي تقبل سيطرة الصين ترسل هدايا إلى إمبراطور الصين، وكان على الإمبراطور أيضاً- وبوصفه رأس النظام الطبقي- أن يمنح عطايا أكبر إلى السفارات الإقليمية. وكان نجاح هذا النظام المتناغم من خلال تبادل الهدايا يعني أن الفترة بين وصول أسرة كينغ لسدة الحكم في الصين عام 1644 وبين الغزو البريطاني للصين بين عامي 1839- 1842، خلت تقريباً من أي حروب كبرى بين أي دولتين في شمال آسيا أو جنوب شرقها. ولا ينفي ذلك وقوع أحداث شغب داخلية وثورات بين الحين والآخر (غالباً بسبب شكل من أشكال المعتقدات الدينية)، لكن الحرب لم تلح في الأفق بوصفها مظهراً من مظاهر الحياة اليومية.

ويعتبر هذا خلافاً لما كان يحدث في أوروبا الغربية والولايات المتحدة في ذلك الحين، حيث تفجرت الحروب الأهلية والدولية منذ أواخر القرن الثامن عشر بمتوسط حرب كل ثلاثين عاماً أو أقل. فكان هناك داع في أي وقت يُعرض حياة المدنيين إلى المعاناة والخطر. ووفق ما يرى أحد رواد التاريخ العالمي، فإن ثقافة الحرب والتنافس العدواني سيطرت على تفكير أوروبا الغربية والولايات المتحدة في ذلك الوقت. وصاغ ريتشارد سلوتكين- أحد أهم المؤرخين المهتمين بالثقافة الأمريكية- مصطلح «أمة البارود» عند وصفه بعضاً من أقوى القيم الأمريكية في القرن العشرين[2]. إذ كان التفكير المعتد به في

(1) أُطلق اسم «الساموراي» على طبقة المحاربين في اليابان وكان أفرادها يحظون باحترام وإكبار كبيرين في المجتمع الياباني.

(2) ريتشارد سلوتكين، أمة البارود: خرافة الحدود في أمريكا القرن العشرين، نيويورك: أثينيوم، 1992. =

الغرب هو أن التنافس والصراع قوى تقدمية وإبداعية. وكان هذا الاعتقاد مقبولاً حتى لدى جون رسكين، أحد أهم المعارضين البريطانيين للعالم الصناعي في أواخر القرن التاسع عشر، الذي دعا إلى العودة إلى عصر الحرف اليدوية وإلى مجتمع أكثر بطئاً وتأملاً (وبالتالي أكثر سلمية). وفي حقيقة الأمر، فإن عظماء الفلاسفة الراديكاليين في العصر الصناعي من أمثال فريدريك نيتشه كانوا يناهضون صعود الطبقة الوسطى وانتصار الراحة والمادية على ما اعتبروه قوى الصراع البشري الأكثر بدائية والأشد نشاطاً. وقد صاغ نيتشه ذلك في إحدى أشهر مقولاته: «الضربة التي لا تقتلني تجعلني أقوى». فهذه هي ثقافة الرغبة والسعي إلى التحدي أو الصراع وكان يُنظر إليها في آسيا على أنها لسان حال الغرب.

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي– الذي يعد نقطة البداية الأساسية لهذا الكتاب، كانت مجتمعات شرق آسيا مرغمة وبشكل متزايد على تغيير قيمها وممارساتها. وتتمثل نقطة التحول هنا في هجوم الحكومة البريطانية على الصين بين عامي 1839 و1842– ذلك الهجوم الذي عُرف باسم «حرب الأفيون الأولى». ونتيجة لهزيمة الصين في هذه الحرب وفي حروب تالية، وقيام القوى الغربية بفرض الحكم الاستعماري والاتفاقيات الجائرة على آسيا، نشأ نظام ثقافي واجتماعي جديد من نوعه.

في هذا السياق، كان بقاء الأمة يعتمد في البداية على إنشاء دولة (من خلال التعليم الجماعي لمعرفة القراءة والكتابة وتطوير وسائل إعلام جديدة) وبناء أساس اقتصادي واجتماعي يسمح ببناء الجيش. ونتيجة لذلك أسفرت الحروب والتهديدات عن تغييرات غير عادية في حياة الأطفال (الذين يذهبون الآن للمدارس ويطلق عليهم «تلاميذ») والنساء (اللاتي يعملن في المصانع حيث يمكنهن الحصول على رواتب واستخدام تعليمهن للتخصص في مهن جديدة) والرجال (الذين يواجهون الآن احتمال الالتحاق بالخدمة العسكرية). كما أن الوجود المادي والقوة الاقتصادية للجيش توسعا وبلغا مستويات غير مسبوقة. يتضح ذلك مثلاً من خلال المقارنة بين أوضاع الصين وكوريا خلال المائة عام الماضية. وتبقى النقطة الأعم هنا أن ثقافة التطوير الرأسمالي والابتكارات في التكنولوجيا البحرية والعسكرية وتصاعد دور الجيش بوصفه لاعباً مؤثراً في المجتمع،

= ولاستعراض مختصر لحجة ماكنيل، اقرأ مقالته: «التوسع والقوة والحروب الأوروبية منذ 1500» في جي إيه دي مور و إتش إل ويسلينغ، محرران، «الإمبرالية والحرب: مقالات عن الحروب الاستعمارية في آسيا وأفريقيا»، لايدن: إي جيه بريل، 1989.

فضلاً عن انتشار ثقافة الاستعداد لـ «اختبار الجسد بالجسد» في الاشتباك مثلما يحدث في الرياضات الالتحامية، وفضلاً عن انتشار الوعي بأهمية الثقافة المادية والإصرار على تطويع الطبيعة لتلبية احتياجات الإنسان– كل هذه القيم لم تُغرس في شرق آسيا إلا خلال المائة والخمسين عاماً الماضية.

وتبقى الحرب واحدة من أكبر أدوات التخريب البشري. فمقابل كل رصاصة أو قذيفة تؤثر في العدو، يُطلق عدد هائل من الرصاصات دون هدف أو طائل. وهنا تتجلى قصص الصراعات أمثلةً صارخة على الحماقة والعبث. وتشير إحدى المقولات المؤثرة من فيلم «شيناندوه»– ذلك الفيلم الذكي الذي يعود تاريخه إلى ستينيات القرن العشرين وتدور أحداثه حول الحرب الأهلية الأمريكية– إلى أن المستفيدين من الحرب هم من يشعلونها. أما الخاسر الرئيس دائماً فهم المدنيون. ذلك لأن الحكومات تجند الرجال وموارد المجتمع في إشعال الحرب أو لما يترتب على الحروب من فوضى وخراب للأراضي التي يجري فيها القتال، أو لأن المدنيين هم من يدفع الفاتورة في شكل ضرائب أو قتلى أو إعاقات. ومن المسلم به هنا أن حصيلة القتلى في الحرب في أوائل القرن العشرين كانت 90٪ من الجيش و10٪ من المدنيين، لتصبح في أواخر القرن العشرين 90٪ من المدنيين و10٪ من الجيش. وبغض النظر عن دقة هذه الأرقام، فالمسألة تبدو واضحة: الحرب باتت تصل إلى المنازل بالمعنى الواقعي والعملي. ولذلك فإن مفهوم «سير حياة المدنيين في مسارها الطبيعي دون تأثر جراء الحرب» أو مفهوم الحياة اليومية– ينبغي أن يتغير وفقا لما تمليه الحرب من اعتداءات دائمة ومتزايدة على المدنيين.

وهذا لا يعني أن التأثير الكامل للحرب على حياة المدنيين حتى بمعناه النسبي– كان قليلاً قبل القرن العشرين. ويبدأ هذا الكتاب بالصراع الثوري للتايبينغ في الصين في منتصف القرن التاسع عشر، والذي استمر قرابة 14 عاماً وتصل حصيلة قتلاه– حسب التقديرات– إلى 12 مليون نسمة. وتدرس الفصول الختامية الحرب الكورية في خمسينيات القرن العشرين والمرحلة الأخيرة من حرب فيتنام بداية من عام 1965 إلى 1975. وفي كل من هذه الحروب، لقي زهاء ثلاثة ملايين شخص مصرعهم، وربما تكون سرعة الدمار الشامل هي أكبر تغيير طرأ خلال المائة والخمسين عاماً الماضية.

ومنذ الحرب العالمية الأولى، تزايد قبول الشرعية التي تصف قيام الحكومات والجيوش

والمجتمع المدني باستخدام تكتيك قصف المراكز الحضرية. والسبب من ذلك هو تجنب وقوع خسائر بشرية في صفوف القوات البرية، ومن شأن ذلك النوع من الهجوم أن يجبر العدو على الاستسلام سريعاً، لكن التجارب الحديثة ومنها الحربان الفيتنامية والكورية، تثبت عكس هذه الحجة.

ويستشهد الفصل الخاص بأندريه لانكوف بمثل كوري يقول: «حتى وإن كانت السماء تنهار فمن المؤكد أن بها بعض الثقوب التي يستطيع الإنسان أن ينجو منها». وما يؤكده عدد من مؤلفي هذا الكتاب هو أن حياة المدنيين في الحرب الحديثة غالباً ما تتضمن النزول إلى الأنفاق تحت الأرض– وهو ما حدث في كوريا الشمالية وفيتنام الجنوبية خلال فترات طويلة من القصف، وفي بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية. وتتضمن الخيارات الأخرى الفرار وهو ملاذ دائم للمدنيين في الحروب– فاللاجئ ليس شخصاً حديثاً غير مسبوق في ذلك الفرار، ولم يظهر مفهوم اللاجئ في العصر الحديث فقط وإنما ظهر في الماضي بسبب الحروب. وهذا ينطبق على الحروب الثورية للفلبينيين والتايبينغ والحروب التي اندلعت بعدها كالحرب الكورية، عندما أصبحت كل العادات اليومية في حياة اللاجئين قصيرة الأمد وهم ينتظرون لفترات قد تمتد سنوات للحصول على منزل جديد أو عمل يمتهنوه أو طرق للقضاء على السبة التي تلازمهم باعتبارهم فئة من المشردين.

في هذا الإطار أيضاً تتجلى قضية أخرى هي: إلى أي عمق تنال الحروب من أساسيات الحياة المدنية للناس؟ فأحد النقاط الرئيسة في فصل «شيجيرو ساتو» الذي يتناول إندونيسيا في الحرب العالمية الثانية– هو النقص الحاد في الملابس وما استتبعه من فقدان للكرامة الإنسانية على الرغم من قلة القتال المباشر على الجزر. ويطل تأثير نقص الغذاء في عدة فصول. فيقال إنه في اليابان في وقت حرب الباسيفيك، كانت هناك خمسة ألوان من الأرز تتنوع بين الأصفر والأسود، ولم يكن اللون الأبيض أحدها. وفي الحرب الكورية تشير بعض الأدلة إلى أن أهالي سول انقلبوا على المحتلين الكوريين الشماليين في عام 1950 فقط لأنهم فشلوا في توفير الغذاء. وفي فيتنام الجنوبية، كانت أزمة إمدادات الغذاء في عام 1973 حاسمة في إنهاء الدعم الشعبي لنظام سايغون.

وهناك قضية أخرى تتمثل في مرونة المدنيين. فخلال فترات الصراع الكثيف، يصبح

هؤلاء المدنيون قادرين على التكيف مع الظروف الجديدة والنجاة من المخاطر المحدقة، وقد يكون هذا التكيف وتلك النجاة مسألة بسيطة لا تعدو مجرد الذهاب إلى المقهى لقضاء بضع ساعات في احتساء الشاي أو المحادثة أو القراءة. ويعد تحويل الحرب إلى لعبة أحد أبرز أساليب تخفيف تأثير الحرب بالنسبة إلى الأطفال. كما تعد الدعابة أحد أساليب النجاة للمدنيين والمقاتلين. وقد حاولنا في فصول عدة تحديد بعض أشكال السخرية، ومنها السخرية من الذات التي ساعدت الناس على التغلب على حالات التمزق وعدم الاستقرار التي أفرزتها الحرب.

وعند دراسة الحياة اليومية للمدنيين، قد ينهض التساؤل حول المدى الذي تذهب إليه الحرب في اختراق حياة المدنيين؟ فالحرب قد تظهر بشكل مباشر أمام أعين المدنيين في شكل عنف يجتاح الشوارع أو قد تطل عليهم بشكل أكثر أماناً في صورة أخبار أو أفلام وبالتالي تمر عليهم في صورة انطباعات عن حركة الجنود من خطوط القتال البعيدة عن الأنظار وإليها، وأحياناً تؤثر الحرب بشكل غير مباشر في حياة الناس، فتؤدي إلى تراجع كميات الطعام أو زيادة صعوبة الوصول إلى الطعام والسلع أو صعوبة الحركة أو صعوبة الحصول على المتعة، أو قد تفرز الحرب اختلافاً معيشياً يدفع إلى المقارنة بين وقت السلم وزمن الحرب. ويأمل مؤلفو الكتاب أن يتمكنوا من تقديم مجموعة من الإجابات عن هذا التساؤل.

وتعمد فصول هذا الكتاب إلى توظيف مجموعة متنوعة من التوجهات تتماشى مع طبيعة التنوع في حياة المدنيين. لذلك نجد توجهاً يتبنى الرؤية الشاملة للمجتمع كُلاً واحداً واحد، وتوجهاً ثانياً يركز على مدينة واحدة، وثالثاً يسلط الضوء على منظومة مركزية من مؤسسات الحياة المدنية (صالة الشاي مثلاً) بوصفها أداة للوقوف على طبيعة المجتمع الأشمل في أوقات الحرب. وعموماً، يشرح المؤلفون الحياة المدنية بشكلٍ كامل. ويرجع الفضل في قدرتهم على ذلك إلى السجلات التي قد يحتفظ بها المتعلمون والأغنياء نسبياً ممن يكونون عادة في المناطق الحضرية. ومن شأن هذا أن يثير كما يؤكد ساتو في بداية فصله احتمال وجود أنواع عديدة من الانحياز (الطبقي أو الجندري أو المناطقي أو العرقي) أو ببساطة بسبب الجهل. ولعلها عادة المؤرخين دائماً أن يطلبوا من القارئ القبول بالأطروحات المقدمة في كتاباتهم ولو بشكل مؤقت ومشروط، حتى تخرج إلى النور المزيد من الأدلة، والمطلب عينه وارد بهذه السلسلة.

يشتمل الكتاب على عدد من الرسوم التوضيحية في معظم فصوله، ليس من بينها الفصل الأول الذي يتناول الصين في خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر. وقد استثنينا الفصل الأول من الرسوم التوضيحية لأنه في تلك الفترة كان فن التصوير لا يزال في بداياته. لكن مع بزوغ تسعينيات القرن التاسع عشر، وهو موضوع الفصل الثاني، وفترة حروب المقاومة الفلبينية ضد الإسبان والأمريكان، أصبح التصوير جزءاً من الحياة الحديثة، وأدى إلى تغيير جذري في كيفية رؤية الناس لأنفسهم وللآخرين وفهمهم للحاضر وللماضي القريب.

ومع أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر، بدأت تخرج إلى النور أولى الصور المتحركة التي تتناول الحرب، مما أدى إلى اختلاف جوهري في إدراك المدنيين لطبيعة الحروب. فخلال خمسينيات القرن التاسع عشر، كانت معايشة الحرب لا تتم سوى بالتعرض المباشر لها أو من خلال مطالعة الشائعات والأقاويل. ولكن بحلول تسعينيات القرن التاسع عشر، صار بإمكان الإنسان مشاهدة الحرب، إما متجمدة في صور ثابتة وإما متحركة من خلال شاشات السينما العملاقة. وربما كانت المنافسة مع الصورة التي تصنعها الآلة سبباً دفع المؤلفين إلى تغيير كيفية رؤيتهم للحرب وكتابتهم عنها. ولذلك فإن المؤلفين يطالبون القارئ بإعمال النظر فيما يُقال في الفصول التالية والتفكير في كيفية سرده. ذلك لأن صياغة الكتاب تأتي رداً على توجه شهدته العقود الأربعة الماضية رأى أن لغة الحرب– على الأقل مثلما تستخدمها الحكومات والجيوش– لها طبيعة خاصة تنفصل بها عن واقع الحياة المدنية وعن واقع التعبير.

الهوامش

1. Richard Sltokin, Gunfighter Nation: The Myth of the Frontier in Twentieth Century America, New York: Atheneum, 1002.

لتفصيل مختصر عن طرح McNeill، انظر مقاله التالي:

“European expansion, power and warfare since 1500» in J. A. de Moor and H. L. Wesseling, eds., Imperialism and War: Essays on Colonial Wars in Asia and Africa, Leiden: E. J. Brill, 1989.

التسلسل الزمني لأبرز أحداث آسيا

الصين: تمرد التايبينغ ونيان

1644: تأسيس أسرة كينغ في بكين.

1839–1842 حرب الأفيون الأولى: وصول إمبراطور جديد من أسرة كينغ اسمه شيان فينغ إلى سدة الحكم (توفي عام 1861)، واندلاع ثورة التايبينغ جنوبي الصين تحت قيادة هون شيكوان.

1851 اندلاع ثورة النيان بشمال الصين.

1853 جيش التايبينغ يحتل نانجينغ ويُطلق عليها اسم تيانجينغ عاصمة مملكة التايبينغ.

1853–1855 جمعية السيوف الصغيرة (مجموعة الثالوث) تحتل جزءاً من شنغهاي.

1854 اندلاع ثورة مياو في جنوب غربي الصين.

1853–1855 هزيمة جيوش الحملات الغربية والشمالية للتايبينغ.

1855–1862 ثورات المسلمين في غرب الصين وجنوب غربها.

1856 تحالف قوات النيان والتايبينغ تُلحق الهزيمة بجيش كينغ.

1856–1860 حرب الأفيون الثانية (حرب السهم): القوات الفرنسية والإنجليزية تحتل جوانزو (1857) وبكين (1860).

1860 القوة الفرنسية الإنجليزية تلحق الهزيمة بقوات التايبينغ في شنغهاي.

1864 جيوش كينغ تستعيد نانجينغ ووفاة هونغ زعيم التايبينغ.

1868 تدمير جيوش النيان.

نضال الفلبين من أجل الاستقلال

1565 إسبانيا تستعمر الفلبين وتتخذ مانيلا عاصمة لها منذ عام 1571.

1834 فتح أبواب مانيلا بالكامل أمام التجارة الخارجية.

1863 مرسوم تعليمي يمنح الفلبينيين الحق في التعليم الجامعي.

1868 تأسيس الحرس المدني للقضاء على تزايد السرقات والثورة.

1872 شهر فبراير- إعدام ثلاثة قساوسة فلبينيين علمانيين أمام العامة في باجومبايان.

1892 شهر فبراير- إنشاء جمعية الكاتيبونان الوطنية السرية في مانيلا بواسطة أندريس بونيفاشيو ولاديسلاو ديوا.

1895 إنشاء هيئة مراقبة الأمن لجمع معلومات عن الحياة في مانيلا.

1896- 23 أغسطس- اندلاع رمزي للثورة «صيحة بوجادلاوين»، السلطات الاستعمارية ترد بعمليات اعتقال وترحيل وإعدام جماعي.

1896 سبتمبر-ديسمبر- بعد المواجهات بين جمعية الكاتيبونان والجيش الإسباني، بونيفاشيو يسحب جيشه إلى مقاطعة كافيت.

1896 ديسمبر- إعدام جوزيه ريزال (مولود عام 1861) الزعيم الثوري ومؤلف روايتي «لا تلمسني» و«المخرب» بتهمة «الثورة وزرع الفتنة وتكوين جمعيات غير قانونية».

1897 هجوم إسباني مكثف ينجح في استعادة كافيت.

1897 ديسمبر- توقيع اتفاق هدنة وأجوينالدو يذهب إلى منفاه الاختياري في هونغ كونغ.

1898 (أبريل) اندلاع الحرب الإسبانية الأمريكية، والعميد البحري جورج ديوي يسحق البحرية الإسبانية، وفي يوم 1 مايو- اندلاع حرب خليج مانيلا.

1898 (19 مايو) أجوينالدو يعود إلى الفلبين، 12 يونيو- الثوريون الفلبينيون يعلنون استقلال الفلبين، وتدشين جمهورية الفلبين رسمياً في مالولوس (23 يناير 1899).

1898 أغسطس-ديسمبر- الحكومة الإسبانية في الفلبين تستسلم إلى ديوي (13 أغسطس)، ديسمبر- واتفاقية باريس تمنح السيادة على الفلبين للولايات

المتحدة، وصدور إعلان الرئيس ماكينلي لما يطلق عليه «الاستيعاب الخيري».

1899 (4 فبراير)– «السبت الأسود» واندلاع الحرب الأمريكية الفلبينية.

1899 (مارس) سقوط عاصمة الجمهورية في مالولوس على أيدي القوات الأمريكية.

1901 (مارس)– وقوع أجوينالدو في الأسر، أبريل– أجوينالدو يقسم على الولاء للولايات المتحدة.

1902 انتهاء الحرب الفلبينية الأمريكية رسمياً.

حروب ميجي اليابان

1853 الأسطول الأمريكي يصل إلى سواحل اليابان.

1854 نهاية العمل بسياسة «البلد المغلق» في اليابان.

1868 الحرب الأهلية تؤدي إلى «استعادة» الحكم الإمبراطوري، وبدء عهد ميجي (حتى عام 1912).

1872 الإعلان عن إنشاء جيش نظامي قائم على التجنيد الإلزامي.

1889 إدخال السياسة الدستورية.

1890 اليابان تربط أمنها القومي بمصير كوريا.

1891 روسيا تبدأ في تشييد سكة حديد سيبيريا، ومخاوف يابانية من التوسع الروسي.

1894 أغسطس– اليابان تثير الحرب على الصين بسبب السيطرة على كوريا، وفي نوفمبر– الجيش الياباني يسيطر بسهولة على بورت آرثر (منشوريا).

1895 الصين تجنح للسلم وتدعو إليه، وتوقيع اتفاقية السلام في شهر إبريل، واليابان تستولي على جزيرة تايوان وتصبح قوة استعمارية.

1897– 1898 ألمانيا تستولي على جزء من مقاطعة شاندونغ الصينية، وقوى أخرى تطالب بكين بتنازلات مشابهة، وروسيا تعزز وجودها في منشوريا.

1900 تمرّد الملاكمين في الصين، واليابان تحارب الجيوش الغربية، وروسيا تحتل منشوريا.

1902 إعلان التحالف الأمني الياباني الإنجليزي ضد روسيا.

1903 فشل المحادثات الروسية اليابانية بشأن التوصل إلى حل وسط حول كوريا.

1904 فبراير– اليابان تهاجم القوات الروسية في شمال شرق آسيا دون إعلان الحرب سلفاً، وفي أغسطس– بداية الحصار الياباني لبورت آرثر (حتى يناير 1905).

1905 مارس– معركة موكدن البرية، مايو– وتدمير الأسطول الروسي في توشيما.

1905 سبتمبر– اتفاقية السلام تنهي الحرب لكنها تفرز احتجاجات عنيفة في طوكيو (أحداث شغب هيبيا).

حروب الصين، 1937– 1949

1911 الثورة – انهيار حكم أسرة كينغ الملكية، وإنشاء الجمهورية الصينية (يناير 1912).

1917 اندلاع نزاعات أمراء الحرب (حتى 1928).

1919 عودة الحزب السياسي للدكتور صن ياتسن لحزب الجومندانغ (الحزب القومي).

1921 تكوين الحزب الشيوعي الصيني سراً.

1924 تعيين «شيانغ كاي شيك» قائداً للقوات الوطنية.

1926– 1928 البعثة العسكرية الشمالية لحزب الجومندانغ القومي، شيانغ يسيطر على الصين.

1930– 1933 خروج خمس حملات عسكرية من حزب الجومندانغ للقضاء على البؤر الشيوعية.

1931 حادثة منشوريا، التوسع العسكري الياباني في شمال شرق الصين.

1934– 1935 الجيش الشيوعي «لونغ مارش»، قاعدة جديدة في يونان.

1937 اندلاع الحرب مع اليابان، وسقوط شنغهاي في نوفمبر، ونانجينغ في ديسمبر (مذبحة نانجينغ)، نوفمبر– عاصمة قومية كبيرة في شونغكينغ بإقليم سيشوان.

1938 سقوط جوانزو ويوهان (معاً في شهر أكتوبر).

1939– 1941 اندلاع اشتباكات متكررة بين جيشي الحزب الشيوعي الصيني والحزب القومي الصيني.

1941 ديسمبر– اليابان تهاجم ميناء بيرل هاربور والولايات المتحدة تدخل الحرب العالمية الثانية واليابان تحتل هونغ كونغ.

1942– 1943 القوات الصينية تلحق هزائم بالجيش الياباني.

1944 أول غارة جوية أمريكية على الجزر اليابانية من قاعدة شينغدو.

1945 استسلام اليابان واستئناف المنافسة بين الحزب الشيوعي والحزب القومي.

1946 تسمية القوات الشيوعية «جيش التحرير الشعبي»، وفي شهر يوليو– اندلاع الحرب الأهلية مجدداً.

1947 هجمات كبرى من جانب جيش التحرير الشعبي في شمالي الصين وشرقها، واندلاع تضخم اقتصادي هائل يدمر الحياة المدنية.

1948 جيش التحرير الشعبي يستولي على منشوريا.

1949 جيش التحرير الشعبي يستولي على بكين ونانجينغ وشنغهاي وشونكينغ، وفي ديسمبر– شيانغ يلوذ بالفرار إلى تايوان.

اليابان 1937– 1945

1937– اندلاع الحرب الصينية اليابانية، واليابان تحتل كبرى المدن الصينية شمالاً وجنوباً، 1937– 1938 أغسطس، وبدء حملة التعبئة الروحية القومية.

1938 أبريل– صدور قانون التعبئة الاقتصادية القومية.

1938 القتال مع القوات السوفيتية (مرة أخرى عام 1939) على حدود منشوريا– منغوليا.

1940 سبتمبر– القوات اليابانية تدخل الصين الهندية، واليابان توقع على التحالف الثلاثي المناهض للشيوعية مع ألمانيا والهند.

1940 ذكرى مرور 2600 عام رسمي على تأسيس دولة اليابان.

1941 إصلاحات تعليمية أساسية في اليابان.

1941 اليابان توقع اتفاقية الحياد مع الاتحاد السوفيتي، يونيو– والقوات اليابانية تدخل جنوب الصين الهندية، والولايات المتحدة تجمد أرصدة اليابان وتحظر تصدير النفط إلى اليابان.

1941 ديسمبر– الهجوم على بيرل هاربور، والولايات المتحدة تدخل الحرب العالمية الثانية، والجيوش اليابانية تغزو جنوب شرق آسيا.

1942 يونيو– هزيمة البحرية اليابانية في معركة «ميد – واي».

1943 فبراير– انسحاب القوات اليابانية من «جوادا كانال» (Guadacanal).

1943 تدمير الأسطول التجاري الياباني فعلياً.

1944 بدء القصف الأمريكي للأراضي اليابانية، وإنشاء فرق الكاميكاز الانتحارية التطوعية.

1945 (9 مارس)– قصف طوكيو لليلة واحدة بقنابل من طراز B29 يسفر عن مصرع وإصابة 120 ألف شخص.

1945 قصف هيروشيما ونجازاكي بالقنبلة الذرية، والاتحاد السوفيتي يعلن الحرب على اليابان، واليابان تستسلم.

حروب إندونيسيا

1935 انهيار اقتصادي عالمي واقع، والسلطات الاستعمارية الهولندية تبدأ في تبني التصنيع من أجل الاكتفاء الذاتي اقتصادياً.

1937 اندلاع الحرب الصينية اليابانية وتدهور التجارة الصينية الإندونيسية.

1939 إنشاء الاتحاد السياسي الإندونيسي (GAPI) بهدف توحيد معظم الأحزاب القومية.

1939 سبتمبر– اندلاع الحرب العالمية الثانية في أوروبا، وصدور قانون الزراعة الإلزامية من السلطات الاستعمارية الهولندية لتحقيق الكفاية الذاتية في الغذاء.

1940 فبراير– القوميون الإندونيسيون يطالبون بإصلاحات في البرلمان الاستعماري ومنها استعمال «إندونيسيا» و«الإندونيسيون» في كل الوثائق الرسمية.

1940 مايو– ألمانيا تهزم هولندا، الحرب العالمية الثانية في أوروبا تزيد تردي الاقتصاد

الإندونيسي وتزيد الفقر والبطالة.

1941 ديسمبر– اليابان تقصف بيرل هاربور وتعلن الحرب على الولايات المتحدة وبريطانيا، والحكومة الهولندية في المنفى تعلن الحرب على اليابان، 11 ديسمبر– اليابان تقصف مدينة أمبون.

1942 يناير– مارس– الغزو الياباني لإندونيسيا وقصف أمبون وبتافيا (جاكارتا) وأهداف أخرى، والهولنديون يستخدمون تكتيكات الأرض المحروقة ويستسلمون في نهاية الأمر (9 مارس).

1942 إبريل– البحرية اليابانية تنشئ إدارة مدنية لها في شرق إندونيسيا.

1942 (8 ديسمبر): إطلاق اسم جاكارتا رسمياً على بتافيا.

1943 إبريل– صدور القانون الياباني الخاص بتسليم الأرز قسرياً إلى الحكومة.

1943 يوليو– أول قصف من قوات الحلفاء على جاوة في سورابايا، وسلطات الاحتلال الياباني تسمح باستخدام العلم والنشيد الوطني الإندونيسي.

1944 إبريل– يوليو– ثورات المزارعين الإندونيسيين ضد التسليم الإجباري للأرز.

1944 مايو– سبتمبر– قصف الحلفاء لإندونيسيا وخاصة سورابايا وأمبون وجاكارتا.

1945 مايو– تحرير هولندا واستسلام ألمانيا.

1945 استسلام اليابان، 17 أغسطس– سوكارنو يعلن استقلال جمهورية إندونيسيا، 23 أغسطس– القوات الهولندية تنزل في سابانغ في أتشه.

1946 مفاوضات أولية بين السلطات الهولندية والإندونيسية.

1947 يوليو– الهولنديون يطلقون «الأعمال البوليسية» الأولى.

1948 ديسمبر– الهولنديون يطلقون «الأعمال البوليسية» الثانية.

1949 إبريل– محادثات جديدة بين قادة الجمهورية بإندونيسيا والهولنديين، ديسمبر– عوْدة السيادة لجمهورية إندونيسيا.

الحرب الكورية

1910 اليابان تضم كوريا.

1945 أغسطس– هزيمة اليابان في الحرب العالمية الثانية، كوريا تستعيد استقلالها،

والولايات المتحدة واتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ينشآن خط التقسيم عند خط عرض 38.

1948 إنشاء جمهوريتين منفصلتين: كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية.

1949 انتصار الحزب الشيوعي في الحرب الأهلية في الصين.

1950 (25 يونيو)– اندلاع الحرب الأهلية الكورية، 27 يونيو– الرئيس «سينغمان ري» يهرب من سول، والقوات الكورية الشمالية تحتل سول، يوليو– تأسيس العاصمة المؤقتة للجمهورية الكورية في بوسان.

1950 (15 سبتمبر)– قوات الأمم المتحدة بقيادة الجنرال ماك آرثر تنزل عند إنشون وتستعيد سول (20–30 سبتمبر) وتحتل بيونغ يانغ (19 أكتوبر).

1950 نوفمبر– الصين تدخل الحرب لإيقاف تقدم الأمم المتحدة، الجيوش الشيوعية تستعيد بيونغ يانغ في شهر ديسمبر.

1951 القوات الشيوعية تحتل سول من شهر يناير وتخرجها قوات الأمم المتحدة في مارس.

1951– 1953 جمود عسكري على الأرض وحملة قصف جوي أمريكية على كوريا الشمالية.

1953 الهدنة توقف القتال في كوريا.

حرب فيتنام

1950– 1954 شن حرب ضد الحكم الاستعماري الفرنسي في فيتنام.

1954 اتفاقية جنيف تقسم مؤقتاً فيتنام إلى شمالية وجنوبية.

1954 بدء المساعدات المالية الأمريكية لحكومة فيتنام الجنوبية.

1955 نغو دينه ديم يعلن تأسيس جمهورية فيتنام (جنوب فيتنام).

1957 اندلاع التمرد الشيوعي في فيتنام الجنوبية.

1960 هانوي (Hanoi) تشكل جبهة التحرير الوطنية لفيتنام الجنوبية (حكومة سايغون أطلقت على الجبهة اسم «فيتكونغ»).

1962 الأمم المتحدة تنشيء قيادة المساعدة العسكرية في فيتنام الجنوبية.

1963 مايو – أغسطس – متظاهرون بوذيون مناهضون لديم، ثم انقلاب عسكري واغتيال ديم.

1963 – 1500 مستشار عسكري أمريكي في فيتنام الجنوبية.

1964 حادثة خليج تونكين وأول قصف أمريكي لفيتنام الشمالية.

1965 إرسال أول قوات مقاتلة أمريكية إلى فيتنام الجنوبية (وصل مجموعها إلى 500 ألف مقاتل نهاية عام 1967).

1966 تواصل احتجاجات البوذيين ضد نظام سايغون العسكري.

1968 هجوم تيت: قوات فيتنام الشمالية والفيتكونغ تهاجم مدن فيتنام الشمالية وبلداتها.

1969 مفاوضات السلام جارية في باريس.

1969 مارس – القوات الأمريكية تقصف كامبوديا (كامبوشيا) سراً.

1969 يونيو – الرئيس ريتشارد نيكسون يعلن سحب 250 ألف جندي أمريكي (ورحيل آخر الجنود في مارس 1973).

1970 (30 إبريل) إعلان الغارات المشتركة من جانب الولايات المتحدة وجيش جمهورية فيتنام على كامبوديا، وفي مايو – احتجاجات مناهضة للحرب في سايغون والولايات المتحدة ومنها جامعة كينت ستيت (4 مايو).

1971 خفض القوات الأمريكية في فيتنام إلى 140 ألف مقاتل.

1972 صد هجوم فيتنام الشمالية على فيتنام الجنوبية.

1973 الولايات المتحدة وفيتنام الشمالية تتفاوضان بخصوص اتفاقيات وقف إطلاق النار في باريس.

1974 رئيس فيتنام الجنوبية ثيو يعلن بداية الحرب من جديد.

1975 يناير – مارس – القوات الشيوعية تحتل كبرى مقاطعات فيتنام الجنوبية، إبريل – سقوط مدينة سايغون.

الفصل الأول

الحياة اليومية في الصين
أثناء ثورات التايبينغ والنيان 1850–1860

بقلم: ر. غاري تايدمان

في أعقاب استيلاء المانشو[3] (Manchu) على بكين عام 1644، أحكم الغزاة سيطرتهم على الصين كاملة على مدى العقود الأربعة التالية، وتمتعت البلاد بالسلم والرخاء لما يقرب من قرن تحت الحكام الأجانب التابعين لأسرة تشينغ (1644–1912). وأثمرت الحملات العسكرية حينئذ عن ضمّ أراض شاسعة من خارج الصين إلى إمبراطورية المانشو، التي ضمت منغوليا والتيبت وتركستان الشرقية (تُعرف الآن باسم شنجيانغ Xinjiang). غير أن علامات تدهور ووهن الأسرة الحاكمة بدأت في الظهور أواخر القرن الثامن عشر. وقد أسهمت عوامل عدة في زعزعة الاستقرار الداخلي، منها النمو السكاني المنفلت غير المسبوق في سنوات الازدهار النسبي في القرن الثامن عشر. فقد أسهم مزيج من الضغط الديموغرافي وتقسيم المواريث [تقسيم ممتلكات الأسرة بين جميع أبنائها ممن هم على قيد الحياة (فينجيا finjia)] في إحداث تداعيات طويلة الأمد على الطبقات الاجتماعية، مما أدى إلى زيادة عدد الأسر وانخفاض متوسط حجم حيازة الأراضي الزراعية. وبالتالي أسهمت زراعة الأنصبة المتناقصة من الأراضي الزراعية في إنهاك التربة وتآكلها، وتقليص دخول أصحاب الحيازات الصغيرة. فاضطرت أعداد متزايدة من الفلاحين الذين لا يستطيعون تلبية احتياجاتهم المعيشية من حصاد الأراضي التي يزرعونها إلى مباشرة أنشطة هامشية متنوعة من أجل البقاء على قيد الحياة.

---

(3) آخر العائلات التي حكمت الصين وامتد حكمها بين عامي 1644 و1912 ثم تبعها تأسيس جمهورية الصين.

ونتيجة لهذا الضغط على الأراضي الزراعية، تعاظمت ظاهرة الهجرة من الأقاليم المكتظة بالسكان شرقي الصين إلى أراضي المناطق الحدودية، ومنها مناطق التلال الواقعة في جنوب غربي الصين. ومع غزو هؤلاء المستوطنين الصينيين الهان[4] (Han) للمزيد من أراضي هذه التلال لزراعتها، بدأت الصراعات تنشب بينهم وبين الأقليات العرقية. وكان من بين المهاجرين الذين انتقلوا تدريجيّاً إلى مناطق هامشية في جنوب غربي قوانغدونغ Guangdong وقوانغشي Guandxi– أبناء عرقية هاكا Hakka (كيجيا Kejia أو «الشعب الضيف»)، وهم فرع من عرقية الهان الصينية التي أصبحت العنصر الرئيس في ثورة التايبينغ[5] (Taiping).

ومن العوامل الرئيسة التي أسهمت في زعزعة الاستقرار الاجتماعي والسياسي تدني الكفاءة الإدارية. ففي أواخر فترة الإمبراطورية، كان نظام الحكم المركزي الواسع في الصين واقعاً تحت نظام بيروقراطي متضخم، إضافة إلى تواضع مستوى انتشار قوات الجيش والشرطة. غير أنه على قمة هرم السلطة الحاكمة كان النظام سارياً بشكل معقول على الأرجح. وفي أواخر القرن الثامن عشر، دَبَّ الفساد الإداري في عضد الأسرة الحاكمة، وأصبح جزءاً من مسار طويل الأمد انتهى باضمحلالها. وأصبح هيكل البيروقراطية الصينية– على نحو متزايد– مرتعاً للفساد المنظم من جانب شاغلي المناصب الحكومية، الذي تراوح بين إساءة استخدام المال العام والإمدادات، وإساءة استخدام السلطة الرسمية لتحقيق مكاسب خاصة في صورة ضرائب باهظة، وتجاهل تنفيذ الإعفاءات الضريبية، واختلاس الأموال العامة، وسوء إدارة صوامع الغلال، وإهمال الأشغال العامة لاسيما تلك المتعلقة بالسيطرة على الفيضانات وغيرها من التجاوزات الإدارية. هذه السلوكيات الفاسدة والمستبدة من جانب موظفي الحكومة وموظفي الدوائر الفرعية في البلاد عجّلت كثيراً باندلاع مقاومة شعبية عنيفة.

وفي ظل التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الجوهرية الناتجة عن الضغوط الديموغرافية والتدهور الإداري وغياب الاستقرار الإيكولوجي (البيئي) والكفاح المتواصل ضد الطبيعة، تعمّق عدم الاستقرار والانقسام والمنافسة الضارية بين أفراد

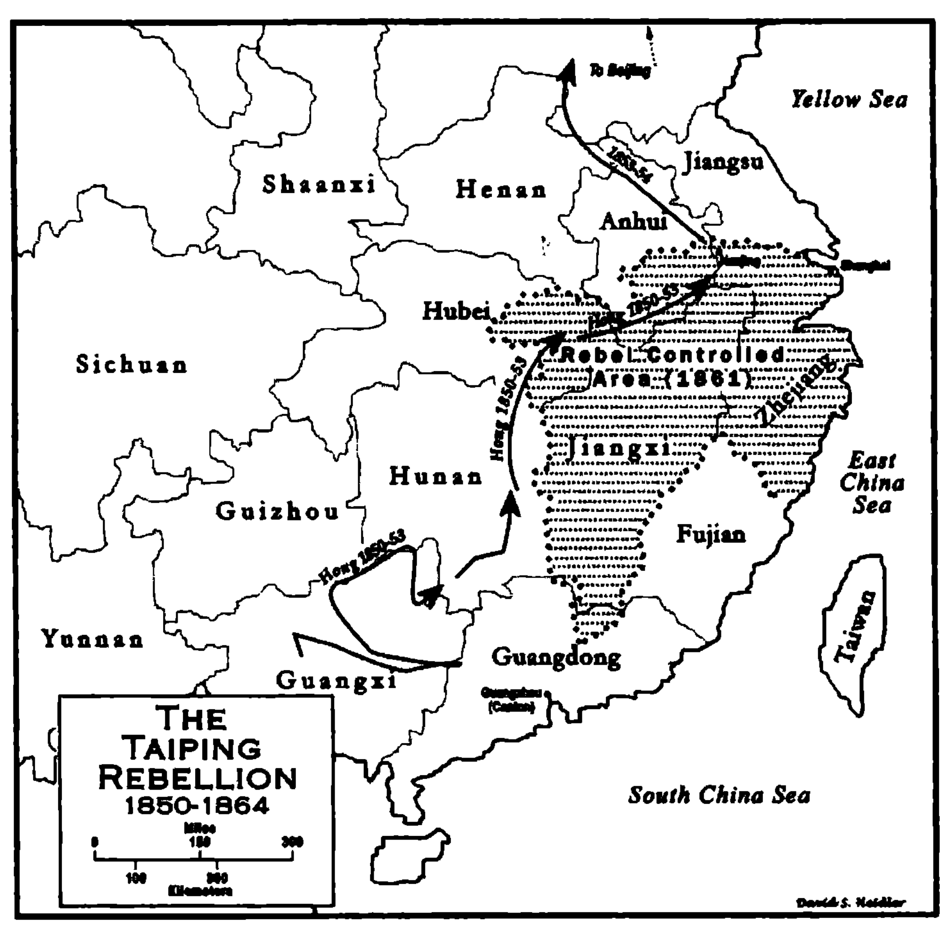
(4) عائلة حاكمة أسسها قائد تمرد الفلاحين «ليو بانغ» الذي عُرف فيما بعد باسم الإمبراطور جاوزو (Gaozu) وهي العائلة الإمبريالية الثانية التي حكمت الصين.

(5) حرب أهلية اندلعت في الصين على نطاق واسع بين عامي 1850–1864 ضد «أسرة تشينغ».

المجتمع الريفي. ومع مرور الوقت، عززت إستراتيجيات الصراع على البقاء– التي كانت ردة الفعل المباشر لمختلف الضغوط التكتيكية طويلة المدى– من تآكل وانهيار الولاءات الجماعية داخل النظم المحلية، وأدت إلى ضعف الآليات التقليدية للسيطرة المجتمعية. ونتيجة لتزايد عدم الاستقرار الملازم لطبيعة الوجود البشري، ونتيجة للكفاح المستمر من أجل العيش، ظهرت صراعات عنيفة من وقت لآخر في كل أجزاء الإمبراطورية تقريباً، وتجلت ردود الفعل على قسوة الوجود البشري في أعمال اللصوصية والقرصنة والتناحر والشغب ضد الضرائب، فضلاً عن الانتفاضات المحلية التي نهضت بها الجمعيات السرية والطائفية. وفي أربعينيات القرن التاسع عشر، تفاقمت آثار تجارة الأفيون غير الشرعية وحرب الأفيون الأولى (1839–1842)، عندما هاجمت بريطانيا الصينَ على طول سواحلها الجنوبية مما أدى إلى تدهور الأوضاع في المناطق الداخلية، وفاقم انعكاسات انعدام الأمن على الحياة المدنية وأشعل فتيل الثورات في خمسينيات وستينيات القرن التاسع عشر.

حروب الصين وثوراتها في منتصف القرن التاسع عشر

لم يكن تمرد التايبينغ هو ما أشعل فتيل الاضطرابات بالأساس لكنه أصبح دون شك الاضطراب الأوسع نطاقاً والأكثر تدميراً داخل إمبراطورية المانشو في ذلك الوقت. وبصورة أو بأخرى، أثرت الاضطرابات على أقاليم «الصين الحقيقية» (China Proper) البالغ عددها ثمانية عشر إقليماً. وخُرّبت على إثر هذه الاضطرابات معظم أقاليم وسط البلاد بين عامي 1850 و1864، وقد شجع هذا السباق طويل الأمد مع أسرة تشينغ (Qing) الواهنة قيام انتفاضات أخرى في أنحاء متفرقة على المستوى الإقليمي. ولم يخمد تمرد النيان الذي اندلع في سهل شمال الصين عام 1851 إلا في عام 1868. وفي إقليم قويتشو (Guizhou)، بدأت أقلية مياو (Miao) وغيرها من الأقليات الساخطة بالتمرد عام 1854، وظلت جيوش تشينغ الإقليمية في وضع احتلال على مدار عقدين تقريباً. وكذلك اندلع تمرد مسلمي الصين في مقاطعة يونّان (Yunnan) عام 1855، وتلاه تمرد آخر من قبل مسلمي الصين في إقليمي شانشي (Shaanxi) وقانسو (Gansu) عام 1862. وبعد ذلك بعامين، انتفض مسلمو آسيا الوسطى ضد تشينغ، وأنشأوا دولة إسلامية مستقلة



ثورة التايبينغ 1850–1864 (ديفيد س. هايدلر)

تحت حكم «يعقوب بيغ»[6] (Yaqub Beg) في تركستان الشرقية— خارج حدود الصين الداخلية. واندلعت مجموعة صغيرة من الأعمال التي لم تخرج عن المستوى المحلي مثل انتفاضات «جمعية السيف الصغير»[7] (أو ترياد Triad) في شنغهاي (بين عامي 1853 و1855) وشيامين Xiamen (أموي Amoy) (عام 1853). وقامت جماعات ترياد أخرى، ومنها أصحاب العمائم الحمراء، بإنشاء دويلات صغيرة في أجزاء من إقليم قوانغدونغ

(6) قائد عسكري أوزبكي استولى على مقاليد الحكم في كاشغار (Kashgar) وياركاند (Yarkand) من الصينيين، واستولى بالتدريج على معظم منطقة تركستان الشرقية في عام 1867 وعيّن نفسه أميراً على مملكة كاشغاريا الإسلامية (Kashgaria) متخذاً مدينة كاشغار عاصمة لها.

(7) «جمعية السيف الصغير» هي فرع من «جمعية السماوات والأرض» أو الترياد، وهي تنظيم مضاد لعائلة

وقوانغشي. وفي مطلع ستينيات القرن التاسع عشر، اندلعت انتفاضات طائفية ضيقة النطاق في شمالي الصين، حيث بدأت حرب الأفيون الثانية (المعروفة أيضاً باسم «حرب السهام») بين القوات البريطانية والفرنسية عام 1856، وبلغت ذروتها مع احتلال بكين في عام 1860، الأمر الذي شكّل تحدياً جديداً لاستقرار الصين في منتصف القرن التاسع عشر.

ومع اتساع دائرة الاضطرابات الاجتماعية وطول أمدها، فمن الطبيعي أن نفترض أن جميع سكان الصين في هذه الفترة تأثروا بطريق مباشر أو غير مباشر بالصراعات العسكرية التي نشأت عنها. ولأن هذه الحقبة لم تكن سوى الحلقة الأكثر تدميراً في تاريخ القرن التاسع عشر، فقد استقطبت أكبر قدر من الاهتمام في ذلك الوقت، ولذلك علينا أن نركز هنا على أثر ثورة التايبينغ على الحياة اليومية في البلاد.

ارتبطت ثورة التايبينغ ارتباطاً وثيقاً بقصة حياة فرد واحد هو هونغ شيقوان Hong Xiuguan (1814–1864)– وهو باحث فاشل من عائلة ريفية من قومية الهاكا في إقليم قوانغدونغ. واستطاع شيقوان من خلال علاقاته العارضة بالمسيحيين البروتستانت في مدينة قوانغتشو Guangzhou (المعروفة في الغرب باسم «كانتون» Canton)، أن يضع ديانة دينامية صينية جديدة– هي المسيحية التايبينغية[8]، وأعلن نفسه الأخ الأصغر ليسوع. وفي أربعينيات القرن التاسع عشر، بدأ هونغ التبشير برسالة معادية كل العداء للمانشو، وشرع في حملة تدمير لأضرحة الكونفوشيوسيين وأجدادهم. فكان هونغ يعتبر المانشو «شياطين يقاتلون الإله الحق الذي أعمل نقاءه ووجوده في الصين حتى أتت المعتقدات الكونفوشيوسية[9] وأبعدت الصينيين عن طريق الاستقامة القويم». وفي الوقت الذي استطاع فيه هونغ اجتذاب أتباع مؤمنين من بني جلدته من الهاكا ومن بعض الأقليات العرقية الأخرى في منطقة جبل الشوك في إقليم قوانغشي المجاور، أثارت ممارساته حفيظة النخبة المحلية في البلاد. ذلك لأن التايبينغ لم يكن في واقع الأمر مجرد

(8) ديانة صينية قامت على تعاليم المسيحية مع تركيز على طبيعة «الرب الغاضب» التي ميزت العهد القديم، فدعت إلى الاجتهاد في العبادة والطاعة، وحظرت العبودية والبغاء وتدخين الأفيون والميسر والكحول وقائمة طويلة من الموبقات.

(9) نسبة إلى الفيلسوف الحكيم، كونفوشيوس الذي ظهر في القرن السادس قبل الميلاد داعياً إلى إحياء الطقوس والعادات والتقاليد الدينية التي ورثها الصينيون عن أجدادهم.

بديل راديكالي لالتزام أسرة تشينغ بالقيم الكونفوشيوسية التقليدية، ولكنه أصر على ارتداء شعرهم الطويل في تباين متعمد للضفيرة والجبهة الحليقة المفروضة على جميع الذكور الصينيين من عرق الهان من قِبَل الفاتحين المانشو، وكان ذلك علامة واضحة على التمرد العلني ورفض حكومة المانشو.

وفي مواجهة تزايد العداء من جانب النخبة، أمر هونغ شيقوان (Hong Xiuquan) أتباعه بالتعبئة العامة في عام 1850، وفي يوم 11 يناير 1851، أعلن شيقوان نفسه «ملكاً سماوياً» على «المملكة السماوية للسلام العظيم» (The Heavenly Kingdom of Great Peace) (تاييينغ تيانغو)، وقام جيشٌ حكوميٌّ كبيرٌ بإجبار التاييينغ على الخروج من قاعدتهم في جبل الشوك. لكن التاييينغ، وبعد احتلال مدينة يونغان (Yongan) (مينغشان حالياً) لبضعة أشهر، باشروا «مسيرتهم الطويلة» من منطقة قوانغشي الفقيرة بمواردها إلى وادي نهر يانغتسي[10] الغني بالموارد. وعلى طول الطريق، وخاصة عند إقليم هونان، اعترفت قيادة التاييينغ بأهمية سن قواعد وقوانين لمنع تجاوزات الجيش السماوي وكسب ولاء السكان المحليين، وتمت تلاوة مدونة لقواعد السلوك التي تذكرنا بقواعد «ماو تسي تونغ» الموجهة إلى الجيش الأحمر الصيني بعد حوالي 80 عاماً على مدونة قيادة التاييينغ، وكانت المدونة من البساطة واليسر على النحو التالي:

> «لا تدع ضابطاً أو جنديّاً، ذكراً كان أو أنثى، يدخل القرى ليطهو الأرز أو ليستولي على الطعام، ولا تدع أحداً يدمر بيوت الناس أو ينهب ممتلكاتهم، ولا تدع أحداً ينهب المتاجر التجارية أو مكاتب الأقاليم وقضاة المناطق».

> «لا تدع أحداً يُضرم النار في بيوت الناس أو يبول على قارعة الطريق أو في المنازل الخاصة».
>
> «لا تدع أحداً يقتل ظلماً الشيوخَ والضعفاءَ من الناس الذين لا حول لهم على تحمل الأعباء ولا قوة».

(10) نهر اليانغتسي هو أطول أنهار الصين وآسيا وثالث أكبر أنهار العالم بعد النيل والأمازون.

كان الانضباط العسكري من الضرورة بمكان لمواصلة تعزيز الدعم المحلي، وكان بمثابة «الرفاه العاجل» لعامة الناس، ومن ثم تأكد للتايبينغ أن الشعب قد حصل على التعويض المناسب عن البضائع التي طلبتها القوات. وفي الوقت نفسه، وُزِّعَتْ بعض مخازن الحبوب والماشية وغيرها من السلع، التي استولت عليها القوات من منازل الهاربين، على القرويين المحليين، ووعد التايبينغ الناس بإدخال تحسينات وتعديلات على حياتهم في المستقبل بمجرد أن تدين لهم شؤون الحكم في الصين.

«بعد توحيد الأنهار والجبال، ستكون ثلاثة أعوام خالية من ضرائب [الأرض] نقداً وحبوباً... وعلى الأغنياء أن يُسهموا بالمال وعلى الفقراء أن يجودوا بجهدهم وقوتهم، وبعد انتهاء المشروع العظيم، سَيُكافَئُ الجميع بمناصب رسمية مميزة يمكن توريثها. وحيثما مررنا سنركز على قتل جميع الموظفين المدنيين والعسكريين والجنود ورجال الميليشيات. ولن يطال الناس سوء، وعندها يستطيعون مواصلة حياتهم العادية... يشترون باعتدال ويبيعون دون غلو أو إسراف. وعندما نقوم بالاستيلاء على مدينة ما، ننصح جميع العائلات بإغلاق أبوابها؛ فذلك يضمن السلامة وتجنب حصول الحوادث، أما إن قدمتم يد العون إلى الشياطين [المانشو] في الدفاع عن المدينة واشتبكتم في القتال، فإنها الإبادة التامة لكم جميعاً، ولا مفر».

وبصرف النظر عن هذا الغموض الواضح في المساواة بين البشر، أثار نهج التايبينغ رد فعل مزدوجاً في إقليم هونان. فالطبقة الكونفوشيوسية الحاكمة اعتبرت التايبينغ متمردين ضد حكم المانشو الذين بايعتهم الطبقة الأرستقراطية على الولاء، وقد رفضوا «مسيحية التايبينغ» الإلحادية لأنها قوضت الثقافة الكونفوشيوسية على نحو خطير، ونالت من النسيج التقليدي للمجتمع الصيني. واعتبرت الجماهير التي عانت الكوارث الطبيعية المتعاقبة– أن برنامج التايبينغ أكثر جاذبية ورُقياً بالنسبة لهم. وبذلك حصل الجيش السماوي على أكثر من 20 ألف أخٍ جديد في هونان، قدموا بالأساس من بين فقراء الفلاحين والعمال وقطّاع الطرق والتِّرياد (عصابة صينية) وغيرهم من الجماعات المهمشة. وسوف نرى فيما بعد أن جماعات الترياد ستنهض بدور داعم هام في المراحل الحاسمة من سنوات التايبينغ.

وبمجرد أن وصل التايبينغ إلى نهر يانغتسي (Yangzi) في وتشانغ (Wuchang)،

تحركوا بسرعة صوب النهر. وفي مارس 1853، استولوا على مدينة نانجينغ الكبيرة شديدة التحصين، وبعد أن أُعِيد تسميتها إلى تيانغين (أو العاصمة السماوية)، أصبحت مقر إدارة التايبينغ لإحدى عشرة سنة تالية. وأثناء خروج جيوش التايبينغ من منطقة قوانغشي، استطاعت هذه الجيوش المدربة تدريباً جيداً والملتزمة التزاماً أيديولوجيّاً أن تكشف عورة قوات تشينغ الحكومية وضعفها في كثير من المعارك التي خاضتها الأولى وخرجت منها منتصرة. فقد استولت قوات التايبينغ على عدد من المدن الكبرى والبلدات الصغيرة على طول الطريق، وابتكروا نظاماً إيمانيّاً ألفيّاً وبرنامجاً ثوريّاً لإعادة التنظيم الاجتماعي والاقتصادي على نحو جذري. وفي ظل نظام التايبينغ، كانت جميع الأموال والمقتنيات الثمينة تُجْمع بطريقة مركزية في «الخزانة المقدسة»، وفُرِضت تعليمات صارمة لمكافحة الفساد والأفيون وتدخين التبغ. وأصبحت العبادات المسيحية اليومية آنذاك إلزامية. ووفقاً لأطروحة التايبينغ المثالية، فإن «نظام الأرض» أو «الأسرة السماوية»، كان يقسم الأراضي حسب عدد أفراد الأسرة، فيحصل الرجال والنساء الذين تزيد أعمارهم عن 16 عاماً أو أكثر على حصص متساوية. وقد سنّ النظام في بادئ الأمر سياسة للفصل بين الرجال والنساء في معسكرات منفصلة لفرض العفة والحفاظ على القوة القتالية للحركة. ولم يظهر آنذاك أي دليل على أن قانون تقسيم الأراضي الراديكالي قد وُضع في حيز التطبيق. فالأفراد المقصودون بهذا القانون كانوا موظفين للدفاع عن مدينة نانجينغ وغيرها من المدن ضد التهديد العسكري المتواصل من جانب القوات الموالية لحكومة تشينغ. ولأن ألفية التايبينغ شكّلت تحدياً خطيراً على العقيدة الكونفوشيوسية، قام النظام القديم تدريجياً بتنظيم مقاومة فعالة لها. وفي نهاية الأمر، فشل المتمردون في الإطاحة بأسرة تشينغ، لكن المتمردين كان مصيرهم الدمار في عام 1864 على يد الجيوش الإقليمية الجديدة، وعلى رأسها جيش شيانغ (Xiang)، الذي جُنِّدَ أفراده في إقليم هونان (Hunan) بقيادة الموظف—الباحث الكونفوشيوسي «تسنغ غوفان»[11] (Zeng Guofan).

الحياة اليومية في المدينة

يتحمل السكان المدنيون في العادة أثناء فترات الحرب مصاعبَ جمة، منها هلاك

(11) سيأتي ذكره فيما بعد بوصفه المهندس الرئيس لعملية إسقاط التايبينغ.

الأرواح والممتلكات، وخاصةً عندما يجدون أنفسهم في خضم المعارك. ولم يكن النزاع المسلح الذي طال أمده وقست مرارته بين التايبينغ وتشينغ استثناءً على هذا السيناريو، إذ أصبحت المدن هي الجوائز الكبرى ومسارح المعركة، وتجاذب الأطراف النزاع للدفاع عن المراكز الحضرية شديدة التحصين والاستيلاء على غيرها. لكن التايبينغ حاولوا تحقيق أكثر من مجرد احتلال هذه المواقع، وسعوا إلى تغيير جذري في النظام الاقتصادي والسياسي، فضلاً عن تغيير العادات الدينية والاجتماعية تغييراً جذرياً وفقاً لقناعاتهم الإيديولوجية. ومن ثم استطاعوا الاستمرار في المدن لبعض الوقت، مثل مدينة وتشانغ (من يونيو 1854 حتى ديسمبر 1856) وأنتشينغ (من يونيو 1853 إلى سبتمبر 1861)، وقد أثّر النظام الجديد على نمط الحياة اليومية بشكل كبير. أما نانجينغ، المدينة الثانية في الإمبراطورية، فشهدت معظم التغييرات الشاملة خلال 11 عاماً من الاحتلال، ولأن طول البقاء أثّر على كل جوانب الحياة اليومية تقريباً، فإن من الضروري أن تقتصر المناقشة هنا على بعض الميزات المهمة في سياق فتوح التايبينغ وتمكينهم واضمحلالهم.

المعركة

قبل أن تبدأ المعركة بمدينة نانجينغ (Nanjing)، فرّ كثير من الناس من المدينة في غمرة الذعر الذي وفرته كثرة الشائعات، وبقي آخرون آملين أن تحميهم التحصينات القوية للمدينة، لكنّ القوات المتمركزة في المدينة لحماية مواطنيها كانت تفتقد إلى الخبرة القتالية، ولوحظ عليهم عدم الانضباط وانخفاض الروح المعنوية. كما ضعفت الثقة في القوات غير النظامية التي حشدت على عجل، وأصبح من غير المستغرب ألا يثق الناس ثقة كبيرة في براعة عسكرييهم المدافعين عنهم، بل وبدلاً من ذلك ومع اعتقادهم بأن العدو يمتلك قدرات خارقة للطبيعة وقدرة على إلقاء رقى السحر الشريرة، سعى الناس إلى تحييد التايبينغ، حيث افترضوا وجود السحر فقاموا بطرد الشياطين المتمردة بعيداً عن طريق إخافتهم بدُمىً كبيرة واصطفاف النساء عاريات على طول سور المدينة، ولم تمنع هذه التدابير التايبينغ من اختراق التحصينات ودخول مدينة نانجينغ في 19 من مارس 1853. وعلى الرغم من أن حامية المانشو أبدت مقاومة شديدة، إلا أنها سرعان ما انهزمت وذُبح من تبقى منهم، بمن فيهم النساء والأطفال، وألقيت جثثهم في النهر، وسُوِّي حي المانشو،

والذي كان يؤوي 25 ألف نسمة، بالأرض تماماً، وسُمِحَ لجنود التايبينغ بعد ذلك أن يستبيحوا المدينة لبضعة أيام فيسلبون وينهبون منازل السكان الصينيين ممن ملأ الفزع قلوبهم، وهو ما دفع الآلاف منهم إلى الانتحار شنقاً أو غرقاً أو حرقاً، وأصبح الانتحار الجماعي بعد سقوط المدينة ظاهرة متكررة في تاريخ الحروب الصينية، لاسيما انتحار النساء خوفاً من التحرش الجنسي من قبل قوات الاحتلال.

الممارسات الاجتماعية الجديدة

وعندما فُرض القانون والنظام على المدينة مرة أخرى، شرَع المنتصرون في تحديد رؤيتهم للمجتمع، فبالنسبة لسكان المدينة الغارقة في التقاليد الكونفوشيوسية، بدا مظهر التايبينغ وسلوكهم مختلفاً جداً عن النواميس والقيم الاجتماعية التي اعتادوا عليها حتى ذلك الوقت. فعلى سبيل المثال، سعى التايبينغ– اتفاقاً مع مبادئهم الدينية– إلى فرض عادات اجتماعية جديدة وأنماط جديدة من السلوك، وسعد المبشرون البروتستانت الأجانب بالتأكيد بالمظهر الديني للمتمردين ومعارضتهم للرق وربط القدم [أي ربط أصابع قدم الفتاة بطريقة معينة حتى لا يتضخم حجم القدم] والدعارة والقمار وقتل الرُّضع فضلاً عن الحظر المفروض على الأفيون والكحول والتبغ. وفي أواخر عام 1853 لخص الكاهن والتر هنري مدهيرست تقديره للسياسات الجديدة قائلاً:

> «يا لها من ثورة أخلاقية أن تحث مائة ألف رجل صيني [في الجيش]، لأشهر بل وسنوات، على التخلي عن التبغ والأفيون والشهوة والجشع، بأن ينكروا أنفسهم فيما يرضيهم بطريقة مشروعة، فهل هناك ما هو أحب إلى قلب الرجل الصيني من الحياة نفسها، من أن يرضى بالعيش بغير دولارات، وأن توزع الأنصبة على الجميع سواء...»

وقد يكون هناك خلل في التدريس، وتكون هناك أخطاء أكبر أو أقل جسامة، وإذا كان ما ذكر بالتفصيل أعلاه– أو حتى نصفه– حقاً فإنها ستكون أعجوبة ذلك الوقت.

وفرض التايبينغ خلال السنوات الأولى لاحتلالهم أنماطاً جديدة من السلوك وأنواعاً كثيرة من المحظورات بصرامة، ليس بين صفوف العسكريين التايبينغ وحسب، بل بين سكان المدينة العاديين كذلك.

التايبينغ والنساء

ربما كان الجانب الأكثر إرباكاً في التايبينغ هو الدور الأكثر مساواة الذي منحوه للمرأة. وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن نساء هاكا في حركة التايبينغ لم تمارس ربط القدم، وهي عادة كانت واسعة الانتشار بين الصينيات في غيرها من الأماكن. وفي جنوب شرق الصين، وقبل اندلاع التمرد، استطاعت نساء الهاكا المشاركة في زراعة الحقول، حتى أصبحن «ذات مهارة في عملهن وصرن يتعاملن مع جاموس الماء بشجاعة ورباطة جأش». وخلال مرحلة حراك حركة التايبينغ، فيما بعد، شكلت النساء وحدات عسكرية منفصلة وشاركن بنشاط في القتال، حتى وصفهن أحد الموالين لتشينغ بقوله:

> «كان من بين قُطّاع الطرق [التايبينغ] مجندات كلهن من أقارب ملوك التايبينغ، ولأنهن جئن من أقليات حقيرة مثل أقلية «ياو»[12] (Yao) وتشوانغ[13] (Zhuang)، فقد نشأن في الكهوف وكن يجرين هنا وهناك بأقدام حافية ورؤوس معممة، حتى يستطعن تسلق المنحدرات الوعرة بسهولة، بشجاعة تفوق شجاعةَ الرجال، وكن يحملن السلاح في ساحة المعركة ويقاتلن في مناطق قريبة، وقد انهزمت القوات الحكومية على أيديهن في هذه المعركة».

وفي عام 1853، برزت هؤلاء النساء بين قومية نانجينغ «المتحضرة»، وكما لوحظ بالفعل، قام التايبينغ بحل نظام الأسرة، وأنشأوا معسكرات منفصلة للذكور والإناث بعد أن أعلنت «المملكة السماوية السلام العظيم». واستمر الفصل بين الجنسين في نانجينغ

(12) أقلية «ياو» هي عرقية متدنية المستوى اعتادت العيش في مجتمعات بالمناطق الجبلية وتتوزع حاليا في أكثر من 130 مقاطعة في الأقاليم الصينية.

(13) هي أكبر الأقليات في الصين، ويقدر عدد أفرادها اليوم بما يزيد عن 16 مليون نسمة.

خلال السنوات الأولى من الاحتلال. فاضطرت النساء المحليات لاتخاذ أماكن لهن في قاعات الإناث، وأزيل الرباط من أقدامهن، إذ «كانت نساء قوانغشي (Guangxi) يقمن بجولات مساء كل يوم لتفقد أقدام النساء الأخريات. ووفقاً لروايات معاصرة، فإن نساء قوانغشي كثيراً ما ألحقن العقاب البدني بالنساء اللاتي لم يُزلن رباط القدم. وتراوحت العقوبة آنذاك بين الجلد المخفف والعقوبة الأشد تغليظاً التي تمثلت في قطع القدم». وسرعان ما اندمجت نساء نانجينغ في قوة العمل النسائية، وقمن بتنفيذ مجموعة متنوعة من المهام، بداية من المساعدة في الاستعدادات الدفاعية وحصاد المحاصيل وحفر الخنادق. ولأن أقدامهن كانت مربوطة قبل وصول التايبينغ، فإن أعمالاً من هذا القبيل كانت لا تزال شاقة، بل ومؤلمة عليهن. وقيل إن الانتحار كان سائداً بشكل خاص بين نساء الطبقة العليا. وكما يوضح «أونو» أنه لا توجد معلومات تعكس آراء زوجات الأبناء– اللاتي تعرضن لمزيد من الاضطهاد التقليدي– في الإجراءات الجديدة وما إذا كن اعتبرنها نوعاً من التحسن والتطور.

وفي النهاية ألغي الفصل بين المتزوجين، وأصبح من الممكن الزواج على أساس الاختيار، لكن الزيجات اللاحقة كانت تتم تحت رعاية الدولة مع تعيين وسيط رسمي للزواج، وهو ما اعتبره المجتمع القديم اقتحاماً واضحاً للشأن الخاص. ولم يعد عُرف المهور الباهظة جزءاً من إجراءات الزواج وصارت تكاليف مراسم الزواج تُدفع من أموال مشتركة. وعلى الرغم من أن قيادة التايبينغ أبقت على عدد كبير من المحظيات، ظل الزواج الأحادي مقدساً لدى عامة الناس، ولاحظ أحد المرتزقة في صفوف خدمة التايبينغ، ويدعى فريدريك ليندلي أوغسطس، ذلك في بداية ستينيات القرن التاسع عشر، وقال في هذا الشأن:

> «رأيت كثيراً من مراسم الزواج تؤدى... فعندما تجتمع رفقة حفل الزفاف، يتوجهون نحو الكنيسة أي «القاعة السماوية»، وبعد كثير من الصلوات وفحص شديد للمعتقدات اللاهوتية للعروسين، يقوم الكاهن بضم يديهما اليمنيين معاً، وعندما يُقبل كل منهما الآخر، يجهر الكاهن بالدعاء الختامي باسم الآب والابن والروح القدس».

وهو ما كان يختلف جذريّاً عن ترتيبات الزواج التقليدي وإجراءاته.

الديانة الجديدة

شرَع السادة الجدد– عقب استيلائهم على نانجينغ– في عرض المسيحية التاييبنغية بحماسة متميزة، فبعد أيام من سقوط المدينة، خُرِّبت المعابد والمزارات البوذية والتاوية في حملة عنيفة لتحطيم معتقدات هذه الديانات. وغدا السكان المحليون مضطرين لقبول الدين الجديد. وكان التحذير العلني إحدى الوسائل الدائمة لتحويل سكان نانجينغ إلى الدين الجديد. ويصف جوزيف إيدكنز، أحد المبشرين بجمعية التبشير بلندن، مناسبة واحدة من هذه المناسبات في مطلع ستينيات القرن التاسع عشر بقوله:

«عندما كنا في الطريق [إلى ميدان مفتوح داخل المدينة] وجدنا حشداً كبيراً من التاييبنغ وسط بحر من الرايات واللافتات الحمراء والصفراء والبيضاء والخضراء– تحملها الريح فوق رؤوسهم، في جمع هائل من الخيول والكراسي المحمولة. وأتى الواعظ على كرسي أصفر كبير، وتحت السماوات المفتوحة، نُصِبتْ منصة مصنوعة من الطاولات المربعة، وطاولة أخرى مغطاة بقماش أحمر وأصفر وقف عليها الواعظ وعليه إكليل كرتوني أصفر، مخاطباً حشداً كله آذان مصغية على مدار عشرين دقيقة... وتحدث بعد الواعظ خطيب في منتصف العمر أكثر بلاغة وأعلى منه رتبة، متناولاً المسائل الأخلاقية والسياسية المختلفة... وبعد الخطبتين، جثا جميع المستمعين على ركبهم، حيث وقفوا على مرج معشوشب أخضر على أرض الاستعراض على شكل نصف دائرة واسعة من اللافتات المتفاخرة، وقد جثوا جميعاً نحو الطاولة حيث ركع القائد الشاب على ركبتيه، وساد الصمتُ الجميع لبضع دقائق، وكأني بهم جميعاً يصلون إلى الآب السماوي، ثم نهضوا ومضوا لحالهم».

وكان المتوقع أن يقوم جميع السكان بأداء صلاة الصباح وصلاة المساء وقراءة الوصايا السماوية من الذاكرة، أما الذين لم يتمكنوا من أداء الصلوات والوصايا فنزل بهم أشد العقاب. وفي يوم السبت، يذهب الناس إلى قاعة العبادة ويصلُّون لـ «شنغدي»[14] (Shangdi) الآب السماوي، ليحصلوا على مزيد من التعليم الديني. فكما هو مدون في نظام الأرض للأسرة السماوية: «في كل دائرة تضم خمسة وعشرين عائلة... وفي كل يوم سبت، يتعين على العرّيفين أن يقودوا الرجالَ والنساءَ إلى الكنيسة، حيث يجلس الذكور والإناث في صفوف منفصلة، وهنالك يستمعون إلى الخطب وينشدون الثناءات ويقدمون القرابين إلى أبينا السماوي الرب الأعلى والإله الأعظم». وحسب ما سبق، يتبين لنا أن العبادة كانت تؤدى بطريقة جماعية وليست فردية، ولم تكن تُستخدم البخور، وهو ما يختلف عن الممارسات المعتادة في المعابد الصينية. وواقع الأمر أن معظم الناس وجدوا ديانة التايبينغ غريبة جدّاً، وشاركوا في هذه الطقوس تحت سيف الإجبار وحسب.

في الوقت ذاته، سعى التايبينغ إلى تغيير مواقف الناس تجاه الموت، فأصبحت شعائر الجنازات أيسر من ذي قبل، الأمر الذي جنّبهم النفقات التعجيزية التي كانوا يتكبدونها غالباً في المدافن التقليدية. أما زعيم التايبينغ البارز خلال السنوات الأخيرة لـ «المملكة السماوية للسلام العظيم» «هونغ رينغان»[15] (Hong Ren›gan)، فكان يرفض ما اعتبره الطبيعة النفاقية للممارسات الجنائزية القديمة:

> «الأكثر غرابة أن الأبناء اعتبروا آباءهم الأحياء أفراداً يمكن الاستغناء عنهم، والأنكى أنهم اتخذوا جثث آبائهم بعد الموت وسيلة للثروة والشهرة، وفي حياة الآباء، لم يكن الأبناء يعطون أبويهم لحماً للطعام أو ملبساً صالحاً لترضية قلوبهم، لكن بعد وفاة الآباء، كان الأبناء يتوسلون إليهم بالذهب والفضة والخنازير والأغنام تظاهراً ببنوتهم. فهل يعتقدون أنهم بذلك قد يعوضون عقوقهم لآبائهم بعد الوفاة؟ أو أنهم يعتبرون وفاة الوالدين وسيلة لتحقيق الحماية وحسن الحظ؟ الخلاصة أنها أفكار

(14) الرب الأعلى في النظام الديني الصيني لأسرة الهان Han.

(15) كان هونغ رينغان ابن عم وجار هونغ شيقوان، القائد الأعلى للتايبينغ، والذي أشعل شرارة التمرد بعد سلسلة من الرؤى والأحلام التي رأى نفسه فيها ابناً للرب أرسله لإنقاذ الصين.

سخيفة في مجملها».

وفي ظل نظام التايبينغ في نانجينغ، كان الميت يُدفن في نعش غير ثمين، لكنه كان يُلف في لفائف بسيطة من القماش. ثم فرضت سلطات التايبينغ ترتيبات الدفن الجديدة بصرامة، فتراهم يكسرون التوابيت ويحطمون ما يجدونه من أشياء خاصة بدفن الموتى، وألواح الروح الخاصة بالميت الساكنة في حجرات الأجداد. وكانت هذه التقاليد- في نظر شعب نانجينغ المحافظ- بمثابة تدنيس للمقدسات يعود بأوخم العواقب على أرواح من تعرضوا لسوء المعاملة، ودافعاً حتمياً لهم للانتقام.

سقوط عاصمة التايبينغ

وعلى الرغم من أن دوافع التايبينغ في محاولاتهم لتغيير السلوك البشري كانت صادقة، فإنها مالت إلى تنفير السواد الأعظم من الناس الذين كانوا في صراع بين الخير والشر. وظل المتمردون، وكان جُلهم من الهاكا، مثلهم مثل الغرباء، بينما شعر السكان المحليون بالتهديد بسبب غرابة مظهرهم ولهجتهم غير المفهومة ونسائهم اللائي تميزن بالأقدام الكبيرة، والشعر غير المصقول. وقد شعر سكان نانجينغ باستياء كبير بسبب تعرضهم لذلك الإصلاح الشامل، إذ تصوروا أن طريقتهم المعتادة في الحياة تغيرت تغيراً شديداً، حيث «توطنت المقاومة السلبية للتايبينغ وشاع الهرب والتجسس والانضمام إلى أسرة تشينغ». وتسارع تدهور الأوضاع الاقتصادية في المدينة بشكل كبير، عندما كثفت القوات الإمبراطورية حصارها لمدينة نانجينغ في أوائل ستينيات القرن التاسع عشر. وكان أحد العناصر المهمة في إستراتيجية «تشينغ هو» هو قطع جميع خطوط الإمداد قبل شن الهجوم النهائي المنسق. وفي نهاية الأمر، قُطِعت إمدادات الغذاء إلى العاصمة السماوية بشكل كبير، وصارت الإمدادت لا تأتي إلا على ظهور البغال من أماكن قليلة في إقليم جيانغسو (Jiangsu). وعندما شارفت المدينة على السقوط في أيدي قوات تشينغ في أوائل صيف عام 1864، كانت بقية السكان في حالة يرثى لها حقّاً. في ذلك كتب قائد التايبينغ العسكري «لي شيوشنغ» (Xiucheng)، وهو الوحيد الذي بقيت له بعض القدرة:

«لقد زادت المتاعب اليومية للناس في العاصمة، فاحتشد الفقراء رجالاً

ونساء أمام بوابات [القصر] كي يتسولوا ما يحفظ عليهم حياتهم. ولم تكن هناك أموال ولا حبوب في خزينة الدولة، ولم تكن شؤون الدولة في يدي حينئذ، لكنني عندما رأيت هذا الحشد من الناس وقد انخرطوا في بكاء مرير، لم يعد أمامي خيار سوى توزيع الحبوب المخزونة في بيتي لإنقاذ فقراء المدينة».

ولما نفد هذا الزاد، توسل «لي» زعيمُ التايبينغ إلى هونغ ليسمح للشعب بمغادرة المدينة، لكن الملك السماوي أصدر مرسوماً قال فيه: «على جميع أهل المدينة أن يأكلوا المَنَّ، فهذا يبقيهم على قيد الحياة»، وذلك بغض النظر عما إذا كان لذلك خلفية توراتية في ذهنه (سِفْر الخروج، 16) أو كان يشير إلى الطعام المتعارف عليه في المجاعة، والذي يتألف من جذور بعض الحشائش أو الأعشاب الضارة. ويتلخص الأمر ببساطة في أنه لم يكن هناك ما يكفي لإبقاء الناس على قيد الحياة في عاصمة التايبينغ. لذلك، سمح «لي» لبعض الذين تضوروا جوعاً، في تمرد على الأمر المعلن لهونغ شيقوان، بمغادرة نانجينغ، قبل أن تستولي عليها قوات تشينغ. وتردد أن ما يُقدر بمائة وثلاثين ألفاً من السكان نجوا في هذا الوقت. وهكذا كان عدد سكان المدينة قد تآكل عشية الهجوم الأخير إلى نحو ثلاثين ألفاً بعد أن كانوا نحو تسعمائة ألف عام 1852.

أما الذين تخلفوا عن الخروج، فكان الأسوأ في انتظارهم. فبعد أن هُزِمَ التايبينغ، تقاطر جنود تشينغ في هياج ومياج، فنهبوا ما عثروا عليه وقتلوا من بقي من سكان القرية دون تمييز، حتى أن أمين سر تسنغ غوفان، الذي كان اسمه «تشاو لِيوِن»، أشار في مذكراته إلى سلوك جيش شيانغ الوحشي بعد سقوط العاصمة السماوية بقوله:

«كان متمردو إقليمي قوانغدونغ (Guandong) وقوانغشي (Guangxi) ممن تسللوا عبر سور المدينة من جميع الأطراف لا يُحْصونَ عدداً. وكانت تسعة أعشار الجثث الملقاة في الشوارع من كبار السن والأطفال دون الثانية والثالثة- ذُبحوا للمتعة وبقيت جثثهم مُسجَّاة على طول الطرق ولم تبق هناك امرأة واحدة دون الأربعين من العمر».

ولم تخطف القوات الموالية لتشينغ نساءَ التايبينغ فحسب، لكنها خطفت كل الفتيات والنساء اللائي كن يسكنّ في ضواحي نانجينغ، وأُخذَت معظم هؤلاء الأسيرات في وقت لاحق إلى هونان، الإقليم الأم لـ «جيش شيانغ»[16] (Xiang).

وقد وصف نائب القنصل البريطاني في الموانئ المفتتحة حديثاً في تشنجيانغ (Zhengjiang)– توماس آدكنز– أثناء زيارته لنانجينغ على سفينة «إتش إم إس سلاني» بعد يوم أو أكثر من استيلاء قوات تشينغ عليها– «الخرابَ التام الذي نزل بكل ما هو داخل الأسوار» بعبارات هي الأقل مدحاً للتايبينغ:

> «أعتقد أن رحلة عبر شوارع نانكين، كما هي في الوقت الحاضر، تُرضي أكثر المتحمسين للدفاع عن قضية المتمردين، بسبب الخواء المروع الذي يتمتع به النظام الذي ساندوه. فقبل أحد عشر عاماً، استولى التايبينغ على نانكين– التي كانت واحدة من أجمل مدن الصين، وأصبحت منذ استيلائهم عليها مقراً لهم، وفيها بنى رؤساء الحركة منازل مبهرجة، ومنها أرسلوا عصابات النهب في كل صوب، وأُهْملت أعمال الحكومة المدنية والتنظيم الاجتماعي إهمالاً تامّاً، وعندما اسْتُعيدتْ المدينة كانت مثل البَرِّيَّة ذات المنازل المهجورة، وقد ماتت نانجينغ القديمة بالفعل».

الحياة اليومية في شنغهاي

بدأ نزوح السكان المحليين من نانجينغ والمناطق المجاورة لها قبل ذلك بكثير، وعلى الرغم من أن بعض الناس تمكنوا من مغادرة المدينة قبل فتح التايبينغ لها أو فور اقتحامهم إياها، فإن بعضهم الآخر تعرض للطرد فيما بعد على يد المتمردين. ذكر ذلك «فرانسوا دي بلاس»، قائد السفينة الحربية الفرنسية «كاسيني» الذي زار المنطقة في أوائل ديسمبر 1853:

(16) جيش نظمه زينغ غوفان من قوات المليشيا الموجودة بالقرى والمناطق المجاورة لاحتواء تمرد التايبينغ.

«ألهمتني تلك البلدة- التي طالما تمتعت بالازدهار- بمشاعر حزن مماثلة لما يشعر به المرء إذا زار أطلال بومباي. فالمنطقة المغلقة التي تلفها الحصون كانت هائلة، لكنني أشك في أن تكون ثلث تلك المساحة مأهولة بالسكان، وكانت المتاريس التي لم تزل في حالة جيدة، تُطوِّق تلالاً مغطاة بالأشجار لا تستطيع أن ترى فيها بيتاً واحداً».

ونتيجة للحملات العسكرية المتكررة على المنطقة السفلى لنهر يانغتسي بعد عام 1853، تدفق عشرات آلاف المشردين من نانجينغ والمناطق المحيطة إلى المدن الكبيرة في منطقة جيانغنان (Jiangnan)، التي لم تكن تضررت بعدُ بالنزاع. ونظراً لما تمتعت به شنغهاي من مكانة خاصة، فقد أصبحت مكاناً جذاباً للأغنياء والفقراء على السواء. فَفُتحت رسمياً بصفتها ميناء بموجب معاهدة نانجينغ لعام 1842، وبعد ذلك بقليل، بدأت أولى جموع التجار الأجانب تصل إليها وأقاموا خارج المدينة القديمة المحاطة بالأسوار، فيما أصبح يُعرف بـ «المستعمرات» الأمريكية والبريطانية والفرنسية. وحتى أثناء الصراع بين جمعية السيف الصغير (Small Sword Society)، التي كانت تسيطر على المدينة المحاطة بالأسوار بين 1853 و1855، وقوات تشينغ الإمبراطورية- كانت الحياة في المستعمرات الأجنبية هادئة وآمنة نسبياً. ومن ثم بدأت أعداد كبيرة من اللاجئين المعدمين في الاحتشاد في شنغهاي، حيث كانوا يترددون على مطابخ الحساء أملاً في العثور على عمل بسيط كـ «حاملي طعام» أو الانضمام إلى حشود المتسولين التي تزايدت على نحو غير مسبوق.

في هذه الفترة من الصراعات المسلحة المتكررة، سعى الأثرياء من التجار الصينيين إلى الحصول على الحماية من الأجانب القاطنين بالمستعمرات ضد عمليات السلب التي شنها المتمردون الموالون لتشينغ أثناء «انتفاضة السيف الصغير»[17] وبين عامي 1860 و1862. وعندما هددت قوات التايبينغ بالهجوم على مدينة شنغهاي، ترك أغنياء الصين أموالهم وممتلكاتهم وزوجاتهم وأطفالهم والمحظيات في أيدي الأجانب لحفظهم، حسبما جاء

(17) انتفاضة السيف الصغير أطلقتها «جمعية السيف الصغير» في عام 1853 في شنغهاي، استولت الجمعية من خلاله على الإقليم، وتعتبر هذه الانتفاضة أول كفاح موسع ضد الإقطاع تشهده شنغهاي.

في رواية تاجر بريطاني بارز اسمه كويكر توماس هانبري:

«كان أثرياء الصين يطلبون مني دوماً أن أساعدهم في إدارة ممتلكاتهم وأن أعمل لصالحهم وأصبح وصيّاً على أمورهم كلها... وبالفعل أصبح تحت تصرفي في اليوم التالي قرابة العشرين سنداً تشمل ملكية أراضٍ وعقارات ومنازل ومخازن، زادت قيمتها الإجمالية عن خمسين ألف جنيه قليلاً... ولا أشك أنه إذا حدث هجوم سأجد أكثر من مائتين رجل وامرأة وطفل حولي هاهنا».

وقد توسّل رجل من الأثرياء الذين فروا إلى المستعمرات إلى «توماس هانبري» كي يشتري له علماً أجنبياً كبيراً حتى يعلقه على عمود خيزران في منزله. وطلب هذا الثري من التاجر أن يستأجر له أربعة بحّارة أجانب لجلب حراس إلى منزله الريفي بالقرب من شنغهاي «لترهيب الشخصيات الشريرة.» مع ذلك، كان على البحارة أن يتسلحوا بالبنادق «غير المزودة بالرصاص خشية أن يكونوا في حالة سُكْر ويطلقوا النار على الأصدقاء والأعداء». وقد تركت العلاقات بين الصينيين والأجانب الكثير من الأشياء المرغوب فيها. هكذا علق هانبري في رسالة إلى شقيقه عن سلوك القوات البريطانية والفرنسية في وقت مبكر من ستينيات القرن الثامن عشر.

ظهرت بعض المشاهد المروعة في البلاد المحيطة بعد الاشتباك الأخير [بين القوات الأجنبية والتايبينغ]. فكان الجنود الإنجليز والفرنسيون أقرب في تصرفاتهم من الوحوش أو الشياطين منهم إلى المسيحيين، حيث أصبحوا أصبحوا فاسدي الأخلاق وصارت انتهاكاتهم أمراً شديد الشيوع في مستعمرتنا، بينما دعا بعضهم إلى إعلان الأحكام العرفية لكبح جماحهم.

وبالمثل، واصل الأجانب الذين عدموا ضمائرهم بيع الأسلحة والبارود للمتمردين «لتحقيق أرباح هائلة، وكانت البيوت الأولى في المكان الذي لا يعتبرونه تحت سيطرتهم

[أي التايبينغ] تقوم بشراء الحرير (زهيد الثمن) الذي سرقوه من الشعب البائس». وكانت علاقات هانبري الودودة مع مجتمع التجار الصيني غير مألوفة نوعاً ما، فخلافاً للكثير من الأجانب الجشعين، قام هانبري بردِّ جميع ما عُهِدَ إليه إلى أصحابه الصينيين بعد مرور الأزمة. ورداً لهذا الجميل، أمطره الصينيون بالهدايا الثمينة وفضلوه على منافسيه في مجال الأعمال.

الحياة اليومية على طول النهر

وكما كانت الحال في أماكن أخرى من الصين التي أتت عليها الحرب، انتشر التدمير في مظاهر الحياة والممتلكات على نطاق واسع بطول مجرى نهر يانغتسي. فقبل اندلاع حركات التمرد في منتصف القرن التاسع عشر، هيمنت على النهر العظيم بكل روافده ومجاريه المائية الاصطناعية- حركةٌ نشطةٌ من السفن الشراعية والقوارب التي سهلت عبور التجارة في جيانغنان، أكثر مناطق الصين ثراءً، وما وراءها. ولوحظ أن التايبينغ أنفسهم هُرعوا إلى نهر يانغتسي من وتشانغ إلى نانجينغ في أسطولهم الكبير عام 1853، لكنَّ سيطرة التايبينغ على أقاليم يانغتسي من ناحية والسباق العسكري الوحشي بين المتمردين والقوات الموالية لأسرة تشينغ من ناحية أخرى، كان لهما أثر ضار على معظم وسائل التواصل وسبل معيشة السكان على طول النهر. وبعد عام 1853، لم يعد ممكناً شحن الحبوب من فائض خراج أقاليم الصين الوسطى سنوياً- على طول نهر يانغتسي والقناة الكبرى- إلى عاصمة الإمبراطورية. واضطر ذلك مئات الآلاف من البحارة المعدمين وعمال القناة إلى الانضمام إلى صفوف العاطلين عن العمل، وفشا الانتحار وقتل الأطفال. وأصبحت الممرات المائية في وادي يانغتسي السفلي وسيلة غرق هادئة للأسر الفقيرة للتخلص من أطفالهم الرضع وخاصة الإناث، بعد أن ضاق الآباء ذرعاً بنفقات تربيتهم، وطفت على إثر ذلك جثث لعدد لا يُحصى على طول القنوات والأنهار في هذه المنطقة التي لا تزال لا تعرف الازدهار حتى الآن.

وقد لاحظ ضابط الجيش الإنجليزي جارنت ولسلي هذه الحالة المحزنة على طول النهر بالقرب من مدينة نانجينغ عام 1861، فقال:

«على ضفتي النهر، كانت هناك أعداد كبيرة من القرى المبنية من القش، والتي يمكن رؤيتها الآن، أقامها اللاجئون البائسون على عجل ضمن محاولاتهم كسب قوت يومهم من صيد الأسماك أو من أي عمل محلي يحصلون عليه. وفي جميع الأماكن، التي أتيحت لنا زيارتها، كان الأسى والبؤس المرتسمان على وجوه السكان يفوق كل وصف، فتزاحمت عائلات كبيرة في أكواخ صغيرة دانية تشبه الخيام، مصنوعة من القصب، تتسلل من جنباتها رياح باردة تُصدر صفيرها في أنحائها... وكان سكانها يرتدون خِرَقاً بائسة، ويلتصقون بعضهم ببعض للحصول على الدفء. وبدا العجزةُ مطأطئي الرأس لا يقدرون على العمل لما حلَّ بهم من ضعف، في وقت أصبح ذلك التعبير عن المجاعة– الذي لا ينساه قطّ أولئك الذين شاهدوه ولو مرة واحدة– بادياً للعيان على أوجه الأطفال وملامحهم الهزيلة. وبالنسبة للكثيرين، كان شغلهم الشاغل هو عدد الأيام المتبقية في حياتهم، في وقت بدت حياة الكثيرين مجرد لحظات معدودة».

ولم تكن هذه الحالة استثناء على أي صراع عسكري طويل المدة، فكان هناك أفراد يسعون إلى الربح على حساب الدمار والمعاناة. وعلى الرغم من أن كلاً من الموالين لتشينغ والتايبينغ أقاموا حواجزَ على طول نهر يانغتسي وغيرها من الممرات المائية لمنع الموارد الحيوية من الوصول إلى الطرف الآخر، انتشر التهريب منذ البداية. وكانت قوافل السفن الشراعية الصينية والقوارب تحمل سرّاً الأرز والملح وغيرهما من السلع عن طريق خطوط العدو مع توقع جزيل الجزاء على جهدهم هذا. وبينما تورطت العديد من العصابات الإجرامية في عمليات التهريب، سرعان ما أصبحت هذه الأعمال ممارسات تطير لها الرقاب وشاعت القرصنة والقتل على طول النهر.

وخلقت الحرب الأهلية الطويلة فرصاً تجارية جديدة وأرباحاً للتجار الأجانب، لاسيما من خلال بيع الذخائر للإمبراطورية ولقوات التايبينغ. وأصبح بيع الذخائر في مطلع عام 1853 تجارة رابحة حولت الكثير من التجار إلى مغامرين، واستغل كلٌّ من المتمردين

والتشينغ، المستعمرة البريطانية في هونغ كونغ لاستئجار الجنود المحظوظين وشراء الأسلحة والسفن الغربية. ومن ثم قام مسؤول تشينغ الرسمي «وو جيانجانغ» باستئجار ثلاثة عشر قارباً برتغاليّاً وأربع سفن تجارية أميركية وبريطانية، مزودة بالمدافع كانت تُستخدم للقيام بدوريات على الممرات المائية في المناطق القريبة من شنغهاي.

وتغيرت الحياة على ضفاف نهر يانغتسي جذريّاً بعد افتتاح الموانئ النهرية في هانكو وجيجانغ وتشنجيانغ عام 1861، وسيطرت البواخر المملوكة للأجانب على حركة التجارة على طول النهر حتى هانكو الواقعة تحت الحماية الأجنبية، والتي لم تتضرر من التحديات التي فرضتها سلطات التايبينغ أو تشينغ بشكل عام. أما وصول المرتزقة الأجانب والأسلحة الحديثة والبواخر، فشكّل تحدياً لأسلوب الحياة القديم في ظل التغيرات الثورية التي فرضها التايبينغ.

ومع ذلك، ظلت هناك إشكالية أخرى تتعلق بالوجود الأجنبي على ضفتي نهر يانغتسي. فإضافة إلى عدد صغير من البواخر، كانت البيوت التجارية الأجنبية في شنغهاي تسيّر مئات السفن الشراعية الصينية في هذا النهر العظيم. وكان الكثير من هذه السفن مسجلاً لصالح إحدى القنصليات الأجنبية ويعمل تحت إمرة أشخاص أجانب ويرفع علماً أجنبيّاً. وبفضل التجهيزات المتقدمة لهذه السفن، استطاعت اختراق القوات المحاصِرة في كامل الأراضي المحتلة من قِبل التايبينغ. وكانت المراكب السكنية الصينية المسلحة تسليحاً جيداً تقوم بجزء من هذا الحصار، إذ كان على متن كل منها ما لا يقل عن اثنين أو ثلاثة أجانب. وبالإضافة إلى نقل الثروات والأفيون وغيرها من البضائع عالية القيمة، كانت هذه المراكب السكنية ترافق السفنَ الشراعية التي تحمل المحاصيل إلى داخل البلاد عبر نهر يانغتسي إلى شنغهاي. وكانت هذه المرافقة عملاً محفوفاً بالمخاطر حيث لم يكن مسؤولو تشينغ يعترفون بالمعاهدات التي تحض على حفظ حقوق الأجانب الذين يمرون عبر خطوطهم إلى المناطق التي سيطر عليها المتمردون. وفرضت سلطات تشينغ والتايبينغ سيطرتها على قطاعات معينة من النهر، ودانت لهم– وفقاً لما ذكره وليام ميسني– قائد إحدى السفن المخصصة للالتفاف حول الحصار، وأنشأوا دُوراً للجمارك على جميع الخلجان الصغيرة والبلدات الواقعة على طول النهر لجباية الرسوم أو ممارسة الابتزاز على من يمر بالنهر ذهاباً أو إياباً. ولذلك أصبح ضرباً من المخاطرة التنقل في قوارب محلية،

إذ كان يُستولى على العديد من المواقع لمرات عدة في الشهر الواحد، ووجد الناس ممن يرافقون شحنة ما من أجل الإمبراطوريين [التشينغ] في بعض الأحيان أنهم أصبحوا في صفوف المتمردين الذين أبعدوا الإمبراطوريين من قبلُ.

واشتكت السلطات البريطانية في الصين كذلك من أن كلّاً من المسؤولين الحكوميين ومسؤولي التايبينغ يحتجزون السفن الشراعية التي ترفع العلم البريطاني من أجل الحصول على الفدية. فقد استولى مسؤولو تشينغ مثلاً في شهر مايو 1862 على كثير من السفن الشراعية البريطانية، بما فيها تلك الراسية في إقليم هيلونغجيانغ Heilongjiang (يُسمى نبتون Neptune في المصادر الرسمية البريطانية). واعتُقل أفراد من طاقمها الصيني، وعندئذ أنذر ربانها ويليام ميسني السلطات القنصلية، وتدخل زورق حربي للاستيلاء على خمس من سفن تشينغ الحربية واحتفظ بها لحين إطلاق سراح هؤلاء السجناء ودُفِعَت التعويضات عن الممتلكات التالفة والمفقودة.

وبعد بضعة أشهر، وتحديداً في نوفمبر 1862، قُبِضَ على ويليام ميسني (William Mesny) على يد حلفاء التايبينغ– وهم الترياد الناطقون باللهجة الكانتونية[18]، في وقت كان يمر فيه موكبه الشراعي عبر فوشان في منطقة يسيطر عليها المتمردون على مقربة من تشنجيانغ، وبعد احتجاز ميسني لعدة أشهر، أُفرج عنه أخيراً في مطلع عام 1863 نتيجة لشكاوى القنصل البريطاني والضغط العسكري.

وكان التايبينغ أنفسهم حريصين على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع الأجانب، وهو ما تجلى في مناسبة أخرى، عندما ذهب أدكنز إلى نانجينغ للمطالبة بالتعويض عن نهب السفن الشراعية البريطانية. ووفقاً لما ذكره نائب القنصل، سُوِّيت القضية على الفور عبر مسؤول التايبينغ:

> «جُلبت الكثير من الفضة التي وُزنت في حضورنا. وأثناء المحادثة قال [مسؤول التايبينغ] إن الجندي المتمرد الذي نهب السفن الشراعية اعْتُقل بناءً على أوامره وسَيُقطع رأسه، فاحتججتُ بأن أي إجراء من هذا القبيل

(18) اللهجة الكانتونية هي إحدى ثماني لهجات إقليمية في الصين فضلاً عن لهجة الماندرين، وتنتشر في أقاليم غواندونغ وهونغ كونغ وماكاو وغيرها، وتعتبر اللهجة الأكثر نفوذا في جنوب الصين.

لا ضرورة له. وتوسلتُ إليه أن يُطلقَ سراح ذاك البائس الفقير ولم أكد أنتهي من حديثي حتى أتى زميل له يختال في مشيته، عاري الذراعين حتى كتفيه يحمل سيفه المضرج بالدماء».

وبعد أن أعلن هذا الجلاد أن رأساً قد قُطعتْ، سار «إلى خارج القاعة والدم يقطر من سيفه».

وعلى الرغم من أننا نستطيع القول إن كلّاً من المسؤولين الحكوميين وسلطات التايبينغ كانوا يسعون إلى حرمان الطرف الآخر من الموارد الحيوية، فإن الواضح أن الكثير من الأجانب استخدموا وضعهم المميز الذي تمنحه لهم المعاهدات المعمول بها، عوناً للمشاركة في جميع الأنشطة المشينة. وفي وقت كانت بعض السفن الشراعية ترفع أعلاماً أجنبية وطنية، وبعضها الآخر يستخدم وسائل مختلفة لإرباك السلطات الصينية. وقد كتب إدوارد فرانكلين، قائد سفينة «إتش إم إس بانترر» (H.M.S. Banterer)، إلى رؤسائه في شهر يونيو 1862 يقول:

«أحيطكم علماً بأن وجود نظام من السفن الشراعية البريطانية والقوارب التي تنقل السفن الشراعية، من خلال سماحنا لها أن ترفع رايات برلماناتها هو الوضع السائد على صفحة النهر. وغالباً ما تكون السفن الشراعية في القافلة محملة بالملح، ولذلك فمن خلال راية البرلمان ومتابعة هذه السفن عن كثب بواسطة القوارب الموجودة تحت بصر القوات المسلحة البريطانية، تستطيع هذه السفن التهرب من الاحتجاز ودفع الرسوم في الجمارك التابعة للمتمردين، وأتصور أنه يمكنها عن طريق تلك الوسائل نفسها التهرب من الجمارك الإمبراطورية، التي غالباً ما يُفترَض أنها مملوكة للسلطات البريطانية بسبب الراية».

كان هؤلاء هم «الأوغاد الأجانب»، وكانوا الجناة في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى ضحايا القرصنة والقتل، وهم الذين أثاروا غضب نائب القنصل البريطاني توماس آدكنز. فقد سنحت لآدكنز فرصة ممتازة لمراقبة الجانب المظلم من الحياة في النهر من مقره

المؤقت بجزيرة الفضة بالقرب من تشنجيانغ، وكذلك أثناء رحلاته العرضية في السفن الحربية البريطانية في نانجينغ التي يسيطر عليها التايبينغ.

وقد أتاحت عمليات التهريب لأفراد معينين فرصاً مواتية لجني أكبر قدر من المال في وقت قصير للغاية عن طريق تسيير شحنات من الأسلحة والذخيرة والملح والأرز إلى نانجينغ وغيرها من الأماكن. ومع ذلك كانت المخاطر كبيرة بالقدر نفسه، فكان النهر يعج بالقراصنة الصينيين والأجانب المتجرئين، الذين لم تكن حرفتهم تميزهم عن غيرهم ممن هم على متن السفن الصينية. وقد حقق آدكنز- بصفته القنصل البريطاني- في العديد من حوادث النهب والقتل على طول النهر. ففي حادث شنيع، قام الطاقم الكانتوني التابع لزورق أجنبي بقتل سيدٍ أمريكي وزوجته الصينية وطفلهما الرضيع، وتمكن من الهرب بمبلغ كبير من المال. وفي مناسبة أخرى، وخلال زيارة لمدينة نانجينغ، قابل آدكنز أمريكيّاً روى له بمزيد من الغبطة تعاملاته مع المتمردين فيما يخص الأسلحة وأمور أخرى، وذكر أنه حصل على الكثير من المال لدرجة أنه بعد رحلة واحدة استطاع أن يبيع قاربه وأن يعود إلى نيويورك حيث سيعيش- كما يقول- «كرجل نبيل». وفي ذلك الصباح، جاءني أحد أصدقائه وقدم لي صدرية وزوجاً من الأحذية جميعها كان غارقا في الدماء... ولم يساورني شك حينئذ في أن يكون الزميل غير المحبوب قد قُطِعَت رقبته وأن مكاسبه غير المشروعة قد سُلِبت منه.

ولم يجعل وجود المغامرين الأجانب من النهر مكاناً أكثر خطورة لعامة الناس فحسب، وإنما عرقل قدرة الموالين لأسرة تشينغ على قمع المتمردين التايبينغ. ومن ثم ففي محاولة لفرض إستراتيجية تهدف إلى قطع جميع خطوط الإمداد الواصلة إلى نانجينغ، اشتكى تسنغ غوفان في عام 1863 من أن المهربين الأجانب يواصلون استعمال نهر يانغتسي ويجلبون المواد الغذائية والذخيرة إلى التايبينغ المحاصرين، فأحيا ذكرى العرش حتى يطلب من وزراء بريطانيا وفرنسا في بكين تقييد التجارة الخارجية مع نانجينغ حتى بعد استعادة القوات الإمبراطورية للمدينة، وعلى الرغم من أن الدبلوماسيين في نهاية المطاف وافقوا على الحصار، فإن الخروج على القانون على طول نهر يانغتسي بعد هزيمة التايبينغ بدأ يهدأ.

الحياة اليومية في المناطق الريفية في الصين

كانت سيطرة التايبينغ في مجملها أقل انتشاراً في القرى وسط الصين عما هي عليه في المدن. ومن ثم لم تتأسس «يوتوبيا» (مفهوم فلسفي يُشير إلى المكان الذي يبدو فيه كل شيء مثالياً ولايُوجد في أي نوع من أنواع الشرور) الفلاحين في المملكة السماوية، لكنهم حصلوا على الكثير من المزايا خلال السنوات الأولى للتمرد، فقد كانت الضرائب التي يحصّلها التايبينغ أقل من تلك التي فرضها تشينغ. وقد لاذ العديد من الملاك بالفرار قبل تقدم المتمردين، مما خفف العبء عن المستأجرين حيث لم تكن الإيجارات قد حُصّلت بعد. وفي هذا الوقت، اكتسب «شي داكاي»، وهو أحد القادة البارزين في بداية حركة التايبينغ، سمعةً طيبة باعتباره قائداً عسكريّاً بارزاً ومديراً خلال حملاته على جيانغشي وأنهوي. وفي هذا الصدد، وصف أحد بائعي الكتب الصينيين احتلال التايبينغ لمسقط رأسه مدينة «فوغو» Fuzhou (غيانغشي Jiangxi) في يوم 28 مارس 1856 قائلاً:

«أرسل التايبينغ بعد ذلك دوريات من الجنود إلى البلدات والقرى حاملين لافتات... وتجمّع على وجه السرعة فيلقٌ من المتطوعين يضم قرابة عشرة آلاف متطوع، أخذ كل واحد منهم– إلى جانب المأكل والملبس– مائة من النقد عن كل يوم. وعُيِّن ضباط مدنيون في مدن الأقاليم وأحيائها... ودُعي النبلاء المحليون إلى التعاون ورُقِّيَ بعضهم إلى الوظائف التي تستدعي الثقة، في حين أن كثيراً من العلماء كانوا يُزَودون بالعمالة بصفة مساعدين أدبيين... واكتسب التايبينغ حسن ظن الشعب من خلال خفض الضرائب المفروضة على الشعب إلى النصف عن طريق منع مُؤيديهم من قتل الماشية المستخدمة في الزراعة، وإنزال عقاب عاجل يماثل عقاب المدان في أعمال عنف. وعلى عكس ذلك، فقد انغمس الاستعماريون [التابعون لـ «تشينغ»] في فسق جامح وقتلوا ماشية سكان الريف وَسَبَوا زوجاتهم وبناتهم، وابتزوا أكابر القوم من خلال ما عُرف بنظام «المساهمات»».

وقد نُشرت الرواية المذكورة أعلاه بمرور الوقت، وأضحت حركة التايبينغ على وشك فقدان أحد أقدر قادتها، نتيجة للصراع الدموي بين الأشقاء في صفوف القيادة في نانجينغ عام 1856. وفي أواخر مايو 1857، انشق «شي دكاي» بكامل جيشه الذي قيل إن قوامه بلغ مائتي ألف رجل، فقاد قواته في السنوات التالية عبر أقاليم جيانغشي وهونان ومنطقة قوانغشي وقويتشو وسيتشوان، حيث ألقي القبض عليه وأعدم في عام 1863.

وفي أعقاب «أزمة القيادة» عام 1856، تخلت حركة التايبينغ عن عملية إعادة الهيكلة الجذرية للمجتمع الريفي على النحو الوارد في «نظام الأرض للأسرة السماوية»[19]. ولأن المتمردين كانوا غير قادرين على حكم الريف المترامي الأطراف، فقد اعتمدوا على توفير الخدمات الإدارية للسكان المحليين. ونتيجة لذلك، كان هناك نوع من التواصل بين المجتمع المحلي تحت حكم تشينغ وبين المجتمع المحلي تحت حكم المملكة السماوية. ومع ذلك، وخلال السنوات الأخيرة من حكم التايبينغ، حدثت تغييرات في الريف مالت كلها إلى تعزيز استفادة الفلاحين من النخبة التقليدية المحلية. ومن ثم عندما أخضع التايبينغ مناطق جيانغنان الشرقية الوفيرة لإدارتهم عام 1860، أضعفت حركات مقاومة الإيجارات موقفَ الملاك. وفرض التايبينغ– علاوة على ذلك– تخفيضات في الإيجارات وابتكروا ترتيبات ضريبية جديدة في بعض الأماكن، مما خفف من العبء الواقع على الريفيين العاديين.

وبينما تحسنت الأوضاع الاقتصادية للفلاحين بعض الشيء في بعض مناطق جيانغنان التي احتلها التايبينغ، أصبح عامة الناس على استعداد للترحيب بالمتمردين، الذين سبقتهم شائعات قوية عن جشعهم وطرق الشر العديدة التي يسلكونها. وكما تبين حالة جيش «باو لي شِنغ» (Bao Lisheng) الصالح في دونغان (Dongan)، شعر القرويون البسطاء كذلك بقلق عميق من التغيرات الكارثية التي قد يفرضها المتمردون على حياتهم اليومية، وخاصة فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية والشعبية. وعندما غزا التايبينغ مقاطعة «شاوشينغ» (Shaoxing) بإقليم جيجيانغ (Zhejiang) عام 1861، استنكر باو لي شِنغ، وهو عامل بسيط، موقفهم المناهض للبوذية دون هوادة. ودعا باو بشدة إلى حمل السلاح دفاعاً عن المصالح المحلية في وجه قسوة التايبينغ ودمارهم الوحشي، وساعده في قضيته تدفقُ الآلاف من اللاجئين إلى قريتهم باوكُن، حيث فروا قبل تقدم الجيش السماوي. ومنذ أن اتخذ باو لنفسه اسماً يصفه بأنه سيد الفنون القتالية «المنجزة»، لم يأت اللاجئون بحثاً عن ملجأ، بل كانوا على قناعة بقواه الخارقة للطبيعة. وبعد صمود دام عدة أشهر في وجه الهجمات التي شنتها قوة ساحقة من المتمردين، سقطت قرية باوكُن أخيراً في نهاية

(19) يمثل «نظام الأرض للأسرة السماوية» جوهر البرنامج الزراعي للتايبينغ، والذي تعهدوا بمقتضاه بتوزيع جميع الأراضي على أفراد الشعب ممن تجاوزوا السادسة عشرة دون تمييز على أساس النوع، ويرى نظام الأرض أن جميع الأراضي الواقعة تحت الشمس يجب زراعتها على نحو مشاع يشارك فيه جميع الناس من كل الفئات.

شهر يوليو 1862. وكما يقول جيمس كول: «لا يمكن للقرية أن تتراجع أبداً أمام حصار التايبينغ، وما دامت قد فعلت ذلك، فإن قوات التايبينغ نفسها لم تعتقد في قوى لي شنغ الخارقة للطبيعة».

وحسبما تشير الروايات المتناقضة من جيانغنان، فقد ظهرت حالة معقدة في الريف الذي يحتله التايبينغ، وأصبح الموقف العسكري أكثر يأساً من أي وقت مضى في بدايات ستينيات القرن التاسع عشر. وبدأ الانضباط العسكري للتايبينغ في الانهيار. وفي مواجهة تزايد الضغوط العسكرية وتراجع الموارد، أُرسِلَ عدد من وحدات التايبينغ في حملات نهب طويلة المسافات لتأمين الغذاء والإمدادات والمجندين لجيوش المتمردين الضخمة. وقد أثبتت هذه الممارسات أثرها الضارّ على السكان المحليين منذ اليوم الذي تُخُلِّيَ فيه عن مدونة قواعد السلوك العسكري في وقت سابق من سنوات حكم التايبينغ. لكن ازدياد حجم الجيوش العسكرية المتحاربة وزيادة مطالبها في المقابل، أدى إلى تدهور الأوضاع في المناطق الريفية على نحوٍ أنذر بالخطر.

كان ذلك في المناطق التي تضررت بشكل مباشر من الصراع العسكري، حيث لوحظت التغيرات الأكثر تدميراً في الروتين اليومي. وربما لم يكن غريباً أن تُلقي مصادر حكومية من تشينغ باللائمة على التايبينغ فيما يخص المصاعب المتزايدة في صفوف الشعب. ففي أوائل ستينيات القرن الثامن عشر، كان معظم الأجانب المبشرين يُلقون باللوم على المتمردين بسبب «الحال المدمرة» للأماكن الواقعة تحت سيطرتهم، وقد قال أحد المبشرين ما يفيد بذلك:

> «وصف لي أحد العارفين بالصين الذين اجتازوا مؤخراً بعض المناطق الواقعة تحت احتلال [التايبينغ] لفترة أطول– صورة من الخراب يُرثى لها هناك. فجميع الأحياء التي كانت تنتشر فيها الأراضي الزراعية وتزينها المدن المزدحمة والقرى، أضحت مهجورة يضرب الخراب جوانبها وضواحيها، وتحولت الحقول إلى قفار تحتلها الذئاب بدلاً من الرجال، لقد أغفلوا تماماً أهمية الحُكم والحماية، وأضحى الرجال الأفظاظ غير المتعلمين ملوكاً عليهم، وصارت أعمالهم صنائع لصوص وقتلة».

ولا ريب أنه خلال المرحلة الأخيرة من التمرد، ازداد استخدام جنود التايبينغ اليائسين للعنف المفرط للحصول على الغذاء والأسرى والأشياء الثمينة. وفيما يتعلق بالأعمال الوحشية التي نزلت بسكان الريف، لاحظ الضابط البحري البريطاني ليندسي براين أن «الموالين للإمبراطورية أثبتوا وقوعهم على قدم المساواة في استحقاقهم اللوم، وأن الأمر يحتاج إلى توازن دقيق لإظهار الجانب الذي تعرض لقدر أكبر من الأعمال الوحشية». وقد ذكر بعض المؤرخين الصينيين أن قائد جيش شيانغ الموالي، واسمه تسنغ غوفان، وهو المهندس الرئيس لعملية إسقاط التايبينغ، انتهج عمداً سياسة الأرض المحروقة لحرمان التايبينغ من الإمدادات الحيوية، و«هناك أدلة على أن عملية القمع كانت الجزء الأكثر تدميراً في التمرد».

وكتب تسنغ يقول: «عندما يكون المتمردون في حملة في مناطق مجردة من الناس، يكونون كالأسماك التي خرجت من الماء، وعندما يحتلون أرضاً لا يوجد [أو لم تعد] فيها زراعة، يكونون كالطير على جبل عار من الأشجار». ونتيجة لأعمال العنف والجشع من جانب العسكر، قضى عدد كبير من سكان المناطق الريفية في غرب إقليم جيانغسو، إما بسبب الحرب وإما بسبب الجوع والأوبئة، أو نزح بعضهم إلى أماكن آمنة نسبيّاً. أما قائد جيش هُواي الموالي– هونغ تشانغ– فأفاد على الفور بعد أن محا قوة للمتمردين في إحدى المناطق إنه «قام بمسح مساحة شاسعة على طول الطريق التي كان يحتلها جيش «لي»، حيث دُمِّرت القرى والبلدات، وأضحت الأراضي المزروعة خراباً يباباً (صحراء). وكانت هناك هياكل عظمية بيضاء ملقاة على الأشواك، ولم يكن هناك أحد من السكان»، ولم يعد السكان إلى الجانب الغربي لإقليم جيانغسو إلا بعد سنوات عدة من قمع ثورة التايبينغ حتى جاءه عدد كبير من المهاجرين الذين استوطنوه.

تمرد النيان

استعرض هذا الفصل حتى الآن تأثير ثورة التايبينغ على حياة الناس في الصين في المنطقة الأكثر ثراء، وهي نانجينغ (Nanjing) والمنطقة المحيطة بها جنوبَ نهر يانغتسي،

التي يُشار إليها عادة باسم جيانغنان Jiangnan. وكانت «ثورة النيان»[20] Nian (أو النين Nien) في شمال الصين شأناً مختلفاً عن «المملكة السماوية للسلام العظيم» وأثرت على حياة الناس اليومية بطرق مختلفة. فقد كان التايبينغ مهتمين في المقام الأول باحتلال المدن والاحتفاظ بها، أما النيان فكانوا ظاهرة ريفية واستمروا كذلك. وفي حين أن التايبينغ كانوا يسعون للسيطرة على حياة الناس عن طريق إدخال هياكل مجتمعية اجتماعية وإعادة تشكيل أفكارهم وسلوكهم، لم يكن لدى النيان أي برنامج أيديولوجي شامل. وكان النيان وسكان المناطق الريفية عموماً، الذين عاشوا وعملوا في بيئة طبيعية غير آمنة بدرجة كبيرة في سهل شمال الصين، مهتمين في المقام الأول بأساسيات البقاء على قيد الحياة، وأضعفت الأمطار الخفيفة وغير المنتظمة خصوبة التربة، وقللت من المحاصيل الزراعية في شمال الصين. وفي ظل نظام الأمطار غير المنتظم انتشر الجفاف انتشاراً واسعاً حتى أصبح أكثر ضرراً من الفيضانات.

فكيف استجاب السكان المحليون للأزمة الناجمة عن الكوارث الطبيعية والمجاعات؟ أو بشكل أكثر تحديداً، ما العلاقة بين البيئات المعرضة للكوارث والعنف الجماعي؟ تقول إليزابيث بيري في دراستها عن العنف الجماعي: «أفرزت الأضرار الناجمة عن الفيضانات المتكررة والجفاف وسطاً صعباً وغير آمن ازدهرت فيه إستراتيجيات البقاء العدوانية». وفي مثل هذه المناطق، أصبح العنف جزءاً من الثقافة المحلية، واعتاد الناس الحصولَ على الموارد عن طريق القوة، كقطاع الطرق ومهربي الملح، أو من خلال نزاعات طائفية».

وبين عامي 1853 و1862، تكررت هناك المجاعة كل عام تقريباً، وضرب اليأسُ أوصال الفلاحين، الذين أصبحوا على شفا المجاعة، وذلك بسبب فشل الحكومة في غوثهم. يتذكر ذلك أحد سكان الحي القديم في شمال أنهوي Anhui بعد سنوات لاحقة، قائلاً: «أثناء ذلك الوقت، مات كثير من الناس، وكانت الجثث تُطهى كطعام، وفي مدينة مينغشينغ Mengcheng، باع الناس فطائر اللحم البشري المطهوة على البخار»، وفي المنطقة الشمالية من النهر الأصفر المعروف باسم هوايبي Huaibei، تراكمت ظروف تاريخية خاصة وحولت المدنيين العاديين إلى قوة ثورية شاملة. وقد تضمنت هذه

(20) النيان: مجموعة من العصابات اتحدت على مناهضة الحكومة الصينية التي ضعفت قبضتها في وجه ثورة التايبينغ والتمرد عليها، فاستخدمت تكتيكات حروب العصابات في عام 1853، لكن هذه الحركة عدمت الأيديولوجية الموحدة وافتقرت إلى قيادة مركزية قوية، فانتهى بها الأمر إلى الاندحار عام 1868.

الظروف المعوقة الكوارثَ الطبيعية، وخصوصاً التغيرَ الجذري في مجرى النهر الأصفر وما رافقه من تشريد واسع، وقد تفاقمت المشاكل الناجمة عن هذه الكوارث بسبب عدم كفاءة الحكومة وزيادة الضرائب والتدخل من جانب المتمردين التايبينغ، فضلاً عن أطماع بعض زعماء العصابات ونقباء الميليشيات. وكخطوة أولى في هذا العنف وهذه البيئة غير الآمنة، حمت تجمعات هوايبي نفسها عن طريق بناء سواتر ترابية حول قراها، وقد وفرت هذه التجمعات المحصنة للنيان الوسيلة الرئيسة لدمج الأراضي الواقعة تحت سيطرتها وتوحيدها. ففي وقت لاحق، دُمِجت مجموعات النيان الصغيرة الكثيرة والمتناثرة تحت خمسة «ألوية» كبيرة، وهو ما وفر قدراً أكبر من التماسك، وكانت كل واحدة من ألوية النيان الرئيسة تتألف من ألوية صغيرة عديدة تدعمها العديد من المجموعات المحاطة بأسوار ترابية. وتولى «جانغ لوتشينغ» (Zhang Luoxing) القيادةَ العامة لهذه الفيدرالية الفضفاضة من القرى المحصنة، وكان مالكاً صغيراً ومهربَ ملح من شمال أنهوى، ومن الممكن معرفة امتداد هذه المنطقة التي تشبه العُشّ من تقرير صادر عن حاكم إقليم أنهوي الصيني، والذي أشار إلى أن هناك ما لا يقل عن 2000 حصن للنيان في منطقة هوايبي، يضم كل منها ما بين ألف وثلاثة آلاف نسمة.

وفي حين ضمنت السواتر الترابية سلامة النيان، إلا أنهم لم يتمكنوا من درء الجوع، ومن ثم قام المتمردون بحملات نهب دورية في أماكن أكثر بُعداً وسلاماً في هِنان وشاندونغ وشمال جيانغسو بغرض الحصول على موارد قيّمة، مثل الحبوب والماشية والأسرى. وتلاحظ إحدى الروايات المعاصرة لهذه الأحداث أن «[النيان] يرفعون في العادة الأعلام ويحشدون الجنود في الربيع والخريف، ويقومون بنهب المناطق القريبة والبعيدة. وتتبع [المتمردون] العربات المثقلة بالغنائم، واحتفلوا وغَنُّوا وهم في الطريق إلى ديارهم، وبعد أن جمعوا الحبوب استهلكوها، وخرجوا مرة أخرى». وربما اعتبرت سلطات تشينغ النيان متمردين، لكنَّ فلاحي هوايبي المعدَمين، بوصفهم أُسراً وعشائر ومجتمعات محلية، كانوا يهتمون في المقام الأول بتأمين سبل العيش في بيئة غير مضيافة عن طريق الاستيلاء على الموارد الشحيحة من الآخرين، ومن ثم كان البقاء بالنسبة لمعظم الناس العاديين في هذه البيئة دافعاً أقوى من التمرد الواعي، حيث تعبر أغنية شعبية للنيان عن هذه المخاوف اليومية أشدَّ ما يكون التعبير، فهي تتحدث فقط عن المجاعة، والفيضانات، والجوع،

والديون المرهقة، وتنتهي بالبيت التالي:

إن لم يكن من أجل النيان،
فكيف يمكن للمرء أن يقف؟
دعونا ننضم
إلى «لُو» القديم [أي، جانغ لو تشينغ] حتى نطالب بالأرض.

أما الباحث الشاب «ليو تانغ» من إقليم «هنان» (Henan)، وهو سجين في قرية من قرى النيان، فترك الرواية التالية عن الحياة اليومية في الأراضي التي يسيطر عليها المتمردون:

«كانت وجبات الطعام اليومية في قرية النِين (Nien) تتألف من العدس أو شعرية السرغوم، ولم يكن القمح أبداً سمة ملازمة للنظام الغذائي ونادراً ما كانت هناك خضروات، باستثناء الفلفل في بعض الأحيان، ولم يعد من الممكن زراعة الأرض في هذا المكان الخاص [في شمال أنهوي] وأظهرت وجود القليل من الآثار التي تفيد بوجود بشر».

كانت معظم الأسر صغيرة بعد أن فقدت العديد من أعضائها في عربدة العصابات والجنود، ثم اندمجت القرى المستنزفة، وبنى بضع عشرات منها جداراً مشتركاً للدفاع عن أنفسهم. وعلى الرغم من وفرة الحيوانات البرية على نحوٍ مدهش، كان لابد من تأمين الحبوب من الخارج. وحدث أن سرقت قرية النِين الحبوبَ في غزوات النهب، ثم باعت الفائض في مناطقهم للحصول على سعر منخفض للغاية، ثم ما لبثت الأرباح النقدية التي حصلوها من هذه الرحلة أن نضبت، وخاصة أن قادة الألوية لم يستطيعوا مقاومة القيام برحلات متكررة إلى السوق للشرب والتنافس على الهيبة، حيث تذهب كل الأموال في أقل من شهر، فيتنادون للقيام بحملة أخرى.

وأثناء السنوات الأولى للتمرد، نجح النيان في الإغارة على أماكن بعيدة بسبب

إتقانهم لسلاح الفرسان وتكتيكات المراوغة، ومذ أصبحت الخيل والرجال يتحركون على حد سواء بسرعة كالريح والمطر، غدا النيان قادرين ليس فقط على شن هجمات مفاجئة على أهداف تستحق النهب، وإنما على القدرة أيضاً على الهروب عند اقتراب القوات الحكومية. لكنه وكما أشار سيانغ–تسِه شيانغ (Siang—tseh Chiang): «لم تفر قرية النين أبداً دون غرض، فكانوا يواصلون الركض كوحوش مجنونة حتى إذا سمحت لهم الظروف عادوا مرة أخرى حتى يلدغوا من ركضوا خلفهم واستمروا كذلك حتى أنهكهم الركض». وفي الواقع أنهم، وعن طريق استخدام هذه الأساليب في عام 1865، تمكنوا من إيقاع قوة كبرى من فرسان تشينغ في الفخ وتدميرها، وهي القوة التي كانت بقيادة الأمير المنغولي الشهير سِنغلينقين (Senggelinqin)، الذي قُتل في المعركة.

وكما لوحظ سابقاً بخصوص التنافس بين قوات التايبينغ وتشينغ، فإن الأخيرة غالباً ما كانت لها آثار ضارة على حياة الناس اليومية، بل وأصبحت القوات الإمبراطورية التي أرسلت لقمع متمردي النيان بالمثل مصدراً رئيساً للمعاناة في المناطق الريفية، إذ انقطعت صلة الجنود بأسرهم وقد طُلِبَ منهم العمل في أماكن غير مألوفة، ولذا كان سلوكهم في كثير من الأحيان قاسياً أو يفتقر إلى الالتزام. وقد اعترف أحد ضباط جيش تشينغ قائلاً: «فمن كان يتوقع أن الفظائع التي ارتكبها الجيش الإمبراطوري ستكون أسوأ بكثير مما ارتكبه المتمردون أنفسهم!» وكان فرسان الأمير سِنغلينقين فاسدين وسيئي السمعة، فكانوا يطلبون الرشاوى قبل أن يلبوا طلباً لمن يريد الحصول على مساعدة، وعندما شكا الناس مما تفعله قواته من اغتصاب وسرقة، قيل إن سِنغلينقين أجاب بما يلي: «الجنود بعيدون عن ديارهم منذ زمن طويل، والأفضل أن يتحرك الناس (بعيداً) عنهم حتى يتفادوهم».

إلا أن جيوش أسرة تشينغ الموالية كانت في وضع أفضل للتعامل مع مشكلة النيان، وخاصة بعد تدمير متمردي التايبينغ في عام 1864 وفعلوا ذلك بطريقتين: الأولى، أنهم انتهجوا سياسة «اجتثاث الأعشاش»، أي اختراق المجتمعات المحصنة في قلب أرض النيان وكسب الشعب لتأييد الإمبراطورية، وفي هذه الأثناء كشف فلاحو مدينة «هوايبي» (Huaibei) أوجه القصور في ولائهم لقضية النيان، فعندما لم يعد القرويون الهوايبي قادرين على النهب بدأوا يعانون المجاعة. وفي عام 1863، وصل الحال بشعب مقاطعة «مينغشينغ» (Mengcheng) الواقعة في شمال أنهوي (Anhui)، على سبيل المثال،

إلى تناول الجلود المسلوقة ورقائق اللحاء ومسحوق عظام الموتى. وقيل إن رطلاً من اللحم البشري كان يُباع بمائة من النقد، فمن الواضح بالنسبة للفلاحين أن مسألة البقاء كانت أكثر أهمية من دعم قضية النيان.

في الوقت نفسه، وظف قادة تشينغ قواتهم، فمنعوا فرسان النيان من العودة إلى مناطق الأعشاش، وعندما أصبحت قوات المتمردين الباقية غير قادرة على العودة إلى قواعدها في البلاد بعد عام 1865، وذلك بالتنسيق مع بقايا التايبينغ، بدأوا فترة استمروا خلالها أربع سنوات لصوصاً جائلين في المناطق الشمالية، وتدهور الانضباط بسرعة مثلما نشرت قوات الفرسان الخوفَ في شاندونغ وهِنان وشانشي بسرعة البرق في محاولة للحصول على الموارد وتفادي الأسْر. وقد نغَّص الخرابُ الناجمُ عن هذه الغارات اليائسة حياةَ الناس في هذه المناطق، مما دفعهم إلى تغيير ولائهم مرة أخرى إلى الأسرة الحاكمة. وقد اعترى حركةَ النيان مزيدٌ من الضعف بسبب عدم وجود هيكل فعال للقيادة المركزية، فخرج كثير من قادة الألوية التابعة في غزوات نهب مستقلة وغير منسقة، وكثيراً ما غيَّر الأفراد والجماعات مواقفهم نتيجة الاقتتال الداخلي. ولعل خير مثال على ذلك هو «مياو بي لين»، الذي كان قائد مليشيا انتهازياً وطموحاً، وسيء السمعة ومتقطع الولاء للنيان، إذ بسط سيطرته عام 1859 على عدة آلاف من الحصون ومئات الآلاف من الناس في وادي هُواي، إلا أنه غيَّر موقفه مرات عدة في وقت لاحق. وبحلول منتصف ستينيات القرن التاسع عشر، كانت خسارة النيان لوحدتهم، وإعادة تأكيد سلطة تشينغ إشارة واضحة إلى انحسار حركة التمرد. وفي عام 1868، دَمَّرت القواتُ المواليةُ جيوشَ النيان التجوالية تدميراً نهائيّاً.

عسكرة المجتمع الريفي

كانت عسكرة الريف على نطاق واسع واحدة من أهم التطورات التي حدثت في منتصف القرن التاسع عشر في الصين، فمع انتشار أنشطة التمرد في كثير من أنحاء الإمبراطورية وعدم قدرة القوات النظامية الحكومية الإمبراطورية على التعامل معها، نُظِّم القرويُّون العاديُّون على حماية الأرواح والممتلكات ضد الهجمات التي يشنها العوام الآخرون الذين انضموا إلى القوات المتمردة. وعندما غزا التايبينغ إقليمَ هونان أثناء

مسيرتهم من منطقة قوانغشي نحو نانجينغ، أذنت حكومة تشينغ بتشكيل ميليشيا محلية، ومنذ أن أثبتت الجيوش النظامية عدم قدرتها على وقف تقدم المتمردين، جُمِعَ بعض وحدات ميليشيا الهونان ونُظِّمت لتصبح قوةً إقليمية جديدة، تضم جيش تسنغ غوفان شيانغ. وبعد سنوات قليلة، نجح «لي هونغ جانغ» (Li Hongzhang)، الموالي لتسنغ، في إنشاء قوة أخرى جديدة، وهي جيش هُواي، والذي جُنِّد أفراده في المناطق الواقعة إلى الشمال من نهر يانغتسي، في موطنه في إقليم أنهوي، ولعبت هذه الجيوش الإقليمية دوراً حاسماً في الهزيمة النهائية للتايبينغ والنيان.

وعلى سهل شمال الصين، كان مسرح عمليات النيان، حيث وجدت بالفعل ثقافة العنف قبل التمرد، ولمواجهة حملات النهب التي قام بها النيان على مسافات طويلة، انتشرت عسكرة المناطق الريفية وازدادت كثافة، واستأجرت الأسر الغنية خارج مناطق النيان حراساً شخصيين، وتعاونت قرى بأكملها في تنظيم الدفاع عن النفس. وإضافة إلى الميليشيا المأذون لها من قبل الحكومة، أنشئت أشكال مختلفة غير نظامية من الدفاع عن النفس داخل القرى وبينها في كثير من المواقع، وعلى الرغم من أنها برزت ظاهريّاً لحماية المجتمعات من المتمردين، اعتادت الميليشيات على مقاومة حكومة لصوصية تسعى سعياً حثيثاً لزيادة عائداتها، إذ كان انتشار قوات الدفاع الذاتي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً مع تفاقم أعمال الشغب ضد الضرائب. ولمزيد من تعقيد الأمور، فقد كانت كثيراً ما تشارك بعضَ الميليشيات المحلية في الأنشطة اللصوصية، وهو ما محا الفارق بين الحُماة والجُباة، لكن الإشارة الأكثر ديمومة في عملية العسكرة ربما كانت بناء السواتر الترابية حول آلاف من القرى في شمال الصين، فقد ظلت هذه الدرجة العالية من العسكرة سمةً مميزة لهذه المنطقة غير الآمنة تقليديّاً حتى منتصف القرن العشرين.

الخلاصة

شهد العقدان ونصف العقد بعد عام 1850 ما كان على الأرجح أكبر موجة من التمرد الشعبي في التاريخ، وقد وُصِفَ تمرد التايبينغ بأنه أكبر الحروب الأهلية، وبغض النظر عن محاولة التايبينغ الجديرة بالنظر لتغيير طريقة حياة الناس تغييراً جذريّاً، فإن الدمار في الأرواح والممتلكات هو ما أثر بصورة أكثر دراماتيكية في المجتمع الصيني. وإضافة

إلى حركات التمرد الرئيسة التي نُوقشت في هذا الفصل، فقد وقع عدد لا يحصى من الثورات الأخرى في إمبراطورية تشينغ، والتي غالباً ما تضمنت أقليات عرقية أو جمعيات سرية، وانحصرت هذه الانتفاضات إلى حد كبير بين أطراف الصين الحقيقية، وغالباً ما كانت الصراعات بين عرقية الهان الصينية والأقليات، ومنها أقلية الهُوي Hui (المسلمون الصينيون)، أكثر دموية. فقد سعى كل طرف لإبادة الطرف الآخر. ويُقدر عدد المسلمين الذين لقوا حتفهم لأسباب لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بالحرب في أثناء تلك الاضطرابات الكبرى التي هزت إمبراطورية تشينغ بنحو 50 مليون نسمة، ومن ثم تركت تجربة الموت وظاهرة الخوف من الموت أثراً عميقاً في نفوس السكان.

وكان على الناجين من التمرد أن يتعاملوا مع النتائج المباشرة للحرب، ففي المدن، دمرت المباني العامة والمحلات التجارية، والعديد من المساكن الخاصة، وتعطلت التجارة تعطلاً شديداً. وفي الريف، قُطِّعت أشجار التوت، وهي أشجار حيوية لإنتاج الحرير، وطغت الحشائش على حقول الأرز، ودُمِّرت السدود وقنوات الري. وفي الوقت الذي فرَّ فيه الناس من المناطق الأشد تضرراً، كان الانخفاض الكبير في عدد السكان النتيجةَ الأكثر دراماتيكية. ولعقود تالية، ظل الناس في المناطق الأكثر تضرراً في البلاد في حالة عصبية ومتوترة، حيث أثارت شائعات مقلقة عن تمرد وشيك ذعراً واسع النطاق في أوساط السكان، وخاصة في شمال الصين، حتى خلال العقود الأولى من القرن العشرين. وقد أعيد إصلاح التحصينات القروية القديمة على عجل، ولجأ الفلاحون في بعض المناطق إلى البيوت الموجودة على القلاع المهجورة على التلال، فمن الواضح أن ذكرى تلك الأحداث المأساوية التي وقعت في منتصف القرن التاسع عشر لم تكن لتتلاشى بسهولة، حتى في المناطق التي لم تكن تعاني معاناةً مباشرة من دمار الحرب.

وكان لحركات التمرد في منتصف القرن التاسع عشر تأثير غير مباشر على حياة الناس. فعلى سبيل المثال، كان فقدان دولة تشينغ لأهم قاعدة من قواعد الإيرادات الخاصة بها، وهي إقليم جيانغنان والأقاليم الوسطى، لصالح التاييينغ، يعني ضرورة جباية موارد إضافية من مكان آخر. كما أن فرض ضرائب على البضائع العابرة كمصدر جديد للدخل أعاق حركة التجارة وجعل أسعار السلع أكثر تكلفة.

وبخصوص أسرة تشينغ الحاكمة، غيَّرت الثوراتُ العلاقةَ بين الدولة والمجتمع، فوسط

الدمار الذي خلفته الحرب، تولى نشطاء النخبة المحلية مسؤولية تربية قوات الميليشيا، وإنشاء المنظمات الخيرية، مثل جمعيات الدفن ودور الأيتام، والقيام بعمليات الإغاثة ومشاريع إعادة الإعمار. وقد أسهم انتشار المنظمات الاجتماعية خارج سيطرة الحكومة في صعود قوى سياسية جديدة، استطاعت فيما بعد تحدي الأسرة الإمبراطورية ثم إسقاطها بعد ذلك. وفي الواقع أنه يمكن القول بأن مجتمع تشينغ لم يتعافَ تعافياً خالصاً من التمزقات التي أصابت الحياة اليومية بسبب تمرد التاييينغ وغيرها من الأحداث الطوفانية في الصين في ذلك الوقت.

الهوامش

1. Jonathan D. Spence, The Search for Modern China, 2nd ed., New York: W. W. Norton, 1999, p. 173.

2. Ibid., p. 148.

3. Ibid., pp. 170-71.

4- للحصول على دراسة شاملة عن الحياة اليومية في نانجينغ، انظر الدراسة المتميزة التي أجراها John L. Withers II.

«The Heavenly Capital: Nanjing under the Taiping, 1853-1864,» PhD diss., Yale University, 1983.

5. Ibid., pp. 48-55.

6. Medhurst in the North-China Herald, 26 November 1853; reprinted in Prescott Clarke and J. S. Gregory, comps., Western Reports on the Taiping, London: Croom Helm, 1982, pp. 89-90.

7. Ono Kazuko, Chinese Women in a Century of Revolution, 1850-1950, Stanford, CA: Stanford University Press, 1989, p. 1.

8. Ibid., p. 8.

9. Ipid., p. 11.

10. Augustus F. Lindley, Ti-Ping Tien-Kwoh: The History of the Ti-Ping

Revolution, Including a Narrative of the Author's Personal Adventures. vol, 1,London: Day, 1866, p. 317.

11. Joseph Edkins, in Jane R. Edkins, Chinese Scenes and People. with Notices of Christion Missions and Missionary Life in a Series of Letters from Various Parts of China, With Narrative of a Visit to Nanking by Her Husband, The Rev. Joseph Edkins, London: James Nisbet, 1863, pp. 275-76.

12. Franz Michael, The Taiping Rebellion, vol. 2, Seattle: University of Washington Press, 1966, p. 315.

13. Michael, vol. 3, 1971: p. 849.

14. Spence 1999: p. 177.

15. C. A. Curwen, Taiping Rebal: The Deposition of Li Hsin-ch'eng, Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1977, p. 150.

16. For Li Xiucheng's account, see Curwen 1977: pp. 145-46, 291, note 92.

17. Zhao Liewen, Nengjing jushi riji, 26 July 1864, quoted in Yu-wen Jen (Jian Youwen), The Taiping Revolutionary Movement, New Haven, CT: Yale University Press, 1974, p. 531.

18. Thomas Adkins, dispatch dated 29 July 1864, extracts in The London Gazette, 30 September 1864.

19. Quoted in Spence 1999: pp. 203-4.

20. Quoted in Maura Muratorio and Grace Kiernan, Thomas Hanbury and His Garden, Albenga, Italy: Bacchetta Editore, 1992, p. 55.

21. Quotes in the previous paragraphs from Thomas Hanbury to Daniel Hanbury, letters dated 26 June 1860, 21 November 1860, and 29 May 1862, in Hanbury Papers (privately held).

22. Garnet J. Wolseley, Narrative of the War with China in 1860 to Which Is Added the Account of a short Residence with the Taiping Rebels at Nanking

and a Voyage from thence to Hankow, London: Green, 1862, pp. 350-51.

23. William Mesny, «The Life and Adventures of a British Pioneer,» in Mesny's Chinese Miscellany, vol. 1, Shanghai, 1895, p. 43.

24– لمزيد من التفاصيل عن السلك المهني المليء بالمغامرات الخاص بـ Mesny (ميسني) على نهر يانغتسي وفي كل مكان في الصين بما فيها فترة الأسر على يد التايبينغ، انظر مجلدات Mesny – الأول والثاني – 1895–1896.

25. Thomas Adkins letter to his father, 16 February 1863, Adkins Family Papers, Warwickshire County Record Office, England.

26. Franklin to S. O. Shanghai, H.M.S. Banterer, Nanjing, 4 June 1862, Public Record Office, Kew, ADM 125/104, f. 171.

27. Adkins to his father, Zhenjiang, 2 March 1863, in Adkins Papers (privately held). Used with permission of the copyright holder, Mr. Theo Christophers.

28. As reported by the American Presbyterian missionary W.A.P. Martin in the North-China Herald, 4 October 1856.

29. James H. Cole, The People versus the Taipings: Bao Lisheng's «Righteous Army Of Dongan,» Berkeley: Center for Chinese Studies, University of California, 1981, p. 45.

30. Letter dated 29 November 1861, in the Watchman, 15 January 1862, p. 21.

31. Lindesay Brine, The Taeping Rebellion in China. London: John Murray, 1862, pp. 272-73.

32. Curwen 1977: p. 275, note 18.

33. Ibid.

34. Quoted in Yeh-chien Wang, «The Impact of the Taiping Rebellion on Population in Southern Kiangsu,» Papers on China 19, 1965, p. 128.

35. Elizabeth J. Perry, Rebels and Revolutionaries in North China, 1845-1945, Stanford, CA: Stanford University Press, 1980, p. 3.

36. Elizabeth J. Perry, ed., Chinese Perspectives on the Nien Rebellion. Armonk, NY: M. E. Sharpe, 1981, p. 41.
37. Quoted in Siang-tse Chiang, The Nien Rebellion, Seattle: University of Washington Press, 1954, p. 601.
38. Perry 1980: p. 140.
39. Ibid., p. 136, summarizing Liu Tang's account.
40. Siang-tseh Chiang, The Nien Rebellition, Seattle: University of Washington Press, 1954, p. 72.
41. Quoted in Perry 1980: pp. 123, 124.

مراجع مختارة

Bernhardt, Kathryn. «Elite and Peasant during the Taiping Occupation of the Jiangnan, 1860-1864.» Modern China 13 (1987): 379-410.

يدرس الكاتب الطبيعة المعقدة للحياة في الريف في منطقة تشيانغنان (وهي جزء من إقليم شيانغسو الواقع جنوب نهر يانغتسي (Yangzi)، وتشمل المناطق الشمالية لإقليم زيغيانغ Zhejiang) والذي أضيف إلى عالم التايبينغ في عام 1860.

Chiang, Siang-tseh. The Nien Rebellion. Seattle: University of Washington Press, 1954.

يتضمن هذا العمل العديد من وجهات النظر والملاحظات المفيدة عن الحياة في المنطقة المحكومة والواقعة تحت تأثير النيان.

Clarke, Prescott, and J. S. Gregory, comps. Western Reports on the Taiping. London: Croom Helm, 1982.

مجموعة شاملة من التقارير والملاحظات الغربية عن التايبينغ مأخوذة من مجموعة كبيرة من المصادر المنشورة وغير المنشورة.

Curwen, C. A. Taiping Rebal:The Deposition of Li Hsin-ch'eng. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1977.

تصف اعترافات جنرال التاينينغ لي شوشينغ، التي كتبها بمشاعر جياشة في انتظار الإعدام، حركة التايبينغ بقدر من التفصيل. كما أن ملاحظات كيوروين تقدم أبعاداً جديدة للحياة في ظل التايبينغ.

Jen, Yu-wen [Jian Youwen]. The Taiping Revolutionary Movement. New Haven, CT: Yale University Press, 1974.

كان شيان يوين أحد الأساتذة الصينيين الذين اهتموا بتمرد التاينينغ. وبناء على إصداراته الضخمة باللغة الصينية، يمثل العمل المذكور أعلاه طرحاً مفصلاً عن قيام التايبينغ وسقوطهم. وعلى وجه الخصوص، يوفر هذا العمل معلومات مفيدة عن الحملات العسكرية الكبرى والعديد من المعارك الفردية.

Lin-le [Augustus F. Lindley]. Ti-Ping Tien-Kwoh: The History of the Ti-Ping Revolu- tion, Including a Narrative of the Author's Personal Adventures. 2 vols. London: Day, 1866. Reprinted in 1970 in one volume.

وُظِّفَ الجندي المرتزق الإنجليزي ليندلي من جانب التاينينغ، وتقدم ملاحظاته صورة حية للحياة في المملكة السماوية للسلام العظيم.

Michael, Franz. The Taiping Rebellion. 3 vols. Seattle: University of Washington Press, 1966-1971.

هذه المجموعة الشاملة من وثائق التايبينغ التي تُرجِمت إلى الإنجليزية تتيح للقارئ الوصول إلى الكتابات الرسمية الخاصة بالتايبينغ.

Ono, Kazuko. «Women Who Took to Battle Dress.» Chap. 1 in Chinese Women in a Century of Revolution. 1850-1950. Stanford University Press,

1989. Brief though it is, Ono's chapter is the only study of women in the Heavenly Kingdom of Great Peace. Perry, Elizabeth J. Rebels and Revolutionaries in North China 1845-1945. Stanford, CA: Stanford University Press, 1980.

يقدم Perry إطاراً نظرياً مقنعاً يفسر السبب الذي يجعل العنف الجماعي مظهراً دائماً في بيئات معينة. ويتعامل الفصل الرابع من هذا الكتاب بشكل أكثر تفصيلاً مع النيان (Nian)، ويعتبر العمل الأكثر مصداقية فيما يخص هذا التمرد.

Spence, Jonathan. God's Chinese Son: The Taiping Heavenly kingdom of Hong Xinquan. New York: W. W. Norton, 1996.

تاريخ تمرد التايبينغ الذي سُجِّلَ بشكل متميز مع تركيز خاص على الأفكار الدينية الغربية لهونغ شيقوان، قائد الحركة.

Withers, John L., II. «The Heavenly Capital: Nanjing under the Taiping, 1853-1864.» PhD diss., Yale University, 1983.

هذا العمل الذي لم يُنشر، له أهمية خاصة لأنه يركز بشكل حصري على الحياة في نانجينغ أثناء احتلال التايبينغ ويعتمد بشكل عام على المصادر الصينية، بما فيها مقطوعات مترجمة من الكتابات الخاصة للسكان المعاصرين.

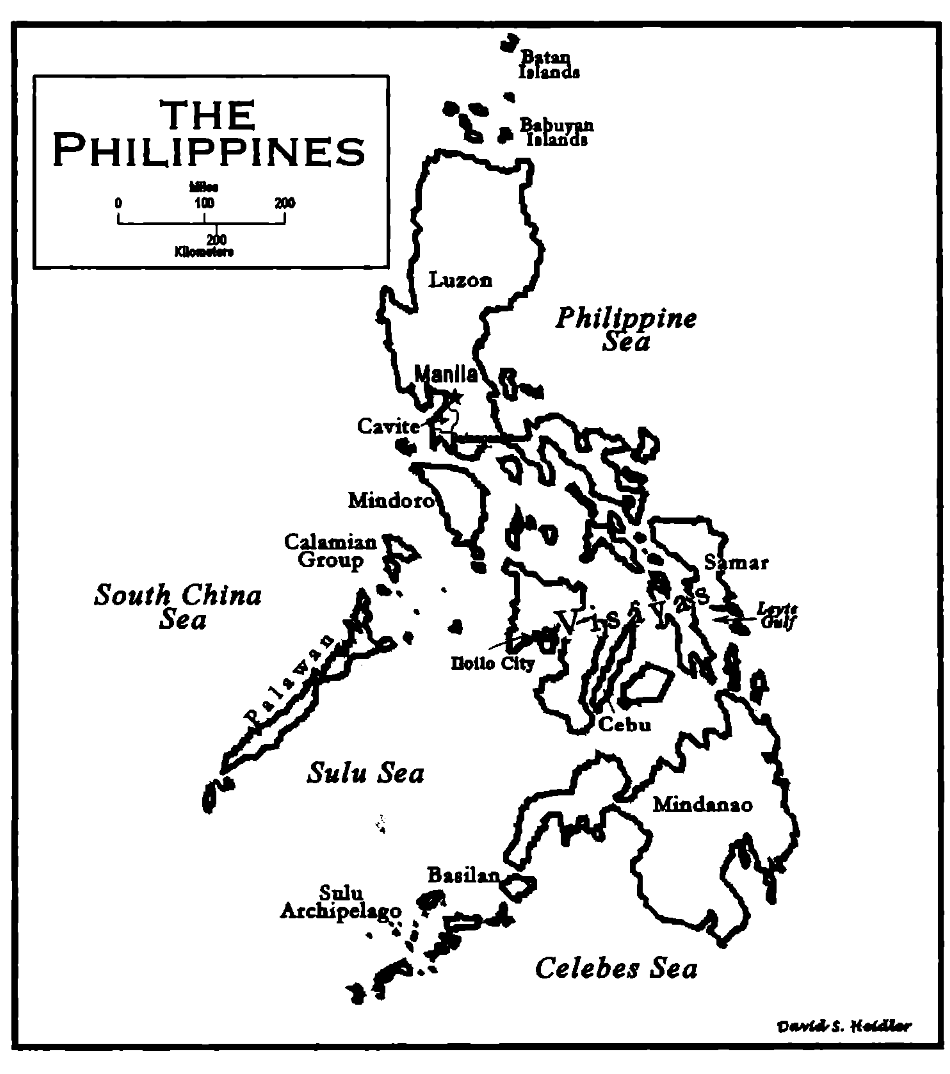
الفصل الثاني

الحياة أثناء حرب الاستقلال
ثورة الفلبين - 1896-1902

بقلم: برناديتا ريس تشرشل

يمكن القول إن القومية الحديثة المناهضة للاستعمار في آسيا، تلك الثورة التي اعتبرت أول ثورة قومية في المنطقة ظهرت في بادئ الأمر في الفلبين مرتكزة على الدعوة إلى إجراء إصلاحات في عام 1880، ومن ثم عن طريق الثورة على الحكم الإسباني في عام 1896، وأخيراً عبر مقاومة الغزو الأمريكي. لكن الثورة تحتاج إلى وقت كي تتشكل وتتطور، فعلى عكس التعريف الضيق المعتاد للحرب، حيث تندلع المعركة وتتصادم الجيوش في لحظة بعينها، فإن الصراع الثوري لا تبصره الأعين إلا تدريجياً، لأنه ينشأ من خلال سنوات العنف والقمع التي لا يظهر أي شيء فيها قبل إعلان الثورة فعلياً. وقد ظهرت الثورة القومية الأولى في آسيا خلال ثلاثة قرون بدءاً من الاستعمار الأول الشامل والموحد لآسيا. وكان الإسبان المحتلون لهذه الجزر لا يهدفون في المقام الأول إلى التجارة أو النهب، وإنما إلى التنصير والأسبنة (Hispanicization). وعلى الرغم من أن الإسبان أنفسهم أحبطوا الأسبنة الحقيقية في الفلبين، فإنهم تمكنوا من تأسيس مجتمع كاثوليكي يضم رجال دين إسبان عن طريق الترغيب والترهيب. وكما أدت مطالب تحقيق المساواة والعدالة في نهاية المطاف إلى اندلاع «الثورة الأمريكية»[21] في المستعمرات المنقسمة على نفسها («لا ضرائب بلا تمثيل») فقد خرجت ثورة الفلبين كذلك من رحم مطالب

(21) اندلعت الثورة الأمريكية في النصف الأخير من القرن الثامن عشر، وفيها رفضت ثلاث عشرة مستعمرة بريطانية في أمريكا الشمالية الخضوع لحكم برلمان بريطانيا العظمى والتاج البريطاني، وانتهت بإقامة الولايات المتحدة الأمريكية دولةً ذات سيادة.



جزر الفلبين (ديفيد س. هايدلر)

المساواة في الحقوق والامتيازات الإسبانية.

ويدين الدرب الطويل لنشوء الأمة الفلبينية بالكثير للسيادة الإسبانية. فقبل القرن السادس عشر بفترة طويلة، أسس سكان الجزر الأوائل ثقافة القرية التي انتشرت في الأرخبيل وتعززت بالتواصل مع التجار الصينيين الذين أقاموا في الفلبين مؤقتاً والتجار العرب المسلمين والجيران في المنطقة. وجمعت إسبانيا بين مجتمعات القرى المتناثرة عن طريق استخدام القليل من القوة العسكرية وعن طريق مساعدة الرهبان المبشرين، فقامت

بتنظيم هذه القرى في صورة بلدات متراصة (Pueblos) وسلمت عهدتها إلى الزعماء المحليين. ولم يقبل السكان الأصليون (Indios) تماماً بعملية إعادة التوطين القسري (Reducción). وسُمِحَ فيما بعد بإقامة المستوطنات خارج وسط المدينة ما دامت على مسافة تكفي لسماع أجراس الكنيسة. وأُنشئت أيضاً وحدات لمقاطعات أكبر حجماً تحت سلطة الحكام الإسبان. وفي عام 1565، أصبحت الفلبين أحدث مملكة في الإمبراطورية الإسبانية، فتأسست في عام 1571 عاصمتها مانيلا (والتي تعني Intramuros ، أو داخل جدران)، التي لم يسكنها سوى الإسبان فقط وهم ممثلو السلطات الإدارية وللكنسية. أما السكان السابقون للمنطقة، فأعيد توطينهم في أماكن أخرى فيما صار يُعرف باسم «باجومبايان» (Bagumbayan) أو «المدينة الجديدة».

ووفرت الجهود التنصيرية التي قام بها الرهبان المبشرون للسكان المحليين ديناً مشتركاً، حيث شكلت المسيحية عاملاً موحداً بين الفلبينيين من سكان السهول والساحل تحت الحكم الإسباني. ولم تكن هذه حال المجتمعات المحلية في المناطق الداخلية في الجبال الواقعة إلى شمال لوزون وأماكن أخرى في الجزر المختلفة. كما لم تكن هذه حال مسلمي ميندناو وسولو (الذين يسمون بـ Moros) الذين قاوموا محاولات التنصير والأسبنة، فتحمّل سكان السهول والساحل في لوزون وفيساياس بصفة رئيسة الحكم الإسباني. وظهر العديد من الثورات وغيرها من أشكال المقاومة اليومية على امتداد زمن الحكم الإسباني. وعلى الرغم من أن القوانين الإسبانية والمراسيم الملكية نصّت على معاملة السكان المحليين بالعدل والإنسانية، فإن الإدارة الإسبانية الاستعمارية ورجال الدين كثيراً ما انتهكوا هذه القوانين من حيث المبدأ والممارسة.

وعلى الرغم من نجاح عمليات التنصير والأسبنة إلى حد ما، اندلع أيضاً ما يمكن أن يُسمى بعمليات مكافحة التوطين (بما فيها التغيير العرقي) أو فلبنة (Filipinization) الثقافة الإسبانية من خلال إعادة تكوين المؤسسات الإسبانية وفقاً للتقاليد والقيم المحلية لتأسيس ثقافة فلبينية فريدة.

وثمة فارق كبير بين الفلبين وغيرها من المستعمرات الإسبانية، يتمثل في أن الفلبينيين لا يتكلمون الإسبانية باستثناء أقلية صغيرة جداً، إذ تجاهل المسؤولون الاستعماريون المراسيم الملكية الداعية إلى نشر اللغة الإسبانية، وقام الرهبان المبشرون بالتنصير من خلال

تعلم اللغات المحلية. مع ذلك تسلل عدد كبير من المفردات الإسبانية إلى اللغات الفلبينية، وأصبحت الغالبية العظمى من الفلبينيين تستخدم أسماء العائلات الإسبانية.

نمو المجتمع الثوري

دام الحكم الإسباني أكثر من ثلاثة قرون (1565 حتى 1898) واتسم عموماً بالقصور والقمع، وإفلاس الجزر مالياً بشكل دائم تقريباً. وتعرض السكان الأصليون لسوء المعاملة والاستغلال الصريح من قبل الإدارة المدنية والدينية. ولكن ظهرت تغيرات اجتماعية واقتصادية كبرى منذ منتصف القرن التاسع عشر.

فقد بدأ زوال السلطة المحلية الإسبانية مع خسارتها لمستعمراتها في الأمريكتين. وفي الفلبين عام 1815، أدت التجارة البحرية بين «مانيلا» و«أكابولكو»[22] (Acapulco) إلى وضع حد للسيطرة الإسبانية على التجارة الفلبينية. وبدأ رجال الأعمال بالتدفق إلى البلاد مع رؤوس الأموال والتكنولوجيا، فتطور اقتصاد الصادرات الزراعية، ما وفر فرصاً اقتصادية جديدة لكثير من الناس ولاسيما الـ «المولَّدون» (الهجناء الفلبينيون من أصول إسبانية أو صينية).

وفتحت مانيلا ابتداء من عام 1834 أبوابها كاملة أمام التجارة الخارجية، تلتها فيما بعد الموانئ الفلبينية الأخرى مثل سيبو وإيلويلو. وسُمح رسمياً للتجار الأجانب بالإقامة في الفلبين، فغيّر وجودهم كثيراً في طبيعة الحياة في المستعمرة. وشهد القرن التاسع عشر فترة من التقدم الاقتصادي والتغيير في البلاد. لكن في الوقت نفسه أدت خسارة إسبانيا لمستعمراتها الأمريكية الإسبانية وخوفها من حدوث أمر مماثل في الفلبين إلى تكثيفها لحكمها الاستبدادي من خلال زيادة هيمنة الرهبان على جميع جوانب المجتمع الفلبيني تقريباً.

وكان من أهم التغيرات الاجتماعية التي شهدتها الفلبين في ذلك الوقت ظهور طبقة جديدة من نبلاء المقاطعات من السكان الأصليين والمولدين الصينيين، تعود أصولهم إلى عائلات تعيش في المدن استفادت من الفرص الاقتصادية التي رافقت نمو الزراعة التجارية (كالأرز والسكر والتبغ والبن والقنب والأباكا)، وتتركز بصورة رئيسة في مدن المقاطعات

(22) مدينة ساحلية وميناء هام في ولاية جواريريو (Guerrero) على شاطئ المحيط الهادئ بالمكسيك.

مثل لوزون وفيساياس. وكانت هناك مجموعتان رئيستان لنبلاء المقاطعات هما: رجال الدين العلمانيون من السكان الأصليين الذين طالبوا بفلبنة أبرشيات الكنيسة، وزعماء الجهود الإصلاحية المعروفة باسم «حركة الدعاية» وزعماء الثورة.

مانيلا عشية الثورة

تغيرت الحياة في مانيلا التي كانت مقر السلطة الاستعمارية تغيراً عميقاً بفضل الازدهار الذي حققته الزراعة التجارية والتجارة الخارجية. وهذا ينطبق أيضاً إلى حد ما على غيرها من المراكز الحضرية مثل إيلويلو (Iloilo) وسيبو (Cebu). وكانت مدينة إنتراموروس (Intramuros) هي قلب الفلبين الإسبانية، وهي مدينة مسورة شُيدت على غرار مدن القرون الوسطى المحاطة بخندق مليء بالماء وزُوِّدت بالجسور المتحركة. وتضم المدينة مكاتب حكومية وسبع كنائس (بما فيها كاتدرائية مانيلا) وأديرة، إضافة إلى المؤسسات التعليمية الرئيسة في المستعمرة التي تشمل مدارس للتعليم الابتدائي والثانوي للأطفال الإسبان وأطفال العائلات الفلبينية التي تتمتع بالثروة والسلطة، وجامعة سانتو توماس الملكية والبابوية (University of Santo Tomas). ومن أهم شوارع المدينة كالي ريال. غير أن إنتراموروس بدت في القرن التاسع عشر مدينة عديمة الحياة، كئيبة ورهبانية معظم شوارعها تختنق بفعل ضيقها وتعامد جدرانها مع بعضها بعض، ولم يعش بها سوى الإسبان الذين أقاموا في منازل كبيرة مصنوعة من الحجر والخشب ومسقوفة بالقرميد، ثم استُخدِم الحديد المموج فيها فيما بعد.

واقتصر التعليم الثانوي والجامعي طوال معظم الفترة الإسبانية تقريباً على الإسبان، فلم يُعطَ الفلبينيون الحق في التعليم الجامعي إلا بعد صدور مرسوم التعليم عام 1863 وذلك إن تمكنوا من تحمّل مصاريفه (وقد حصل قبل ذلك بعضهم على التعليم العالي عن طريق الدخول إلى الكهنوت والدراسة في مدارس الأبرشية التي تأسست لتدريب القساوسة العلمانيين). وينص المرسوم أيضاً على تطبيق نظام التعليم الابتدائي الإلزامي في القرى والاستعاضة به عن مدارس الأبرشيات التي توفر التعليم الابتدائي ذي المضمون الديني المكثف لأطفال السكان الأصليين.

وكان التعليم في الفلبين تحت سيطرة شبه حصرية من الكنيسة. ففي مدينة إنتراموروس،

كانت المدرسة اليسوعية «أتينيو مونيسيبال دي مانيلا» (Ateneo Municipal de Manila) (1859) تعتبر من أرقى المدارس. وكانت أكبر المدارس الثانوية في سان خوان دي ليتران (San Juan de Letran) يديرها الدومنيكان. أما جامعة سانتو توماس (Santo Tomas)، فكانت تمنح الدرجات العلمية في القانون واللاهوت والطب والصيدلة. وكانت هناك أيضاً مدارس مهنية مثل مدرسة فنون التصميم والطلاء ومدرسة بحرية ومدرسة تجارية تُدرِّس اللغتين الفرنسية والإنجليزية. وكانت هناك عدة كليات للفتيات الإسبانيات ومدرسة «إسكويلا مونيسيبال دي نيناس» (Escuela Municipal de Ninas) (1864) لتدريب المدرِّسات. أما مدرسة «إسكويلا نورمال دي مايستروس» (Escuela Normal de Maestros) (1863) لمديري المدارس فكان يديرها اليسوعيون[23].

أما خارج مدينة إنتراموروس، فانتشرت الضواحي التي شكلت مقاطعة مانيلا (بروفنسيا دي مانيلا) التي عاش فيها المغتربون الأجانب والفلبينيون الموسرون والمولدون وغيرهم. وكان الميسورون يعيشون في بيوت كبيرة جميلة مصنوعة بالأساس من الطين والأخشاب، في حين عاش عامة الناس في أكواخ مصنوعة من مواد خفيفة كالخيزران أو الخشب ومسقوفة بالقش. وكانت مقاطعات توندو وتورز وسان نيكولاس وسامبالوك الأشد فقراً والأكثر اكتظاظاً بالسكان.

وتضم مانيلا 35 مصباً للأنهار، تمتد على مساحة 21 كيلومتراً (لذلك كانت تُسمى أحيانا بـ «فينيسيا الأخرى»). وكانت القوارب المحلية الوسيلة الرئيسة لانتقال الأشخاص ونقل البضائع والسلع. لكن المقيمين الأجانب كثيراً ما كانوا يشكون من مصبات الأنهار باعتبارها مجارٍ مفتوحة للماء الآسن الذي يشكل خطراً على الصحة العامة.

وفي عام 1896، قُدِّر عدد السكان في مقاطعة مانيلا (إنتراموروس و28 بلدية أخرى) بـ 340 ألفاً، ولم تتجاوز نسبة الـ «الإسبان المولودين في شبه الجزيرة الإيبيرية» (Peninsulares)، و«الإسبان المولودين في الفلبين» (Insulares) والهجناء الإسبان (Creoles) والأجانب 3,1٪ من هذا المجمل. وبلغ مجموع عدد سكان مدينة إنترامورروس نفسها 16 ألفاً يتكونون من الإسبان المولودين في شبه الجزيرة الإيبيرية والإسبان المولودين

(23) لقب «يسوعي» هو أرفع رتبة دينية للرجال في الكنيسة الكاثوليكية، ويعتبر جميع اليسوعيين أعضاء فيما يُعرف باسم «جمعية يسوع».

في الفلبين والهجناء الإسبان والقليل من الخدم من السكان الأصليين، كان معظم سكانها من الرهبان والراهبات والمسؤولين الحكوميين والجنود.

أما خارج إنتراموروس، فكانت مانيلا تتغير وتكتسب وسائل راحة مماثلة لما يتمتع به الأجانب. فبعد ضياع المستعمرات في الأمريكتين وافتتاح قناة السويس عام 1869 ازداد عدد الإسبان الذي صاروا يأتون إلى الفلبين ولاسيما من الجيش والرهبان. وكان يأتي أيضاً العديد من الأجانب مثل البريطانيين والأمريكان والألمان والفرنسيين والصينيين، الذين لم يستقروا في مانيلا فحسب وإنما أيضاً في المقاطعات الأخرى. وكانوا يعملون في التجارة، وتزوج بعضهم من فلبينيات وأسسوا عائلات فأدى الازدهار في منتصف القرن التاسع عشر إلى طفرة غير مسبوقة في عدد السكان.

وشهدت هذه الفترة أيضاً وصول وسائل الاتصالات الحديثة كالتلغراف الذي يربط بين مانيلا وهونغ كونغ وسنغافورة، ونظام هاتفي في مانيلا وبعدها مدينة إيلويلو، والبريد الذي كان يُرسل إلى خارج البلاد كل أسبوعين. واستُبدلت مصابيح الغاز بالمصابيح الكهربائية في بعض أجزاء مانيلا، وأُقيم نظام لنقل المياه عبر الأنابيب لتوفير مياه شرب أكثر نقاء لسكان العاصمة، وزُوِّدت مانيلا بأنظمة الترام بنوعيه الذي تجره خيول والذي يعمل على البخار لجعل السفر أكثر راحة، وسهلت السكك الحديد الحركة في جميع أنحاء لوزون الوسطى. وبُدئ بتنظيم خدمات نقل وتسيير سفن بخارية بصورة منتظمة بين مانيلا وبقية جزر الأرخبيل، وبين مانيلا وأوروبا، كما حُرِّرَ السفرُ وسُهِّل.

وكان المكان الأكثر إثارة في مانيلا في ذلك الوقت هو بينوندو (Binondo)، وهي المنطقة التجارية التي تأسست كمدينة صينية في عام 1594، ويشرف عليها الرهبان الدومينيكان، وأصبحت في النهاية مجتمعاً للصينيين الكاثوليكيين المتزوجين وأبنائهم المولدين. وكان شارع «كاليه إسكولتا» (Calle Escolta) من أهم شوارع التسوق، بعد أن آلت ملكية جميع المؤسسات الموجودة فيه إلى الأوروبيين والأمريكيين. ويمكن للمرء أن يجد في هذا الشارع أفضل مطعم في البلاد، «رستوران دي باري» (Resaurant de Paris)، الذي يمكن أن يتمتع فيه بوجبة العشاء على «النمط الأوروبي» وتدخين أفضل سيجار في مانيلا الذي تنتجه «لا إنسولار» أو «لا فلور دي لا إيزابيلا» الذي يضاهي سيجار هافانا.

وكانت بينوندو الجادة الخامسة في مانيلا، وهي مركز تجاري يمكن للمرء العثور فيه على سلع الرفاهية القادمة من أوروبا والأمريكتين من قبيل العطور والصابون والقبعات والساعات والمصنوعات الجلدية والفضيات الباهظة الثمن. كما يمكن العثور على كل شيء وأي شيء في هذا الشارع مثل المصارف والدور التجارية ووكلاء الشحن والتجارة ومخازن تجارة التجزئة والجملة والمستودعات ومصانع زيت الطهي والشوكولاته والصابون والمسارح والمطاعم والفنادق والنزل، إضافة إلى الصيدليات البريطانية والألمانية والصينية. ويأتي الناس من جميع الطبقات إلى بينوندو للتسوق أو مزاولة الأعمال التجارية.

وهناك في مانيلا طائفة واسعة من الصناعات والحرف. وقد كان الصينيون أساساً حرفيين وتجاراً احتكروا تجارة الجملة والتجزئة فضلاً عن الصناعة في المستعمرة. وأما الحرفيون المهرة من السكان الأصليين والهجناء فهم صباغون ومجلدو كتب ونقاشون وصائغو فضة وحدادون وسرّاجون وصيادلة. وكانت النساء من الطبقات الفقيرة يعملن في الخياطة والتطريز وصنع السجائر والسيجار والقبالة، (مهنة تابعة للرعاية الصحية تقدم فيها القابلات الرعاية الصحية للنساء المقبلات على الولادة خلال فترة الحمل والمخاض والولادة ومابعدها) كما كن يعن جوزة التنبول والمانجو وغيرها من الفواكه والخضروات واللحوم والأسماك. وأما الرجال فيبيعون سعف نخيل النيبا (Nipa) للتسقيف ويصنعون الطوب والبلاط، ويقودون العربات، أو يعملون بحارة على نهر باسيج. وكان الرجال، وليس النساء، يعملون خدماً في المنازل للإسبان والأجانب الأثرياء، وأما الذين يعملون منهم خدماً رئيسين (mayordomos) فقد كانوا طباخين أو بستانيين أو حوذيين (سائقي عربات تجرها الخيول) أو خدماً في المنزل.

وكانت هناك مسارح لجميع فئات الشعب تقدم المسرحيات الموسيقية (Zarzuela) والهزلية الرومانسية (Comedia) ومسرحيات الحب والحرب بين المسيحيين والمسلمين (moro–moro) ومسرحيات تُعرف باسم «الكوميديا الصينية» (comedia chinica). وكان هناك أيضاً مسارح صغيرة في الضواحي ومسارح موسمية في الهواء الطلق وخاصة أثناء المهرجانات واحتفالات الكنيسة. لكن بقيت مصارعة الديوك الرياضة الأكثر شعبية لدى الفلبينيين حيث كان يسمح بإقامتها أيام الأحد وفي أوقات المهرجانات. وفي العقد 1880 أضحت ميادين مصارعة الديوك أماكن مناسبة لنشر الأخبار والشائعات حول النظام

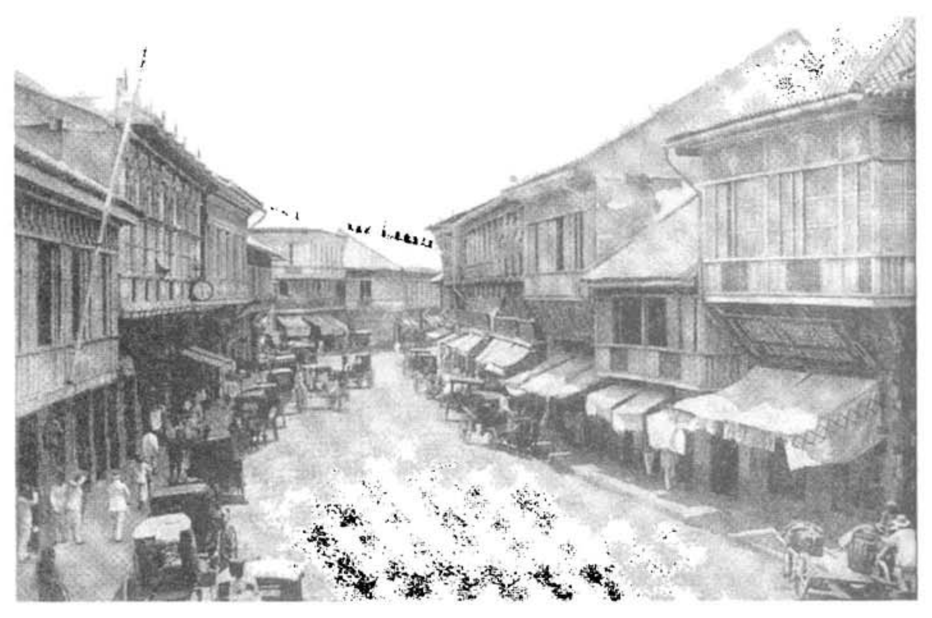
وأماكن اجتماع للتآمر وتدبير المكائد السرية.

وفي مانيلا، تُقام حفلات موسيقية أسبوعية خلال موسم الجفاف ابتداء من يناير يقوم فيها الجنود المحليون بالعزف في الحفلات الموسيقية في المسرح الذي يقع في لوينتا (Luneta) ويجتذب المئات من المشاهدين من جميع الطبقات. وتقع لوينتا إلى الجنوب من أسوار المدينة وقد كانت في ذلك الوقت عبارة عن طريق للعربات ومتنزه يحيط بأرض بيضوية ومرتفعة، وكانت من أفضل الأماكن لمشاهدة غروب الشمس الشهير في مانيلا.

وترافق الموسيقا والرقص جميع المناسبات تقريباً في الفلبين التي تتراوح بين الحفلات الراقصة الكبيرة للإسبان وفي نوادي المجتمعات الأجنبي إلى الرقص الحميم بين الأزواج في الأكواخ الصغيرة المحلية. لذا كان لا يمكن الاستغناء عن فرق الأوركسترا في الحفلات الرسمية والمناسبات والأعياد كما أنها لعبت لاحقاً دوراً رئيساً خلال الثورة في تعزيز روح النضال والصمود.

حياة تحت القمع

ازدادت الأوضاع تقلباً منذ منتصف القرن التاسع عشر، فقد اكتشفت الطبقة



إسكولتا– الحي التجاري في مانيلا

الوسطى الجديدة من نبلاء المقاطعات الحس القومي المناهض للاستعمار وبدأ استعمال كلمة «فلبيني» (Filipino) للإحساس بالمساواة مع الإسبان بعد أن كان ذلك المصطلح لا يستخدم إلا للدلالة على الإسبان المولودين في الفلبين.

ورداً على الشعور بانعدام الأمن، أُسِّس في 1868 الحرس المدني (Guardia Civil) (وهو فيلق من الشرطة المحلية مؤلف من حراس من بين السكان المحليين والضباط الإسبان)، وذلك لقمع اللصوصية والتمرد المتصاعد. لكن هؤلاء الحرس كانوا وحشيين في أساليبهم، مما أثار استياء السلطات. وشملت الاحتجاجات المدنية الطلبة الفلبينيين الذين يطالبون بتنقيح المناهج الدراسية الجامعية التي عفا عليها الزمن، وشملت أيضاً الليبراليين الفلبينيين، والقساوسة الذين يدعون إلى الإصلاحات السياسية والأبرشية، فضلاً عن اضطرابات الفلاحين المدفوعين ببعض المعتقدات المسيحية.

وتزايد انعدام الأمن في الإدارة الاستعمارية بسبب صغر حجم قواتها العسكرية التي ضمت عناصر فلبينية مشكوكاً في ولائها، واستشرى الفساد في الحكومة وبين المسؤولين الفلبينيين المحليين. وزاد الطين بلة نقص الأرز وتفشي وباء الكوليرا والكوارث الطبيعية. وأصبحت خزانة الحكومة خاوية على عروشها، ولم تكن هناك استمرارية في تنفيذ السياسات بسبب كثرة التوظيف قصير الأجل والتغيرات المتكررة للمسؤولين.

ويمكن أن نرجع اللحظة التي بدأ فيها الصراع بين السكان المدنيين والحكومة الاستعمارية إلى يوم 17 فبراير 1872 الذي أعدم فيه ثلاثة من القساوسة الفلبينيين لاتهامهم بأنهم قادة الحركة التي تهدف إلى فلبنة الأبرشيات الفلبينية إذ أعدموا علناً خنقاً في باجومبايان (Bagumbayan) لتواطئهم المفترض في تمرد نحو 200 من الجنود والعاملين الفلبينيين في 20 يناير في فورت سان فيليب بكافيت، وهي مقاطعة جنوب مانيلا، حيث كانوا يحتجون تحت قيادة الرقباء والعرفاء على خفض رواتبهم واستبدالهم برجال مدفعية وعاملين إسبان يتقاضون أجوراً أعلى. ولم يكن هذا التمرد في الواقع أكثر من سخط محلي على الإدارة الجديدة الرجعية لذا فقد أمكن قمعه بسهولة وعوقب المتورطون عقاباً شديداً.

لكن السلطات الإسبانية بالغت في رد فعلها على حركة التمرد، فأعقب ذلك عهد من الإرهاب اعتُقل فيه نحو 120 شخصاً من بينهم قساوسة ورجال قانون والعديد من

التجار جميعهم من المتعلمين والأثرياء المولدين. فحوكموا محاكمة عسكرية على مدار عدة أشهر، وحُكم عليهم بالسجن مدداً طويلة أو بالنفي. وقد دفع هذا العهد الإرهابي سكان مانيلا وكافيت إلى الفرار إلى أماكن آمنة.

والقساوسة الثلاثة الذين أُعدموا هم خوسيه بورجوس وجاسينتو زامورا وماريانو جوميز. وقد اعتُبروا مخربين بسبب مشاعرهم المعادية للرهبان واتهموا بقيادة مؤامرة لإقامة جمهورية مستقلة، فحوكموا في محكمة عسكرية سرية ونُفذ فيهم حكم الإعدام في غضون يومين من صدور الحكم وبصورة سريعة على نحو غير عادي على الرغم من البيروقراطية الإسبانية التي اتسمت بالبطء الشديد في ذلك الوقت.

وشهد إعدام القساوسة الثلاثة زهاء 40 ألف شخص، بعضهم لم يأت إلى مانيلا من كافيت فحسب وإنما أيضاً من المقاطعات المجاورة الأخرى. واحتشد الناس قبل يومين من موعد تنفيذ حكم الإعدام في باجومبايان التي أصبحت تسمى بـ «ميدان قتل» للمتمردين والشهداء وهم يرتدون ملابس الحداد السوداء. وعند إعدام الأب بورجوس الذي كان آخر القساوسة الثلاثة الذين أعدموا جثا الناس على ركبهم وبدأوا يتلون بصوت واحد دعاء الموت. ويقال إن هذه المظاهرة قد أثارت حفيظة الإسبان فهرب الحشد على الفور مذعورين إلى ما وراء جدران إنتراموروس.

وأدى تصرف الإسبان هذا إلى تحويل حركة التمرد المحدودة والمحلية هذه إلى حركة وطنية من أجل التغيير. فإضافة إلى الشعور بالحزن العميق لمقتل هؤلاء الضحايا ظهرت كراهية عميقة للرهبان والنظام امتدت إلى قادة المستقبل جوزيه ريزال ومارسيلو ديل بيلار وأبوليناريو مابيني وإميليو أجوينالدو الذين تزعموا حركة الإصلاح في البداية، وفيما بعد الثورة. وأصبح اختصار حروف أسماء القساوسة الثلاثة (Gomburza) كلمة السر لجمعية الكاتيبونان الوطنية السرية وصيحة المعركة في ثورة عام 1896.

وبعد عام 1872 لم تحدث أية ثورات على مدى عقدين، لكن خلال تلك السنوات تدهور السلام والنظام وحدثت اضطرابات مستمرة في لاجونا دي باي في منطقة لوزون الجنوبية على سبيل المثال التي كانت تمارس فيها عصابات النهب المسلح نشاطها. وأُعلنت الأحكام العرفية في كافيت وبامبانغا بسبب عمليات النهب التي ترتكبها العصابات التي تختبئ في الجبال والغابات. كما ازدادت الطوائف الدينية المحظورة قوة بين مجتمعات

الفلاحين في المناطق الجبلية والغابات التي يصعب الوصول إليها نسبياً، والتي شاركت فيما بعد بالثورة.

شرع النظام الإسباني في استئصال العناصر «الخطيرة» (Filibusteros) كالأشخاص الذين أدانهم الرهبان، والإصلاحيين الجريئين، فصدرت أوامر بنفيهم وأرسلوا إلى مناطق نائية في الأرخبيل (وهو ما كان يشار إليه بـ «التغيير القسري لمكان السكن») مثل بالاوان وسولو وميندناناو وحتى إلى أماكن خارج الفلبين مثل جزر ماريانا وأمريكا الإسبانية وأفريقيا. فازدادت الحياة في الفلبين رزوحاً تحت سيطرة الرهبان الذين صاروا أداة قوية لممارسة سلطة الدولة.

حملة من أجل الإصلاح: «حركة الدعاية»

في العقدين الثامن والتاسع من القرن التاسع عشر، قام الفلبينيون بحملة إصلاحية نشطوا خلالها بشكل رئيس في أوروبا وإسبانيا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا وسويسرا والفلبين نفسها، وإلى حد أقل في سنغافورة وهونغ كونغ واليابان. وحصل هؤلاء الرجال على التعليم في مانيلا بعدما فتح باب التعليم الجامعي أمام الفلبينيين في عام 1863 ثم في أوروبا التي خلا مناخها السياسي من القمع خلافاً للوطن. فعملوا مع الليبراليين الإسبان المتعاطفين، بمن فيهم «الماسونيون» الذين رحبوا بهم في جمعيتهم السرية. وكان الهدف من هذا التحرك تعريف العالم بالظروف السيئة للحكم الاستبدادي في الفلبين ولاسيما الهيمنة الاستثنائية للرهبان. وكانوا يطمحون من وراء هذه الدعاية إلى تسخير السبل السلمية لإحداث تغييرات في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للفلبينيين.

وكانت الصحيفة الناطقة باسم المروجين لهذه الحملة تسمى «لا سوليداريداد» (La Solidaridad) – أو سول Sol اختصاراً– وكانت تصدر كل أسبوعين وتحوي مقالات تسلط الضوء على الأحوال في الفلبين وتُوزّع مجاناً في أوروبا. لكن في الفلبين لا يمكن إصدار أو نشر أي شيء دون موافقة لجنة الرقابة لذا كانت هذه الصحيفة تُهَرَّب إلى مانيلا من هونغ كونغ بواسطة ركاب وأفراد طاقم السفن القادمة. وكان يُرحَّلُ كل من تضبط في حوزته تلك الصحيفة أو غيرها من المواد المناهضة للحكومة أو الرهبان. وبسبب هذه الظروف كانت الصحيفة تقتصر على عدد من المصلحين القلائل الذين يؤيدون سراً حركة الإصلاح في

إسبانيا من خلال الأموال التي يجمعونها من المتعاطفين في مانيلا. وحتى لو أمكن تهريب عدد أكبر من النسخ إلى داخل البلاد فقد كانت المقالات باللغة الإسبانية لذا لا يستطيع قراءتها سوى قلة من الناس. فعلى الرغم من التقدم الذي أُحرز في التعليم العام بعد سنة 1863، لم يكن يستطيع القراءة بالإسبانية والتحدث بها إلا عدد ضئيل من الرجال والنساء في الفلبين.

غير أن المدنيين في العاصمة يفهمون اللغة الإسبانية. وكانت توجد في مانيلا مطبعة سرية توزع على الناس «كتيبات» (Libritos) معادية للرهبان بعضها مكتوب بلغة التاغالوغ[24]، وكانت تُطبع هذه المواد بصورة تشابه كتيبات الرهبان كي يمكن توزيعها في الأماكن العامة من دون علم السلطات.

أما على مستوى وسائل الإعلام الرسمية فكانت الحياة اليومية تبدو طبيعية ومستقرة نسبياً لأن السلطات تحرص على منع طبع كل الأخبار. ففي مانيلا، ثمة خمس صحف يومية هي: في الصباح إل دياريو دي مانيلا (El Diario de Manila)، ولا أوسينيا إسبانيولا (La Oceania Espanola)، وفي المساء إل كوميرسيو (El Comercio)، ولا فوز إسبانيولا (La Voz Espanola) ولا كوريسبوندينسيا دي مانيلا (La Correspondencia de Manila)، إضافة إلى صحيفة تصدر مرة كل أسبوعين هي لا أوبينيون (La Opinion). وكانت هناك أيضاً صحف إقليمية في الأقاليم الأخرى مثل سيبو وإيلويلو. وأما الصحف التي تأتي من إسبانيا فهي لا تباع في مانيلا وإنما تأتي عن طريق الاشتراك الخاص، وكان الكثير منها يُعتبر «ليبرالياً بصورة خطيرة» لذلك كانت محظورة.

وكان البطل القومي للبلاد «جوزيه ريزال» (1861—1896)، بمثابة القوة الرئيسة في هذه الحركة الدعائية. وهو رجل مثقف وشاعر موهوب وهجّاء وروائي ومؤرخ وعالم وصحفي ولغوي وناشط سياسي. وقد دان ريزال الشرور في المجتمع الفلبيني الاستعماري إدانة واضحة في روايتيه «لا تلمسني» و«المخرب» اللتين كشف فيهما فساد النظام الإسباني ووحشية وفساد وثروة وطمع الرهبان الإسبان. لكن على الرغم من أن ريزال انتقل في روايته «لا تلمسني» من الدعوة إلى الإصلاح إلى الحث على الثورة في روايته

(24) لغة ينطق بها في الفلبين اليوم 22 مليون نسمة وهي مرتبطة باللغات المتداولة في مناطق أستراليا وإندونيسيا وهي أساس اللغة الوطنية والرسمية في الفلبين.

الأخرى «المخرب»، إلا أن رواياته لم تكن تهاجم المؤسسات الإسبانية في الفلبين فحسب وإنما تدعو إلى التجديد الروحي والمعنوي للشعب الفلبيني الذي هو بحاجة ماسة إليه.

وفي الواقع لم يكن الاصلاحيون مناهضين للإسبان، ولا معادين لإسبانيا، ولا حتى ضد الكاثوليكية، وإنما للرهبان لأنهم يعتبرونهم عقبة تعترض تقدم الفلبين. وكان طرد الرهبان أكثر مطلب راديكالي ضمن مطالبهم، كما أنهم كانوا يسعون للحصول على الصحافة الحرة وحق الاقتراع وحرية التعبير والحق في التجمع وحرية ممارسة حقوق الإنسان وحرية التجارة. وكان الاصلاحيون ينظمون حملات لجعل الفلبين مقاطعة من مقاطعات إسبانيا كي يُعتبر الفلبينيُّون مواطنين يتمتعون بالحقوق السياسية والمدنية نفسها التي يتمتع بها الإسبان.

وكانت «حركة الدعاية» تعاني من النقص في الأموال والخلافات بين أعضائها حول الإستراتيجية التي ينبغي تبنّيها، لذا فقد فشلت في القيام بالإصلاحات والتغييرات المطلوبة. وكان الرهبان أقوياء للغاية ويستخدمون نفوذهم ومواردهم لإحباط طموحات الإصلاحيين الفلبينيين. وكذلك الأمر كانت إسبانيا أيضاً مشغولة بمشاكلها الخاصة لدرجة أنها لم تكن تستطيع أن تولي الفلبين الاهتمام المطلوب.

الكاتيبونان والثورة في إقليم مانيلا

تأسست جمعية الكاتيبونان الوطنية السرية في مانيلا يوم 7 يوليو 1892، وتصادف تأسيسها في اليوم نفسه الذي نفي فيه ريزال إلى مدينة دابيتان (Dapitan) في جزيرة مينداناو (Mindanao) بعد عودته إلى الفلبين من أوروبا وهونغ كونغ. وتأسست جمعية الكاتيبونان بقيادة أندريس بونيفاسيو (Andres Bonifacio) ولاديسلاو ديوا (Ladislao Diwa)، وهي جمعية سرية على غرار الماسونية التي كان ينتمي إليها الكثير من الفلبينيين، إضافة إلى «لا ليغا فلبينا» La Liga Filipina، وهي مجتمع مدني سري أسسه ريزال يوم 3 يوليو 1892. وتهتم الكاتيبونان بصحوة الفلبينيين ومنحهم حريتهم عن طريق القوة إذا لزم الأمر. وبقيت الجمعية سرية طوال أربع سنوات وذلك منذ تأسيسها عام 1892 وحتى اندلاع الثورة في عام 1896. وخلال تلك الفترة، قامت بتوسيع عضويتها إلى مختلف مناطق مانيلا والبلدات المجاورة في البداية، وبعد ذلك إلى بعض المقاطعات في

لوزون وفيساياس تحضيراً للثورة ضد الإسبان.

وكانت الجمعية في البداية بمثابة مجتمع لعامة الشعب الذين يتكلمون لغة التاغالوغ ويعيشون في المدن في مناطق توندو وتروزو التي يعيش فيها أشد الفلبينيين فقراً. وانضم إلى الجمعية مشعلو قناديل القطارات وقاطعو التذاكر والصيادون الفقراء وعمال المصانع والبحارة والكادحون وصناع الأوعية ومربو البط وأفراد شرطة المدن. وكانت الجمعية تحصل على المعلومات الاستخباراتية من عمال النظافة الذين يعملون بالشركات التجارية وكتبة المكاتب الحكومية والباعة بالأسواق العامة وخدم الأسر الإسبانية، فضلاً عن الحلاقين والعاملين بمكاتب الصحف. وكان هناك أيضاً أعضاء من بينوندو وسانتا كروز، ومنهم مائة شخص تقريباً من الطبقة الوسطى بينهم طبيب واحد ومدراء للمدارس وكتبة وأصحاب محالٍ تجارية وتجار وحرفيون وميكانيكيون– العديد منهم من الهجناء -الصينيين– ويبدو من الاطلاع على القوائم الإسبانية للثوريين الذين ألقي القبض عليهم أن الجمعية تكونت من أشخاص من جميع الأعمار تراوحت أعمارهم بين 16 و60 سنة.

وامتد نشاط الكاتيبونان إلى البلدات المجاورة في منطقة مانيلا وفي منطقة مورونغ إلى الشرق التي قام فيها كبار أعضاء الجمعية بأعمال التجنيد. ويتطلب الانتساب إلى الجمعية القيام بطقوس وشعائر أولية صعبة. ويتعرض أولئك الذين يصبحون أعضاء لمخاطر كبيرة بسبب يقظة السلطات وخاصة الرهبان الذين صارت شكوكهم تزداد بخصوص التجمعات غير العادية في كنائسهم.

ومع حلول وقت اندلاع الثورة في أغسطس 1896 كان عدد أعضاء الجمعية قد بلغ الآلاف من ضمنهم بعض النساء. وكانت زوجات الأعضاء لا يشعرن بالرضا من اختفاء أزواجهن ليلاً لممارسة الطقوس أو المشاركة في الاجتماعات السرية. لذا أُسِّسَ فرع للنساء في منتصف عام 1893 انضمت إليه زوجات وبنات وأخوات الأعضاء كمساعدين وشركاء. ولعبت النساء أدواراً هامة لأنهن كن بمثابة المراقبين في الغرفة الخارجية في الوقت الذي تجرى فيه الاجتماعات السرية في الغرفة الخلفية، كما كن يحتفظن بوثائق قيمة وأسلحة صغيرة، وكان بعضهن يوفرن المواد الغذائية والملجأ لزملائهن من الأعضاء. وقد أسست زوجة «إميليو أجوينالدو» (Emilio Aguinaldo) الصليب الأحمر في عام 1899 الذي وفر دعماً قيماً للجيش الثوري. ودُرِّبت الأعضاء من النساء على ركوب الخيل وإطلاق النار،

وشاركن أزواجهن وأبناءهن في ساحات المعركة في العديد من المناسبات خلال الثورة. وقد قادت النساء المحاربات العديد من المعارك في كافيت ولاجونا وباتانجاس وبولاكان وإيلوكوس، وأصبحت «آجيدا كاهاباغان» (Agueda Kahabagan) في لاجونا– المرأة الوحيدة التي وصلت إلى رتبة جنرال في الجيش الثوري.

ولجأت جمعية الكاتيبونان إلى العديد من الحيل لتضليل الحرس المدني الوحشي الذي روع السكان المدنيين من خلال القيام بعمليات الاعتقالات في أي وقت من النهار أو الليل. ففي بعض الأحيان كانت تعقد اجتماعات العامة للجمعية تحت ستار الحج، كما تعقد اجتماعات الخاصة بانتساب الأعضاء تحت غطاء حفلات الرقص وغيرها من التجمعات الاحتفالية، إذ كان موسم الجفاف في البلاد يمتد من أكتوبر حتى مايو وتقام في تلك الفترة الاحتفالات فيمكن عندئذ تمويه تجمعات الناس بأحداث تلك المهرجانات. ومن الأمثلة بالغة الأهمية على ذلك، تجمع أعضاء الجمعية يوم 23 أغسطس 1896 خلال مهرجان مدينة مالابون في إقليم مورونج المجاور لمانيلا، الذي كان قبل بضعة أيام من اندلاع الصراع المسلح. وعادة يُمثَّل قديس مالابون– سان بارتلومي– بصانع الخناجر (الذي يُسمى «سانغ بارتلوم» في لغة التاغالوغ – Tagalog) والذي يُعتبر السلاح الرئيس لأعضاء الجمعية. ولذلك تغص مدينة مالابون في يوم العيد بالدكاكين التي تبيع خلال الاحتفال جميع أنواع الخناجر وبكميات هائلة، فكان بإمكان الرجال الذين يحملون الخناجر أن يعبروا نقاط التفتيش الإسبانية من دون إثارة الشبهات.

وأضحى توزيع مواد الدعاية على الأعضاء أسهل مع انتشار الاختراع الجديد، ألا وهو الدراجات، في مانيلا التي كانوا يركبونها للقيام بتجنيد الأعضاء الجدد من خارج مانيلا. وكانوا يهربون بعض المواد الدعائية الخاصة بجمعية الكاتيبونان بطريقة مبتكرة من خلال لفها داخل أغلفة السجائر الأصلية، مما يحول دون اكتشافها من قبل السلطات الإسبانية. وقد أدت طباعة وتوزيع نشرة الكاتيبونان التي تحمل العنوان «كالايان» Kalayaan (أو الحرية) في مارس 1896 على ما يبدو إلى زيادة كبيرة في انتساب الناس للجمعية حيث كان ينضم إليها مئات الأشخاص في كل ليلة.

وفي نهاية المطاف صارت الجمعية تضم فلبينيين من مختلف الطبقات الاجتماعية والمناطق الجغرافية والمجموعات العرقية واللغوية. ومع امتداد العضوية من ضواحي

مانيلا إلى المقاطعات المجاورة في لوزون صارت الجمعية تضم كلاً من نبلاء المقاطعات والفلاحين المحليين. وبحلول مارس 1896 ومع زيادة توزيع صحيفة كالايان (Kalayaan)، انتشر أعضاء الجمعية في مقاطعات بولاكان وكافيت ونويفا إيسيجا وموورونغ وباتانجاس وبامبانجا ولاجونا.

ولم يكن عدد أعضاء الجمعية معروفاً بدقة لكنه تراوح بين 15 ألفاً و43 ألفاً في منتصف عام 1896، ناهيك عن العائلات والسكان المدنيين المتعاطفين مع الجمعية في مختلف المدن، إذ ليس هناك سجلات رسمية ذات مصداقية عن عدد الأعضاء لدى جمعية الكاتيبونان أو الحكومة الإسبانية. لكن بغض النظر عن العدد الفعلي فقد أصبح عدد أعضاء الجمعية يفوق عدد القوات الإسبانية التي تتكون من 3005 ضابطاً إسبانياً يدعمهم 14654 من الضباط والجنود الفلبينيين الأدنى رتبة (95٪ من الجنود المقاتلين). وبحسب بعض التقديرات فإن عدد أعضاء الجمعية يفوق عدد القوات الإسبانية بنسبة 20 إلى 1. غير أن أسلحة هؤلاء الأعضاء كانت بسيطة كالخناجر والسكاكين والحراب والرماح وبعض البنادق والمسدسات والتمائم، في حين أن القوات الإسبانية مسلحة بالبنادق والحراب والمدافع والصنادل النهرية والسفن الحربية، وإن كانت عتيقة.

وأدت زيادة وصول أخبار الجمعية إلى جميع الفئات والمناطق إلى زيادة الرقابة على الحياة المدنية وإحكام قبضة السلطات عليها. ومن المخبرين الذين استخدمتهم السلطات الرهبان الذي أصبحوا يرفعون تقارير عن الناس في كنائسهم. وفي أواخر عام 1895، لم تعد الكاتيبونان جمعية سرية، إذ بدأ الحرس المدني (بين مايو ويوليو 1896) في مالابون وباسيج ونوفاليشيز وسان ماتيو والحرس المدني (فيتيرانا)– الذين لا يعملون إلا في مانيلا ويتكونون من الحرس المدني المتقاعدين– بتفتيش المدن من بيت إلى بيت بحثاً عن المشبوهين لاعتقالهم في بولاكان وباتانجاس. وأصبحت قناعة الناس أن ارتداء السراويل أو التنانير الحمراء غير آمن على الإطلاق، إذ أن علم الكاتيبونان كان يتكون من اللون الأحمر. وكان يُلقى القبض على أي شخص يرتدي ملابس حمراء وربما يرسل إلى منفى بعيد من دون محاكمة.

وازداد مستوى القمع في عام 1895 مع تأسيس جهاز الشرطة السرية (Cuerpo de vigilância y Seguridad) الذي تمثلت مهمته في جمع المعلومات الاستخباراتية حول

الحياة في مانيلا ومراقبة أنشطة الأشخاص المشتبه بهم من ماسونيين ومبعدين ومتمردين مشتبه بهم، إلى جانب متابعة تحركات الأجانب في مانيلا من صينيين ويابانيين وبريطانيين وأمريكيين وألمان. ومن مهامها أيضاً تتبع الشائعات والتنصت على الاتصالات ومراقبة البريد الداخل والخارج من الفلبين وممارسة الرقابة على الآراء التي تنشر في الصحافة، وجمع الكتابات الثورية ومصادرتها، وتصوير الثوريين الذين يُعتقلون، وتوثيق اعترافاتهم، والإبقاء على مركزية كافة المعلومات الواردة من المؤسسات الرسمية والكنسية. وبعد أن اندلعت أعمال القتال أسس جهاز الفرقة السرية هذا هيئة من المفتشين والعملاء السريين لم تكن تضم الإسبان فحسب وإنما فلبينيين أيضاً، استمرت بالعمل من ديسمبر 1897 حتى أغسطس 1898 عندما سلم الإسبان مانيلا إلى الأمريكيين.

وبدأت المرحلة العلنية للثورة المناهضة للاستعمار بعد 23 أغسطس 1896 حيث تجمع في ذلك المساء الثوار الفلبينيون بقيادة أندريس بونيفاسيو (Andres Bonifacio) في منطقة بوجادلاوين (Pugadlawin) بضواحي مانيلا، وأعربوا عن رغبتهم بإنهاء الحكم القمعي الإسباني عن طريق تمزيق بطاقاتهم الشخصية التي تعتبر علامة خضوعهم لإسبانيا. وسمي هذا الحدث في الفلبين باسم «صرخة بوجادلاوين» ويعتبر رمزاً لاندلاع الثورة. ثم اندلع القتال دون توقف خلال شهري سبتمبر وأكتوبر.

ردت السلطات الإسبانية على الأعمال القتالية بتأسيس نظام حكم إرهابي. ودعا السكان الإسبان الخائفون محافظ بلانكو لاستئصال المتمردين وإجراء إعدامات بالجملة. فشنت الحكومة الإسبانية غارات خاطفة وقامت باعتقالات جماعية لرجال أغنياء وبارزين (إضافة إلى حفنة من النساء) واستولت على ممتلكاتهم. وأُودِع من ألقي القبض عليهم إما في سجن بيليبيد العسكري، أو قلعة سانتياغو الفظيعة، أو في آسيلو دي هورفانوس (في جزيرة كوفالنسيا على نهر باسيج). وكان من بين الذين قُبض عليهم بعض كبار قادة الكاتيبونان، وعدد من الأعضاء البارزين في لا ليغا فلبينا، وماسونيون، وأشخاص عاديون. واستُجوِب خدم من يشتبه بأنهم أعضاء في جمعية الكاتيبونان بخصوص أنشطة أرباب عملهم. وتعرض السجناء لأبشع أنواع التعذيب لانتزاع الاعترافات منهم وحملهم على الكشف عن أسماء الثوريين.

ويقال إنه اعتُقل أكثر من 4 آلاف شخص خلال فترة لا تتعدى بضعة أيام بعد اندلاع

الثورة في مانيلا. ونُقل المئات إلى المنفى في جزر ماريانا أو المستعمرة الإسبانية للعقوبات في أفريقيا (جزيرة فرناندو بو). وبحلول نهاية عام 1896 بلغ مجموع الأشخاص الذين رُحّلوا 998 شخصاً (وبعض الإحصاءات تشير إلى أرقام أعلى). وبدأت في سبتمبر 1896 سلسلة من الإعدامات التي كانت تجرى بشكل يومي تقريباً في باغومباباان والتي أعدم فيها فلبينيون من جميع الفئات من عامة الناس، ورجال أعمال أغنياء ومهنيين وقساوسة. ولم تقتصر عمليات الإعدام على أولئك الذين اعتقلوا وحوكموا في مانيلا فحسب وإنما شملت أيضاً المعتقلين من بقية المناطق الذين أُحضروا إلى باجومباباان حيث اعتُقِل مسؤولون فلبينيون، وهجناء، وحتى أفراد الشرطة، ولاسيما في توندو وبانداكان اللتين أصبحتا مهجورتين.

وجرت عمليات الاعتقال والتعذيب والإعدام في بقية الأقاليم أيضا. ويقال إن الإسبان قد قاموا بمذابح بحق الفقراء والفلاحين الأبرياء في بلدتين في بولاكان، كما ثمة روايات تقول إن الحرس المدني في ايلوكوس (في شمال غرب لوزون) قد قاموا بحضور رهبان أغسطينوس بتعذيب تسعة قساوسة فلبينيين تعذيباً مروعاً، حيث نفذ الرهبان في بعض الأحيان التعذيب بأنفسهم بمعرفة من المطران والحاكم الكنسي للأبريشة وإذنه، وذلك لانتزاع اعترافات منهم حول خطة مزعومة لاغتيال جميع المسؤولين الإسبان في الإقليم.

وسعى الحاكم العام إلى التقليل من أهمية «الاضطرابات» فوصفها بأنها أعمال لزهاء 500 شخصاً من اللصوص في منطقة نوفاليشيس (ضاحية تقع خارج مانيلا) جاءوا من الجبال لحاجتهم إلى الطعام. لكن من الواضح أنه لم يكن لهذه الدعاية أثر يذكر على الشائعات التي انتشرت بين الإسبان بخصوص مؤامرة لجمعية الكاتيبونان للاستيلاء على مانيلا وذبح سكانها الإسبان. لذا فقد بذلت الحكومة جهوداً محمومة لتعزيز تحصينات المدينة، فأصلحت الجسور المتحركة في المدينة التي لم ترفع منذ عام 1852 لإغلاق أسوار مدينة إنتراموس في وجه ثوار الكاتيبونان. ووزعت الأسلحة على الإسبان في إنتراموس حيث يقال بأن الجنود كانوا يسيرون وهم يحملون خناجر وحراباً بصورة واضحة. وازداد خوف الإسبان من الفلبينيين الموجودين فى إنتراموس الذين يعملون خدماً وطهاة لخشيتهم بأن يقتلونهم وهم في منازلهم. لذا فكرت السلطات بإصدار أمر لمنع هؤلاء الفلبينيين من

الاحتفاظ بأية سكاكين حادة أو مدببة يمكن أن تستخدم كأسلحة أو استخدامها. وأغلق الإسبان المقيمون في مانيلا مكاتبهم ومتاجرهم خوفاً من انتشار مختلف الشائعات، كما أُغلقت المتاجر في مركز الأعمال في إسكولتا وروزاريو (في بينوندو) التي كانت تعج بالحركة والنشاط والأضواء عادة.

وساد الجو نفسه خارج إنتراموس بين المستعمرين بسبب انتشار الخوف وعدم اليقين. فبعد أن كانت منطقة لونيتا التي وصفها أحد الزوار الفرنسيين بأنها «المكان الذي يطلقون النار فيه على الرجال في الصباح، ويقيمون الحفلات الموسيقية في المساء» عادة مزدحمة وتشبه المتنزه، أمست مقفرة ومظلمة. وصارت الشوارع والساحات مهجورة حتى قبل غروب الشمس في كالوكان وباتيروس وتاجويج التي اندلعت فيها معارك بين القوات الإسبانية والثوريين. وأُغلقت المنازل والنوافذ وعمّ ظلام دامس. وصار الناس شديدي التوتر والذعر لدرجة أنهم يفترضون أن كل صوت عال يعني طلقة تتجه نحوهم. واختفى لعب الأطفال في الساحات والشوارع وأمست الأسواق العامة مقفرة حتى في أيام السبت (كما هي الحال في باسيج). ولجأ كثيرون من سكان المدن إلى الكنائس والأديرة أملاً في أن تحميهم الجدران الضخمة لهذه الأبنية من نيران أسلحة الإسبان وهجمات الثوار الفلبينيين. وانتشرت في المناطق التي وقعت فيها المعارك– الأسيجة المكسورة والجثث المتناثرة لقتلى ارتدى معظمهم ملابس العمل، لتزيد من الشعور العام بالخوف والهلع.

ولوحظ تدفق للناس باتجاه مانيلا حيث انتقل معظم الإسبان وغيرهم من الأجانب من إرميتا ومالات إلى إنتراموس، متوقعين أن يكون الوضع الأمني هناك أفضل. ومن الناس الذين انتقلوا إلى هناك الحاكم العام الذي تخلى عن قصر مالاكانيانج مقر إقامته الرسمي بجانب نهر باسيج. وعلى الرغم من القيود المفروضة على إقامة الفلبينيين في إنتراموس، فقد تدفقت أيضاً حشود من المواطنين المسالمين على إنتراموس بحثاً عن النجاة من المعارك في ضواحي مانيلا حيث لم يكن لدى الكثير منهم على ما يبدو أي علم بالثورة قبل اندلاع القتال.

وكما كانت هناك موجة من الأشخاص القادمين إلى مانيلا كانت أيضاً ثمة حركة أكثر وضوحاً بين الفلبينيين، بمن فيهم الثوريون الذين غادروا المدينة باتجاه مدن المقاطعات الشمالية والشرقية وحتى نحو المناطق الجبلية والغابات التي يتعذر الوصول إليها مثل

كالوكان ونوفاليشس حيث عاش بعضهم في كهوف أو حصون بدائية كما هي الحال في سان ماتيو وماريكينا. وعاد الطلبة الذين كانوا يدرسون في مانيلا إلى ديارهم في الأقاليم بسبب إغلاق المدارس بصورة مؤقتة. ويقدَّر بأن نحو 20 ألف شخص غادروا مانيلا بعد اندلاع الثورة.

وبصورة عامة، لم يصب الأجانب في مانيلا أيّ أذى، على الأقل خلال هذه الفترة المبكرة، حيث استمرت أعمالهم كالمعتاد. ويبدو أنه لم تتأثر جميع المناطق في المدينة والأماكن المجاورة بصورة مباشرة من جراء القتال. ومع ذلك فإن الأوروبيين الذين يقدر عددهم زهاء 400 أعدوا خطط طوارئ للنزوح عن مانيلا في حال هاجم الثوار المدينة حيث أرسلت بريطانيا سفينتين حربيتين، وأرسلت فرنسا وألمانيا سفينة لكل منهما، وجُهِّزت الزوارق الصغيرة المحلية في نهر باسيج لنقل الأشخاص الذين قد يُجلَون إلى السفن الراسية في خليج مانيلا. ولجأ بعض الصينيين أيضاً إلى إنتراموس، غير أن زهاء 5 آلاف من الأثرياء الصينيين الذين خافوا على سلامتهم وممتلكاتهم فروا إلى هونغ كونغ. واشتكى 10 من السكان اليابانيين في مانيلا معظمهم من الموظفين في شركات أو أسواق تجارية أو الأسواق المتزوجين من فلبينيات والمتعاطفين مع الثورة من تعرضهم لمضايقات من الحرس المدني (فيتيرانا)، فقد كان الحرس يقومون بتفتيش محلاتهم في جميع الأوقات بحثاً عن الأسلحة، مما عقّد من ظروف حياتهم وعرّضهم للخطر.

وخلال الأشهر الأربعة الأولى من الثورة (من أغسطس حتى ديسمبر 1896)، فرّ العديد من العائلات الإسبانية إلى هونغ كونغ، وعاد بعضها إلى إسبانيا، الأمر الذي جعل حاكم المدني في مانيلا يصدر أمراً بأن تُقدَّم جميع جوازات السفر أو بطاقات الهوية إلى السلطات بغية التصديق عليها قبل أن يتمكن أحد من مغادرة العاصمة. فأوقف بذلك حركة النزوح الجماعي باتجاه المستعمرة البريطانية.

وكان هناك سبب لهذه الهستيريا إذ لا يوجد للدفاع عن مانيلا سوى حامية صغيرة تتألف من 700 من جنود المدفعية الإسبان وزهاء 2500 جُندي فلبيني يشك في ولائهم حيث فر في نهاية المطاف الكثير من الفلبينيين والهجناء الإسبان في الجيش الإسباني إلى الثوار.

وأسس الحاكم بلانكو (Blanco) جيشاً من «ميليشيا المتطوعين» (فولونتاريوس –

Voluntarios) لمساعدة الجيش الإسباني على التصدي للثوار الفلبينيين يضم بين صفوفه رجال أعمال بارزين وأثرياء ومحامين وقضاة وأصحاب عقارات وموظفين فقراء، وحتى رهباناً كضباط احتياط يتدربون تدريباً يومياً في إنتراموس ويقومون بدوريات في الضواحي. وأظهر المتطوعون المحليون من العديد من المقاطعات مثل بامبانجا وتاياباس (مقاطعة كويزون الآن)، وإيلوكوس وكاجايان وبانجاسينان، ولاءهم للتاج الإسباني من خلال إرسال الرجال والأموال والأسلحة والمواد الغذائية والإمدادات الطبية وحتى الخيول للجيش الإسباني.

ويُقال إن مليشيا «الفولونتاريوس» في مانيلا والعديد من وحدات حرب العصابات الإسبانية قد قامت بالكثير من التجاوزات بحق المدنيين الفلبينيين في مانيلا والمقاطعات. ومن هذه الانتهاكات حملات التفتيش غير القانوني للمنازل الخاصة، والمعاملة الوحشية للأشخاص المشتبه بهم، واغتصاب بنات الأسر الفلبينية، ونهب الممتلكات الخاصة. وقد اضطر الحاكم العام بسبب زيادة هذه التجاوزات إلى الإعلان بأن أي شخص يدان بارتكاب مثل هذه الجرائم سوف يعاقب بالإعدام.

وفي الوقت نفسه كانت هناك تقارير عن مواجهات شبه يومية في العديد من المقاطعات في لوزون (لم تكن جميع مقاطعات الأرخبيل ناشطة في الثورة) بين القوات الإسبانية والثوار والتي لم يأسر فيها الإسبان أحداً وإنما كانوا يطلقون النار أو يطعنون كلاً من المتمردين وغير المقاتلين على حد سواء. ويقال إن من بين الضحايا كانت النساء والأطفال إذ انضم بعض الأطفال أيضاً إلى صفوف الثوار وكانوا يعملون في بعض الأحيان كسعاة وخفراء حيث سُجّل أن أصغر الثوار سناً كان صبياً يبلغ من العمر 10 أعوام في سان رافائيل ببولاكان. وقد تباهى أحد الضباط الإسبان بأنه أمر بإعدام ثائرَين لا يتجاوز مجموع عمريهما 20 عاماً، لكنه قال واصفاً ذلك: «عندما جثيا استعداداً للإعدام لم أتمالك نفسي من الإعجاب بالطريقة التي واجها فيها الموت في وقت مبكر من حياتهما».

وارتكب أيضاً الثوار الفلبينيون العديد من الفظائع بحق التجار الصينيين أو الأوروبيين الذين اعتقدوا خطأً أنهم إسبان. وأفيد عن تعرض الإسبان لسوء المعاملة أينما وجدوا حتى لو كانوا رهباناً. لكن في بعض الأحيان أعفي عن الرهبان وسمح لهم بالهروب حيث كان ذلك بصفة عامة نتيجة للتحذير المبكر من قبل الرعايا الأوفياء ولاسيما النساء.

بيد أنه لم يحدث الهجوم المتوقع للثوار على مانيلا الذي كان من المقرر أن يقع في 30 أغسطس لأن إخفاق الثوار في التنسيق فيما بينهم منع من تحقيقه. فوقعت سلسلة من الاشتباكات بين الجيش الإسباني والثوار بقيادة بونيفاسيو في ضواحي مانيلا والمدن القريبة لكن معظمها انتهى بهزيمة الفلبينيين وتراجعهم. وكان شهر أغسطس والأشهر التالية هو موسم سقوط الأمطار، وأدت الأمطار الموسمية الغزيرة والرطوبة العالية والأراضي الموحلة وارتفاع منسوب الأنهار إلى زيادة صعوبة تنفيذ العمليات. وفي ديسمبر 1896 انسحب بونيفاسيو وقواته إلى مقاطعة كافيت.

شعر الإسبان في المدينة بالارتياح نوعاً ما بعد انسحاب الثوار. وفي تلك الأثناء وصل إلى مانيلا الحاكم العام الجديد كاميلو دي بولافيا الذي يقال إنه رجل يتمتع بقدرات عسكرية كبيرة. واحتفلت المدينة مع وصول التعزيزات للقوات من إسبانيا واستُقبلت هذه القوات باحتفالات عارمة تضمنت مسيرات في الشوارع، وإقامة ولائم فاخرة، والخطب الحماسية التي تصف الأعداء بالوحوش وأكلة لحوم البشر. واضطر والفلبينيون والمولدون المقيمون في إنتراموس في هذه المناسبات إظهار فرحتهم بوصول القوات الإسبانية لأنه كان يجري اعتقال كل من لا يبدي بهجته بقدوم التعزيزات.

وبعد أن استعاد الإسبان كافيت في مايو 1897 عادت الحياة في مانيلا إلى طبيعتها تقريباً فأُعيد فتح المدارس، وازدحم منتزه لونيتا مرة أخرى بالمرتادين الراغبين في الاسترخاء وممارسة رياضة المشي التقليدية المعروفة باسم باسيو (Paseo)، والاستمتاع بالترفيه المجاني الذي تقدمه فرق الموسيقا العسكرية. وامتلأت مخازن بينوندو بسلع الرفاهية والأغذية المستوردة استعداداً لموسم عيد الميلاد الذي كان يؤمل بأن يكون سعيداً. وافتُتحت أول دار للسينما في مانيلا في عام 1897 بالقرب من إسكولتا هي دار سينيماتوغرافو. وعرضت أربعة مسارح في ضواحي مانيلا مسرحية زارزولاس الشعبية التي مثل فيها فنانون فلبينيون وإسبان وأقيمت حفلات الأوبرا الكلاسيكية بتنظيم من شركات زائرة فرنسية وإنجليزية وإيطالية مختصة بتنظيم حفلات الأوبرا. وواصلت الصحف الصدور كالمعتاد على الرغم من الرقابة الصارمة وأوردت تقارير تفيد بأن كل شيء قد صار تحت السيطرة.

وحتى عند عودة إيقاع الحياة المعتادة إلا أن المعارك بين الإسبان والثوريين استمرت في المقاطعات واعتُقل أعضاء الكاتيبونان والماسونيين في مانيلا كما جاء المزيد من القوات

من إسبانيا. وفي منتصف موسم عيد الميلاد في عام 1896 حُكم على جوزيه ريزال بتهمة «التمرد والفتنة وتشكيل جمعيات غير مشروعة» وأعدم رمياً بالرصاص في باجومبايان في الصباح الباكر من يوم 30 ديسمبر. ولم يُرِدْ ريزال أن يُطلق النار عليه في ظهره لأنه كما قال للضابط المسؤول عن تنفيذ حكم الإعدام: «أنا لست بخائن لا لبلدي ولا للأمة الإسبانية!». وكان لاستشهاد ريزال انعكاسات خطيرة على السيادة الإسبانية في الفلبين لأن شخصيته ورباطة جأشه أثرتا على كثير من أفراد الشعب العاديين الذين لم يكونوا بالضرورة يدعمون الثورة في تلك المرحلة. وأصبح اسمه بمثابة صرخة للمّ شمل ثورة الفلبين ومصدر إلهام لها وأضحى أعظم بطل للقومية الفلبينية.

الحياة في مقاطعة كافيت: معقل الثورة

انتشرت الدعوة للثورة في جميع مدن كافيت (Cavite) الثماني عشرة في يوم 31 أغسطس 1896 حيث لبت جميع المدن نداء الثورة وسقطت الواحدة تلو الأخرى بيد المتمردين. وكانت كافيت أنجح جبهة للتمرد إذ تحررت من الحكم الإسباني بحلول ديسمبر 1896 باستثناء مخزن الأسلحة والقاعدة البحرية والميناء.

ويرجع نجاح الثوار في كافيت إلى تحسن القيادة العسكرية، إذ كان جنرالات كافيت يتمتعون بما يكفي من المعرفة لبناء الخنادق في مواقع استراتيجية والاستعداد للمعركة (من خلال الحصول على أسلحة أكثر وأفضل). والأهم من ذلك أنهم كانوا يحظون بدعم جميع السكان المدنيين من رجال ونساء وأطفال، ومدراء للمدارس وقساوسة وسكان المدن. ونتيجة لذلك حقق أجوينالدو (Aguinaldo)، وهو قائد عسكري أفضل من بونيفاسيو (Bonifacio)، نصراً في المعارك التي لم يتمكن الأخير من إحراز النصر فيها. ويقال إن الثورة ضد الحكم الإسباني كانت أكثر حدة في مقاطعات التاغالوغ التي توجد فيها المزارع الخاصة بالرهبان وتشمل بولاكان ولاجونا وموورونج وباتانجاس وكافيت. وكانت كافيت أكثر هذه المقاطعات ميلاً إلى الحرب والنضال. وتبلغ مساحة مزارع الرهبان في هذه المقاطعة 45 ألف هكتار (من أصل مجموع مساحة أراضي المقاطعة والبالغة 250 ألف هكتار، والهكتار مايساوي عشرة آلاف متر مربع) وهي تمتد على أفضل

الأراضي المزروعة وأكثرها خصوبة. ويمتلك هذه الأراضي كل من الدومنيكان[25] (نايك وسانتا كروز دي مالابون) والأغسطسيين[26] (سان فرانسيسكو دي مالابون) والإخوان الفرانسيسكان[27] (The Recollects). ويعتمد سكان مقاطعة كافيت في معيشتهم على الأرض والزراعة، وكان قادة الكاتيبونان في كافيت من ملاك الأراضي، والرجال المقاتلون من عمال المزارع في المناطق الريفية الفقيرة، لذا يشترك جميعهم بالإحساس بالظلم الذي لحق بهم من مزارع الرهبان، إذ انتُزعت ملكية الأراضي من بعض العائلات بصورة غير مشروعة بحسب رأيهم فانسحبوا إلى الجبال والغابات لينخرطوا من هناك بالحركات الانتقامية من السلطات الإسبانية وأزلامها. وذاع صيت كافيت بأنها مركز للصوص والخارجين على القانون الذين انخرط بعضهم بين صفوف الثوار. لذا ليس من المستغرب أن يؤكد سكان كافيت على حقهم في ملكية مزارع الرهبان بعدما صارت المقاطعة تحت سيطرة الثوار. وفي أكتوبر 1896 غدت كافيت أول مقاطعة يُطرد فيها الرهبان من مزارعهم، وصارت الحكومة الثورية تجبي الإيجارات المخفضة من المزارعين وبدأ الناس بالنضال المستميت دفاعاً عن ممتلكاتهم.

يختفي الفارق في الحرب الثورية بين المدنيين والثوار، فقد قدم العديد من سكان المدن في كافيت الدعم المادي والمعنوي للثوار إضافة إلى الطعام والمأوى. ففي كثير من الحالات كانت عائلات قادة الكاتيبونان ترتبط فيما بينها بصلة القربى. لذا فقد فتحت تلك العائلات بمن فيهم والدة إميليو أجوينالدو مخازن حبوبها أمام الثوار. ولعب أيضاً الأقارب المدنيون للثوار دور جواسيس وكانوا يحصلون على المعلومات القيمة من الإسبان. وقد قامت أجيدا إستيبان، وهي زوجة الجنرال أرتيميو ريكارتي، برحلات عديدة إلى مانيلا لشراء الإمدادات اللازمة لصنع البارود والرصاص. وقام الرجال والنساء والأطفال بجمع الخراطيش الفارغة والقذائف التي لم تنفجر بعد كل اشتباك مع الزوارق الحربية والمدفعية الإسبانية لاستخدامها في صنع الذخيرة المعاد تدويرها. وكان يوجد مصنع للرصاص وآخر للبارود في إيموس التي صُهِرت أجراس كنيستها لصنع المدافع. وكان يدير مصانع

(25) إحدى الطوائف الرومانية الكاثوليكية.

(26) طائفة من المسيحية اتخذت اسمها من القديس أغسطين أوف هيبو (Augustine of Hippo) يعيشون حياتهم الدينية وفق المبادئ التي أرساها القديس أوغسطين أو ما يُعرف باسم «حكم القديس أوغسطين».

(27) طائفة تابعة للكنيسة الرومانية الكاثوليكية تأسست في القرن السادس عشر في إسبانيا.

الذخائر اثنان من الصينيين المقيمين في الفلبين. وكانت النساء المدنيات أيضاً يخاطرن بحياتهن من أجل إحضار الطعام إلى ساحة المعركة ورعاية المرضى والجرحى.

عمت الفرحة سكان كافيت بعد طرد الإسبان من المقاطعة على الرغم من أنهم كانوا على علم تام بأن الحرب لم تنته، فصاروا يستمتعون بالرقص، والنزهات تحت الأشجار، والمقامرة، ومصارعة الديكة. وبقي سكان المقاطعة ينعمون بحياة طبيعية حتى يناير 1897 فكانوا يقيمون حفلات الزفاف والتعميد في جو طبيعي قد يعكر صفوه في بعض الأحيان القصف ونيران مدفعية القلعة ومخزن الأسلحة الإسباني. لكن عيد الميلاد في عام 1896 لم يكن سعيداً تماماً كالعادة فقد أقيمت احتفالاته وطقوسه التقليدية تحت القصف المستمر للمدافع الإسبانية فرُفع صوت الموسيقا لإخفاء أصوات المدافع. واللافت في القداسات الكاثوليكية التي أقيمت احتفالاً بعيد الميلاد العظة التي ألقاها القساوسة الفلبينيون التي حثوا فيها الرعية على الإخلاص لقضية الثورة.

ويقال أيضاً إنه في كافيت لم يكن الناس وحتى القادة الثوريين يكنون عداء قوياً للرهبان كحال الثوريين من مانيلا لأنهم أكثر تديناً بكثير ويحرصون كثيراً على حضور القداديس ولاسيما أثناء الأعياد، وكانت إقامة الصلوات شائعة في الكنائس في جميع المدن، وحتى إن القادة الثوريين أنفسهم أمروا جميع المقاتلين بأن يحضروا القداس بانتظام. ويقال إنه كانت تتلى الصلوات قبل القيام بالعمليات العسكرية، وكانت تتلى صلاة الشكر بعد تحقيق النصر، كما كانت تقام القداسات من أجل جميع من يُقتل في المعركة بمن فيهم الإسبان لأنهم مسيحيون.

وعلى الرغم من وجود حالات سوء معاملة للرهبان في كافيت، فإنهم بصفة عامة عوملوا باحترام وتبجيل، وكثيراً ما سمح العديد من المسؤولين المحليين والقادة العسكريين للرهبان بالفرار قبل شن المواجهات عسكرية. وكان ذلك يتم أيضاً في أقاليم أخرى من الفلبين وخاصة مقاطعة لوزون الشمالية الغربية وبيكول، لكن بصورة أقل من ذلك، فكانت بعض النساء– إضافة إلى الثوريين– أحياناً يتدخلن لحماية القساوسة الإسبان. وكان القساوسة الفلبينيون يشغلون الأبرشيات الشاغرة التي يُستولى عليها في تلك المناطق. وقد ساهم دعم هؤلاء القساوسة في تجييش الناس لصالح الثورة.

ونتيجة لتحرير كافيت من الحكم الإسباني رحل الكثير من عائلات اللاجئين وقادة

الكاتيبونان من مانيلا والأقاليم القريبة إلى تلك المقاطعة. وكان سكان كافيت يسمي أولئك الناس بـ alsa–balutan (أولئك الذين حزموا أمتعتهم وانتقلوا). وكان يُرحِّبُ بهم على مضض لأنه يبدو أن السبب الوحيد لقدومهم إلى كافيت هو إنقاذ حياتهم. وفي نوفمبر 1896 جاء الآلاف من الرجال والنساء، شيباً وشباباً، إلى ما كان يُسمى بـ «جمهورية كافيت الصغيرة» وهم محملون بجميع ممتلكاتهم. ويتكون هؤلاء اللاجئون من عائلات كاملة من أماكن عديدة ومن مدينة مونتنلوبا التي تركها جميع سكانها تقريباً. وجاء أيضاً سكان ماليباي (باساي) بشكل جماعي مع زعيمهم بمرافقة فرقتهم الموسيقية وجلبوا معهم تحف كنيستهم وصور قديسيهم.

وشكّل اللاجئون ضغطاً على موارد ومؤن المقاطعة مما جعل الجميع من مقاتلين ومدنيين يتعرضون لصعوبات هائلة. ولتوفير الغذاء للجميع أُمر الناس بالعودة إلى الزراعة حيثما كان ذلك ممكناً، ليس لتوفير الغذاء لأنفسهم فحسب وإنما للثوريين أيضاً. وشُجّع الناس على زراعة الأرز والذرة ومختلف المحاصيل تحسباً لتجدد الحرب.

وعادت المدن الساحلية للصيد في المياه الآمنة وازدهرت أسواق مرة أخرى وخاصة في



فرقة موسيقية تابعة للمدينة مع الآلات الموسيقية المصنوعة من الخيزران في فيساياس (من مجموعة الصور الرقمية لمكتبة جامعة ويسكونسن)

المدن الخاضعة لسيطرة المتمردين التي استقر فيها اللاجئون من مانيلا والمناطق القريبة منها. وأصبحت باكور سوقاً مركزية حقيقية تتوافر فيها السلع القادمة من مانيلا وضواحيها، بما فيها البارود، ما عدا السيجار والسجائر والخمور التي كانت جميعها محظورة.

وفي منتصف فبراير 1897 شن الحاكم العام بولافيا هجوماً شاملاً لاستعادة كافيت من الثوار بعد وصول تعزيزات إسبانية ذات قدرات نارية متفوقة، وذخائر غير محدودة، ومؤن وفيرة، وسفن وزوارق حربية في خليج مانيلا. وكان الهجوم الإسباني على كافيت والإقليمين القريبين منها باتانجاس لاغونا مكلفاً للغاية سواء من حيث الموارد أم الرجال. فإضافة إلى خسائر الحرب أصيب العديد من الجنود الإسبان بالملاريا والزحار. وبدأ الهجوم بقصف واسع النطاق طوال ثلاثة أيام للمدينة الساحلية نوفيليتا، فتراجع الثوار مع الرجال والنساء والجنود الجرحى وسقطت مدن أخرى في وقت لاحق في أيدي الإسبان بعد تكبد الطرفين ولاسيما الثوار خسائر فادحة. وأدى التناحر الداخلي، والاشتباكات الشخصية، والخلافات حول التنظيم الحكومي والإقليمي إلى الانقسام بين صفوف الكاتيبونان. وبحلول مايو 1897 استعاد الإسبان المقاطعة فانسحب أجوينالدو ورجاله شمالاً إلى بياك–نا–باتو في بولاكان.

وتلقى سكان مانيلا، ولاسيما الإسبان في إنتراموس، أخبار النصر الإسباني بفرحة عارمة فعُلق العلم الإسباني على المنازل التي زينت بألوان إسبانيا، وجالت شوارع العاصمة مانيلا الفرق الموسيقية من الضحى حتى الليل. وفي المدن التي استعادها الإسبان أحرقوا أو دمروا الكنائس والمنازل والمخازن والأدوات الزراعية وقتلوا الدواب المستخدمة في الزراعة. وارتكبت مذابح بحق المدنيين في بعض البلدات وتعرضت النساء للاغتصاب حتى اللاتي لجأن إلى الكنائس. ولم يكن مستغرباً أن ينضم بعض سكان البلدات والمقاتلين إلى الجانب الإسباني تحت تأثير الوعود الإسبانية بتأمين الطعام لهم والحفاظ على سلامتهم.

ومع تقدم الإسبان حصلت في جميع أنحاء المقاطعة موجة جديدة من اللاجئين الذين نزحوا من مدينة إلى أخرى. ومع زيادة ضعف سيطرة الثوار لجأ بعض اللاجئين من مدن كافيت التي تتعرض للقصف ونيران المدفعية إلى مقاطعة لاجونا التماساً للسلامة حيث تحركوا بشكل جماعي بالعربات أو على ظهور الدواب. وعندما كانوا يصلون إلى البلدات الأكثر أماناً كان الكثيرون منهم ينامون في الساحات والشوارع بعد أن

غصت منازل السكان باللاجئين. وكان هناك مواكب دائمة للمدنيين الذين يبحثون عن أزواجهم وزوجاتهم وأطفالهم وأماكن للإقامة. وانتقل الكثير من اللاجئين إلى التلال والأحياء المعزولة وصاروا يقتاتون على النباتات والفواكه والخضروات.

وأدّت هجمات الإسبان على مناطق جنوب لوزون مثل كافيت وباتانجاس ولاجونا وتاياباس إلى أزمة إنسانية وخاصة في كافيت وباتانجاس بسبب شح المواد الغذائية الناجم عن استمرار الحروب. فخلال الهجمات الإسبانية في عام 1897 لم يكن من الممكن القيام بزرع أو حصاد الأرز. وقد ازداد الوضع سوءاً بسبب عدم وجود دواب للعمل علاوة على إرهاق وسوء صحة المزارعين الذين كانوا أيضاً من المقاتلين. لذا فقد تقلصت الإمدادات الغذائية في كافيت، مما أدى إلى انتشار الجوع وسوء التغذية وتفشي الأمراض (مثل الملاريا وحمى الضنك والزحار) التي كانت تودي في كثير من الحالات إلى الموت. واستغرق الأمر وقتاً طويلاً كي يعود الناس إلى المدن، ووقتاً أطول كي يستأنفوا البذر والغرس. وأما في باتانجاس الغربية فقد استمرت أزمة الغذاء لفترة أطول حيث بلغت ذروتها في عام 1898 ولم تنته إلا مع قيام القوات الأمريكية بإحلال السلام في الإقليم في عام 1902.

انتشار الثورة في لوزون

إضافة إلى مانيلا- موررونج وكافيت كانت الثورة في مراحلها الأولى أكثر حيوية في المقاطعات الست لاجونا وباتانجاس وبولاكان وبامبانجا، وتارلاك ونويفا إيسيجا (تمثل أشعة الضوء الثمانية في العلم الفلبيني هذه المقاطعات الست إضافة إلى مانيلا- موررونج وكافيت). فوضع الحاكم العام رامون بلانكو جميع هذه المقاطعات تحت الأحكام العرفية وأعلنها منطقة حرب في 30 أغسطس 1896. وفي وقت لاحق امتدت الثورة أيضاً إلى تاباياس وباتان وزامباليس وبانجاسينان وإيلوكوس ولا يونيون وجزيرة ميندورو.

وعلى الرغم من انحسار الصراع الناجم عن انسحاب بونيفاسيو إلى كافيت في ديسمبر 1896، وتراجع أجوينالدو إلى بولاكان في مايو 1897 يمكن القول إن الحرب تواصلت في هذه المقاطعات الست، إذ كثيراً ما كانت العصابات تتجمع لتستولي على مدينة ما، فتشن القوات الإسبانية هجوماً مضاداً، وتخوض معارك ضارية، فتتناثر الجثث في مواقع المعارك، فيتراجع المتمردون، ويعود الإسبان أدراجهم.

وحصل دمار واسع النطاق وسقط العديد من الضحايا بين السكان المدنيين بسبب الإجراءات الإسبانية التي كانت غالباً متعمدة وتمييزية. ولم يقتصر الأمر على تحويل العديد من القرى إلى أثر من بعد عين وتدمير محاصيل الأرز باستهتار فحسب، وإنما أيضاً لم يعد بإمكان المزارعين أن يعتنوا بحقولهم بسبب خوفهم من أن يقبض عليهم الإسبان بذريعة أنهم جواسيس. وقد كانت لوزون الوسطى في الماضي سلة الأرز لإقليم لوزون غير أن العمليات الحربية الإسبانية جعلت حتى هذه المنطقة تعاني من شح في المواد الغذائية.

ومع اقتراب موسم الأمطار في العام 1897 ازدادت الحرب صعوبة بالنسبة للجانبين. وصار من الصعب على القوات الإسبانية أن تجلب جنوداً كفوئين ليحلوا محل الجنود القتلى والجرحى والمرضى حيث أضحت هذه التعزيزات تتألف من الفتيان غير المدربين تدريباً جيداً، الذين يرتدون ثياباً غير مناسبة، ولا يُغَذَّون بصورة جيدة، وتتأخر ورواتبهم لشهور. ولم يكن الثوار أحسن حالاً، فقد كانوا يعانون من الأعداد الكبيرة للخسائر، وعدم وجود أسلحة فعالة، ونقص في الإمدادات وخصوصاً الطعام للجنود، إضافة إلى الأمراض والافتقار إلى المرافق الطبية. لذا لم يتمكن أي من الجانبين من تحقيق أي انتصار حاسم.

انتهت المرحلة الأولى من الثورة بشكل غير حاسم حيث أبرم الجانبان اتفاقاً لوقف إطلاق النار في ديسمبر 1897. ووافق أجوينالدو على الذهاب إلى المنفى في هونغ كونغ طواعية بعد أن دفعت الحكومة الإسبانية له ولمجلسه العسكري الثوري مبلغاً أولياً قدره 400 ألف بيزو (200 ألف دولار أمريكي).

وابتهج كلا الجانبين لوقف القتال. وأشاد أجوينالدو بجميع المتعاطفين معه الذين ودعوه قبل توجهه إلى هونغ كونغ وأقاموا حفلة راقصة على شرفه. واحتفل الإسبان في إنتراموس بنهاية الحرب التي دامت 16 شهراً خلال قداس عيد الشكر وسط صدح أجراس الكنائس والموسيقا التي تعزفها الفرق الموسيقية. وكان شهر يناير حاشداً بالاحتفالات حيث أقيم مسرح في الهواء الطلق، وانتشرت الفرق الموسيقية وطاولات ورق اللعب في كل مكان.

لكن لم تضع الهدنة حداً للأعمال العدائية، فقد دخل الجانبان في الاتفاق بسوء نية ولم يكن أي منهما على استعداد حقيقي للتخلي عن القتال، وإنما كانا ينتظران الوقت

المناسب لمواصلة القتال ويحشدان الموارد لذلك. وارتكب الإسبان ولاسيما الحرس المدني في تيرانا أعمالاً وحشية جديدة، إذ قاموا بالقبض على الرجال وقتلهم سراً من دون توجيه اتهامات. وألقي القبض مرة أخرى على الأشخاص الذين شاركوا بالثورة بناء على اتهامات سخيفة أو ملفقة، وأُعدم المشتبه بهم ولم يتمكن إلا القليل منهم من الحصول على عفو خاص بدلاً من العفو العام. وشن الثوار من جانبهم العديد من الهجمات المتفرقة ضد الحاميات الإسبانية خلال فبراير ومارس وأبريل 1898 في مانيلا وكافيت ومقاطعات لوزون المختلفة.

الحرب الإسبانية الأمريكية

مع تصاعد التوتر بين الولايات المتحدة وإسبانيا بخصوص كوبا في مطلع عام 1898، أرسل مساعد وزير البحرية ثيودور روزفلت الأسطول البحري الآسيوي إلى هونغ كونغ. وكان من الواضح أنه إذا ما اندلعت الحرب مع إسبانيا فسوف تستفيد أمريكا من مزايا تكتيكية من خلال مهاجمتها للممتلكات الإسبانية في الفلبين. وقد كان ذلك العصر عصر الإمبريالية وعرض القوة البحرية للتأثير على الخصوم، لذا من شأن الفلبين أن توفر قاعدة مثالية لإظهار القوة البحرية الأمريكية في غرب المحيط الهادئ.

غير أن البحرية الأمريكية في ذلك الوقت لم تكن قد اختبرت بعد، كما أن الأسطول البحري الآسيوي يفتقر إلى القدرة على الحرب البرية لانتزاع الفلبين من السيطرة الإسبانية. لذا كانت واشنطن ترى أن أجوينالدو وثورته مفيدة بالنسبة لها. فعقد القناصل الأمريكيون في سنغافورة وهونغ كونغ اجتماعات مع أجوينالدو شجعوه فيها على إقامة تحالف مع الولايات المتحدة ضد إسبانيا (وقد عاد أجوينالدو في وقت لاحق إلى مانيلا على متن إحدى سفن جورج ديوي بعد معركة خليج مانيلا).

وعندما بدأت الحرب الإسبانية الأمريكية في أبريل 1898 بدأت أسر المدنيين تفر من مانيلا عبر نهر باسيج نحو خليج لاجونا الذي يقع خلف الضواحي في حين لجأ الأمريكيون وغيرهم من العائلات الأجنبية الأخرى في مانيلا إلى السفن الأجنبية في خليج مانيلا، وبعضهم الآخر دفع مبالغ طائلة للتوجه إلى هونغ كونغ مع نزوح الصينيين بالمئات مرة أخرى. وتوقفت التجارة مع مانيلا بسبب تأثر الحي التجاري بينوندو تأثراً

كبيراً بتلك الأحداث.

وكان الأسطول الأمريكي يقوده جورج ديوي الذي كان آنذاك عميداً بحرياً. وفور اندلاع الأعمال العدائية صدرت الأوامر لديوي بمهاجمة الأسطول الإسباني في الفلبين. وعندما دخل أسطول ديوي خليج مانيلا فرّت النساء والأطفال الإسبان إلى القرى المجاورة في حين أن الذكور منهم بجميع فئاتهم إضافة إلى بعض المساعدين المحليين الموالين لإسبانيا سارعوا لطمأنة الحاكم العام بأنهم سيمنعون العدو من وطئ أرض مانيلا أو يموتون دون ذلك. غير أن معركة خليج مانيلا التي وقعت يوم 1 مايو 1898 أسفرت عن تدمير كامل لسفن البحرية الإسبانية البالية والقديمة فتمكن الأدميرال ديوي من احتلال حصن كافيت ومخازن أسلحته ومينائه وفرض حصاراً على خليج مانيلا في انتظار وصول القوات البرية الأمريكية.

وفور عودة أجوينالدو إلى الفلبين يوم 19 مايو استأنف الثورة على الفور. وبفضل سيطرة ديوي على المرافق الإسبانية فى مدينة كافيت والميناء سقطت بقية كافيت على الفور بيد الفلبينيين، ثم حاصر الثوار مانيلا استعداداً للهجوم على الإسبان في إنتراموس.

لم تكن السلطات الإسبانية مستعدة للخضوع لا للفلبينيين ولا للأمريكيين. لذا عندما طلب الأميرال ديوي الإذن باستخدام خطوط التلغراف الإسبانية رفض الإسبان طلبه، فعندئذ قطع ديوي الكابلات، مما كان له أهمية هائلة في وقت لاحق.

نهى ديوي بصرامة قوات أجوينالدو عن مهاجمة إنتراموس. وعندما بدأت طلائع القوات الأمريكية بالوصول ابتداء من يونيو 1898 أجبر القادة العسكريون الأمريكيون أجوينالدو على إخلاء مواقعه حول المدينة للقوات الأمريكية.

فزاد هذا التصرف من اقتناع أجوينالدو بأن الولايات المتحدة تستعد للاستيلاء على سيادة الفلبين من إسبانيا فبدأ يسعى لاستباق الأمريكيين. لذا أعلن الثوار الفلبينيون استقلال الفلبين يوم 12 يونيو 1898، وهو اليوم الذي مازالت الفلبين تعتبره عيدها الوطني حتى اليوم. وبدأ أجوينالدو يسعى للحصول على الاعتراف الأجنبي بالحكومة الجديدة، وعقد مؤتمراً ثورياً في سبتمبر 1898 لصياغة مسودة للدستور. وبدأ العمل بنظام للتعليم في شهر أكتوبر 1898 من خلال إنشاء المكتبة الجامعية الفلبينية ومعهد بورغوس للتعليم الثانوي والتقني. وفي 23 يناير 1899 أعلن رسمياً عن تأسيس جمهورية الفلبين في مالولوس.

ولم يمنع إعلان استقلال الفلبين السلطات الإسبانية من تسليم مانيلا للقوات الأمريكية. وتفاوض الجانبان للوصول إلى اتفاقية تستبعد مشاركة قوات أجوينالدو لأن الإسبان كانوا يخشون من أن ينتقم الفلبينيون لأنفسهم من خلال نهب المدينة وقتل جميع المستعمرين. ولاختلاق هزيمة مشرفة رتبوا معركة صورية تسبق الاستسلام في 13 أغسطس 1898. بعد ذلك صرح الجنرال ويسلي ميريت أن الفلبين صارت «في حيازة» الولايات المتحدة وأعلن عن تشكيل حكومة عسكرية.

وربما لم يكن الاستسلام ليحدث ما لم تكن خطوط الكابلات قد قطعت بالكامل. فبسبب حرمان الطرفين من التواصل المباشر مع العالم الخارجي لم يكن الجانبان على علم بتوقيع بروتوكول للسلام بين إسبانيا والولايات المتحدة في يوم 12 أغسطس. فلو علمت القوات الإسبانية والأمريكية في مانيلا أن الأعمال العدائية قد انتهت بالفعل لما كانت هناك حاجة لشن معركة وهمية للحفاظ على ماء وجه الإسبان، ولأصبح من الصعوبة على القادة الأمريكيين تبرير الهجوم على القوات الإسبانية، سواء كان الهجوم مختلقاً أم لا، فكان من شأن ذلك أن يغير مسار تاريخ الفلبين الحديث برمته.

وعلى الرغم من إنشاء الحكومة العسكرية في أغسطس 1898، لم تتيقن تلك الحكومة في هذه المرحلة من أن الولايات المتحدة سوف تستولي على الفلبين. وحتى بعد استسلام مانيلا، استمرت إسبانيا في المطالبة بالسيادة على الفلبين كاشفة عن أملها في الحفاظ على سيادتها على جزء من البلاد على الأقل، لكن الجيش الفلبيني كان يسيطر فعلياً على معظم الأراضي الفلبينية.

وشرعت إسبانيا والولايات المتحدة في أكتوبر 1898 في التفاوض بشأن المعاهدة التي استبعدت أي ممثل عن حكومة أجوينالدو. وفي ديسمبر 1898، أبرم الطرفان معاهدة باريس. وكان رئيس الولايات المتحدة آنذاك وليام ماكينلي قد قرر قبل فترة طويلة أن يضم الفلبين إلى بلاده لعدة أسباب. فقد كانت الولايات المتحدة قلقة بشأن ما قد تفعله القوى الأخرى إذا لم تقم هي بهذه الخطوة. وكان هناك دعاة للتوسع الأمريكي يعتبرون الاستيلاء على الفلبين أمراً «يمليه القدر». ذلك فضلاً عن القناعة بأن الفلبينيين شعب غير قادر على حكم نفسه بنفسه. وحتى إن تفسير ماكينلي نفسه للأمر كان غريباً نوعاً ما عندما قال إنه: بعد أن خرّ على ركبتيه في صلاته، بات على يقين بأن من واجب الولايات

المتحدة السعي إلى «تنصير الفلبينيين وتمدينها».

وبموجب معاهدة باريس، حصلت الولايات المتحدة على السيادة على الفلبين مقابل 20 مليون دولار دفعتها إلى إسبانيا. وحتى في تلك المرحلة، كانت الأمور غير مستقرة تماماً بسبب المعارضة القوية في الولايات المتحدة لهذا المشروع الإمبريالي، حتى إن أغلبية مجلس الشيوخ عارضت المعاهدة إلى أن اندلع القتال بين القوات الفلبينية والأمريكية في مانيلا قبل موعد التصويت المقرر على المعاهدة بـ 36 ساعة. وتمكنت الحكومة الأمريكية من تمرير المعاهدة بفارق صوت واحد في فبراير 1899 بعد أن قُدِّمت الأعمال العدائية إلى الجمهور الأمريكي على أنه نتيجة للعدوان الفلبيني.

وتغير الوضع على الأرض تغيراً كبيراً على مدى الأشهر التي تلت. فمع عودة أجوينالدو ثارت المقاطعات بصورة جماعية ضد الإسبان. وتوالى استسلام القوات الإسبانية للثوار بين مايو وديسمبر 1898 من مكان إلى آخر مثل مقاطعات بامبانجا وتاياباس وزامباليس وجزيرة ميندورو وتارلاك وبانجاسينان ونويفا إيسيجا وإيلوكوس.

ويرجع نجاح الفلبينيين إلى استحواذهم على الأسلحة بصورة أكبر وأفضل (بعد شراء بعضها من هونغ كونغ)، وأضحى القادة العسكريون أكثر خبرة، وبات الجيش الثوري أفضل تنظيماً وانضباطاً. وزاد من نصرة القضية الفلبينية استئناف الحياة المدنية العادية، إذ على الرغم من أن المواد الغذائية كانت باهظة الثمن في معظم المناطق إلا أن خطر المجاعة قد زال. علاوة على ذلك قامت الأقاليم التي تحررت من السيطرة الإسبانية بتنظيم حكومات مدنية يرأسها مسؤولون منتخبون شعبياً.

وفي معظم المناطق كانت الاضطرابات التي أعقبت المعارك قصيرة مع وجود الفوضى العارمة. فقد جرت الكثير من عمليات نهب وحرق الكنائس وغيرها من الممتلكات حيث شوهدت أعمدة الدخان تتصاعد بصورة يومية من الوديان. وعلى الرغم من أن الحاميات الإسبانية قد أبدت مقاومة في بعض الأحيان إلا أنه قد أُسِرَ الإسبان بالآلاف حيث عوملوا معاملة حسنة ثم أطلق سراحهم في النهاية وأعيدوا إلى إسبانيا.

وامتدت الثورة أيضاً إلى فيساياس على الرغم من إبداء الإسبان مقاومة أكبر. وفي شهر أبريل 1898، تمرد عامة الشعب في سيبو الذين كانوا يبحثون عن الطعام أساساً فأحرقت

مدينة سيبو ولاسيما مركزها التجاري وتحولت إلى رماد. إلا أن الإسبان أعادوا تنظيم صفوفهم فداهم جنودهم عدداً من المنازل الخاصة واقتادوا الأسر الفلبينية بالقوة إلى الساحة العامة أو إلى المقبرة لإعدامهم بالجملة. وقُتِلَ الناس في بعض المدن خارج المدينة، وحُرِقت القرى، ودُمِّرَت المحاصيل الزراعية، الأمر الذي سبب نقصاً في المواد الغذائية.

لكن كانت هذه مجرد انتكاسة مؤقتة للثوريين. ففي يونيو 1898 أعيد إحياء الثورة فانطلقت شرارتها من سودلون، وهي إحدى ضواحي سيبو. وبفضل عدم قدوم أية تعزيزات إسبانية من مانيلا بعد استسلام الإسبان للأمريكيين تمكنت الحركة الثورية من السيطرة على بقية الجزيرة خارج المدينة. ونُظِّمت حكومة مدنية محلية معترف بها رسمياً من قبل أجوينالدو. وعندما وجدت السلطات الإسبانية نفسها معزولة انسحبت في نهاية المطاف من مدينة سيبو.

وشهدت بعض مناطق فيزاياس معارك محدودة، لأن القوات الإسبانية كانت صغيرة جداً مع فرار الرهبان والإسبان المقيمين. غير أن الإسبان بعد خسارتهم لمانيلا في أغسطس 1898 نقلوا عاصمتهم إلى إيلويلو وحاولوا الإبقاء على سيطرتهم على جنوب الفلبين. لكن الضغط الفلبيني ومعاهدة باريس سهلتا من استسلام إيلويلو للثوار الفلبينيين في ديسمبر 1898.

وهكذا قبل اندلاع الحرب الفلبينية الأمريكية في فبراير 1899، كانت القوات الثورية قد سيطرت فعلياً على البلاد بأسرها ما عدا مانيلا ومدينة كافيت ومينائها. وفي مانيلا بسط الأمريكيون سلطتهم على إنتراموروس من بينوندو على الضفة اليمنى لنهر باسيج وصولاً إلى قصر مالاكارايانج. وبحلول نهاية أغسطس 1898 بدأ اللاجئون يعودون بأعداد كبيرة من هونغ كونغ، واستؤنفت العمليات التجارية في مانيلا. ومع ضمان السلطات العسكرية الأمريكية لحرية الصحافة بدأت تُنشر الصحف الإسبانية مثل إيل كوميرسيو El Comercio، ولا إندبدينسيا La Independencia، ولا ريبوبليكا فلبينا La Republica Filipina، والأخيرتان مطبوعتان ثوريتان، إضافة إلى الصحيفتين الأمريكيتين ذا مانيلا أمريكان The Manila American، ومانيلا تايمز Manila Times، ومجموعة من الدوريات الأخرى. وشرع الجيش الأمريكي بمهمة تنظيف شوارع مانيلا، وتطبيق الأنظمة الصحية، وجمع الضرائب بطريقة قاسية وسلطوية أحياناً جعلت الفلبينيين يشعرون بالمهانة والاستياء

لتسميتهم بـ «الزنوج niggers». وفي الوقت نفسه، انتعشت المقاهي العامة وصالات الشراب (ومعظمها في شارع إسكولتا الذي أُغلق في نهاية الأمر لكثرة المشاجرات التي وقعت بين المخمورين) وبسبب تردد الإسبان والفلبينيين والأمريكيين عليها.

الحرب الفلبينية الأمريكية (1899–1902)

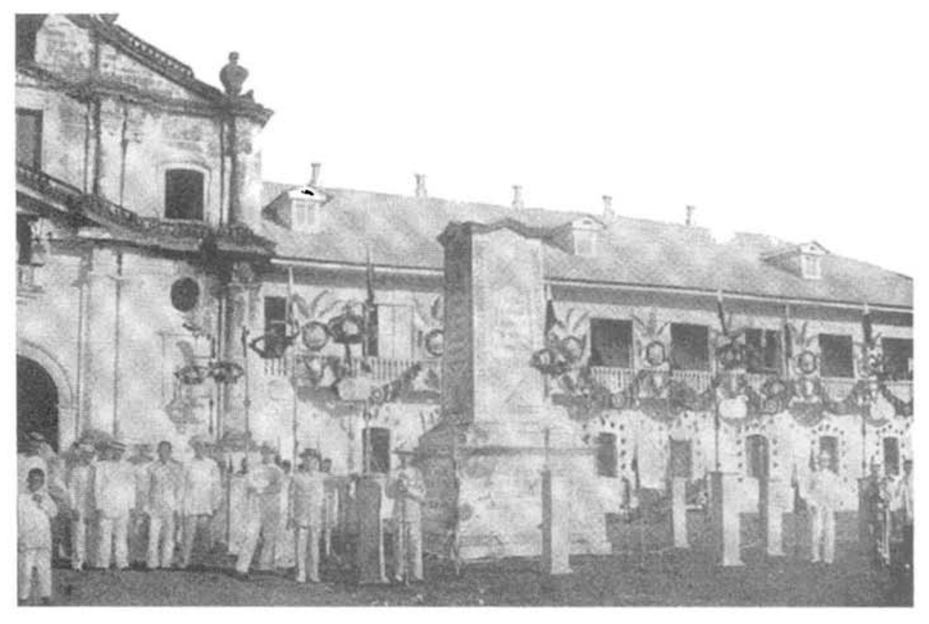
اندلعت الحرب الفلبينية الأمريكية مساء يوم «السبت الأسود» 4 فبراير 1899 الذي أطلق فيه النار أحد الحرس الأمريكيين على دورية فلبينية فردّت بالمثل. وقبيل ذلك، وبعد توقيع معاهدة باريس، أصدر الرئيس ماكينلي في 21 ديسمبر 1898 إعلان «الاستيعاب الخيري» الذي أعلن أن الولايات المتحدة سوف تتولى السيطرة على حكومة الفلبين وتصريف شؤونها، فصدرت تعليمات إلى القادة العسكريين الأمريكان ببسط السيادة الأمريكية على البلاد بأسرها.

ومع تزايد حدة التوتر على الأرض لم تقم القيادة العسكرية الأمريكية بأي تصرف إلى أن حصل اشتباك السبت الأسود. وعندما اندلع القتال أسفرت المواجهات الأولية عن خسائر فادحة في صفوف جنود أجوينالدو، كما لقي أعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال مصرعهم، إذ كان التفوق العسكري للجيش الأمريكي واضحاً. فقد كان أجوينالدو يعتمد على جيش نظامي مازال في مرحلة التكوين يتألف تقريباً من 25 ألف رجل. إضافة إلى ذلك كانت هناك جماعتان غير نظاميتان مسلحتان بالخناجر هما الميليشيا الإقليمية وجماعة سانداتاهان المكونة أساساً من عناصر الكاتيبونان القديمة. أما الجيش النظامي فتسلح بالبنادق حيث كان مخصصاً للمعارك الرئيسة، في حين أن الميليشيا الإقليمية وجماعة سانداتاهان كانتا تستخدمان كاحتياطي أو في شن الغارات ونصب الكمائن والهجمات التي تعتمد على الكر والفر. وعلى الرغم من أن القوات الفلبينية كانت فعالة ضد الإسبان المحبطين إلا أنها بالمقارنة مع الأمريكيين كانت أقل عدداً وعدة وسيئة الانضباط، إذ كانت تتألف من مجموعة متنافرة من المتطوعين، وقدامى المحاربين في الجيش الإسباني، وعناصر الكاتيبونان، وقوات إقليمية تتكون بمعظمها من سكان المدن الذين يقودهم نبلاء المقاطعات الذين انضموا للقتال ضد القوات الأمريكية. وكان الثوار أيضاً يعانون من شح في الأموال والإمدادات العسكرية ولاسيما البنادق والرصاص، لذا

كانوا يطالبون باستمرار بشحن الأسلحة من هونغ كونغ، لكن لم يكن من الممكن تسليم هذه الشحنات بسبب شحّ الأموال (حيث لا يمكن جمع الضرائب بانتظام أو بكفاءة) ومحاصرة السفن الأمريكية الحربية للموانئ. وقد منع الحصار البحري أيضاً حتى تبادل المواد الغذائية والسلع الأساسية بين الجزر الفلبينية.

أما الجيش الأمريكي فقد ضمّ بين صفوفه ضباطاً وجنوداً اختُبروا في القتال في كوبا علاوة على القادة المخضرمين الذين كانوا غالباً من المحاربين القدامى في الحرب الأهلية والحروب الهندية في الولايات المتحدة. وقد ازداد عدد القوات الأمريكية بشكل مطرد من 20851 في يناير 1899 إلى 54200 في مايو. وفي ديسمبر 1900 وصل عدد القوات إلى ذروته حيث بلغ 74094 ضابطاً وجندياً.

ولم يكن لدى أهل الفلبين أي وسيلة للدفاع عن أنفسهم ضد نيران المدافع البحرية التي قصفت مواقع الفلبينيين من خليج مانيلا، مما أدى إلى حالة من الارتباك ومقتل المقاتلين والمدنيين على حد سواء. وقد اعتمد الجيش الأمريكي استراتيجية أولية تقضي بتأمين مانيلا ضد المتمردين. وقد تم ذلك قبل نهاية فبراير 1899 حيث أحرقت ماكاتي،



كنيسة ودير راهبات مالولوس – عاصمة جمهورية مالولوس في عام 1899. (قامت ريتا إم. كاكاس بمعالجة هذه الصورة رقمياً – وهي متخصصة في المحفوظات بإدارة المحفوظات والسجلات الوطنية، كوليدج بارك، ميريلاند)

وماندالويونغ، وسان خوان ديل مونتي وتحولت إلى رماد كما أُحرق الحي الصيني في سانتا كروز، ودُمِّرت كنيسة باكو بالكامل التي تؤوي اللاجئين والثوار.

ثم انتقلت القوات الأمريكية شمالاً باتجاه عاصمة الجمهورية في مالولوس في إقليم بولاكان. واشتبك الفلبينيون والقوات الأمريكية في حرب تقليدية على مستوى كتيبة أو لواء فنشب معظم القتال على طول خط سكة حديد مانيلا التي كانت تسيطر عليها القوات الفلبينية. وكان الأمريكيون يحرقون المدن التي يستولون عليها، وكذلك كان الفلبنيون يحرقون المدن التي ينسحبون منها. وفي خضم المعركة رفع العديد من الأسر الفلبينية الرايات البيضاء للدلالة على نواياهم السلمية، ولجأ المئات من الرجال والنساء والأطفال إلى أراضي المستنقعات وهم يحملون جميع أغراضهم المنزلية، فسقطت مالولوس في نهاية المطاف في يد الأمريكان في أواخر مارس 1899.

وفي هذه المرة، بدأ أجوينالدو يتراجع من عاصمة إقليم إلى آخر أثناء مطاردة الجيش الأمريكي له. وقد انهزم الفلبينيون في هذه المعارك على الدوام بسبب تفوق القوات الأمريكية عليهم بالعدد والقوة النارية، وتكبدوا إصابات كبيرة. وواصل المقاتلون الأمريكيون والفلبينيون إحراق المدن الفلبينية ومصادرة الإمدادات الغذائية الموجودة في المخازن أو تدميرها في بعض الأحيان، مما أدى إلى نقص حاد في المواد الغذائية بين المدنيين. ففر سكان المدن إلى الأحياء النائية تاركين العديد من المدن التي أضحت فارغة وتعطلت التجارة والزراعة بصورة كبيرة.

وفي نوفمبر 1899 تحول أجوينالدو إلى استراتيجية جديدة لحرب العصابات هي «القتال بمجموعات صغيرة» تتحرك فيها القوات الفلبينية بمجموعات أصغر حجماً وتشتبك مع الوحدات الأمريكية قليلاً ثم تختفي في الغابة. ولزيادة تعبئة الشعب أُحييَ مجلس الكاتيبونان القديم ليعمل كحكومة ظل لجمهورية مالولوس. وقام السكان في جميع مدن لوزون وفيسايا بتزويد المقاتلين بالإمدادات من الطعام والمأوى والمساعدات الطبية والمعلومات وخدمات نقل الأوامر والتعليمات. لكن كان في بعض الأحيان يجري فرض تقديم المساهمات على الناس والاستيلاء على الممتلكات الخاصة. وقد أدى زيادة المشقة والشعور بالاستياء إلى قبول الشعب بالاحتلال الأمريكي البديل.

وبين شهري مايو وأكتوبر 1899 بدأ بعض الأعضاء البارزين في حكومة مالولوس بنبذ

الحرب والدعوة إلى قبول العرض الأمريكي بالحكم الذاتي. وعندما لاحظ أجوينالدو التحول السلبي لمجرى الحرب قام بتعميم رسالة في 31 أغسطس 1899 سمح فيها للمدنيين الذين تركوا مدنهم بالعودة إلى ديارهم حتى في المناطق الواقعة تحت السيطرة الأمريكية. وكان طلبه الوحيد أن يراعي هؤلاء الناس الحياد التام مع الحفاظ على وطنيتهم عند التعامل مع العدو.

وفي 23 مارس 1901، أُلقي القبض على أجوينالدو في منطقة بالانان الجبلية بمقاطعة ايزابيلا (لوزون). وفي الأول من أبريل أقسم يمين الولاء للولايات المتحدة. وأما الآخرون في حكومة أجوينالدو الذين لم يقبلوا بأن يؤدوا اليمين فقد نُفُوا إلى جوام، وهي ممارسة قلّد فيها الأمريكيون الإسبان.

وعلى الرغم من اعتقال أجوينالدو بقي ثلاثة جنرالات ثوريون في الميدان هم لوتشيانو سان ميغيل في بولاكان ومورونغ (التي صارت تسمى الآن بمقاطعة ريزال)، وفيسنتي لوكبان في سمر، وميغيل مالفار في باتانجاس ولاجونا، وجرى تكثيف حرب العصابات



نساء من أسرى الحرب في باتانجاس – الحرب الفلبينية الأمريكية (المحفوظات الوطنية)

في هذه المناطق الثلاث، كما حافظ الجيش الأمريكي على حامياته في المناطق التي أقيمت فيها حكومات محلية. ومن الناحية العملية كان مسؤولو المدينة يخدمون كلاً من النظام الأمريكي والمسلحين الذين يجبرونهم على دعم الحرب عن طريق الابتزاز أو الترهيب أو التهديد بالقتل. ولمواجهة هذا الوضع أعلن الجيش الأمريكي أنه يعتبر أن سكان تلك المدن وخاصة نبلاء المقاطعات هم من المتعاطفين مع المتمردين أو المتواطئين معهم ما لم يساعدوا نظام الاحتلال بصورة نشطة وعلنية.

وابتداء من عام 1900 تحولت الحرب بين الجيش الأمريكي والثوار الفلبينيين إلى عمل غير مشرف، وثمة روايات تتحدث عن ارتكاب الأمريكان لأعمال وحشية مثل تعذيب السجناء وإعدامهم والقتل العشوائي للرجال والنساء والأطفال. غير أن كلا الجانبين الفلبيني والأمريكي قد ارتكب فظائع ضد أحدهما الآخر وضد السكان المدنيين عندما لم يجد تعاوناً من قبلهم.

وقد كانت أكبر مقاومة فلبينية للهيمنة الأمريكية في مقاطعتي سمر وباتانجاس، تليتهما مباشرة لاجونا وتاياباس. وسُحقت المقاومة في سمر وباتانجاس ولاجونا وتاياباس عن طريق تجميع الناس في «معسكرات اعتقال» أو «مناطق حماية» لعدة أشهر لمنعهم من مساعدة المسلحين. وفي عام 1902 بلغ عدد الفلبينيين في مناطق الحماية في باتانجاس ولاغونا زهاء 300 ألف. أما خارج هذه المناطق، فكانت تُدمّر المنازل والمحاصيل والحدائق والدواجن والماشية والقوارب ومخازن الغلال، تدميراً منهجياً وبلا رحمة. واستُخدمت في المناطق الأخرى التي أظهرت مقاومة مسلحة شديدة البأس– سياسة الأرض المحروقة– كما حدث في مقاطعة آبرا، وأدى إلى تهجير غالبية سكانها.

ووقعت في سمر مذبحة بالانجيجا المثيرة للجدل يوم 28 سبتمبر 1901، إذ تشير الدراسات إلى التأثير المتبادل بين سكان بالانجيجا وقوات التهدئة الأمريكية والميليشيات الثورية، التي عززها الاستهجان المحلي للسلوك الأمريكي ولاسيما تجاه النساء. وكان السبب المباشر لاندلاع العنف هو صدور أمر عن قائد السرية الأمريكي بإجبار جميع الذكور على العمل قسرياً في تنظيف القرية، مما أدى إلى هجوم سكان بالانجيجا المسلحين بالخناجر والمتنكرين على هيئة عمال على كتيبة المشاة التاسعة ومقتل 45 قتيلاً وجرح 22 منهم. وكان رد الفعل الأمريكي هو شن حملة قتل وحرق في سمر الجنوبية تواصلت من

أكتوبر 1901 إلى يناير 1902.

واحتاج الجيش الأمريكي في الفلبين إلى ثلاث سنوات (1899–1902) حتى يتمكن من «تهدئة» الثوريين الفلبينيين باستخدام ما يطلق عليه باحثو التاريخ الأمريكيون اسم «سياسة جزرة الأعمال الخيرية وعصا القوة العسكرية». وقد استغرقت عملية التهدئة وقتاً أطول مما توقعه القادة العسكريون الأمريكان، وجاءت تكلفته باهظة متمثلة في مقتل 20 ألف مقاتل فلبيني تقريباً، وما يقرب من 5 آلاف جندي أمريكي، إضافة إلى 250 ألف مدني، لم تكن حصيلة الأعمال العسكرية المباشرة وحسب، وإنما بقية ويلات الحرب من أوبئة وأمراض وجوع.

وتقبّل بعض قادة المتمردين الفلبينيين والسكان بسهولة أكثر من الآخرين حتمية الحكم الأمريكي للفلبين. ففي المقاطعات التي هُدِّئت أُنشئت البلديات والمدارس التي كان يقوم بالتدريس فيها في البداية الجنود والضباط الأمريكيون. وتولت مسؤولية حفظ السلام والنظام قوات الشرطة المحلية. وفي بداية مايو 1899 نُظمت الانتخابات البلدية انتُخب فيها الفلبينيون لتولي المناصب البلدية والإقليمية وأقيمت أول حكومة إقليمية في فبراير 1901 في بامبانجا. وقد بنيت أول مدرسة أمريكية في الفلبين من قبل السلطات العسكرية في جزيرة كوريجيدور بعد وقت قصير من معركة خليج مانيلا. وبحلول يناير 1901 أضحى نظام المدارس العامة المركزي جاهزاً.

وفي مايو 1899 أنشئت المحكمة العليا الفلبينية التي تتألف من تسعة قضاة، ستة منهم من الفلبينيين كما أن رئيس المحكمة العليا فلبيني. وفي سبتمبر 1901 عُيّن ثلاثة فلبينيين في لجنة الفلبين التي مارست مهمات تشريعية وتنفيذية في الحكومة الوطنية في مانيلا. لذا يمكن القول إن مقاومة الشعب للحكم الأمريكي في بعض المناطق قد انهارت مع تلبية السياسة الأمريكية لبعض مطالب الفلبينيين الذين حملوا السلاح ضد إسبانيا من قبيل الحق في المشاركة في إدارة شؤون بلادهم.

ومع إلقاء القبض على فيسنتي لوكبان في سمر واستسلام ميجيل مالفار في باتانجاس تأسست حكومة مدنية في جميع أرجاء الفلبين يوم 4 يوليو 1902 منهية بذلك الحرب الفلبينية الأمريكية بصورة رسمية. غير أن نشاط المسلحين قد استمر في مناطق عديدة في جميع أنحاء الأرخبيل. كما قامت أيضاً حركات ما بعد الثورة في القرن العشرين

كانت ذات مضمون قروي أو ديني اتخذت أشكالاً مختلفة للاحتجاجات. واندلع أيضاً قتال عنيف في مقاطعتي ميندناو وسولو المسلمتين حتى عام 1913 على الرغم من أن هذه المقاومة لا تمت بصلة إلى ثورة الفلبين.

واضطرت الولايات المتحدة إلى إعادة السلطة العسكرية إلى المناطق «الموبوءة» فأقيمت فيها مرة أخرى معسكرات الاعتقال لفترات وجيزة في آلباي وكافيت وباتانجاس وبعض أجزاء من لاجونا وريزال. وبعد إقرار قانون اللصوصية لعام 1902 أضحى أولئك الذين يشاركون في النشاط المسلح يُعتبرون لصوصاً وخارجين على القانون وقد يُعاقَبون بالإعدام تبعاً لمدى خطورة جرائمهم حيث أُعدم الكثيرون بموجب هذا القانون. وبموجب قانون التحريض على الفتنة لعام 1901 يُعاقَب أيضاً من يقوم بتشكيل جمعية سرية بالإعدام في الحالات القصوى. وكذلك الأمر يُعاقَب كل من يدعو إلى استقلال الفلبين شفهياً أو خطياً بالغرامة أو السجن.

نهضة مانيلا الحديثة

بعد احتلال الأمريكان للعاصمة بدأت مانيلا الحديثة بالظهور حتى في الوقت الذي كان فيه الجيش الأمريكي يقاتل جيش أجوينالدو، فشيدت المتنزهات والحدائق والطرق والمباني الجديدة. وأقيم مصنع هائل للثلج على الجانب الجنوبي من نهر باسيج، وصار آيس كريم كلارك متوفراً في متاجر بيع الآيس كريم، كما أقيمت متاجر بيع الحلوى والمقاهي في بلازا موراغا في بينوندو. وأرسلت أول بعثة دراسية حكومية إلى الولايات المتحدة. وتأسست جامعة كوليجيو فلبينو وهي أول جامعة خاصة غير طائفية من قبل ماريانو جوكسون والتي سُميَت فيما بعد بالجامعة الوطنية. ووصلت طلائع المعلمين الأمريكيين إلى الفلبين في يونيو 1901 لملء الشواغر في المدارس العامة التي افتُتحت في جميع أنحاء المناطق التي هُدِّئت. وفي عام 1901 وصلت أول سيارة إلى مانيلا وهي سيارة «ريتشارد». ونُفِّذ أول حكم بالإعدام عن طريق الشنق. لذا سواء شئنا أم أبينا جاء عصر الحكم الأمريكي للفلبين الذي أضحى فيه الكفاح من أجل الاستقلال يقتصر على الساحة السياسية.

الهوامش

1. John Leddy Phelan, The Hispanization of the Philippines, Madison: University of Wisconsin Press, 1959; also O. D. Corpuz, The Roots of the Filipino Nation, vol. 1, quezon City, Philippines: Aklahi Foundation, 1989.
2. Corpuz, Roots, vol. 2, chaps. 12-13; Eliodoro G. Robles, The Philippines in the Nineteenth Century, Quezon City, Philippines: Malaya Books, 1969; Benito J. Legarda, Jr., After the Galleons: Foreign Trade, Economic Change and Entrepreneurship in the Nineteenth-Century Philippines, Madison: for Southeast Asian Studies University of Wisconsin, 1999.
3. Corpuz, Roots, vol. 2, chaps. 13-14; John Foreman, The Philippine Islands: A Political, Geographical, Ethnographical, Social, and Commercial History of the Philippine Archipelago, Emerican the Whole Period of Spanish Rule, With an Account of the Succeeding American Insular Government, Manila: Filipiniana Book Guild, 1980 (offprint

copy of 1906 edition, chapter 21); Gilda Cordero-Fernando, ed., Turn of the Century, Quezon City, Philippines: GCF Books, 1978 (articles of Teodoro A. Agoncillo, Nick Joaquin, and Doreen G. Fernandez, pp. 22-65, 68-85); Edgar Wickberg, The Chinese in Philippine Life, 1950-1898, New Haven, CT: Yale University Press, 1965.

4. Corpuz., Roots, vol. 2, chap. 15; Foreman, Philippine Islands, chap. 22.
5. Edmund Plauchut, «La Algarada Cavitena de 1872,» Articulo IV, Serie de Las lslas Filipinas, in Revue des Deux Mondes. 1877 (translated from La Solidaridad de Madrid, Manila: Imprenta Manila Filatelica, 1916); Nick Joaquin, «Jose Burgos: How Filipino was Burgos?» in A Question of Heroes: Essays in Criticisnt on Ten Key Figures of Philippine History, Makati,

Philippines: Filipinas Foundation, 1977 (pp. 7-24); John N. Schumacher, S. J., Father Burgos, Priest and Nationalist, Quezon City, Philippines: Ateneo University Press, 1972.

6. David R. Sturtevant, Popular Uprisings in the Philippines, 1849-1940, Ithaca, NY: Cornell University Press, 1976; Reynaldo Clemena lleto, Pasyon and Revolution: Popular Movements in the Philippines, 1840-1910, Quezon City, Philippines: Ateneo de Manila University Press, 1970.

7. Corpuz, Roots, vol. 2, chap. 16; John N.Schumacher, S. J., The Propaganda Movement, 1880-1895, Manila: Solidaridad, 1973 (Quezon City, Philippines: Ateneo de Manila University Press, 1997, revised edition); Leon M. Guerrero, The First Filipino: A Biography of José Rizal, Manila: National Historical Commission, 1971; Jose Rizal, Noli Me Tangere and El Filibusterismo, trans. M. Soledad Lacson-Locsin, edited Raul L. Locsin, Makati City, Philippines: Bookmark, 1996.

8. The Provincia de Manila included Manila of today, Caloocan, Las Pinas, Malibay (Pasay), Mariquina, Montalblan, Muntinlupa, San Jose de Navotas, Paranaque, Pasig, Pateros, Pineda (Pasay), San Felipe Nery, San Juan del Monte, San Mateo, San Pedro Macati, Taguig, and Tambobong. The Provincia de Morong (Rizal province today) was a politicomilitary district under Manila and comprised the towns of Angono, Antipolo, Baras, Binagonan, Bosoboso, Cainta, Cardona, Jalajala, Morong (capital), Pililla, Tanay, Taytay, Teresa, and Quisao.

هذه المدن نظراً لقربها من مانيلا، تمتعت بنشاط منقطع النظير في هذه الفترة، وكانت الأكثر تأثراً بالثورة ضد الإسبان والحرب مع الولايات المتحدة.

9. Andre Bellesort, One Week in the Philippines, (November 1897), translated by E. Aguilar Cruz, Manila: National Historical Institute, 1987, p. 65.

10. On the revolution in Manila and life in the city and environs during this period, see Corpuz, Roots, vol. 2, chap. 17; and Foreman, Philippine Islands, chap. 22. Also Teodoro A. Agoncillo, The Revolt of the Masses: The Story of Andres Bonifacio and the Katipunan, Quezon City: University of the Philippines, 1956 (reprinted by University of the Philippiness Press, 1996, chaps. 1-10); Bernardita Reyes Churchill and Francis A. Gealogo, eds., Centennial Papers on the Katipunan and the Revolution, Manila: Manila Studies Association, 1999 (articles of Isagani R. Medina, pp. 1-13, 45-56); Bernardita Reyes Churchill, ed., Revolution in the Provinces, Manila: National Commission for Culture and the Arts, 1999 (article of Motoe Terami Wada, pp. 44-55); Joaquin, Question of Heroes, articles on Jose Rizal and Andres Bonifacio, pp. 53-102; Joaquin, «Red as in Revolution, «in Turn of the Century, pp.22-47; Onofre D. Corpuz, Saga and Triumph: The Filipino Revolution against Spain. Manila: Philippine Centennial Commission, 1999 (chaps. 1-4); William Henry Scott, «The Nine Clergy of Nueva Segivia,» in Cracks in the Parchment Curtain and Other Essays in Philippine History, Quezon City, Philippines: New Day, 1982 (pp. 178-207); Gregorio F. Zaide, Manila during the Revolutionary Period, Manila: National Historical Commission, 1973.
11. On the revolution in Cavite, see Corpuz, Roots, vol. 2, chap. 17; and Corpuz, Saga and Triumph, chaps. 5-7; Foreman, Philippine Islands, chap. 22; Agoncillo, Revolt, chaps. 11-16; also Joaquin, Question of Heroes, article on Emilio Aguinaldo, pp. 105-32; Joaquin, «Red as Revolution»; see also the following participants' memoirs: Emilio Aguinaldo, Mga Gunita ng Himagsikan [Memoirs of the Revolution], Manila: Philippine Centennial Commission, 1998; Manuel Sityar, Revolucion Filipina, Memorias Intimas. Trans. Trinidad O. Regala, Quezon City: University of the Philippines

Sentrong Wikang, 1998.

12. Dennis Morrow Roth, The Friar Estates of the Philippines, Albuquerque: University of New Mexico Press, 1977.

13. John N. Schumacher, S. J., Revolutionary Clergy:The Filipino Clergy and the Nationalist Movement, 1850-1903, Quezon City, Philippines: Ateneo de Manila University Press, 1981 (chaps. 1-4).

14. See Reynaldo C. Ileto,»Hunger in Southern Tagalog, 1897-1898,» in Filipinos and Their Revolution, Event Discourse, and Historiography, Quezon City, Philippines: Ateneo de Manila University Press, 1998 (pp. 79-116).

15. Corpuz, Roots, vol. 2, chap. 18; and Corpuz, Saga and Triumph, chaps. 6-8; Foreman, Philippine Islands, chap. 22; see also Florentino Radao and Felice Noelle Rodriguez, eds., The Philippine Revolution of 1896: Ordinary Lives in Extraordinary Time, Quezon City, Philippines: Ateneo de Manila University Press, 2001; Churchill, Revolution in the Provinces.

16. Brian McAllister Linn, The Philippine War, 1899-1902, Lawrence: University Press of Kansas, 2000 (pp. 3-5); see also H. W. Brands, Bound to Empire: The United States and the Philippines, New York: Oxford University Press, 1992.

17. Corpuz, Roots, vol. 2, chaps. 18-19; and Corpuz, Saga and Triumph, chaps. 9-15; Foreman, Philippine Islands, Chap. 23; Teodoro A. Agoncillo, Malolos: The Crisis Of the Republic, Quezon City: University of the Philippines, 1960 (reprinted by the University of the Philippines Press, 1997); see also Elmer A. Ordenez, the Philippine Revolution and Beyond, 2 vols., Manila: Philippine Centennial Commission, 1998.

18. Corpuz, Roots, vol. 2, chaps. 18-19; and Corpuz, Saga and Triumph, chaps. 9-15; Foreman, Philippine Islands, chap. 23; Agoncillo, Malolos: see also Ordonez, Philippine Revolution and Beyond; Corpuz, Roots, vol. 2, chaps.

19-20; Foreman, Philippine Islands, chaps. 24-27; see also Samuel K. Tan, The Filipino-American War, 1899-1913, Quezon City: University of the Philippines Press, 2002;

Bernardita Reyes Churchill, Resistance and Revolution: Philippine Archipelago in Arms, Manila: National Commission for Culture and the Arts, 2002; «Proceedings of the National Conference on the Filipino-American War, November 15-17, 2000,» in Kasaysayan, Journal of the National Historical Institute 1-3, September 2001, pp. 24-29, 68-78; 1-4, December 2001, pp. 1-15, 70-82, 172-179, 199-209.; Rolando O. Borrinaga, the Balangiga Conflict Revisited, Quezon City, Philippines: New Day, 2003; Resil B. Mojares, The War against the Americans: Resistance and Collaboration in Cebu, 1899-1906. Quezon City, Philippines: Ateneo de Manila University Press, 1999.

For American perspectives on the war, see Leon Wolff, Little Brown Brother: How the United States Purchased and Pacified the Philippine Islands at the Century's Turn, Mechanicsburg, PA: Bookspan, 2006; Stuart Creighton Miller, «Benevolent Assimilation»: The American Conquest of the Philippines, 1899-1903, New Haven, CT: Yale University Press, 1982; Brian McAllister Linn, The Philippine War, 1899-1902: The U.S. Army and Counterinsurgency in the Philippine War 1899-1902, Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1989; and Glenn Anthony May, Battle for Batangas: A Philippine Province at War. New Haven, CT: Yale University Press, 1999.

19. Foreman, Philippine Islands, chap. 28; Luning Bonifacio Ira and Isagani R. Medina, «What Will They Think of Next?» in Turn of the Century, pp. 217-18.

مراجع مختارة

Churchill, Bernardita Reyes, ed. Revolution in the Provinces. Manila: National Com- mission for Culture, 1999.

مجموعة من الدراسات عن ثورة الفلبين في عام 1896 والحرب الفلبينية الأمريكية في عام 1899 في عدة مناطق من الأرخبيل.

Corpuz, O. D. The Roots of the Filipino Nation. 2 vols. QuezenCity, Philippines: Aklahi Foundation, 1989.

يغطي المجلدان الفترة الاستعمارية الإسبانية ككل في الفلبين (1565–1898). ويتناول المجلد الثاني التطورات البارزة في القرن التاسع عشر الذي انتهى بالثورة ضد الإسبان والحرب مع الولايات المتحدة.

Ileto, Reynaldo Clemena. Pasyon and Revolution: Popular Movements in the Philippines, 1840-1910. Quezon City, Philippines: Ateneo de Manila University Press, 1979.

يتناول هذا الكتاب الحركات الشعبية في الفلبين والحركات الإخوانية الراديكالية ومنها «ثورة كاتيبونان» مع التركيز على تعريفه لمفهوم الحرية.

Linn, Brian McAllister Linn. The Philippine War, 1899-1902. Lawrence: University Press of Kansas, 2000.

يقدم هذا المصدر دراسة مفصلة عن العمليات العسكرية في الفلبين أثناء الحرب الفلبينية الأمريكية، من خلال مجموعة كبيرة من السجلات العسكرية التي حُصِلَ عليها في المستودعات الأمريكية ويكشف ما يصفه بأنه جوانب لسوء الفهم وغياب الدقة التاريخية لهذه «الحرب المنسية» في التاريخ الأمريكي.

May, Glenn Anthony. Battle for Batangas: A Philippine Province at War. New Havan, CT: Yale University Press, 1999.

يقدم هذا الكتاب رواية لحياة الثوريين والمدنيين في مدينة باتانجاس (Batangas) التي أفرزت مقاومة شديدة البأس لجهود التهدئة التي بذلتها العسكرية الأمريكية.

Miller, Stuart Creighton. «Benevolent Assimilation»: The American Conquest of the Philippines, 1899-1903. New Haven, CT: Yale University Press, 1982.

يحمل هذا الكتاب قصة الحرب الفلبينية الأمريكية وردود الأفعال الأمريكية على مشروعها الإمبريالي في الفلبين.

Mojares, Resil B. The War against the Americans: Resistance and Collaboration in Cebu, 1899-1906. Quezon City, Philippines: Ateneo de Manila University Press, 1999.

يعرض هذا الكتاب وجهة النظر الفلبينية للحرب ضد الأمريكان في إحدى المناطق بجزيرة سيبو الفلبينية في الفيساياز وتفاصيل الحركة الدينامية لمجتمع سيبوانوا (Cebuano) أثناء الحرب وحتى عام 1906، مما يعكس «صناعة المجتمع المحلي» في بداية القرن العشرين.

Phelan, John Leddy. The Hispanization of the Philippines. Madison: University of Wisconsin Press, 1959.

يدرس هذا الكتاب حالة المجتمع الفلبيني قبل الغزو الإسباني في وقت التواصل مع الإسبان وينظر في كيفية تفاعل الفلبينيين مع جهود تنصير وأسبنة الثقافة الفلبينية.

Rodao, Florentino, and Felice Noelle Rodriguez, eds. The Philippine Revolution Of 1896: Ordinary Lives in Extraordinary Times. Quezon City, Philippines: Ateneo de Manila University Press, 2001.

مجموعة من المقالات التاريخية عن الجوانب المختلفة لثورة الفلبين عام 1896 كتبها مجموعة من المؤرخين الفلبينيين والأجانب، وتلقي المقالات نظرة على ظروف اندلاع الثورة والعواقب الناتجة على جميع الأطراف المعنية.

Sturtevant, David R. Popular Uprisings in the Philippines, 1849-1940. Ithaca, NY: Cornell University Press, 1976.

يقدم هذا الكتاب مسحاً تاريخياً لحركات الفلاحين والثورات الريفية في الفلبين بين عامي 1840 و1940 بما في ذلك فترة ثورة الفلبين والحرب الفلبينية الأمريكية.

Wickberg, Edgar. The Chinese in Philippine Life, 1850-1898. New Haven, CT: Yale University Press, 1965.

يعرض هذا الكتاب لتاريخ الصينيين في الفلبين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وفي هذه الفترة حدثت تطورات اقتصادية كبيرة في البلاد لعب فيها الصينيون دوراً رئيساً.

Zaide, Gregorio F. Manila during the Revolutionary Period. Manila: National Historical Commission, 1973.

يعرض هذا الكتاب خلفية جيدة عن الحياة في مانيلا قبل اندلاع الثورة وينتقل بالقصة إلى معاهدة «بياك نا باتو» (Biyak–na–bato) في شهر ديسمبر 1897.

الفصل الثالث

الحرب في اليابان خلال عصر ميجي
الصين (1894– 1895) وروسيا (1904– 1905)

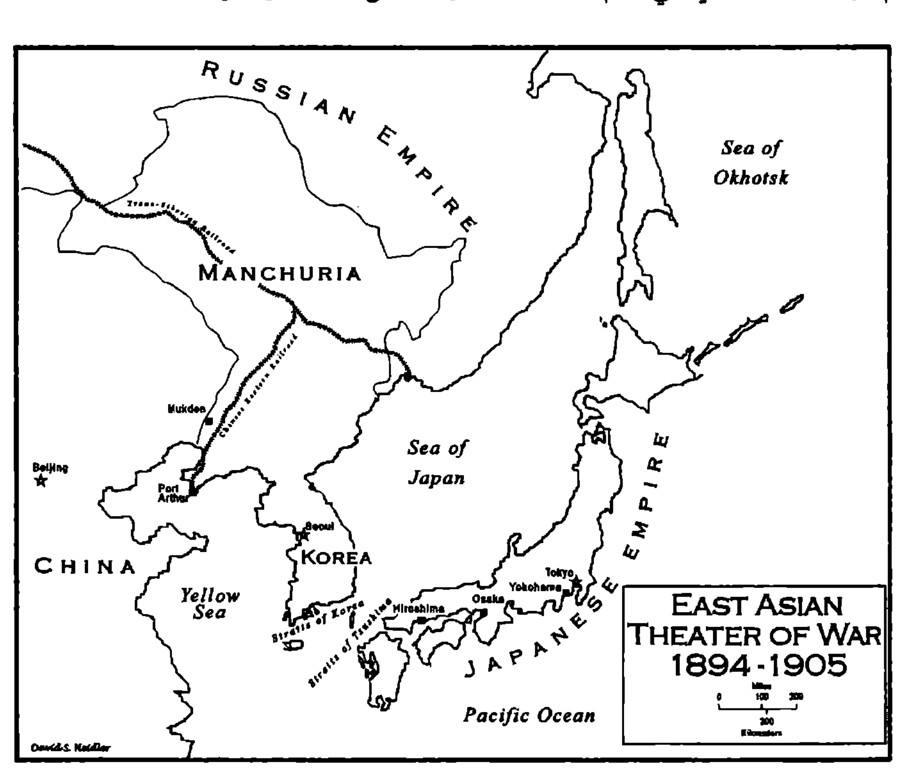
بقلم: ستيوارت لون

تعدّ صورة محارب الساموراي أقوى صور المجتمع الياباني خلال الألف سنة الماضية. ويدل ذلك على أن العسكرية والحرب قد أحدثت تأثيراً كبيراً في حياة المدنيين. ومن المعروف أن الجيش في القرن الحادي عشر قد سيطر تماماً على الحياة السياسية، مع الإبقاء على الإمبراطور حاكماً شرفيّاً. ومن بداية القرن السابع عشر، أصبح محاربو الساموراي طبقة عليا منغلقة على نفسها، بمعنى أنه من كان يولد ساموراي يمنعه القانون من ممارسة أعمال أخرى، كالتجارة أو الزراعة، كما كان يُحظر على المدنيين حمل السلاح. وبالتالي كان هناك فصل واضح بين العسكريين والمدنيين. ولم تلعب الحرب منذ ذلك الوقت حتى منتصف القرن التاسع عشر دوراً بارزاً، سواء في حياة المدنيين أو الساموراي. إذ اتسمت فترة الحكم الاستبدادي لأسرة توكوجاوا العسكرية (1600– 1868) بسياسات تجنب الحرب. ولذلك نُزع السلاح من المدنيين، ونجحت أسرة توكوجاوا ببراعة في السيطرة على الحلفاء والأعداء، ومن ثم تمكنت من الحفاظ على توازن القوى داخل اليابان، ومنع دخول أي أجانب إلى البلاد، وهو ما كان يُعرف باسم سياسة «ساكوكو»، أو «البلد المغلق». وقد أدى ذلك إلى عدم دخول اليابان في أي حروب مباشرة أو غير مباشرة مع دولة أجنبية، أو في أي صراعات كاملة النطاق، لزهاء قرن ونصف القرن (حتى ستينيات القرن الثامن عشر).

وهناك نقاط شبه وارتباط بين جذور أولى الحروب اليابانية الدولية في العصر الحديث،

سواء تلك التي خاضتها مع الصين الإمبريالية (1894– 1895) أو الإمبراطورية الروسية (1904– 1905). وترجع هذه الجذور إلى ستينيات القرن الثامن عشر عندما اندلعت الحرب الأهلية في اليابان، نتيجة زيادة الضغوط من جانب الدبلوماسية العسكرية في الغرب. وقد سيطرت الجماعة المنتصرة– من الساموراي والأرستقراطيين– على الحكومة في عهد الإمبراطور ميجي، في الفترة بين عامي 1886 و1912، التي تُعرف كذلك باسم العهد الميجي. ورفعت الحكومة الجديدة شعار التدعيم الذاتي، ولجأت إلى إعادة هيكلة كافة جوانب المجتمع الياباني، من سياسة وتعليم واقتصاد وخدمة عسكرية. وقد كانت هذه الثورة التصحيحية متحفظة، أي أنها كانت تحت إشراف الصفوة الحاكمة، وكان هدفها الرئيس الأمن القومي، لاالحريات الفردية، أو حتى الجماعية.

وظل قادة الجيش الياباني على الدوام، وحتى يومنا هذا في القرن الحادي والعشرين، ينظرون إلى كوريا على أنها تهديد كبير. فقد جاء في خطاب الجنرال ياماجاتا، في كلمته أمام أول برلمان ياباني في عام 1890، أن كوريا مثل «الخنجر الموجّه إلى قلب اليابان»،



مسرح الحرب في شرق آسيا 1894– 1905 (ديفيد إس هيدلر)

فكل مَن يمكنه السيطرة على كوريا يستطيع– ببساطة– أن يقرر مستقبل اليابان. وبالتالي كان المفهوم السائد في ذلك الوقت أن اليابان لا تستطيع أن تقوى بالشكل الحقيقي– أو الكامل– إلا إذا سيطرت على «سول». لذا اختلقت اليابان في منتصف عام 1894 سبباً لحربها على الصين، وهو حماية كوريا التي تجمعها باليابان علاقات تاريخية مشتركة! ولا شك أن السبب الحقيقي كان طرد النفوذ الصيني من شبه القارة الكورية.

وبعد ثمانية أشهر من المشاركة في الحرب، استسلمت الصين، ودفعت مقابل السلام تعويضات مالية لليابان عن الحرب، وتنازلت لها عن تايوان، وكذلك عن مكانتها التي كانت تسمح لها بالسيطرة على السلطة في كوريا (سرعان ما ضاعت هذه المكانة بعد تدخل اليابان الوحشي والعشوائي في سياسات المحاكم الكورية). وبشكل عام، ضعفت سلطة الصين في آسيا، وعلى حدودها، عقب هزيمتها في عام 1895. وحصلت روسيا– نتيجة لذلك– على الحق في بناء سكك الحديد في منطقة منشوريا الواقعة شمالي شرق الصين وعلى الحدود الصينية الكورية. وعندما ثار الشعب الصيني في عام 1900 ضد الانتهاكات الغربية، أصبحت القوات الروسية محاصرة في منشوريا. كل هذه الأحداث أدت إلى زيادة خوف اليابان من ابتلاع القوة الغربية لكوريا، فقرر الجيش الياباني– بعد فشل مفاوضات عام 1903 حول انسحاب روسيا من الحدود الكورية– القيام بهجوم وقائي قبل أن يتمكن الروس من تدعيم قواتهم. استمرت هذه الحرب منذ فبراير 1904 إلى سبتمبر 1905. ومع نهايتها، كانت النظرة الدولية لليابان ترى أنها دولة قوية عسكرياً، لكن الحقيقة كانت أن اقتصادها ومجتمعها أصبحا ضعيفين منهكين للغاية بسبب الحرب.

المدنيون خلال الحرب

كانت ساحة المعركة الرئيسة للحروب الخارجية لليابان في عهد ميجي هي كوريا وشمال شرق الصين، أي أنها كانت تقاتل خارج اليابان، أو داخل أراضي جيرانها الأوسع في المساحة. ويعني ذلك أن الحرب كانت قريبة من البلاد، لكن الوطن لم يواجه أي تهديد مباشر. وبالتالي أتيحت الفرصة للمدنيين لتحديد حجم مشاركتهم في الحرب، لجهة مدى نشاطهم في مساعدة الجيش والاحتفال بانتصاره. وكان يمكنهم كذلك القراءة عن الحرب أو عدم القراءة، وعرض الصور المقدمة للتعليم العام والاستهلاك أو عدم

عرضها. واختلفت الحربان في نطاقهما ومدتهما، إذ كانت الحرب ضد الصين قصيرة، وكلفت اليابان القليل من المال والأرواح، واتسمت بسلسلة متواصلة من انتصارات الجيش والبحرية. وعلى النقيض، اعترف القادة اليابانيون في بداية عام 1904 أن فرصة أي نوع من الانتصار الساحق على روسيا هي 50٪، وكان الصراع يبدو دائماً صعباً، مكلفاً، لا يحقق النتائج المنشودة. وقد كان عامة الناس هم أكثر من يتحمل الصعاب، ويشعرون بأعمق مشاعر الأسى. ويمكننا أن نرى مدى الاختلاف بين الحربين على حقيقته من خلال النظر في وجوه المشاركين فيهما. وإذا لخصنا هذا الاختلاف في صورة أرقام نجد أن: القوات اليابانية في عامي 1894– 1895 كان عددها يبلغ 240000، وإجمالي الخسائر في المعركة هو 1200 قتيل، إضافة إلى 10750 آخرين ماتوا من المرض. بينما كانت قوة الجيش الياباني في عامي 1904– 1905 حوالي 1,1 مليوناً، منهم 370000 جندياً عانوا الموت أو الإصابة أو المرض. وهناك روايات مقارنة أخرى توضح أن من بين المعارك الأكثر حسماً تلك التي وقعت في منشوريا ببورت آرثر (تسمى حالياً لاشون)، حيث سيطر الجيش الياباني على الميناء في يوم واحد، مع تقدير عدد الجرحى من اليابانيين بحوالي 200 فقط. وعلى النقيض، فقدت اليابان في أغسطس 1904 حوالي 15000 قتيل وجريح، في أول خمسة أيام فقط مما يُعرف باسم «حصار الشهور الخمسة».

وتجدر الإشارة إلى أن مبرر الحربين لاقى قبولاً واسع النطاق في اليابان. فقد أشيع خلال الحرب ضد الصين– من خلال الرأي العام ووسائل الإعلام الخارجية– أن هذه الحرب هي معركة بين التخلف والتقدم، بين البربرية والتحضر. واستُخدمت الشعارات عينها في الحرب التالية ضد روسيا السلافية. فارتفعت أصوات الأحزاب السياسية بمساندة الحرب، وكذلك وسائل الإعلام، وأهل الفكر من المدنيين. أما الاستثناء الوحيد فقد ظهر مع دخول اليابان للمعترك الصناعي، وتحولها إلى قوة استعمارية بعد عام 1895، من خلال مجموعة صغيرة من المفكرين الاشتراكيين الذين احتجوا، ونددوا بالحرب الروسية، فتعاملت الشرطة مع أنشطتهم بالشدة، واعتُقل زعيمهم كوتوكو شوسي. وقد أشار المؤرخ الحربي والاجتماعي المشهور أوهاما تيتسويا في عام 1894 إلى أن المجموعة الأعلى صوتاً بين اليابانيين في تأكيد شرعية الحرب تمثلت في المسيحيين اليابانيين، ومن أشهرهم المفكر المسيحي البارز يوشيمورا كانزو (كانت هناك جماعة مسيحية قد ظهرت أواخر

هذه الحرب في يوكوهاما، وحصلت على موافقة الجيش على تبرعها بعدد 250000 نسخة من الكتاب المقدس للجنود في جبهة المعركة، أي أكثر من نسخة واحدة لكل جندي).
كما ساندت كذلك المعابد البوذية، وأضرحة الشينتو، كلا الحربين من خلال إقامة مراسم الصلاة وتأبين الموتى وإرسال الكهنة إلى جبهات القتال. وفيما يخص المشاركة المدنية المباشرة من خلال الميلشيات حديثة التكوين، أكدت السلطات اليابانية أن الحرب الحديثة تحتاج إلى جيش منظم ذي قيادة مركزية. ومن ثم صدرت الأوامر للمدنيين الذين عرضوا في عام 1894 القتال جنباً إلى جنب مع القوات المسلحة بالبقاء من أجل العمل لصالح الوطن. لكن كان يتم إعداد الرجال المدنيين في سن التجنيد خلال الحربين، حتى يكونوا مستعدين طوال الوقت لإمكانية الالتحاق بالخدمة العسكرية. وقد امتد ذلك الأمر ليشمل حتى الرياضيين البارزين. فقد أشارت التقارير في عام 1894 إلى أن مصارعي السومو البارزين في اليابان كانوا يخشون أن تمثل زيادة وزنهم نوعاً من البطء في سير المسافات الطويلة في حالة تجنيدهم، وهو ما دفعهم إلى اتباع نظام بدني لإنقاص الوزن عن طريق المشي لعدة أميال وهم حفاة القدمين في التلال والوديان قبل المباريات. وقد فتحت الحرب ضد روسيا الباب واسعاً أمام احتمال المشاركة الكبيرة لمزيد من المدنيين بمجرد استدعائهم عن طريق إخطار عاجل، وبالتالي كانت الحرب بالنسبة لهولاء المدنيين فترة غير مستقرة.

وإذا كنا نُعرف الحياة المدنية على أنها تتركز حول إنتاج واستهلاك الطعام والسلع والخدمات، فإننا نجد أن الحروب في اليابان خلال عهد ميجي كانت لها آثار مختلطة على هذه الحياة. فقد أشارت الدراسة الكلاسيكية التي أجراها جيشي أونو، تحت عنوان «نفقات الحرب اليابانية الصينية»، إلى أن الأرز (السلعة الأكثر مبيعاً في اليابان) أصبح أغلى ثمناً في فترة ما بعد الحرب، بسبب تدفق أموال التعويضات الصينية التي أدت إلى ارتفاع مستويات المعيشة، وسمحت لمزيد من الناس بتناول الأرز في وجباتهم. ومن ناحية أخرى، كانت فكرة وجود جيش أثناء الحرب في ميدان المعركة تساعد في توفير المزيد من الطعام للسوق المحلي. في حين كان الجنود اليابانيون في الصين يعتمدون على السلع المعلبة، مثل لحم الأبقار، ويشترون أيضاً ما يحتاجون إليه من اللحوم الطازجة، وغيرها من الأطعمة، من السوق المحلي الصيني. وهكذا، كان الطعام هو ما يشغل بال

الجنود اليابانيين، بينما كانت المخاوف من نقص الطعام محدودة في جبهة الوطن.

وبدأت مستويات الدخل المتداول تعاني أشدّ المعاناة، بسبب إنفاق الكثير من الأموال المخصصة للأعمال المدنية على الحرب والتبرع للقوات. وعانى الكثير من الناس أيضاً من ضعف الأجور. فعلى سبيل المثال، انخفض بناء المباني الجديدة في عامي 1894– 1895، وتُرك بناؤها بشكل كامل في عامي 1904– 1905. وقد أدى ذلك إلى معاناة أصحاب الحرف– مثل النجارين، وعمال البناء– في كسب أرزاقهم. كما عانى كذلك صناع السلع الصغيرة المتداولة يومياً– كالأواني، والمظلات ذات الطابع الياباني– لدرجة الاندثار. أما الأماكن الترفيهية المعتمدة على زبائن الليل– مثل المطاعم والمقاهي– فكانت تحقق أرباحاً جيدة فقط في وقت الاحتفال بتحقيق نصر كبير. في حين كان عمال صناعة النسيج– التي أصبحت الآن عصب الاقتصاد الياباني الحديث– يحققون أرباحاً مناسبة فقط من خلال طلبيات الجيش مع اقتراب فصل الشتاء. وكانت المرأة العاملة– عموماً– في عام 1894 تجني ما بين 6– 10 سنتات فقط مقابل العمل طوال اليوم.

ولا شك في أن أكثر المستفيدين من الحرب هم أولئك الذين يقومون بإمداد الجيش مباشرة بما يحتاج إليه. فقد كانت الحرب– مثلاً– نعمة بالنسبة لمصانع المعلبات، حيث كانت لا تعجز عن تلبية الطلبات على الرغم من عملها ليلاً ونهاراً، لدرجة أن العامل الواحد في هيروشيما– التي كانت نقطة تجمع للقوات اليابانية المتجهة لجبهة القتال– ارتفع أجره خلال الفترة بين أغسطس وأكتوبر1894 من 35 إلى 50 سنتاً يومياً (وحصلت المرأة العاملة على 50٪ زيادة، من 10 إلى 15 سنتاً). كما كان هناك في أماكن أخرى باليابان أرباح جيدة للتجار الذين يخدمون الثكنات العسكرية للجيش، من خلال تزويد الجنود بالطعام والشراب والسلع. وقد كان هناك الكثير من الجنود والعاملين بالجيش في أماكن تجمع متعددة في اليابان– كان هناك زهاء 20000 جندي و10000 عامل بالجيش في شمال مدينة سينداي خلال نوفمبر 1894– حيث كانت المعابد تستخدم عادة حانات مؤقتة، وإصطبلات لخيول الجيش.

ودائماً كان هناك من يؤيدون الجيش بحثاً عن الربح. فقد قام أحد أصحاب الأعمال من أوساكا– مثلاً– بنقل مراحيض متنقلة على العجلات إلى القوات اليابانية في كوريا في عام 1894، وحقق أرباحاً جيدة. وكذلك وجد الكثير من سائقي عربات النقل الذين

قل زبائنهم المدنيون أثناء الحرب عملاً بديلاً مع الجيش (كان هناك 154000 عاملاً مع الجيش خلال الحرب على الصين). لكن هذه المهنة في كل من كوريا والصين كانت صعبة وخطرة، فقد كان المدنيون الذين يعملون في الجبهة يعانون من المرض والموت بأعداد كبيرة، وكان القادة العسكريون ينظرون إليهم نظرة مختلفة، ويرون أنهم لا يستحقون أي معاملة خاصة، لأنهم خرجوا وراء الجيش سعياً للكسب، وليس بدافع الوطنية. والغريب أن الأجور لم تكن مرتفعة بشكل كبير عن مثيلتها داخل اليابان، فقد كانت قيمتها في الداخل تبلغ حوالي 40 سنتاً في اليوم خلال عام 1894، بينما كانت تزيد نحو 10 سنتات أخرى في حالة العمل خارج اليابان. وفي مقابل هذه الزيادة الطفيفة، كانت لوائح الجيش تلزم العامل بسحب حمل ثقيل لمدة 12 ساعة يومياً، وتجنب الإخلال بالنظام، أو شرب الكحوليات، وكذلك التواجد بمظهر مقبول. وكان عدد من يقبلون بهذه الشروط– من سائقي عربات النقل– أقل نسبياً خلال الحرب على روسيا. وجملة القول إن الحرب كانت بالنسبة للغالبية العظمى من العمال اليابانيين في أواخر القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر، تمثل ضيقاً في الحياة الاقتصادية وهدماً للشعور بالأمان نحو المستقبل. وكانت المخاوف حول العمل تؤثر كذلك على الجنود مع نهاية كل حرب.

وكان من مجالات الحياة اليومية التي تعرضت لأكبر آثار معاكسة وغير مرغوبة نتيجة للحرب سوق السلع غير الأساسية. وظلت لفترة معدلات استهلاك هذه السلع في ذلك الوقت منخفضة المستوى، وهو ما يتضح من خلال الإعلانات الصادرة في الصحف المحلية. وكانت إعلانات الأدوية في أواخر القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر أكثر من إعلانات السلع الأخرى، وكانت أغلبها أدوية للصداع وآلام المعدة (والأمراض الأشد خطورة كالضعف الجنسي). في حين كانت وسائل الرفاهية الشائعة هي التبغ والكحوليات، وكانت السجائر من أشهر الهدايا المتداولة بين العامة (ومن الإمبراطور إلى القوات المسلحة). وقد ذكرت إحدى الجماعات الوطنية المحلية في عام 1895 تبرعها للجيش بعدد 25 برميلاً من الخمر المعتق، و90 لتراً من البسكويت، و1000 زوج من الجوارب، و130 منشفة يدوية، و50000 سيجار. وعلى الصعيد الداخلي، كان هناك اعتقاد سائد بين الكثيرين في وقت الحرب أن الرخاء يمثل عدواً. لذا ظهرت حملة رسمية صارمة أوائل عام 1904 تحث المدنيين على التعبير عن وطنيتهم من خلال تجنب كافة

مظاهر البذخ. وبمجرد زيادة الضرائب على هذه الأشياء المرفهة، ازداد الحافز لإظهار الوطنية، من خلال عدم الإفراط في التدخين وشرب الخمر. بيد أن الشركات المنتجة تداركت ذلك الأمر، وتنافست فيما بينها في إضفاء الشرعية على منتجاتها من خلال الربط بينها وبين المجهود الحربي. ومن ثم، زاد الإقبال مجدداً في الفترة من 1894– 1895 على شراء السجائر التي أصبحت تحمل اسم «وسام النصر الذهبي»، و«الانتصار العظيم»، والحلويات المزدانة بالرموز الوطنية، وكذلك قوائم الطعام التي كانت تقدم أطباقاً تحمل أسماء عسكرية، والملابس وقصات الشعر التي تحمل عناوين النصر، أو المجد.

لكن الحرب الأطول– والأعلى تكلفة– ضد روسيا فرضت على عامة الناس الاقتصاد في النفقات، بخلاف الانتعاش الاقتصادي الذي حدث بعد عام 1895، نتيجة الحصول على تعويضات مقابل الحرب من الصين، والذي بدل من مستويات المعيشة، ورفع من التوقعات. وظهرت بالتالي منتجات تتنافس فيما بينها، وتناضل من أجل أن تحظى بمزيد من الاهتمام. فعلى سبيل المثال، أشارت شركة كاو للصابون في إعلاناتها خلال فترة الحرب 1904– 1905 إلى أن «أهم شيئين في الحرب هما الصحة والاقتصاد»، وقد وعدت بالطبع بتوفيرهما لمستهلكيها. وعلى النقيض، أعلنت شركة كيرين للبيرة أن «كوريا ومنشوريا ستصبحان عما قريب منافذ بيع لجعة كيرين»، وهو ما يدل على أن الجيش الياباني اهتم بإدخال الروح اليابانية إلى هذه البلاد أكثر من اهتمامه بشعارات التحضر أو التقدم المشار إليها سابقاً. وفي ظل السوق المتناقص ما بين 1904– 1905، كانت هناك تخفيضات أكبر من جانب المنتجين. فراحت الشركات التي تبيع ساعات الجيب التذكارية تخفض نصف الثمن للجنود والطلبة، في حين غدا تجار السلع الجنائزية (أو التجار الذين تحسنت أعمالهم فجأة) يقدمون خصومات لأسر الجنود والبحارة القتلى، وحتى تذاكر المسرحيات الكوميدية الشهيرة، وحفلات المنوعات، انخفضت قيمتها إلى النصف تقريباً.

وقد كان تأثير الحرب مزدوجاً بالنسبة لقرى اليابان حيث عاشت غالبية الناس. أما التأثير الأول فقد ظهر خلال الأيام الأولى من الصراع متمثلاً في مطالبتهم بتزويد رجال القوات المسلحة بالخيول اللازمة لعمليات النقل العسكري. ومعلوم أن العدد الضخم من الخيول كان ضرورياً لأي جيش في الحروب الحديثة، وبالتالي ازداد الطلب إلحاحاً وثقلاً



الوطنية والتجارة: إعلان دراجة بيرس – أبريل 1905

على المجتمع الريفي. وقد كانت الحياة تنقسم –بمجرد إشباع هذه الحاجات الأولية– بين زراعة الحقول بالأرز أو غيره من المحاصيل، وبين مواجهة الطلبات المتواصلة بإمداد الجيش بمتطلبات الحرب، والتبرع بالمال والسلع من أجل المجهود الحربي، وهو التأثير الثاني الأخطر الذي كان على هؤلاء الريفيين البسطاء مواجهته. فقد كانت هذه المتطلبات ثقيلة بالفعل خلال الحرب البسيطة نسبياً ضد الصين، حيث بلغت التبرعات الخمسة الأولى– بعد أول إعلان عن الحرب عام 1894– زهاء 50 إلى 5000 ين، في حين بلغت أقلّ هذه التبرعات في المرسوم الثاني– خلال وقت لاحق من العام نفسه– زهاء 20 يناً. وإجمالاً، كان مقدار نفقات الحرب على روسيا أعلى مما كان بوسع الشعب أن يتحمله، لذا اضطرت طوكيو إلى الاستدانة من الغرب بأسعار فائدة مرتفعة.

وبالفعل كانت المراسيم المتعاقبة لتوفير المستلزمات المحلية للحرب، وإقامة الحملات القومية للتبرعات، مدمرة لميزانيات الكثير من الريفيين اليابانيين. خاصة أن المسؤولين المحليين مارسوا ضغوطاً على رؤساء القرى، ليمارسوا بدورهم ضغوطاً على الفلاحين لبيع المستلزمات والتبرع بسلع كالأحذية الخفيفة والأغطية (وأصدر الجيش في بداية الحرب بياناً بالتبرعات المقبولة بادئاً بالطعام ثم الأقمشة ثم المستلزمات الطبية). وشجع ذلك الجماعات المدنية المحلية التي تألفت من صفوة أفراد المجتمع، كي تمارس– هي الأخرى– ضغوطاً على المزارعين للتبرع بالمال والسلع. وانضم الكهنة في المعابد البوذية كذلك إلى جموع الضاغطين، وراحوا يؤكدون على هذه الرسالة. وعلى صعيد متصل، كانت هناك أيضاً أعباء جمع المال لمساعدة الأسر المحلية التي ينتمي إليها رجال من القتلى، أو المصابين في الحرب، أو المشاركين في جبهة القتال. وتبرز لنا مرة أخرى الحرب الصينية– الأبسط نسبياً– مستوى الصعوبة التي واجهها المدنيون الريفيون. فقد كان نحو ثلث أسر المجندين في الجيش– سواء في القرى أو المدن– في حاجة إلى المساعدات المالية من الجيران. ولم يكن هناك أي نظام واضح محدد للمساعدات في البلاد، وبالتالي تفاوتت معاناة أسر المجندين من مكان لآخر. وقد أشار أحد التقارير الرسمية في عام 1895، بمقاطعة كاناجاوا جنوب طوكيو، إلى عدم وجود أموال متبقية للتبرعات، لدرجة أن بعض أسر المجندين كانت بالفعل على حافة التضور جوعاً. وفي حين كان هذا هو حال القرى الأفقر، كانت أسر المجندبن في المناطق الريفية الأقل فقراً إما تعاني، أو تواجه احتمالات الاستدانة من جيرانهم في فترة الحرب. هذا فضلاً عن التأثير الاجتماعي والاقتصادي طويل الأجل الذي بدأ من عام 1905، نتيجة إعادة الجنود المرضى والمصابين والمعاقين، إلى الوطن.

ولا شك في أن التدفق أحادي الجانب للثروة من قرى الريف الياباني إلى المجهود الحربي أدى إلى تضاؤل– أو حتى كسر– الحلقة التقليدية للاحتفالات في فترات الحصاد وفي بقية الأعياد. وكانت الحالة الاستثنائية الوحيدة هي احتفالات العام الجديد التي ظل الكثيرون يحتفلون بها في عام 1895، وفقاً للتقويم القمري القديم، وخلال عيد ميلاد الإمبراطور ميجي (يوم 3 نوفمبر، وأصبح الآن يُطلق عليه اسم «عيد الثقافة» وهو عطلة رسمية). وكانت الحياة في القرية بوجه عام أكثر صعوبة وقسوة خلال الحرب على الرغم

من الانتصارات المتكررة لليابان في ساحات القتال.

المرأة

كان من بين التغييرات الاجتماعية الثورية للمرأة في اليابان أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن العشرين زيادة مشاركتها في المستويات المتوسطة من التعليم (وكان لا يُسمح للمرأة بالالتحاق بالجامعة). وقد أدى ذلك إلى زيادة تعليم المرأة وارتفاع ثقتها بالنفس وإلمامها بالأحداث المحيطة بعالمها. لكن بقيت المرأة لا تتمتع بأي حقوق سياسية، فقد كانت تُمنع حتى من حضور الاجتماعات السياسية حتى فترة العشرينيات، وتُسلب منها كذلك كافة حقوقها القانونية عند الزواج، وتأخذ دوماً دور الطرف الأضعف، إذ كانت جميع القرارات يجب أن تخضع لموافقة الزوج. كما اقتصرت خيارات العمل المتاحة للمرأة على العمل في الحقول أو في الصناعات النسيجية أو المساعدة– ربما– في أحد المحلات التجارية المملوكة للأسرة، أو الانضمام إلى الصناعات الخدمية، من خلال العمل في المطاعم أو المقاهي أو ما يُسمى بدور المتعة. ولم تكن هناك أي إمكانية لعمل المرأة في محال الملابس والمكاتب الحديثة وصحف المرأة والحانات والسياحة، قبل فترة عشرينيات القرن العشرين. ولم يكن هناك– في ذلك الوقت– أي إمكانية لأن تحل المرأة محل الرجل في الصناعة، أو الإدارة، نظراً لأن الصراعات التي كانت مع الصين وروسيا لم تبلغ نطاق الحرب الشاملة كالحرب العالمية الأولى. وبقي المجال الوحيد الذي قامت فيه الحرب بفتح آليات جديدة للنشاط بالنسبة للمرأة هو التمريض.

وشهدت النظرة المشجعة لعمل المرأة في مجال التمريض تحولاً ملموساً بفضل الحرب. وظلت مواقف التكسب من مهنة التمريض في بعض المستشفيات المحلية موجودة حتى عام 1904، حيث كانت الممرضات يحذرن المرضى الوافدين من أن جودة الرعاية التي يحصلون عليها تتوقف على «الإكراميات» المقدمة لهن. وكان ذلك يثير خوف المدنيين الأكثر فقراً من مجرد الاقتراب من الأطباء أو الممرضات. ولا شك أن الحروب الميجية ساعدت في إضفاء صبغة جديدة من التعاطف مع الممرضات واحترام مهنتهن. وكان هناك عدد قليل من المصابين في المعارك في الفترة بين 1894–1895، مما جعل الجيش بغير حاجة إلى عدد كبير من الممرضات. لكن كانت هناك قيم سياسية في جعل المرأة تتولى

رعاية المرضى والجرحى، كإبراز الوحدة الوطنية، والحداثة، في مواجهة الغرب. وبالتالي ذهبت المرأة المدنية للخدمة في المستشفيات العسكرية في اليابان للعمل بالتمريض خلال الحروب التي جمعت اليابان بالصين وروسيا. وكانت المرأة تقود كذلك الرعاية الطبية الأساسية والراحة للجنود في محطات السكك الحديد.

ومن ناحيته، لعب الصليب الأحمر الياباني دور الريادة في تنظيم الممرضات المدنيات. وكانت هذه المؤسسة يفوق فيها عدد الرجال نظيره من النساء بدرجة كبيرة، وكان يرأسها أمير إمبراطوري. وقد أصبحت الممرضة هي الرمز الأشهر لهذه المؤسسة. وكما تقول الأغنية التي ظهرت وقت الحرب بعنوان «المرأة تشارك في الجيش»: الممرضات... قلوبهن بلون الصليب الأحمر. وتشير المؤرختان شارون نولتي وسالي آن هاستينج إلى أن الصليب الأحمر كان قد بدأ في التدريب الرسمي للنساء للعمل بوصفهن ممرضات اعتباراً من عام 1890، وأنه قام بتوفير عدد صغير من الممرضات المدربات للجيش في الحرب مع الصين، في حين وفر ما يزيد على 2000 ممرضة للخدمة العسكرية خلال الشهور الستة الأولى فقط من الحرب على روسيا. وقد كانت الممرضة خلال الحروب تشتهر بالتأني، وعدم الأنانية في تقديم الرعاية (بينما كان الرجال معذورين بسبب إصاباتهم التي تجعلهم معتمدين على المرأة)، حتى قيل إن الجنود العائدين إلى اليابان كانوا يكتبون الخطابات أولاً إلى الممرضات على الجبهة قبل أسرهم.

وتراوحت النظرة العامة إلى الممرضة بين صورة الأم والأخت الكبرى والزوجة، وكان تعامل الناس معها يميل إلى الحساسية أكثر منه إلى العاطفة. وكانت السلطات العسكرية تخشى أن يتشتت الجنود بسبب «ملائكة الرحمة» وينسون واجبهم الوطني. لذا أشارت الصحافة اليابانية– في نوفمبر 1894– باستنكار إلى أول حالة حب وقعت في مستشفى هيروشيما العسكري بين جندي من سلاح الفرسان وممرضة شابة عمرها 31 عاماً، تسمى ناكاجيما آيكو. ومن الملفت أن الاسم الذي اشتهرت به النادلات في الملاهي الليلية هو «عضوات الصليب الأحمر» (بينما كانت توصف النادلات بلقب «فرقة الجيش» Army Band). ويبدو أن المرأة قد وجدت صعوبة في الانفصال عن سمتها الأنثوية، وقبول الكفاءة في العمل. وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من الجنود في عام 1905 كانوا يُعالجون من أمراض منقولة جنسياً انتشرت بين العاهرات في هيروشيما. ومن ثم، كان واقع الحياة

والعمل بالنسبة للممرضات قليلاً من علاج الأبطال الجرحى في المعارك، وكثيراً من مجرد مسح الأعضاء المتقرحة.

وكان من بين أوسع الأدوار الاجتماعية للمرأة في اليابان خلال الحرب تنظيم الدعم للمجهود الحربي. وقد برز هذا الدور كثيراً خلال الحرب ضد روسيا. وكانت «رابطة المرأة الوطنية» أقدم وأكبر الجماعات النسائية من نوعها. وقد تأسست تلك الرابطة في عام 1901 على يد أخت كاتب بوذي بارز، وضمت في أوائل عام 1905 زهاء 360000 عضوة، وعُينت أميرة إمبراطورية رئيسة لها. وبرزت الرابطة باعتبارها أكثر الكيانات نشاطاً، إذ ساهمت المرأة فيها بشكل منتظم في دعم الحرب. وقد أخذ ذلك الدعم عدة أشكال، أبرزها توزيع المشروبات المنعشة، والهدايا الصغيرة، على قطارات الجنود المارة، وجمع التبرعات من المجتمعات المحلية، والمساعدة في تقديم الدعم والراحة لأسر الجنود.

لكن ظهر بعض المدنيين الذين هاجموا الرابطة، واتهموها بأنها مترفعة– أي تقتصر في عضويتها على المرأة التي تنتمي للطبقة المتوسطة والعليا– وبأنها غير فعالة. كما ظهرت روايات حول تمييزها الطبقي المتمثل في التركيز على المحتاجين، وفشلها في تحقيق أي نتائج ملموسة. وقد انخدع أحد فروع الرابطة عندما استقبل زائراً أمريكياً، وذلك لأن الاستقبال كان يعتبر من بين أبرز إسهامات ذلك الفرع وقت الحرب. ومن جهة أخرى، ظهرت أيضاً جماعات أصغر، وأكثر محلية من المرأة الوطنية، ضمت في عضويتها فئات مثل الراقصات اليابانيات. وإجمالاً، اختلفت تلك الجماعات المتعددة في طموحاتها، ومناهج عملها، وهو ما أدى إلى حدوث العداء والتنافس حول الجماعة التي يمكنها جمع المزيد من المال أو الأغطية للجيش. وقد نتج عن ذلك خلال الحرب مع روسيا غضب عام ضد كافة الجماعات المدنية، بسبب تضحيتها بمصالح عامة الشعب من أجل سمعتها الخاصة.

الشباب

انفردت اليابان عن باقي الدول الآسيوية في ثمانينيات القرن التاسع عشر بوجود نظام تعليمي تمهيدي إجباري. بدأ ذلك عام 1872 وهو العام الذي بدأ فيه التجنيد للجيش. وكان الهدف من النظامين إكمال بعضهما بعض، حيث كان الطلبة يتعلمون النظام

والخدمة، وفي الوقت نفسه يُزَوَّدون بكتب تجسد المثل العليا العسكرية. وسمح ذلك النظام للحكومة الميجية بضمان حصول جميع الأطفال على التعليم الأساسي (على الرغم من عدم استمرار ذلك عادة لمدة طويلة بعد تجاوز سن التعليم) والفهم المشترك لمسألة القومية. ولا شك في أن أية حكومة تملك هاتين المهارتين تستطيع قيادة شعبها للحرب بكل احتراف.

وقد أدى تطور أنظمة المدارس في القرن التاسع عشر، سواء في اليابان أو غيرها، إلى تغيير كبير في طبيعة ومعدل التعريف الاجتماعي للطفولة. وكانت حقيقة خوض الحرب تجلب شعوراً بالإثارة داخل الفصل. خاصة أنه استخدمت عناصر الحرب ومعاركها وأبطالها، باعتبارها مادة علمية في الدروس، من التاريخ إلى الجغرافيا وعلم الأخلاق والتربية البدنية والموسيقا. وقد قامت وزارة التعليم المركزي في الفترة بين 1894– 1895 بتوزيع كتب غنائية ضمت أشعاراً وألحاناً حول المجد والوطنية (كانت تحتوي على بعض الأغاني الحربية التي تمجد الإمبراطور ميجي، وتحمل عناوين مثل: «نصر بيونغ يانغ العظيم»، و«الانتصار العظيم في البحر الأعظم»). وفي الفترة من 1904– 1905، تكرر الأمر عينه. وإضافة إلى ما سبق، كان أطفال المدارس يدرسون خرائط ميادين القتال، ويتعلمون أسماء المدن في كوريا ومنشوريا، ويكتبون الخطابات للجنود في جبهة القتال، ويشعرون بالفخر لكونهم يابانيين يحكمهم إمبراطور قوي منتصر. جدير بالذكر أن الإمبراطور كان يُصوَّرُ في وسائل الإعلام المحلية العامة، في الفترة بين 1894– 1895، على أنه من يقود جهود الحرب ويحمي الوطن. وعلى صعيد آخر، أكسبت الحربان صحف الطفل كذلك الشجاعة اللازمة، فامتلأت بقصص حربية وبطولية. وكانت أكثر الصحف شهرة في تلك الفترة صحيفة (عالم الشباب) التي نُشرت في عام 1895، علاوة على ظهور نسخة مشابهة منها للفتيات صدرت بعد الحرب على روسيا مباشرة.

وكانت هناك صلة مستمرة بين أطفال التعليم الأساسي والحرب من خلال الأغاني والألعاب والقراءات داخل المدرسة. وكان يُصطحبُ الأطفال في مجموعات مدرسية إلى موقعين ذوي طاقة وجدانية كبيرة هما: محطات السكك الحديد والجنائز. وفي ذلك يؤكد أحد ضباط الجيش أنه علم وهو في محطة ناجويا (واحدة من أبرز المحطات بين طوكيو وهيروشيما) في شتاء 1894 بأن مجموعات مدرسية تضم كل منها 40 طالباً نُظِّمت للعمل

في شكل دوريات مدة كل منها ساعة واحدة، وهدفها تنظيف الزي العسكري وأحذية الجنود. ولعل هذه المهام كانت غير ضرورية، لكنها– بلا شك– منحت الأطفال شعوراً بالتواصل مع الجنود. وعلاوة على أن البناء المعماري وانفصال القطارات والأرصفة في محطات السكك الحديد الرئيسة– أعطى شعوراً عن الحالة المسرحية التي تجذب الأطفال والكبار معاً. وكانت هناك في ناجويا فرقة تعزف موسيقا حماسية دون توقف، وكان كل قطار لنقل الجنود تصاحبه صرخات التهليل والأناشيد العسكرية التي يشدو بها جموع المودعين.

وفي وقت كانت محطات السكك الحديد موقعاً للضوضاء الحماسية والروح المعنوية المرتفعة (على الأقل أثناء عودة المرضى والجرحى)، كانت الجنائز العسكرية مهيبة بطبيعة الحال وذات طقوس هادئة نسبياً. واعتادت المجموعات المدرسية على الذهاب إلى مراسم التأبين بمصاحبة ممثلين للمجتمع المدني كأعضاء الجمعيات الوطنية والمسؤولين المحليين ورجال الشرطة. وكان الهدف من ذلك بالطبع إكساب الأطفال الشعور بأهمية دورهم في المجتمع وأن يشهدوا الاحترام المجتمعي الذي يحظى به من يضحون بأرواحهم في الحرب. وكانت الجنائز أحياناً طويلة ومرهقة حتى للكبار، خاصة أن المتحدثين يكررون عادة نفس كلمات التأبين. وما يثير الدهشة هنا أنه في العامين 1904– 1905 ارتفع عدد القتلى بشكل هائل، مما ساعد الأطفال– ربما– على فهم الحقيقة الأكثر قبحاً للحرب، بعيداً عن الصورة المجيدة التي تعج بها الكتب المدرسية!

وكان الاهتمام بصحة الطفل من الأفكار المرتبطة بالمجتمعات خلال الحرب، لأنه في عصور حتمية الحرب يكون الافتراض الطبيعي أن الأطفال سيصبحون جنود المستقبل. فكان المسؤولون اليابانيون يهتمون قبل حرب الصين بمشكلة قصر قامة الشباب (وكان متوسط طول الذكور البالغين عام 1894 في مقاطعة طوكيو 156 سنتيمتراً فقط). ولما كان من المستحيل إنجاب أطفال أطول قامة في المدى القصير، أصدرت وزارة التعليم أواخر عام 1894 توجيهاً بضرورة الاهتمام بالصحة البدنية وقوة التحمل لدى الأطفال اليابانيين. ساهم ذلك في حدوث تغير كبير في المفهوم الياباني للتعليم، وتحولت المناهج من التركيز على بناء العقول إلى بناء الأجسام، وهو ما شمل زيادة حصص التدريب البدني. واستجاب موردو السلع الأساسية للمدارس لذلك من خلال صناعة قوارب خشبية لاستخدامها في

التدريبات. وتشجع المعلمون على المساعدة في زيادة خشونة الذكور في الشتاء من خلال الجلوس بجوار النار للتدفئة أو ارتداء كثير من الملابس (طُبِّقَ هذا النظام فيما بعد على الإمبراطور هيروهيتو في طفولته). وظهر اتجاه عام في مطلع سنة 1895 لإصلاح ملابس الذكور من خلال تضييق الأكمام لتناسب حركتهم في حصص التدريب البدني (وفكرت وزارة التربية والتعليم عام 1905 في إجراء التغيير نفسه على زي البنات، لكنها وجدت انتقادات عامة بسبب تشابهها مع ملابس الذكور وعدم ملاءمتها لدورهن المتوقع في المجتمع). علاوة على ذلك شاع في المدارس الأساسية الاحتفال بالانتصارات العسكرية وغيرها من الاحتفالات الرئيسة عن طريق اجتماع رياضي يُقام عادة في ضريح عام. وكان اللعب من الوسائل التي شارك أطفال المدارس من خلالها في المجهود الحربي. فشاركت بعض المدارس خلال الحرب على الصين في مسرحية تعيد تجسيد إحدى المعارك، فجرى تقسيم الأطفال الذكور القادمين من مدرسة واحدة أو أكثر لتمثيل معسكرات الجنود اليابانيين والصينيين، ولعبت البنات دور الممرضات في فرق الصليب الأحمر، واختير موقع ليمثل أحد الحصون التي استطاع الجنود اليابانيون الشجعان تطويقها. وكان الطلبة الذين يمثلون السقوط في الهجوم ينقلون إلى فتيات الصليب الأحمر. ولعب المعلمون أنفسهم دور القادة، ويبدو أنهم كانوا يسعون إلى تعزيز سلطتهم! وكان بعض تلك العروض التمثيلية يجذب جمهوراً كبيراً من السكان المحليين بسبب قربها من الحرب التي كانوا يعيشون أجواءها ولسعادتهم بنهايتها. ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث في مدينة أوجاكي الواقعة في وسط اليابان أواخر عام 1894، حيث كان هناك 1600 طالب من ست مدارس تمهيدية محلية، جسدوا معركة بين الجيش الأحمر الياباني والجيش الأبيض الصيني. وذكرت التقارير أن المتفرجين الذين شاهدوا أطفال عاصفة الجيش الأحمر والسيطرة على القلعة المحلية (استُعِيرت لتجسيد الحدث، وكانت تمثل الحصن الصيني) زادوا عن 3000 متفرج من المدينة والمناطق المجاورة. وجُسِّدت كذلك لاحقاً الحرب ضد روسيا في معارك وهمية انعكست فيها حالة التوتر العام والمعاناة العليا في شكل أداء تمثيلي أكثر جدية. وقد كتب أحد المعلمين– في وقت لاحق– يقول إنه كان يقنع طلبته البالغة أعمارهم تسع سنوات– ليجعل الأمور تبدو واقعية– بأن الروس سيطروا على ميناء ياباني وأنهم يتقدمون إلى قلب البلاد! ومن ثم كان يُطلب منهم التجمع قبل الفجر يوم الأحد

والسير ببطء حاملين بنادقهم المصنوعة من الخيزران لمعاونة الجنود اليابانيين. وقد سمع هذا المعلم نفسه فيما بعد أن أحد الطلبة- على الأقل- غادر منزله وطلب من والديه ألا يتوقعوا عودته حيّاً. ويبدو أن الأطفال كانوا يواجهون صعوبة أكبر في ألعابهم الحربية خلال العامين 1904- 1905 بسبب قوة العدو. والطريف أن هؤلاء الأبرياء كانوا يجدون صعوبة في تجسيد الشخصية الروسية لأنهم لم يروها من قبل، ولأن الشيء الوحيد الذي عرفوه عن الروس أنهم أطول منهم قامة، لذلك طلبوا من معلميهم تجسيد دور العدو!

ولعل من الأخطاء الشائعة في الكتابة عن التعليم والحرب افتراض أن الأطفال يقبلون كل ما يُقال لهم ببساطة. فلا شك أنه كان هناك- خلال الحرب ضد روسيا- كثير من قطارات الجنود التي تمر عبر الخطوط الرئيسة، لدرجة أن الأطفال كانوا يقضون الكثير من الوقت في محطات السكك الحديد، أو يتابعون حركة الجنود من نوافذ الفصل، مما دفع بعض الأماكن إلى أن تلجأ لتوزيع جداول الخدمة، من أجل إجبار الطلبة على العودة إلى المدارس. وجدير بالذكر أنه في عامي 1904- 1905 خفضت ميزانية التعليم بشدة، من أجل توفير الأموال للمجهود الحربي، وهو ما ترتب عليه تأجيل بناء الأبنية، والإنشاءات المدرسية الملحة، ولجوء المعلمين إلى التقاعد بسبب تقليص أجورهم. وفي الوقت ذاته، حصل المعلمون الذين فضلوا الاستمرار على فصول أكبر حجماً، وساعات عمل أطول، كما زادت مستقطعات الأجور في بعض الأحيان (بمعدل 30 سنتاً شهرياً للمعلمين في بعض مدارس التعليم التمهيدي الكبيرة، و92 سنتاً في المدارس الأعلى). وعلاوة على ذلك، كانت هناك ضغوط على كل من المعلمين والطلبة للتبرع بالمال من أجل الجيش. ويعني ذلك أن تلك الصعوبات التي تواجهها المدارس والمعلمون كانت كفيلة بأن تذكر الأطفال دوما بمأساة الحرب، فضلاً عن كونها جزءاً من واجباتهم. فمع أن الأطفال كانوا ينشدون في المدارس أغاني الحرب التي توافق عليها وزارة التربية والتعليم، والمليئة بمشاعر تدمير العدو (حتى إن كان ذلك مقابل التضحية بالنفس)، فإن هؤلاء الأطفال أنفسهم لم يكونوا- على ما يبدو- كالورقة البيضاء التي يسطر عليها الكبار ما شاءوا. فها هو خطاب موجه إلى صحيفة عامة يرد فيه أن: «الاحتفال بالنصر الذي يضم زمرة من الأطفال ينشدون الأناشيد العسكرية أمر رائع، لكنني أشعر بسعادة خاصة عندما أرى مجموعة من الأطفال الصغار، الكسولين، معقودي اللسان، ينشدون أثناء المشي: انتصرت

اليابان وخسرت روسيا». وبصرف النظر عن الانتقاد الموجه للطلبة بالكسل (والذي يدل على أن المدارس لم تكن تؤدي المهمة المرجوة منها من جانب الحكومة)، فإن وصف الطلبة في هذا الخطاب يحمل الكثير من الصدق الذي يجرد الحرب من أيةِ إضافات أيدولوجية، ويعيدها إلى المنبع.

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن الكثير من أطفال مدارس التعليم الأساسي، الذين كانت الحرب تمثل بالنسبة لهم مجرد لعبة في العامين 1894– 1895، قد أصبحوا مراهقين في العامين 1904– 1905. وقد كان التعليق الاجتماعي على المراهقين اليابانيين أثناء الحرب الروسية دالاً وحيوياً للغاية. فقد كانت التعليقات السائدة بين عامة المجتمع في ذلك الوقت هي أن الشباب– حتى بعد الحرب– كانوا ضعفاء، لا يُعتمد عليهم. والملفت أن الانتقادات كانت توجه بشكل خاص إلى الذكور، الذين يُتهمون بنقص الجدية– أو الدافع– لديهم، و«الانحطاط»، وهو اللفظ الذي كان يوصف به الاهتمام المفرط بالجنس، والملابس، وقصات الشعر، أكثر من الوطنية. وعموماً، كان الشباب يبدون– بالنسبة لبعض المراقبين– تافهين ضعفاء، في حين بدت الشابات أكثر ثقة بأنفسهن، وحزماً في التصرف. ولا شك أن هذه الانتقادات تدل ضمنياً على أن التعليم خلال الحرب كان تأثيره ضعيفاً على المدى الطويل، خاصة في ظل الانتصارات السهلة، مثل الانتصار على الصين. ولعل تحول الحرب إلى لعبة في الفترة بين 1894– 1895 قد ساعد في تشويه الصورة الجادة للحرب لدى الأطفال خلال السنوات التالية.

وسائل الإعلام

يلعب التعليم والإعلام– بلا شك– دوراً أساسياً في الحفاظ على الترابط والتواصل في الحروب الحديثة. وقد انتشرت الصحافة القومية والمحلية في اليابان خلال الحرب الصينية اليابانية، وكانت الصحف الكبرى قد أوفدت إلى جبهة القتال منذ بداية الهجمات ما يقرب من 40 مراسلاً صحفيّاً. واستعملت تلك الصحف البرق في إسراع حركة المعلومات في الداخل والخارج (وكانت أنظمة الهاتف الأولية موجودة بالفعل في مدن طوكيو وأوساكا لكنها لم تتوسع إلا بعد الحرب). ومن بين الآثار الهامة لتدفق الأخبار في ذلك الوقت صدور طبعات إضافية للصحف في الصباح والظهيرة والمساء، مما ساعد في توفير

فرص عمل لكثير من الأشخاص الذين تخصصوا في بيع الصحف في الشوارع.

وكانت صحيفة «يوبين هوشي شيمبون» من الصحف البارزة في اليابان في أواخر القرن التاسع عشر، فقد ارتفع عدد إصداراتها من 13000 نسخة يومياً في عام 1887 إلى 140000 نسخة عام 1904، ثم إلى 300000 نسخة بعد 3 أعوام من ذلك. وشهدت الصحيفة خلال حرب الصين– وغيرها من الصحف القومية والمحلية– العديد من صور إعادة الهيكلة، من أجل إضافة المزيد من الأخبار والصور، واستخدام أسلوب في الكتابة أكثر سهولة لكافة الطبقات الاجتماعية. خاصة أن الصحف كانت بمثابة رئة لليابان، إذ كانت هي شرايين الاتصال الرئيسة بالخارج. وهناك أقاويل حول وجود قرية واحدة على الأقل في وسط اليابان كانت لا تعلم ببدء الحرب خلال الشهور الخمسة الأولى منها. ومع أنه كانت هناك رقابة عسكرية على مراسلي الحرب والصحافة، فإن المواطن المتعلم، وحتى الأمي، كان بإمكانه متابعة الحرب بكل تفاصيلها من خلال الأحاديث حول الأخبار. فعلى سبيل المثال، تمّت طباعة أحد الخطابات المرسلة من ملازم بالجيش (كان قد قام بكتابته بعد عدة أيام من المذبحة التي ارتكبها الجنود اليابانيون ضد المدنيين الصينيين في بورت آرثر) بعد شهر واحد في صحيفة محلية في إيباراجي. وقد تحدث الخطاب بشكل صريح عن «جبل من الجثث الصينية في شوارع المدينة الشهيرة، ونهر من الدماء».

وقد كان انتشار الصور من المشاهد الحديثة في الحياة اليومية اليابانية خلال الحربين. ولكن الفارق بين الصراعين يكمن في طبيعة هذه الصور. فعامة، كان هناك نمطان استطاع الناس من خلالهما رؤية الحرب مع الصين. وقد تمثل النمط الأول في تلك الصورة التي ظلت إلى الآن، وهي الصورة الشجاعة المبهرة، وكذلك التصوير الخيالي للحرب في شكل مطبوعات على ألواح خشبية تشبه كثيراً في أسلوبها رسومات المانجا الحديثة. ويكفي أن نعرف أنه كان هناك زهاء 3000 مطبوعة مختلفة صدرت خلال الحرب، أي بمعدل 10 مطبوعات يومياً. وقد كان العامة يفضلون الأحدث على الأفضل. وكان المدنيون يفضلون– في مشاهد الحرب– مشاهدة الواقع الفعلي لهذه الحرب. وبالتالي كانت هناك مطبوعات لجنود في المعسكرات يقومون بالأشياء العادية، مثل طهي الطعام أو التدفئة. أما الصورة المعتادة للحرب فقد كانت تضم مجموعة من الجنود اليابانيين الذين يطاردون حفنة من الصينيين. ودوماً كانت القوات اليابانية تبدو في هذه الصور مميزة، من خلال

حداثة زيها العسكري، وكفاءة حركتها، وتعبيرات الوجه القوية (كان من بين السمات المميزة لليابانيين عن الصينيين الرجولة الظاهرة من خلال شواربهم).

أما القناة الرئيسة الأخرى التي كان الناس يستطيعون من خلالها رؤية الحرب فقد تجسدت في عروض الفانوس السحري. وقد كانت تلك العروض- كما يستدل من اسمها- وسيلة لعرض صورة ملصقة على الزجاج باستخدام ضوء وشاشة واسعة. ولم تكن الصورة متحركة بالطبع خلال تلك الفترة. وكان ذلك يعني إدراك الناس للحرب على أنها ساكنة ومتجمدة. وربما كان ذلك التصوير أكثر دقة في التعبير عن جو تلك الحرب في ذلك الوقت، حيث كانت درجات الحرارة- خاصة في شمال الصين في وقت الشتاء- منخفضة جداً، لدرجة أن الفارس على الجواد قد تتجمد قدماه بسهولة، كما كان من الممكن أن يتهشم شعر ذيل الحصان مثل كرات الجليد المتجمدة. ولا شك في أن المدنيين العاديين في منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر لم يكونوا يتوقعون رؤية الحركة، إذ كانت الصور المتحركة قد بدأت للتو في التطور في فرنسا. ونتيجة لذلك، كانت عروض الفانوس السحري تمثل إبهاراً بالنسبة للكثير من الناس. وتوضح الأقاويل أن المئات من الناس كانوا يملئون أفنية المدارس، والمباني العامة، أو حتى المعابد في القرى، عند تنظيم أحد العروض. وتظهر قوة هذا الإقبال فيما حدث عام 1894، عندما هدد صاحب مصنع للنسيج العاملات بالمصنع بغرامة قدرها 10 سنتات (أجر يوم تقريباً) إذا غادرت إحداهن المصنع في أي وقت خارج فترة الراحة المتفق عليها. فعند السماع عن تنظيم عرض محلي للفانوس السحري، سارعت 13 امرأة إلى دفع الغرامة مقدماً، وذهبن للانضمام إلى العرض. ويبدو أن صور مشاهد الحرب كانت متوافرة في الأسواق، فقد جاء في أحد الإعلانات أن تكلفة 20 صورة كبيرة قرابة 6 ينات، مع انخفاض تكلفة الصور الأصغر إلى نصف هذا الثمن. وقد كان هناك مدنيون يشترون مجموعة من هذه الصور، ويجولون بها في القرى عبر البلاد ليس من أجل التربح، ولكن لتقديم المعلومات، والترفيه عن القرويين.

وأصبحت الصور المتحركة في عام 1904 تهيمن على النظرة العالمية الحديثة لكثير من العامة في اليابان. خاصة أنه كان هناك بالفعل عدد كبير من صناع الأفلام التجارية في اليابان، وإن ظل ما يقدمونه- في الغالب- عبارة عن مشاهد مصورة للراقصات اليابانيات

(وكذلك أشهر الصور الملصقة على البطاقات البريدية). ولكن هذا لا يمنع أنه كانت هناك أفلام عن الحرب في اليابان، بداية من الحرب الإسبانية الأمريكية أواخر تسعينيات القرن الثامن عشر، مروراً بحرب بوير عام 1899، وحرب بوكسر في الصين التي حارب فيها الجنود اليابانيون إلى جانب القوى الغربية. كما شهدت الحرب اليابانية الروسية تقارير إخبارية، وصوراً للحرب، كانت تشغل السينمات حديثة النشأة في اليابان. وكان الفيلم صامتاً بالطبع مع وجود تسجيلات موسيقية تضفي لحناً مميزاً على تلك الدراما الحربية، وصوت معلق على الأحداث، وكان نجاح أو فشل أي حدث أو عمل يتوقف على نجاح المعلق في التعبير عنه وإثارة حماسة المتفرجين.

وتجدر الإشارة إلى أنه كان يُحصَل على الأفلام التي تصور جبهة القتال من خلال مصوري الأنباء اليابانيين، ومن الأجانب، خاصة شركة باثي الفرنسية. وكان من بين الموضوعات الأكثر جذباً لاهتمام المدنيين اليابانيين الأنشطة اليومية للجنود العاديين. أما العدو فكان نادراً ما يُصَوَّرُ إلا مصاباً أو مقتولاً. ويقال إن الجمهور الياباني كان يشعر بالحزن من رؤية قتلى العدو، بينما كان يشعر بالفخر والسعادة عند رؤية أفلام تصور الجرحى الروس وهم يتلقون العلاج على يد الفرق الطبية اليابانية. وعلى عكس الحروب الأحدث (مثل الحرب مع القوات الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية)، كانت الصور تعرض كذلك جثث اليابانيين، وهو ما لاقي قبولاً من العامة، بسبب سعيهم لمشاهدة الحقيقة، وليس الافتراءات. وقد علق على ذلك أحد المؤرخين البارزين للسينما البدائية في اليابان– بيتر هاي– في صحيفة كوبي شيمبون في 21 يونيو 1905 قائلاً:

«على عكس الزيف الذي كان يحدث عند تصوير المعارك لعرضها داخل البلاد، كانت هذه المشاهد تلتقط من ساحة المعركة الفعلية... وتبدو هذه المشاهد أكثر عمقاً من خلال عدم تنظيمها في سياق واضح مثل الصور الوهمية، وهو ما يتفق مع ساحة المعركة الحقيقية التي تعج بالفوضى، وتخلو من أي منطق واضح»(9).

وكان صناع السينما اليابانيون قد لجأوا بسبب العجز عن توفير الأفلام المجسدة للحرب إلى اتباع نهج الآخرين المتمثل في محاكاة ساحة الحرب لتصويرها. وكان ذلك يحصل باستخدام عدد قليل من الإضافات التي تمثل الجيش الروسي، وقليل من النيران، لمحاكاة دخان المعركة. ولكن الناس كانوا يرفضون أية محاولة لخداعهم، على الرغم من تسامحهم مع خيال الحرب عندما يبدو لهم وهمياً تماماً. وقد أوضحت التقارير المعاصرة الحالة التي كان عليها الجمهور الياباني في عامي 1904–1905، وأكدت أنه كان سريعاً في ملاحظة الإعلانات الكاذبة أو الوهمية، وفي الشكوى منها. ولعل تعريف هؤلاء الجمهور للحداثة كان هو العلم والمنطق والدقة، وهو ما كان يحميهم من استغلال المتطرفين.

شؤون الموت

كان الموت من أكثر جوانب الحياة اليومية تأثراً بالحرب. فقد أظهرت الأرقام الواردة في الصحافة المحلية عام 1894 أن متوسط العمر الافتراضي لليابانيين 36 عاماً. في حين كان متوسط العمر الافتراضي للفرنسيين 40 عاماً، والبريطانيين 37 عاماً، والألمان 35 عاماً فقط. ومن ثم، كانت الحياة في اليابان قصيرة مثل أوروبا، وباقي أنحاء العالم، وكانت الوفيات شائعة. ولعل السبب الرئيس وراء توقعات قصر الحياة تمثل في ارتفاع معدلات الوفيات بين المواليد. وقد كان من أهم مظاهر الفصول الدراسية في اليابان وجود أماكن شاغرة للأطفال الذين ماتوا.

ومعلوم أن الكوارث الطبيعية كانت تمثل تهديداً مستمراً للحياة في اليابان، بصرف النظر عن حالة الحرب أو السلم في البلاد. وتشمل هذه الكوارث الطبيعية الزلازل والأعاصير والفيضانات والانزلاقات الأرضية. ففي عام 1894– قبل بدء الحرب مع الصين– ضرب زلزال قوي طوكيو. وقد أسفر هذا الزلزال عن مقتل 20 شخصاً، وإصابة 300 آخرين، وتدمير زهاء 4000 مبنى سكني، من بينها مؤسسات حكومية رئيسة. وخلال الشهور الأولى من الحرب، ضرب زلزال آخر شمال مدينة ياماجاتا. وقد ذكرت التقارير أنه أدى إلى مقتل زهاء 694شخصاً، وإصابة 600 شخصٍ، وتدمير ما يزيد عن 2500 منزلٍ بالكامل. وفي الوقت نفسه، دمرت الأعاصير والفيضانات العديد من المناطق الأخرى في شيماني، ونتج عنها موت أكثر من 100 شخص، وتدمير زهاء 1000 منزل، وتدمير أو

غرق 15000 آخرين. وقد اعتذرت الحكومة عن عدم تقديمها أية إعانات، نظراً لاستهلاك جميع الأموال المتاحة في المجهود الحربي. وعلاوة على ذلك، أكدت أنها إذا ساعدت المواطنين في إحدى الكوارث فسوف يتعين عليها مساعدة ضحايا الكوارث الأخرى. وهكذا ببساطة لجأت الحكومة إلى فكرة التضحية في الحرب باعتبارها مبرراً للتخلي عن الشعب في حالة الكوارث! ويبدو أن ذلك التحفظ المفرط في الثروة الاجتماعية كان من سمات الحكومات الميجية حتى سنواتها الأخيرة. فقد أعلنت وزارة الداخلية كذلك في عام 1894 عن وجود أكثر من 150000 حالة من مرضى الزحار، و35700 حالة وفاة بسبب أحد الأوبئة. وعامة، يمكننا القول إن الحياة اليومية لليابانيين خلال هذه الحرب الخفيفة اتسمت بالكوارث، والمرض والموت.

ولم تسبب أي من الحربين اللتين وقعتا في عهد ميجي ارتفاعاً مباشراً في مستوى الوفيات بين المدنيين في اليابان، على الرغم من موت مئات المدنيين الذين كانوا يعملون لصالح الجيش في جبهة الحرب عادة بسبب المرض. غير أن التأثير المباشر للحربين تمثل في فقدان أعداد كبيرة من الشباب، خاصة في الفترة بين 1904 و1905، فبينما كانت الجنازات العسكرية أثناء الحرب الأولى حدثاً نادراً ما يحدث، لم يلح في الأفق أي تهديد واضح على نمو السكان في البلاد. أما أثناء الحرب مع روسيا، فامتلأت الصحف الإقليمية بأسماء قتلى المعارك من اليابانيين وما تبعهُ من انتشار الجنازات العسكرية على نطاق واسع. وفي عام 1905، شجعت قواعد الجيش المدن والقرى على المشاركة في الجنائز من خلال عقد مراسم مشتركة لكل حالتي وفاة– أو أكثر– بالجيش. وذكرت قواعد الجيش آنذاك لضرورة تنظيم الجنائز حسب الطقوس البوذية، وأن تُنظَّمَ الجنائز ببساطة ودون تكلف (ومن ضمن القواعد أيضاً عدم تقديم أية مشروبات للضيوف الذين يأتون قبل المراسم أو بعدها). وكانت أسر الضحايا تتحمل تكاليف الجنائز بشكل عام، وكانوا يحصلون– في بعض الأحيان– على مساعدة أقربائهم وعلى نوع من الهبات المالية مواساة لهم من جانب المعزين. وكان مسؤولو المدن والمقاطعات والقرى وقيادات الشرطة والجماعات المدنية يحضرون الجنائز العسكرية. ولم تكن معاشات الحرب آنذاك تعويضاً مناسباً عن فقدان الزوج أو الابن في الحرب، والأسوأ من ذلك دائماً كان عودة الجنود من الحرب بإعاقات مستديمة أو خلل نفسي كبير.

ولا شك في أن الديانة كانت من بين جوانب المجتمع المدني التي استفادت من الحرب، سواء في احتفالات النصر، أو التأبين الجنائزي. فقد كانت المعابد البوذية، والأضرحة، علاوة على الكنائس المسيحية، تسعى إلى إبراز وطنيتها من خلال جمع التبرعات المالية للقوات، وإرسال البعثات الدينية للجبهة. فلا عجب أن ينتشر آنذاك المثل الياباني: «عش شينتو، ومت بوذياً». وكيف لا وقد كان المدنيون يذهبون لتأبين قتلى الحرب، أو أداء صلاة الشكر لمن نجوا من الموت، وذلك في الأضرحة التي كانت ترتبط بالخصوبة والرخاء حيث كانوا يحتفلون بالانتصارات العسكرية (ويصاحب ذلك قدر كبير من التوسل) وإجمالاً، يمكننا القول إن الأضرحة خلال الحرب ضد الصين كانت من أكبر المستفيدين، في حين ازدهرت المعابد خلال الحرب ضد روسيا. وقد كان الجنود قبل الذهاب إلى كوريا أو الصين يشترون التمائم البوذية، من أجل الحصول على الحماية الإلهية، وكانت هذه التمائم تأتي من المعبد الشهير في ناريتا (موجود الآن بجوار مطار طوكيو الدولي). كما كانت العروض والمنافسات الفنية العسكرية التي يعقدها الذكور اليابانيون تُقام عادة في الأضرحة في جميع أنحاء اليابان. أما المعارض التي تضم متعلقات الأسرى الأعداء– مثل الأعلام، والزي، والرماح– فكانت تعقد في ضريح ياسوكونو بطوكيو (كانت هناك كذلك معارض متنقلة في المتاحف أو الأماكن البارزة– مثل القلاع– في باقي أجزاء اليابان). فضلاً عن أنه كانت هناك مراسم تذكارية شعبية لقتلى الحرب في اليابان تعقد في ضريح ياسوكونو خلال عام 1905. وقد كانت هذه المراسم غير تقليدية، بسبب إقامتها في أثناء الحرب. وهو ما يدلّ على ارتفاع عدد قتلى الحرب لدرجة شعور كل من الجيش والحكومة بالحاجة إلى تنظيم مراسم خاصة، للتحقق من حجم الخسائر، ومحاولة الحفاظ على الدعم العام للخسائر القادمة. كما يدل ذلك على استعداد الشعب للاستمرار في التضحية بأنفسهم ورجالهم وثروتهم، على الرغم من ارتفاع معدل الوفيات.

الجنس

كانت الدعارة مشروعة ومقبولة في اليابان في عهد ميجي، وكانت مجتمعاً يهيمن عليه الرجال، وكان ما يُسمى بأحياء المتعة في المدن مكاناً يتجمع فيه الرجال ليس فقط للاستمتاع بمرافقة بائعات الهوى، ولكن أيضاً للتواصل الاجتماعي مع بعضهم. ولأن

تهديد الهزيمة من الصين كان نادراً، ظلت القيود على الأمور الجنسية محدودة. ولا شك في أن توجيه الأموال إلى المجهود الحربي والجيش أدى إلى انصراف بعض الزبائن عن الملاهي الليلية. وبقي الاستثناء الوحيد لهذه الحالة هو العملاء المجندون بالجيش. فقد كتب أحد الجنود في مذكراته عام 1894 أن مدينة هيروشيما كانت تعج بالعاهرات والأمراض المنقولة جنسياً، ذلك على الرغم من العقاب المشدد الذي تعرض له الجنود الذين انتقلت إليهم هذه الأمراض أو حتى الذين اعتادوا زيارة بيوت الدعارة.

جدير بالذكر أن مقتضيات الحياة والاقتصاد خلال الحرب ضد روسيا كان لها أثر كبير على الشؤون الجنسية. فقد تأثرت الكثير من بيوت الدعارة في مدن عديدة بثقافة التقشف العامة في وقت الحرب وعدم توافر الدخل الكافي مع الزبائن من خارج طبقة الصفوة والأغنياء. وكانت بيوت الدعارة عموماً في الفترة بين 1904– 1905 تتمتع بحظوظ وفيرة في حالتين فقط: عندما يكون هناك احتفال بأحد الانتصارات وعند اجتماعات مجالس الحكومة المحلية. وكان نظام عمل العاهرات يقضي بأن يدفع الزبون أجر شمعة، على أن ينتهي الوقت المحدد له بانتهاء هذه الشمعة. وكان الزبائن يدعون الراقصات اليابانيات في المطاعم، لكي يصبوا لهن المشروبات ويغازلوهن وربما يغنون أو يرقصون بطريقة مرحة. وكان إجمالي الخسائر في الدخل لدى المشتغلين بالجنس هو الأكبر في حين كانت أقل خسارة تؤثر في حياة تلك النساء المعدمات. وبالتالي أظهرت إحصائيات ديسمبر 1904 أنه يوجد 22178 عاهرة مرخصة في اليابان، علاوة على 26226 راقصة جيشا. وازداد عدد العاهرات بمعدل 3502 منذ ديسمبر 1903، في حين تناقصت أعداد الراقصات اليابانيات بمعدل 1905. ويلاحظ أن أعلى نسب لمشاركة المرأة في صناعات الجنس والمتعة كانت في المدن الكبرى، حيث ينتشر الجيش، وبصفة خاصة في أوساكا وهيروشيما. وعلى النقيض، كانت أعداد العاهرات تتناقص في المدن الصغرى، وكانت بيوت الدعارة تغلق أبوابها. وقد كان من بين آثار التدهور في هذه الصناعة تسرب النساء من نظام الترخيص، وعملهن من خلال الشوارع. كما يدل انخفاض عدد الراقصات اليابانيات كذلك على تقاعد بعض العاملين في مجال الصناعة الجنسية الأعلى مستوى، وتحولهم إلى فتح الحانات أو المطاعم، أو حتى النزول بمستواهم إلى الاعتماد على العاهرات، لجذب المزيد من الكسب. وقد كانت الإعلانات التجارية من بين أحدث وسائل تسويق الصناعة الجنسية



جهود الحكومة ضد العاهرات والراقصات اليابانيات

الانتقادات الموجهة للحكومة في وقت الحرب عام 1905: حملة أخلاقية واهية للشرطة تهاجم «القطط» وتسمح «للفئران» بالهرب (صحيفة طوكيو باك – يوليو 1905)

في اليابان، سواء في وقت الحرب أو السلم. فقد ظهرت في الصحف المحلية إعلانات لصور جنسية اكتسبت شرعيتها من خلال التركيز على الخصائص الفنية فيها. ولا شك أن التحسن في تكنولوجيا كاميرات التصوير كان من بين أسباب تطوير هذه الصناعة. فقد ظهرت في مطلع هذا القرن كاميرات كوداك، ذات الصندوق الكبير، التي كانت تُسوّق في الأساس للأطفال. كما خضعت كذلك أول الصور الملونة للاختبار خلال الحرب الروسية اليابانية. غير أن السلطات شعرت بالغضب من حالة المجتمع الياباني، وخشيت من فقدان السيطرة على الأخلاق، فأصدرت التوجيهات إلى الشرطة بمنع أي تجارة غير مشروعة للجنس. وقد ارتبطت هذه المخاوف كذلك بالشائعات التي ترددت حول محاولة الفتيات العاديات– وليس مجرد العاهرات– كسب المال من خلال التعري في الصور الجنسية. والمثير للسخرية أن السوق الرئيس لهذه الصور تمثل في الجنود الموجودين على جبهة القتال في منشوريا! وقد كان هناك نموذج واحد على الأقل للمواطنين الذين يرسلون الصور العارية إلى الجيش معتبرين ذلك نوعاً من التبرع للمجهود الحربي! وعلى أية حال، كانت الشرطة– عموماً– قليلة الحيلة، فلم تنجح في اكتشاف أماكن مصوري الصور الجنسية، أو منع التجارة السرية في الصور الإباحية.



بدائل للتقشف في وقت الحرب: إعلان شركة إيبيسو للجعة 1905
(صحيفة جيفو نيشي نيشي شيمبون، أبريل 1905)

الترفيه

كان الترفيه مقبولاً في وقت الحرب إذ كان يضاهي فضائل الحرب بمعنى أنه كان يعزز الصحة والقوة ويشجع الروح التنافسية لدى الجمهور. وبالتالي انتشر- خلال الحرب ضد الصين- التدريب على استخدام السيف بين الشباب (على الرغم من اعتماد الحروب الحديثة على الأسلحة والمسدسات الثقيلة والخفيفة). وكانت هناك طفرة في عدد الشباب الذين يتدربون على الكيندو خلال الحرب ضد روسيا. وكانت الأيام الرياضية في المدارس تمثل للطلبة استراحة من قيود الفصل الدراسي. ونشير هنا إلى أن العطلات التي كانت موجودة في وقت الحرب وكانت مقبولة هي عيد ميلاد الإمبراطور الموافق يوم 3

من نوفمبر ويوم الاحتفال بالعام الجديد. أما عيد ميلاد الإمبراطور، فكان يشهد مستوى غير مسبوق من الاحتفالات، في حين كانت عطلة العام الجديد يوم راحة للشعب في المدن والقرى.

وقد جعلت الانتصارات المتعاقبة في البرّ والبحر، خلال الفترة من 1894– 1895، الحرب تبدو وكأنها احتفالية مهرجانية. غير أن ذلك الأمر تضاءل من 1904– 1905 إن لم يكن تلاشى بالكلية. فكانت المهرجانات السنوية– في أضرحة الشينتو المحلية– مثلاً تتسم بالاحتفالات الجانبية والمتعة، ما جعلها تخرج في صورة احتفال حقيقي. وكان هناك جدل حول مدى ملاءمة وجدوى الخروج للتنزه ومشاهدة الأزهار في بداية الربيع أو الصيف. وانتشرت الانتقادات لهواية تنسيق الزهور باعتبارها بذخاً غير ملائم. وعلى النقيض، لم يكن هناك أي خلاف حول ارتياد السينما أو المسرح. وكان من أشهر الأفلام السينمائية المعروضة في صيف عام 1904 دراما فرنسية دارت أحداثها حول حياة نابليون. وربما كانت الحداثة في السينما ما أكسبها القبول الشعبي في ذلك الوقت، بصرف النظر عن مدى ارتباط موضوعاتها بالحرب. وفي عام 1905 ظهر اهتمام شديد بالصراع الطويل غير محدد النتائج حول مبيعات تذاكر المسرح أو حفلات المنوعات التي بدأت في الارتفاع في منتصف هذا العام، بسبب تخفيض مديري المدارس لأسعارها.

جدير بالذكر أن البدائل الوطنية من الكحوليات والسجائر كانت متوافرة للأفراد. ويتبين لنا من الإعلان التجاري لشركة إيبيسو للجعة في عام 1905 أن الشركة كانت المورد الرئيس للبلد الإمبراطوري، بصرف النظر عن مدى كفاءة منتجها، أو حرصه على الجوانب الوطنية.

السخرية في زمن الحرب

من الأشياء التي يصعب وصفها عند الكتابة عن تاريخ أي صراع هو الشعور بالذعر، إذ يمكن لأي أحد يقرأ عن الحرب أن يعرف النتيجة بالفعل. وقد يلجأ أي مجتمع مدني (والجيش أيضاً) إلى السخرية كي يتخلص من القلق المسيطر عليه. وتتوقف طبيعة هذه السخرية على التقدم المحرز في ساحات الحرب، فكلما كان النصر سهلاً تكون الفكاهة هادئة مريحة، وكلما كان صعباً تصبح السخرية أكثر قسوة، وتستهدف الشخصيات

البارزة في السلطة.

وكانت الشرطة المحلية قد تلقت تعليمات- مع اندلاع الحرب عام 1894- بمنع الشائعات لتجنب الاضطرابات. ولكن العامة لم تشعر بكثير من القلق بعد سهولة الانتصارات الأولى، وهو ما أدى إلى أن السخرية كانت موسمية وخفيفة. ومن بين الأمثلة على ذلك الرسوم المتحركة في الصحف التي اقترحت أن يمارس الصينيون وظائف جديدة، مثل: تجسيد أدوار الدمى المسرحية في مسرح بونراكو التقليدي في اليابان، أو أن يعملوا خدماً لأطفال الأسر اليابانية الفقيرة. وكان التهكم موجهاً كذلك إلى البيوت، مثل تجرد الصحفيين في الجبال والثلوج من ملابسهم بحثاً عن سبق صحفي. ولم يكن الجيش بمنأى عن التهكم والسخرية، فعندما دمرت النيران جزءاً من القاعدة العسكرية في هيروشيما عام 1894، وأصدر القائد أوامره بنقل القوات إلى مسافة أبعد بعدة أميال في منطقة تسمى إينامي، أدى ذلك إلى تهكم العامة قائلين إن ذلك الأمر هو «غزو إينامي». كما كان الشباب الذين يذهبون في الفترة من 1894- 1895 إلى بيوت الدعارة يطلقون على أنفسهم لقب «كشافة» يذهبون في «مهمة استطلاعية». ومن بين ألفاظ السخرية الجديدة خلال الحرب مع الصين استخدام عبارة «إعادة الإمداد» بين الراقصات اليابانيات، عندما يطلب الزبون الحصول على المزيد من الكحوليات، كما كن يطلقن على الزبون الذي يسكر من فرط الشراب أنه «سقط شهيداً في المعركة».

وكان أولئك الذين يحاولون فرض قيمهم على الناس العاديين أهدافاً سهلة للسخرية دائماً. ومن الأمثلة على ذلك قيام برنامج إعلاني اسمه «ضوء الوطن» بتغيير اسمه خلال الحرب الروسية إلى «أخبار متقلبة». وقد تفاعلت الصحيفة القومية «جيجي» مع ذلك، فنشرت مقالاً يحكي أن محارب الساموراي العظيم «تاكيدا شينغين» في القرن السادس عشر (والذي جُرِّمَ في فترة الثمانينيات في فيلم كاغيموشا) كان يُصاب بالصداع عندما يحاول قراءة الكلاسيكيات الكونفوشيوسية، وتعجبت الصحيفة من رد فعل مدمني الخمر في الجيش عند قراءة اسم «أخبار متقلبة». ومن ثم قامت معركة مستترة وقت الحرب بين المدافعين عن البرنامج وباقي اليابانيين- سواء العسكريين أو المدنيين- الذين فاقوهم عدداً.

ومن الأشياء التي يجدر ذكرها عن وقت الحرب مدى التعب الذي سببته الحرب.

فقد كانت السخرية أحد الحلول لهذه المتاعب باعتبارها نوعاً من الترويح عن النفس والتخفيف من حدة أخبار الحرب المزعجة. لذلك قدمت سلسلة من الخطابات المرسلة إلى صحيفة محلية في أكتوبر 1904 قائمة حول «مائة من الحمقى في العصر الحالي». وقد جاء على رأس هؤلاء الحمقى «مَن يتحدثون كما لو كانوا خبراء في المواقف العسكرية»، في حين جاء في المرتبة الثانية «الرجال الذين يحدقون في النساء في الشوارع». كما شملت القائمة كذلك «مَن ينتقدون كل شيء دون سبب»، و«مَن يحكون أنوفهم، ويحدقون كما لو كانوا في حالة ذهول»، و«مَن يواصلون الحديث عن الحرب في الأماكن العامة». ونشير هنا إلى انتشار التوتر بين الناس سواء بسبب الحرب أو باعتبار الحرب جزءاً من الحياة اليومية.

وسرعان ما أدت الآثار البشرية والمالية للحرب مع روسيا إلى زيادة قسوة السخرية. وكانت هذه السخرية موجهة في جميع الأحوال إلى السلطة باستثناء الإمبراطور. خاصة مع ظهور صحيفة «عفريت طوكيو» في أوائل عام 1905، وهي صحيفة هزلية رائدة في مجال التهكم، كان الهدف الرئيس لها السخرية من الأغنياء والمتعجرفين. وقد جسّدت تلك الصحيفة عن طريق العديد من الرسوم المتحركة الأخبار المتداولة في الصحف حول تورط رجال الأعمال والساسة في قضايا الفساد، مثل سرقة أموال التبرعات للقوات المسلحة. كما كانت كذلك تتهكم على الأغنياء الذين يرفضون توجيه الأموال للمجهود الحربي، ويقضون– بدلاً من ذلك– الليالي مع فتيات الغيشا الأغلى سعراً! ولم ينجُ حتى الأبطال القوميين من التهكم، فقد سخرت الصحيفة– مثلاً– من مأساة الترحيب الهزيل بعودة بطل اليابان العظيم الأدميرال توجو للوطن عام 1905. فأبرزت سلسلة الصور الكوميدية هذا البطل مجذوباً من لحيته وشعره من جانب منتظري الهدايا التذكارية، كما أبرزت تعرض عينيه للأذى بسبب فلاشات كاميرات المصورين، وصب جالونات من كحول الاحتفالات في حلقه. وبشكل عام، كانت شخصيات السلطة مستباحة بالنسبة للصحيفة، وبالنسبة للناس العاديين. وبالتالي تعرض كل من رؤساء القرى ومديرو الشرطة والعمداء والحكام للنقد اللاذع. فكان يُقال عن أحد العمد– مثلاً– إن أحاديثه تحسنت أخيراً بفضل الأساليب المتبعة في وقت الحرب، وأصبحت عبارة رئيس القرية مكافئة للفظ «الأحمق». وكانت السخرية العامة وحشية في بعض الأحيان، فقد كتب أحد

المدنيين إلى صحيفة محلية ساخراً، يشجب البيروقراطيين بسبب فشلهم في تنظيم التبرعات المالية لصالح المجهود الحربي: «إنهم عديمو القلب، أريد أن أسمع رأي طبيب تشريح في ذلك».

وفي أحيان أخرى، كانت السخرية لطيفة معتدلة. من ذلك ما حدث عندما كتب رجل خطاباً إلى القوات المسلحة موقعاً باسم امرأة (وكانت هذه نصيحة السلطات المحلية للرجل حتى يُدخل البهجة على نفوس الجنود). فرد عليه الجندي الذي أرسل إليه الخطاب طالباً إرسال صورة! ففعل الرجل ذلك وأرسل صورة حقيقية له وقال: «ربما يظل الجندي ينظر إلى صورة وجهي الممهور باللحية ويقول: ما هذا بحق الجحيم؟».

القانون والنظام

من أهم سمات المجتمع المدني الياباني خلال غالبية القرن العشرين الأمان وندرة جرائم العنف. وكان من يقرأ الصحف أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين يجد صعوبة في تصديق ذلك، فكانت الاعتداءات وجرائم القتل والانتحار من الأحداث الشائعة التي ظلت موجودة خلال سنوات الحرب التي لم تستطع منع الفقراء– في الريف والمدن– من ارتكاب العنف. فخلال الأيام القليلة الأولى من الحرب اليابانية الصينية، وقعت حادثة خطيرة في أوساكا، حيث هاجم ما يزيد على 100 عامل فقير تاجراً يبيع الأرز بالجملة وهددوه بالقتل إذا لم يكف عن احتكار السوق. وكان من الأشياء المدهشة للشعب الياباني في أواخر القرن التاسع عشر قدرتهم على شراء الأسلحة اليدوية ببساطة. فقد ذكر تقرير صحفي نُشر في يناير 1895 أن عدداً كبيراً من الرجال في مدينة جوفو– وسط اليابان– اشتروا بنادق للدفاع عن أنفسهم. ولكن يظل الشيء الذي يصعب تفسيره: من ذلك الذي كان هؤلاء الرجال يحتاجون إلى حماية أنفسهم منه؟ ولعلنا نجد الإجابة ضمنياً في أحد الإعلانات الذي نُشر في نفس الفترة الزمنية تقريباً، والذي أشار إلى أن البندقية كانت «أفضل وسيلة للدفاع عن حياة وممتلكات الناس». وإن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على انتشار احتمالات التعرض للعنف، خاصة بالنسبة للأغنياء الذين كانوا– على ما يبدو– عرضة لسلب أموالهم منهم. وعلى النقيض، كان الناس لا يمكنهم الاعتماد على الشرطة.

وأشار تقرير يعود تاريخه إلى أواخر سنة 1894 عن أحوال السجناء في اليابان إلى أن السجون كانت أكثر فراغاً بنسبة 10٪ مقارنة بفترة بداية الحرب، حيث أعيد النظر في جرائم غالبية السجناء. وأشارت الإحصائيات الرئيسة لمدينة جوفو إلى وجود 1057 رجلاً و99 امرأة بالسجون، منهم 135 سُجنوا منذ بداية الحرب. وكان وزير القانون قد أصدر أمراً خلال الحرب ضد روسيا بتقليل أعداد السجناء من خلال التجاوز عن الجرائم البسيطة. ومن ثم أظهرت إحصائيات فبراير 1905 وجود 58000 شخص في السجن بحكم القانون. ومثل ذلك نقصاً بمعدل زهاء 6500 شخص على مدى الشهور الإثني عشر السابقة. وتجدر الإشارة إلى أن المقامرة كانت من بين الجرائم التي يُعاقب عليها بغرامة مالية ضخمة والحبس لبضعة أشهر. لكن ذلك لم يردع المقامرين الذين تحدوا قيود الحرب والنظام القانوني وظلوا يقامرون في جميع الأوقات.

وكان اللصوص والنصابون- كما هي الحال في أي مجتمع- هم أغلب رواد السجون في العادة لاسيما في فترات الحرب حين تتوفر لهم الفرص والدوافع. فأصبح من السهل مثلاً السطو على البيوت بعد ذهاب الرجال إلى الحرب. ومن أبرز حالات النصب التي وقعت في تلك الفترة ما حدث في عام 1894، عندما ذهب رجل إلى القرى التي لم يكن الجيش قد طلب منها التبرع للمجهود الحربي بعد، واقترح على الفلاحين تقليل خسائرهم من خلال بيع مواشيهم له بأسعار بخسة قبل أن يأخذها الجيش منهم دون مقابل. ثم أخذ تلك الحيوانات وبدأ في بيعها مرة أخرى للفلاحين الذين أُخذت منهم مواشيهم في المجهود الحربي، أو الذين كانوا في حاجة ماسة إلى هذه الحيوانات وعلى استعداد لدفع أسعار عالية فيها. ومن الأمثلة الشهيرة كذلك لحالات النصب خلال الحرب الروسية وجود «تاجر وهمي» يجوب القرى ويقيم المزادات على دراجة جديدة رائعة، عارضاً هذه الدراجة على أنها مثال للسلع التي يبيعها، وبمجرد أن يحصل على «مقدمات» للشراء من الناس، يختفي هذا التاجر الوهمي ودراجته. وكانت أمثلة النصابين في فترة الحرب بارزة جداً بشكل عام، وكان ثمة غضب عام حيال رجال الأعمال الذين يكنزون المال لأنفسهم والشركات التي تقوم بعمليات النصب الخطيرة، مثل شركة أوكورا التي كانت ترسل إلى جبهة المعركة- خلال الحرب على الصين- معلبات طعام تحتوي على حجارة بدلاً من اللحوم! ويبدو أنه كان هناك تفهم لانتشار اللصوص الصغار في ظل الفقر الذي

كان السمة العامة المتزايدة. أما أصحاب الثروات الذين كان همهم مجرد استغلال الحرب لزيادة ثرواتهم، فكان الغضب منهم أشد وطأة.

صور العدو

من بين النتائج طويلة الأجل للحرب بالنسبة للمجتمع المدني استمرارية صور وأفكار معينة عن العدو. ويكاد يتفق المؤرخون على أن الشعب الياباني كان يحتقر الصينيين خلال الحرب بين 1894– 1895. وهناك تجدر الإشارة إلى تواجد عدد قليل من أسرى الحرب الصينيين في اليابان، وأن المواجهة بين الشعب الياباني والصينيين لم تكن مواجهة مباشرة، وأنها حصلت من خلال مطبوعات الحرب والتقارير الصحفية. وعادة ما كان يُصوَّرُ الجنود الصينيون في تلك المطبوعات وهم في حالة هزيمة أو انسحاب. وكانت تلك المطبوعات ترتبط بالحرب غالباً، ولم تكن بها مساحة لتصوير المدنيين الصينيين. ولكن يبدو الأمر مختلفاً في التقارير الصحفية، أو في خطابات الجنود اليابانيين لذويهم في الوطن، فقد كانت تلك المصادر تشير إلى تنوع المدنيين الصينيين، ما بين أصحاب الثروات الكبيرة، وذوي الفقر المدقع، وما بين الكسولين، وذوي البراعة المدهشة في العمل. ومن هذه التقارير ذلك الذي كتبه أحد الصحفيين اليابانيين من منشوريا، معبراً فيه عن إعجابه بالفلاحين الصينيين الذين يستيقظون في الرابعة فجراً، للذهاب إلى أراضيهم، ويعودون لبيوتهم بعد الظلام. خاصة أن هؤلاء الفلاحين كانوا علاوة على العمل بجد لا يتواكلون على غيرهم، وهو ما عبر عنه بحماس ذلك الصحفي عندما قال: «قد لا يوجد في العالم من يضاهي الصينيين في روحهم الحماسية». ولا شك أن يابانيين آخرين على جبهة القتال كانوا يكتبون عن أن الشعب الصيني يتمتع بنوايا حسنة تجاه اليابانيين، وأن المراوح الصينية قد لعبت بالفعل دوراً كبيراً في مساعدة الجيش الياباني على مواصلة التقدم.

وعلى خلاف الصينيين، كان العدو الروسي– في الفترة بين 1904– 1905– أكثر ظهوراً للمدنيين في الأفلام السينمائية (ولم يكن الغرض من هذا الظهور في الغالب بهدف إثارة الكراهية ضد الروس). على الرغم من أنه لم يكن للروس أية مجتمعات– كما كان للصينيين– في المدن الساحلية اليابانية كمدينة يوكوهاما وكوبي. ولكن كان هناك ما يزيد

على 71000 أسير حرب روسي لدى اليابان مع نهاية عام 1905. وكان ما يزيد على 22000 أسير منهم محتجزاً في مكان واحد، وهو «هامادير ا» في أوساكا، مع أن عدد الأسرى في أي مكان آخر تراوح بين بضع مئات وحوالي 3000 أسير. وكان ذلك يعني إجمالاً أن المدنيين في محطات السكك الحديد الرئيسة كان يمكنهم مشاهدة العدو على الطبيعة. وقد كانت الجماهير اليابانية عندما ترى الروس تقوم بتوبيخهم ليس أكثر. والطريف أن بعض الأطفال اليابانيين وقتها راحوا يحكون- لاحقاً- أنهم تذوقوا الشيكولاتة لأول مرة في حياتهم من خلال الحصول عليها من أحد الأسرى الروس. ويقال إن كبار الضباط الروس الأسرى- الذين بلغ عددهم في مدينة ناجويا حوالي 3000 أسير- كانوا يحصلون على وجباتهم من أفضل المطاعم الغربية بالمدينة، وإنهم كانوا يتجولون بحرية في الشوارع بمرافقة حراسة من الشرطة. ويبدو أن المشاعر العامة كانت تختلط بين الغضب العام والسرور عندما يستطيع بعض الضباط الروس زيارة أحد بيوت الدعارة في المدينة. وبوجه عام، يمكننا القول: إن معدل الاتصال بين أسرى الحرب الروس والشعب الياباني كان يزداد مع استمرار الحرب، كما كانت طبيعة هذا الاتصال- في الغالب- ودية.

الاضطراب العام

إذا كانت الحرب مع الصين قد انتهت بتحقيق اليابان لكثير من الانتصارات على مستوى الأرض والاقتصاد، وهو ما بدا بوضوح في جلب الكثير من المال، وتخصيصه



تهكم على مظاهرات هيبيا «سيارات شرطة محترقة للبيع» (عفريت طوكيو، أكتوبر 1905)

للصناعة، والاتصالات، والتجارة، والتعليم، فإن الحرب مع روسيا قد انتهت بتوقيع معاهدة سلام عجز فيها ممثل اليابان- ووزير خارجيتها كوميورا- عن الحصول على أيةِ تعويضات مقابل التكاليف التي تكبدتها اليابان في الحرب. وقد تفاعل الشعب الياباني مع ذلك في سبتمبر 1905، بممارسة أعمال الشغب في الشوارع. ومن ذلك ما تعرضت له سيارات الشرطة ومكاتب الحكومة في طوكيو من هجوم من قِبَل المشاغبين فيما عُرف باسم «أعمال شغب هيبيا»، وهو ما استدعى فرض قانون حظر التجول. وقد اتفق المؤرخون على أن هذه الأعمال ليست إلا دليلاً على وطنية اليابانيين، وأن الشغب كان من أجل الدفاع عن شرف اليابان، والتعبير عن مدى استعداد الشعب لاستمرار التضحية بنفسه في سبيل رفعة بلاده. وعلى أية حال، كان المتظاهرون- في الواقع- يمثلون أقلية صغيرة من الشعب، يركز تفكير الأغلبية منهم على الجوانب الاقتصادية أكثر من الوطنية. وعموماً، كان الشعب الياباني في كل مكان يعبر عن مشاعر متفاوتة، فقد كان البعض براجماتياً يقبل- ببساطة- فكرة أن اليابان ليست من القوى العظمى في العالم، وأنها قد حصلت على ما تستحقه فقط، بينما لجأ آخرون إلى الأسباب الداخلية، وراحوا يعلقون عليها خيبة الأمل في نهاية الحرب، ويرون أن اليابان كانت مجتمعاً فوضويّاً يتشبه فيه الرجال بالنساء، وتتشبه النساء بالرجال، ومن ثم كان طبيعياً- في وجهة نظرهم- أن يكون الفائز في الحرب مهزوماً في السلام في ظل هذا العالم الشاذ. ومن جهتهم، لجأ آخرون من عامة الناس إلى السخرية مرة أخرى، بينما شاعت بين رجال الأعمال في يوكوهاما عبارة جديدة مقتبسة من الأنباء حول معاهدة السلام لوصف المتخبطين في الصفقات الكبرى، وكانت هذه العبارة تقول: «لقد فَعَل فِعْل كوميورا».

ويبدو أن شعب اليابان لم يكن في الحربين- خلال عهد ميجي- ميالاً إلى الجوانب العسكرية (كما أشار إلى ذلك المعلقون الأجانب) ولا السلمية (كما يحب بعض اليابانيين تسمية أنفسهم في العصر الحالي). فطموحات الشعب الياباني تركزت على أساسيات الحياة اليومية من قبيل الطعام المناسب والمأوى والأمن. واعتقد اليابانيون- خاصة بعد انتصار 1895- أن الحرب قد تساعدهم في تحقيق طموحاتهم، لكن هذا الاعتقاد لم يستمر بعد عام 1905. بل إن الشعب كان خلال الحرب مع روسيا يفضل النمو الاقتصادي على الحرب، وزاد الاهتمام بالسلامة الفردية عن سلامة الوطن. واستمر ذلك خلال العقدين

الأول والثاني من القرن العشرين في العهد المعروف باسم «ديمقراطية تايشو»، ثم انتهى مؤقتاً خلال فترة «الكساد العظيم»، وما تلاها من حروب في فترة الثلاثينيات.

الهوامش

1. On Christian support for the China war, see Ohama Tetsuya, Meiji no Bohyo, Tokyo: Kawada Bunko, 1990 (pp. 50-55).

أعيد نشر هذا الكتاب في عام 2004 بعنوان: Shamin no Mita Nis–Shin Nichi–Ro Senso. ولحظت تبرعات الكتاب المقدس في صحيفة Mainichi News في يوم 9 من أبريل 1895.

2. Giichi Ono, Expenditures of the Sino- Japanese War, New York: Oxford University Press, 1922 (pp. 279-84).

3. Figures for wages in 1894 from Hiroshima-ken, ed., Hiroshima Kenshi: Kindai Gendai Shiryo 2, Hiroshima, 1972 (pp. 302-4).

4- يمكن فهم شيء عن حياة العمال المدنيين لدى الجيش الياباني بين عامي 1894–1895 من تاريخ المنطقة من المراجع التالية على سبيل المثال:

Fukushima- ken, ed., Fukushima Kenshi 4: Tsushi- hen Kindai 1, Fukushima, 1971 (p. 915)

ويُقال إن بعض العمال كانوا يتناولون الشراب بكميات كبيرة للتعامل مع البرد القارس في منشوريا ثم ينامون نوماً عميقاً ثم يتجمدون حتى الموت.

5. Sharon H. Nolte and Sally Ann Hastings, «The Meiji State's Policy Towards Women, 1890-1910,» in Recreating Japanese Women 1600-1945, ed. Gail Lee Bernstein, Berkeley: University of California Press, 1991 (p.162).

6. Anonymous letter, Gifu Nichi Nichi Shimbun. 20 October 1904.

7. On Port Arthur, see Katsuda ShiShi Hensan Linkai, ed., Kalsuda shiShi: Kindai Gendai 1. Katsuda, 1979 (p. 443), quoting the letter of Sergeant Kurosawa, 25

November 1894, Printed in Iharaki, 25 December 1894.

فيما يتصل بإصلاح Hochi Shimbun، يمكنك مراجعة إصداره في يوم 27 من ديسمبر 1894.

8. On the war prints, see Shumpei Okamoto, ed., Impressions of the Front: Woodcuts of the Sino-Japanese War 1894-95, Philadelphia, PA: Philadelphia Museum of Art, 1983.

9. Peter B. High, «The Dawn of Cinema in Japan,» Journal of Contemporary History 19 (1984): 36.

10— للحصول على تقارير عن الكوارث والأمراض، انظر:

Gifu Nichi Shimbun, 1-2 December 1894

11. Keiichi Hatori et al., eds., Meiji 27-8-nen Seneki Jugunki, Niigata, 1975 (p. 11).

12. For statistics on prostitution and geisha, see Gifu Nichi Nichi Shimbun, 18 June 1905.

13. Gifu Nichi Nichi Shimbun, 16 October 1904.

14. Tochigi Kenshi Hensan Linkai, ed., Tochigi Kenshi: Shiryohen- Kingendai 2, Tokyo, 1977 (local government report, 20 September 1894).

15. Inoue Kantaro report, Gifu Nichi Nichi Shimbun, 1 May 1895.

مراجع مختارة

High, Peter B.»The Dawn of Cinema in Japan.» Journal of Contemporary History 19 (1984): 23-57.

يشرح هذا الكتاب أصول وتطورات كل من صانعي الأفلام اليابانيين وجمهور السينما في اليابان منذ تسعينيات القرن التاسع عشر.

Holmes, Colin, and A.H. Ion. «Bushido and the Samurai: Images in British Public Opinion, 1894-1914.» Modern Asian Studies 14 (1980): 309-29.

دراسة استقصائية مفيدة جداً للمواقف الغربية تجاه المجتمع الياباني في فترة الحربين المبكرتين.

Huffman, James. Creating a Public: People and Press in Meiji Japan. Honolulu: University of Hawai'i Press, 1997.

تتعامل السلطة الأعلى على عالم صحافة الميجي تتعامل مع الصحافة والحروب في فترة 1894–1895 و1904–1905 في الفصلين السابع والتاسع على الترتيب.

Keene, Donald.»The Sino-Japanese War of 1894-95 and Its Cultural Effects in Japan.» In Tradition and Modernization in Japanese Culture, edited by Donald H. Shively. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1971.

مقال رائد عن الحرب والفنون من إعداد أحد أفضل المترجمين والمؤرخين الثقافيين في اليابان.

Lone, Stewart. Japan's First Modern War: Army and Society in the Conflict with China 1894-95. New York: Macmillan, 1994.

هذا الكتاب يبدو أنه العمل المتبحر الوحيد المكتوب باللغة الإنجليزية حول المجتمع الياباني أثناء حربه الدولية الأولى في العصر الحديث.

Lone, Stewart. «Between Bushido and Black Humour.» History Today 55 (2005): 20-27.

مقال قصير موجه للقارئ العادي يتعامل مع مجموعة من مصادر الغضب والسخرية في أثناء الحرب في المجتمع الياباني أثناء الصراع مع روسيا.

Lone, Stewart. «Remapping Japanese Militarism: Provincial Society at War 1904-05.» Japanese Studies 25 (2005): 53-63.

يتعامل هذا الكتاب باتساع وتعمق مع ثلاثة مواقع اشتبك فيها المدنيون مع الجيش: محطة السكة الحديد والسينما والمراسم الجنائزية.

Nolte, Sharon H. and Sally Ann Hastings. «The Meiji State's Policy Towards Women, 1890-1910.» In Recreating Japanese Women 1600-1945, edited by Gail Lee Bernstein. Berkeley: University of California Press, 1991.

تحليل متميز للمواقف الرسمية تجاه أدوار المرأة في أوقات الحرب والسلم.

Okamoto, Shumpei, ed. Impressions of the Front: Woodcuts of the Sino-Japanese War 1894-95. Philadelphia, PA: Philadelphia Museum of Art, 1983.

أوكاموتو كان مؤرخاً رائداً في الشؤون السياسية في اليابان في عصر ميجي. وفي هذا العمل الموضح بالرسوم يقدم أوكاموتو تفسيراً فردياً للكثير من الألواح الخشبية التي بيعت للجمهور في فترة الحرب.

Ono, Giichi. Expenditures of the Sino- Japanese War. New York: Oxford University Press, 1922.

يشتمل هذا الكتاب على دراسة كلاسيكية لتكاليف الحرب وتأثيرها على الأسعار والإمدادات والنمو الاقتصادي اعتماداً على السجلات الرسمية.

Shimazu, Naoko. «The Myth of the 'Patriotic Soldier': Japanese Attitudes Towards Death in the Russo-Japanese War.» War and Society 19 (2001): 69-89.

تُعنى الكاتبة شيمازو Shimazu بالأساس بمواقف الناس تجاه موت الرجال في صفوف الجيش. وتتمثل وجهة نظرها في عرض الاختلاف بين المنهجية الرسمية للمحارب

الياباني الناكر لذاته وحقيقة الجسم البشري للرجال. ويعتبر هذا المقال جزءاً من مشروع متواصل.

Warner, Denis, and Peggy Warner. The Tide at Sunrise: A History of the Russo-Japanese War, 1904-1905. London: Angus and Robertson, 1975.

يعتبر دينيس ورنر (Denis Warner) مراسلاً خبيراً بشؤون آسيا منذ خمسينيات القرن العشرين. وفي هذا العمل يستخدم هو وزوجته سجلات الجيش الياباني ليقدم رواية كاملة حظيت بإقبال كبير من القراء عن الحرب بشكل عام. وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اللغة اليابانية بوصفه نسخة كاملة عن تاريخ الحرب في اليابان.

Wilson, Sandra. The Russo-Japanese war in Cultural perspective, 1904-05. New York: St. Martin's Press, 1999.

يرتبط بهذا الفصل مقال Wilsom بعنوان:

«The Russo- Japanese War and Japan: Politics, Nationalism and Historical Memory»: (pp. 160-193)

الفصل الرابع

الحياة الحضرية في ظل الحروب الصينية 1937–1949
نظرة من داخل المقهى

بقلم: دي وانج

تعرّض عرش المملكة الصينية للانهيار في عام 1911 بسبب تكرار هجمات الجيوش الغربية واليابانية عليها، إضافة إلى غياب الدعم من جانب الزعماء المحليين. وقامت على أنقاض هذه المملكة جمهورية ضعيفة افتقرت إلى الشرعية السياسية والقوة المركزية المستمدة من ذاتها. وهو ما نتج عنه تمزق في الخريطة السياسية للصين حتى 1949، فقد تولى قادة عسكريون مستقلون السيطرة على أجزاء كبيرة من الصين خلال فترة العشرينيات، وحدثت بينهم سلسلة من النزاعات والحروب التي لم يحسمها أي منهم. وقد أسفرت المعارك خلال فترة الثلاثينيات عن ظهور حزب الجومندانج (المعروف كذلك باسم الكومنتانج) أو الحزب القومي، وذلك تحت قيادة الجنرال «شيانغ كاي شيك» ليصبح الكيان السياسي الأوحد والأقوى في الصين. لكن الحزب لم يتمكن من السيطرة إلا على ثلث المقاطعات الصينية تقريباً. وعلى هذا النحو، فقد أثرت الحرب وكذا وجود الجند بدرجة كبيرة على الحياة اليومية لكثير من الصينيين.

وفي عام 1937 وبعد سنوات من تصاعد وتيرة العنف المرتبط بالشؤون الصينية، بدأ الجيش الياباني حرباً شاملة ضد الجمهورية الصينية. واستجابت الحكومة لهذا الغزو تحت حكم الجومندانج (GMD) من خلال تبني استراتيجية مقايضة الأرض بالوقت، مما أدى إلى سيطرة اليابان على غالبية شرق الصين على طول خط مستقيم من منشوريا في الشمال ومروراً ببكين– المدينة المركزية لإقليم يوهان– وصولاً إلى جوانجزو الواقعة في أقصى الجنوب. وحتى عام 1945 وهزيمة اليابان، انسحب جيش الجومندانج من عاصمته السياسية

في نانينغ وقاعدته الصناعية في شنغهاي، وانتقل إلى مدينة شونغ كينغ الواقعة أقصى غرب مقاطعة سيشوان. كما انتقلت مؤسسات أخرى منها مئات المصانع والكليات وانتقل ملايين اللاجئين عن طريق البر والنهر والسكك الحديد من المناطق المحتلة شمالي وشرقي وجنوبي الصين إلى المناطق الغربية النائية. وغدت منطقة يانجزي المنعزلة في غربي الصين تُعرف باسم «الظهير الأعظم» (زاوفانج). كما غدت المنطقة وللمرة الأولى مركزاً سياسيّاً واقتصاديّاً وعسكريّاً للصين أو الأجزاء المحررة من الصين على الأقل.

(فقد كان زهاء 60٪ من إجمالي الصينيين يعيشون في الأجزاء المحررة من البلاد في فترة الحرب ضد اليابان). وفي خضم هذه الفوضى، كان الملاذ الذي انتقلت إليه المؤسسات والناس في زمن الحرب هي مقاطعات يونان وسيشوان. ويركز هذا الفصل



الاحتلال الياباني للصين: 1937–1945 (ديفيد إس هيدلر)

على الحياة اليومية في «شينغ دو» عاصمة سيشوان وخاصة أهم وأكثر مواقع التفاعل الشيوعي وهو المقهى.

ويتسم سهل «شينغ دو» ببعده عن شرق الصين المزدحم فضلاً عن كونه محاطاً بالجبال، مما جعل السفر من الساحل الغربي أمراً في غاية الصعوبة حتى أوائل القرن العشرين. كما أسهم كذلك في الحيلولة دون وقوع أية هجمات يابانية على هذه المنطقة خلال حرب المقاومة بين عامي 1937 و1945. وكانت هذه المنطقة السهلية نفسها تضم العديد من المدن المحاطة بالأسوار والمناطق التجارية المزدحمة، وكان الفلاحون فيها وعلى عكس شمال الصين، يقطنون القرى في جماعات طلباً للأمان. أما أبناء الشعب القروي في سهول شينغ دو، فكانوا يعيشون في أماكن متفرقة، وكانت منازلهم الريفية ومعابدهم محاطة بأشجار الخيزران، الأمر الذي شجع أحد التبشيريين الغربيين على وصف ذلك بقوله: «يبدو المنظر من قمة التل كبانوراما لبساتين متداخلة مع ظلال لحقول خضراء أو ذهبية تتبدل أشكالها حسب المواسم».

وكتبت الرحالة الإنجليزية «إيزابيلا بيرد» في فترة الثمانينيات أن «شينغ دو» «تتمتع بمناخ رائع يتراوح بين المعتدل وشبه المداري، وأنها تنعم بتربة خصبة يمكن من خلال زراعتها بعناية جني ثلاثة أو أربعة محاصيل سنويّاً من مختلف أنواع المحاصيل القابلة للزراعة في هذه المنطقة»، وأنها غنية بالموارد الطبيعية والغابات كثيفة الأشجار منقطعة النظير، فضلاً عن مصادر المعادن الثرية وعدد من أوسع مناجم الفحم في العالم وأكثرها قيمة».

وكانت مدينة «شينغ دو» من أكبر المدن الداخلية بالبلاد، إذ بلغ عدد سكانها في عام 1910 زهاء 335000 نسمة ووصل عددهم إلى 468000 في عام 1949، وزهاء 658000 في عام 1949. وكانت المدينة رائعة الجمال. وكانت «إيزابيلا بيرد» قد سمعت قبل وصولها للمدينة أن «شينغ دو» هي واحدة «من أروع المدن... بعد بكين». في الوقت الذي كان فيه البروفيسور إيرنست ويلسون من جامعة هارفارد يعتقد أن «شينغ دو» هي «أروع مدن الصين على الإطلاق»، وقال أحد المراقبين اليابانيين إن البناء المعماري في «شينغ دو» كان ينم عن «جو كلاسيكي» يشبه كيويو.

وتعتبر «شينغ دو» مدينة عتيقة، كانت خلال عهد الممالك الثلاث (ما بين 220-280

بعد الميلاد) عاصمة لدولة شو. وشهدت المدينة ازدهاراً كبيراً خلال حكم سلالة تانج في القرن الثامن عشر. إلا أن عقود الحرب في سيشوان بين 1622 و1681 قد خلفت دماراً اقتصادياً بالغاً عانت منه البلاد ومدنها ومن بينها شينغ دو. وسرعان ما عادت الأمور إلى سابق عهدها تدريجيّاً في أوائل حكم سلالة شينج بين 1644—1911. وكان السبب وراء ذلك هو التجارة الداخلية وإعادة الإعمار وليس التأثيرات الخارجية. وظل التأثير الغربي على «شينغ دو» حتى أواخر عهد شينج هامشيّاً مما دفع إيزابيلا في عام 1899 إلى أن تصف المدينة بأنها «لم تكن مدينة بأي شيء للأثر الأوروبي». ووصف الكاتب الصيني العظيم باجين في روايته التي تسرد سيرته الذاتية، والتي تحمل عنوان «الأسرة» والتي نشرها في عشرينيات القرن الماضي، «شينغ دو» بأنها نموذج للمحافظة والحكم المطلق، وهو ما يتناقض تماماً مع الحداثة والحرية التي كانت تشهدها شنغهاي في ذلك الوقت. لكنه على عكس هذا الرأي، ألقى بعض المفكرين المحدثين والمتأثرين بالغرب من أصحاب الفكر الراديكالي باللوم على التقاليد الصينية في جر البلاد إلى الهاوية. لكن اللافت أن من انتقدوا «شينغ دو» ومن ناصروها أكدوا على أنها احتفظت بكثير من التراث الثقافي مقارنة بالمدن الساحلية والشمالية ووسط الصين أيضاً.

وكانت حرب المقاومة بمثابة نقطة تحول في الحياة اليومية لشينغ دو، حيث ظل الأهالي– حتى بعد اندلاع الحرب– يعيشون حياتهم اليومية المعتادة في الشوارع على الرغم من أن التهديد المتواصل للغارات الجوية اليابانية كان حاضراً دائماً. وظل الناس– كما هي الحال في أوقات السلم– يرتادون المناطق العامة بوصفها أسواقاً وأماكن عمل ومسارح ومخابئ ومراكز اجتماعية للطبقات الدنيا الذين كانت أغلبيتهم لاجئين من المناطق الساحلية. أما المكان الوحيد الذي كانت تقصده جميع طبقات المدنيين في وقت ما خلال اليوم فهو المقهى، ومن ثم كانت المقاهي بمثابة عالم صغير يرمز إلى المجتمع الصيني الأكبر في أوقات الحرب والسلم على السواء.

الحياة في المقاهي أثناء الحرب

بقي الشارع مساحة واسعة ترتادها جميع الفئات والمضمار الرئيس للحياة العامة. وكانت المقاهي– على النقيض– أماكن عامة أصغر مساحة من الشارع، لكنها قادرة

على جذب الناس من مختلف الانتماءات. وكانت صالات المقاهي تمثل– ولا شك– أماكن لقضاء أوقات الفراغ وتبادل أطراف الحديث بين أفراد المجتمع، وكانت تؤدي كافة أدوار الشوارع والأسواق والمسارح. وكانت المقاهي تمثل بيئة مريحة لعدم تأثرها بالطقس السيئ، ولأنها تضم العديد من أنشطة اللهو في نوادي الهوايات، وكانت مكاناً لإبرام صفقات العمل المختلفة وتوقيع عقود المحاكم شبه المدنية.

وكان الترفيه– حتى في زمن الحرب– أحد أهم الأشياء التي تحظى بتشجيع المهتمين بالتجارة على الأقل. فكانت المقاهي والحانات ترفع آنذاك لافتات إرشادية تحمل عبارات من قبيل «اعملْ بجد من أجل سمعتنا واعملْ بجد من أجل كسب الرزق وخصِّصْ بعض الوقت لاحتساء كأس من الشاي، واجتهدْ في التفكير في العمل، واسعَ للسعادة باحتساء قليل من الخمر». وكان أهالي المناطق المحلية يطلقون النكات والنوادر التي فحواها أن المكان الصالح لكي يعيش فيه المواطن هو مدينة تشتهر بثلاثة أشياء: وفرة العاطلين عن العمل ووفرة المقاهي ووفرة المراحيض!

لمن كانت مقاهي «شينغ دو»؟ يشير دليل إرشادي يرجع تاريخه إلى عام 1938 وتذكرة سفر تعود إلى عام 1943 إلى وجود صنفين من الناس كانوا يرتادون المقاهي: «طبقة العاطلين عن العمل» و«الطبقة العاملة». وكما يشير الوصف، فإن طبقة العاطلين في «شينغ دو» كانت هي الطبقة التي تمتلك وقت فراغ طويل مثل المتعلمين والمُلاك المغتربين والمتقاعدين وغيرهم من صفوة المجتمع. ويمكن تصنيف الطبقة العاملة التي كانت ترتاد المقاهي إلى ثلاث مجموعات. المجموعة الأولى اشتملت على هؤلاء الذين يستخدمون الصالات كمسرح مثل الأوبراليين المحليين والحكواتيين. وكانت المجموعة الثانية هي هؤلاء الذين يستخدمون الصالات كمكان لإتمام صفقات العمل كالتجار والعرافين والأطباء والفنانين. بينما تكونت المجموعة الثالثة ممن استخدموا المقهى كسوق تجارية مثل الباعة المتجولين بالأطعمة والعاملين نهاراً. وهنا نشير إلى أن بعض المصطلحات مثل «العاطلين» و«العاملين» تتميز بمرونة مضمونها وما تشير إليه. فعلى الرغم من استخدام مصطلح «العاطلين» عادة في وصف الناس الذين يستطيعون الإنفاق على أنفسهم دون حاجة إلى السعي في طلب الرزق، فإن هذا المصطلح لم يُستخدم أبداً في وصف طبقة مستقلة من الناس، وكان أعضاء هذه الفئة أيضاً ينتمون إلى العديد من الفئات الاقتصادية.

وكانت المجتمعات الصينية– في هذا الجانب– تعتبر كلاً إجمالياً يضم الفقير والغني على السواء ما داموا جميعاً عاطلين عن العمل. لكن المصطلحين نجحا في تمثيل المجموعتين من مرتادي المقاهي والذين كان يجمعهم مكان عام واحد.

وقد قصف اليابانيون مدينة «شينغ دو» بالقنابل بكثافة خلال العام الثاني من الحرب، وعانى السكان باستمرار من الغارات الجوية. وغدت بعض المناطق المتاخمة لحدود أسوار المدينة أماكن للتجمع، وبنيت الكثير من المقاهي لخدمة هؤلاء الناس. وظهرت الكثير من المقاهي البدائية والبسيطة على ضفتي نهر فو بالقرب من مدخل مدينة نيو ساوث. وكانت إحدى هذه المقاهي تسمى «القرية المطلة على النهر» وقد جذبت الكثير من الناس بسبب جمال منظر النهر وكثرة الأشجار وكثافة أشجار الخيزران المحيطة بها. وكانت المقهى تتكون من منطقتين هما: المنطقة الأمامية وهي عبارة عن منطقة مفتوحة تضم طاولات مربعة وكراسي مصنوعة من الخيزران والمنطقة الخلفية التي كانت مغطاة وتحوي طاولات وكراسي خشبية. وكانت المنطقتان تزدحمان بالزبائن خلال الطقس الجيد. وعندما كان صوت الغارات الجوية يدوي عالياً، ويترك الناس المدينة خالية على إثر ذلك، تصبح المقهى أشد ازدحاماً. وكانت النساء وخاصة صغيرات السن منهن لا يظهرن في المقاهي خلال فترة ما قبل الحرب، أما خلال الحرب فقد أصبحت هذه المقاهي تخدم الكثيرات من النساء صغيرات السن والأنيقات اللاتي كن يجلسن ويخالطن الرجال أثناء تناول الشاي أو الدردشة أو القراءة أو لعب الورق. وكن يحظين بالمعاملة نفسها التي يحظى بها الرجال. وكان أكثر ما يسعد أصحاب هذه المقاهي انجذابُ المزيد من الرجال إليها سعياً لرؤية النساء الأنيقات.

واستخدم شعب «شينغ دو» المقاهي كذلك كغرف استقبال للاجتماع بالأصدقاء. وكان الناس يشعرون بمزيد من الراحة في التفاعل الاجتماعي بالمقاهي، نظراً لصغر أماكن السكنى لديهم. وكانت المقاهي بمثابة المكان الذي يمكن فيه إيجاد الأصدقاء. وقد ذكر محرر مخضرم أنه في فترة الثلاثينيات والأربعينيات انتشرت المقاهي الخاصة بالمفكرين الذين كانوا يجتمعون فيها مع الكُتاب لتنقيح مقالاتهم واستلامها، مما وفر عليهم تكاليف ووقت إرسالها بريديّاً. وكان الكثير من السكان يتخذون القرارات المتعلقة بحياتهم اليومية في المقاهي. واستخدمت بعضُ مؤسسات الأعمال والمنظمات الاجتماعية والطلبة المقاهيَ

كأماكن للاجتماعات. وأصبح مقهى «التيار الهادئ» مكاناً لتجمع الطلبة، يزدحم بشدة خلال عطلات نهاية الأسبوع وأيام الإجازات. وكان المفكرون يفضلون «المقهى الثقافي» في وقت كانت اجتماعات المعلمين تُقام في مقهى «الإنشاد». وكان لدى من يجرون عربات نقل الأشخاص والبضائع المستعملة وعمال نظافة المراحيض مقاهٍ خاصة بهم.

ولم يقتصر دور المقاهي على أداء الوظائف الثقافية والاقتصادية بل كانت تلعب دوراً في الحفاظ على الاستقرار الاجتماعي. وكانت الأحكام العرفية موجودة في شينغ دو، حيث كان الناس يحتكمون إلى وسطاء في المقاهي عند نشوب الخلافات، وذلك بدلاً من الذهاب إلى المحاكم. ومن ثم يمكننا أن نعتبر المقاهي بمثابة محاكم شبه مدنية. وعادة ما استدعت الأطراف المعنية بالصراع شخصيات عامة بارزة إلى إحدى المقاهي لسماع شكواها. أما الخلافات التي كانت تُحَلُّ في المقاهي فتدور حول مشكلات الحياة اليومية مثل السب والديون وحقوق الملكية وحتى الاعتداءات بالضرب ما لم ينتج عنها وفيات (وفي حال نتجت عنها وفيات فيجب عرضها على قاضي المقاطعة).

وكان رؤساء الجمعيات السرية المحلية يعملون كوسطاء متخصصين في المقاهي بسبب كثرة حدوث النزاعات. وقد وصف شا دينج– في روايته القصيرة التي كتبها وقت الحرب بعنوان «في مقهى الغرفة العطرة» عام 1940– شخصاً تمت دعوته كوسيط تحكيمي ليشهد جلسة «احتساء الشاي لتذويب الخلافات» قائلاً:



الحياة العادية في فترة الحرب: المقهى.
مأخوذ عن كتابات المحرر هولينجتون تونج «الصين بعد 7 سنوات من الحرب»

«كان السيد زين حاصلاً على درجة علمية في الاختبار النهائي للخدمة المدنية بجامعة شينج وقائداً لميلشيات محلية وزعيماً لجمعية سورن الأخوية لمدة عشر سنوات، وقد تقاعد منذ 8 سنوات تقريباً، ونادراً ما تدخل في أي شأن محلي منذ ذلك الوقت، وظل يتمتع بالرأي النافذ وكأنه ما زال قائداً للميلشيا».

ولم تكن تسوية النزاعات مهمة سهلة دائماً. فعندما كان الطرفان يرفضان التسوية، عادة ما يندلع العنف في المقهى ويأتي على سلامة الأثاث، وكانت المشاجرات تنشب وتحدث إصابات ووفيات أيضاً. وفي هذه الحالة، سرعان ما تتدخل شرطة الشوارع أو «كبير المنطقة» لحل الموقف، وكان صاحب المقهى يطالب بتعويضات من المتنازعين مقابل الخسائر التي لحقت به.

وكان تصاعد النزعة السياسية للمدنيين في أقوالهم أو أفعالهم من أهم النتائج المباشرة للحرب على حياتهم. ويمكن النظر إلى حالات النزاعات كدليل على التفكك والضعف القومي، إذ كان البعض يضحي بوقت فراغه من أجل الآخرين. وكانت المقهى مكاناً لتجاذب أطراف الحديث عن النزاعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للحرب. وعلى الرغم من أن المقاهي كانت تشبع احتياجات الناس بشكل متواصل من حيث قضاء وقت الفراغ ومباشرة شؤون العمل والحياة العامة، فإنها أصبحت مضماراً للنضال السياسي أو أُقحِمَت بشكل أو بآخر في المسار السياسي. تجلى ذلك في كل حرب من حروب المقاومة والحرب الأهلية بين عامي 1945 و1949، إذ حاولت حكومة الجومندانج فرض سلطتها على السكان المحليين وكبح أية معتقدات أو أنشطة معادية لديهم. وبذلك يمكن اعتبار المقهى مسرحاً سياسيّاً لعب الناس فيه والسلطة من جميع الفئات دوراً حيويّاً في الدراما التي شهدتها الصين الحديثة.

جدل حول الحياة اليومية في زمن الحرب

كانت المقاهي تمثّل رمزاً للحياة اليومية، فقد ارتبطت بالأنظمة الحياتية لمرتاديها من الأفراد والجماعات الصغيرة. ولم تكن موقعاً للسباق الجماعي أو استعراضاً لقوة إحدى الجماعات أو استعراضاً للقدرة العسكرية. بل كانت تعمل– في الحقيقة– وفقاً للفكر السائد في ذلك الزمان، وكان نطاقها محدداً بقليل من الشيوعية بدلاً من الكثير من

القومية، وهو ما أدى إلى توجيه الانتقادات الدائمة للمقاهي من قبل النخبة الإصلاحية وحكومة الجومندانج. وكان المحور الرئيس لهذه الانتقادات يدور حول ضرورة توجيه الناس لأموالهم وطاقتهم من أجل إنقاذ البلاد بدلاً من إنفاقها في المقاهي، خاصة عندما يكون مصير البلاد على المحك. وكان المنتقدون يحاولون عادة توبيخ الزبائن من خلال عقد مقارنة بين الساعات التي يقضون فيها أوقات فراغهم بالمقاهي وبين الساعات التي يقضيها الجنود في ساحات القتال. ولكن من الواضح أن هذه الانتقادات لم تكن مؤثرة بدرجة تُذكر، وفقاً لمقال «الموقف الاجتماعي في شينغ دو خلال الحرب» الذي نُشر عام 1938، أي في العام الثاني من الغزو الياباني. وأشار المقال إلى أن سكان «شينغ دو» لا يعيرون كثيراً من الاهتمام للحرب. ولا شك أن المدنيين العاديين قد رأوا أن حرب المقاومة كانت حقّاً مشروعاً لهم (على الرغم من قلة تعاطفهم تجاه الحرب المدنية الدائرة بين الجومندانج والجيوش الشيوعية) وخاصة عندما سمعوا بالانتهاكات الكثيرة التي كان الجنود اليابانيون يرتكبونها ضد الصينيين الأبرياء. وكان لديهم سبب في التشكيك بحكومة الجومندانج لدرجة أن «شيانغ كاي شيك» اعترف بأن الكثير من مسؤولي الجومندانج كانوا كسولين وفاسدين وغير محبوبين من الشعب مطلقاً. وربما يساعد ذلك في تفسير السبب في تأكيد المقال المشار إليه سابقاً على أن جلوس الناس في المقهى كان لـ «قضاء وقت الفراغ لدى شعب شينغ دو»، ومع ذلك حث المقال الأشخاص الأنانيين وعديمي الإحساس على النهوض والاهتمام الأكبر بمصير البلاد.

وظهر كذلك مقال آخر انتقد ما يُسمى بظاهرة «شينغ دو» إذ كانت المناطق المركزية مثل طريق الربيع الدافئ وشارع القصر الرئيس تضم أكثر من 10 مقاهٍ مزدحمة ليلاً ونهاراً، ويدل ذلك على أن الحياة اليومية استطاعت ببساطة مقاومة الضغوط المتنوعة خلال وقت الحرب. ووجه المقال الانتقاد إلى بعض «الأشخاص الملولين عديمي النفع» بسبب جلوسهم طوال اليوم في المقاهي دون «سبب واضح». وأشار الكاتب إلى أن «المقاهي أصبحت أماكن شاذة تقوم فيها النادلات بإغواء الزبائن. وارتفعت فيها التكلفة بمعدل 4–5 أضعاف مقابل كأس الشاي المقدم في الغرف الخاصة». وأشار مقال آخر إلى كثرة الانتقادات الموجهة خلال هذا العام بسبب انتشار التجارة الترفيهية، في وقت كان الكثيرون يعانون من آثار التضخم الناتج عن الحرب. وكان التضخم هو أكبر آثار الحرب

على الحياة اليومية للصينيين. وكانت حكومة الجومنداج تمول نفقات الحرب آنذاك من خلال صك المزيد من النقود، مما أدى إلى انخفاض قيمتها (وقد رفض كبار المستثمرين في الصين إعادة تحويل أموالهم إلى الغرب في زمن الحرب). وأشار أحد أفلام الرسوم المتحركة السياسية في الفترة بين 1937—1949 إلى أن مبلغ 100 دولار صيني كان يشتري ثورين في عام 1937 وأصبح لا يشتري سوى كيس دقيق عام 1941 وبيضتين في عام 1945 وفرخ ورق في عام 1949. فكان التضخم وارتفاع الضرائب الاستهلاكية وضياع الثروات من المؤثرات الرئيسة على الحياة اليومية للمدنيين العاديين.

ومع ذلك، استطاع مقال نشر في عام 1943 بعنوان «الحديث عن شينغ دو» وصف المناخ العام للمدينة كأنها لا تزال في وقت السلم، حيث ظل أصحاب الأموال يترددون على المتاجر الفاخرة بينما كانوا هم أنفسهم وغيرهم يترددون على الملاهي والمقاهي بانتظام. وكانت الزيادة السكانية السريعة الناتجة عن توافد اللاجئين من الأراضي الواقعة تحت السيطرة اليابانية من أسباب هذه الأنشطة الترفيهية. أما مدينة شونغ كينغ، التي كانت عاصمة البلاد في وقت الحرب، فزاد عدد سكانها بثلاثة أضعاف، وهو ما وصفه لي ماك إيزاك بأنه السبب الذي جعل المدينة واحدة من أكثر مدن العالم اكتظاظاً بالسكان. وسعى الناس في حالة الزحام وعدم الاستقرار التي شهدتها البلاد خلال الحرب إلى استعادة بعض المتعة من وقت السلم، فكان من المألوف قضاء الوقت في المقاهي.

وانتشرت الأمراض مع هجرة الناس في زمن الحرب، حيث ظهر وباء الملاريا في أوائل الغزو الياباني وحتى تأسيس العاصمة المؤقتة في يوهان عام 1938 والتي وصفها المؤرخ ستيفان ماكينون بأنها كانت أكبر حملة لإدارة الأزمات في تاريخ الصحة العامة للصين حتى عام 1949. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المقاهي قد لعبت دوراً بارزاً في الصحة العامة من خلال توفير الماء المغلي للشرب. أما عدم القدرة على الشعور بالتكيف مع الغرب فكان من بين المشكلات الأخرى للاجئين من المقاطعات الشرقية الأكثر رخاءً. وكان اللاجئون الصينيون أنفسهم يعكسون مدى الظلم الذي تعرضوا له عند الهجرة إلى غرب الصين، حيث فوجئوا بالقذارة والفساد والفقر في سيشوان إضافة إلى كثرة عدد المتسولين ومئات الناس ممن كانوا يتضورون جوعاً حتى الموت في الشوارع أو يتجمدون من البرد خلال شهور الشتاء. ولم يصدق بعضهم أنهم قد لجأوا إلى مثل هذا الجزء من البلاد.

ويضيف لي ماك إيزاك أن اللاجئين من الشرق كانوا يشتكون دائماً من ظروف الحياة في ديارهم الجديدة وينصحون السكان المحليين بطرق مواجهة تلك المشكلات مثل الصرف الصحي وانتشار الجرذان.

وشهد الجانب الثقافي تفاوتاً في الكلام والعادات بسبب التعقيدات الثقافية بين سكان الصين الشرقية وسكان المناطق الغربية. ومن بين أبرز أمثلة ذلك الأسلوب الذي كان يتبعه عمال سيشوان، حيث كانوا يربطون قطعة قماش بيضاء حول رؤوسهم أثناء العمل كنوع من العمامة. ويبدو أن استخدام اللون الأبيض، والذي كان يرمز للموت في أجزاء أخرى من الصين، كان بمثابة أمر مروع بالنسبة للّاجئين الجدد من شرق الصين وقد تعرض للانتقاد كأسلوب غير مرغوب فيه من جانب حكومة الجومندانغ.

وعلاوة على ذلك، كان هناك تنافس بين هؤلاء الذين أُطلق عليهم اسم «المهاجرين النهريين» والسكان المحليين على الوظائف في المكاتب والمصانع المنتقلة من الشرق للغرب. وكان اللاجئون يسيطرون عموماً على المكاتب الحكومية الجديدة وعلى قطاعات أخرى مثل البنوك. ومن ثم شهدت الحياة اليومية صراعاً بين المنتمين للمنطقتين وتوتراً وإحباطاً. وظهرت مع مرور الوقت زيادة في التفاهم المشترك بين الصينيين والصينيين الآخرين. وتجدر الإشارة إلى أن الفنانين والكتاب المنفيين من شنغهاي بدأوا خلال سنوات الحرب في الاهتمام بقدر أكبر بالحياة والعادات في الريف الصيني. ويمكن القول إن التهجير البشري الذي حدث خلال الحرب أدى إلى فقدان الناس لمنازلهم وممتلكاتهم (تعرض الثلثان من إجمالي المنشآت في يوهان– على سبيل المثال– للدمار عام 1945) ووظائفهم وللشعور بالأمان أيضاً. ومن ثم كانت المقاهي الملاذ الآمن للسكان المحليين واللاجئين على السواء، وكانت مهمتها ضرورية أثناء الحرب لدرجة أن المقاهي وغيرها من أماكن الترفيه كصالات لعب الماهونغ بدت مثل «ثمار الخيزران بعد مطر الربيع». وقد دفع نجاح هذه المقاهي «شيانغ كاي شيك» إلى التعليق عليها بقوله: «كان من الممكن للثورة الصينية أن تنجح إن استطاع الناس استغلال الوقت الذي أنفقوه في المقاهي في خدمة أهداف الثورة».

وكانت قطاعات كبيرة من النخبة تعتقد أن المقاهي هي انعكاس لحالة الكسل التي أصابت الغالبية العظمى من المدنيين الصينيين. وذكر كتاب بعنوان «شينغ دو الجديدة»

أن رواد المقاهي كانوا يقتلون الفراغ فيها من خلال سرد قصص الأزمان الغابرة والحديثة والتحدث عن المجتمع ولعب الشطرنج والقمار وانتقاد الشخصيات العامة ومناقشة الأمور الخاصة وأسرار غرف النساء. وفي الوقت الذي هاجم فيه النقاد ثقافة المقاهي بسبب إضاعتها للوقت، اعتبروا أن حالة السلام النسبية التي تتوفر بالمقاهي لها دور محوري في الحد من المعارضة الشعبية للحكومة وسياستها تجاه الحرب. لكن واقع الأمر أن الفئات التي ابتعدت عن جو الحرب ولجأت إلى المقاهي كانت أقل الفئات التي كانت تخشاها حكومة الجومندانغ.

وهناك آخرون ممن دافعوا عن المقاهي من خلال التركيز على دورها الاجتماعي الإيجابي. فقد تمتع انتشار المقاهي في الصين بشرعية تاريخية، وكان يتوافق مع المقتضيات الاجتماعية الحقيقية. وكان من أبرز ما كُتب في الدفاع عن ثقافة المقاهي، السلسلة الطويلة التي حملت عنوان «مناقشة حول شرب الشاي عند شعب «شينغ دو» للكاتب «لاو زيانغ»، والتي نُشرت في صحيفة «الأخبار الليلية للصين الغربية» عام 1942. وأشار المقال إلى أن احتساء الشاي كان جزءاً من الحياة اليومية في «شينغ دو»، وكان من المظاهر الواضحة، وجزءاً مألوفاً من الحياة اليومية هناك. ولم تعد «مسألة خطيرة حتى بدأ بعض الناس في الحديث عنها». وتهكم الكاتب على الانتقادات القائلة بأن احتساء الشاي في المقاهي مضيعة للوقت بقوله: «يبدو أن هؤلاء المنتقدين يستفيدون من كل دقيقة، لكنهم أحياناً يتساهلون في ذلك فيفضلون لعب الورق والدردشة ومشاهدة العروض المسرحية المحلية التي ينفقون فيها أوقاتاً أكثر من تلك التي يقضيها سكان شينغ دو في احتساء الشاي». ورأى هذا الكاتب أن هؤلاء الناس من ذوي الهوايات المختلفة يحاولون تجنب الانتقادات الموجهة إليهم من خلال الانضمام إلى قطيع منتقدي رواد المقاهي.

الحياة في المؤسسة التعليمية

من بين الانتقادات التي وُجهت إلى المقاهي، والتي رد عليها «لاو زيانغ»، أنها «وكر للشيطان» يقصده الطلبة ويتجاهلون دراستهم. ورد «لاو زيانغ» على مسؤولي التعليم بقوله إن من الواجب عليهم أن يبحثوا عن سبب عدم ارتياح الطلبة في أماكن التعلم وتفضيلهم المقاهي بدلاً منها. وكان أحد الأسباب وراء ذلك أن الطلبة الذين اعتبروا

أنفسهم أمل بلادهم وزعماء الصين المستقبلية كانوا يحضرون صفوفهم الدراسية في وقت انضم فيه غيرهم إلى صفوف المقاومة (فقد كان الطلبة معفيين بأمر القانون من الخدمة العسكرية حتى تغير هذا النظام في يناير 1943، وأصبح عليهم الانتهاء من التعليم قبل الالتحاق بالتجنيد). وكان أكثر من ثلث جامعات الصين وكلياتها في مطلع الحرب يتخذ من بكين وشنغهاي مقاراً له. وبدأ الطلبة يشككون في جدوى ما يتعلمونه عندما ينفون إلى المقاطعات الغربية من دون كتب أو مواد تعليمية تساعدهم في إجراء التجارب العلمية والفنية. وكانت الصورة النمطية للشباب المتعلم في آسيا في ذلك الوقت- هو شاب هزيل نحيف شاحب الوجه يسهر الليل على استذكار دروسه حتى يفنى جسده. وكان نقص الطعام في الصين في وقت الحرب سبباً في انتشار أمراض مثل السُّل والملاريا بين الطلبة (أشارت إحدى الدراسات في عام 1938 إلى أن أقل من 100 شخص من بين 5000 نسمة في شونغ كينغ يتمتعون بصحة جيدة). وكان النظام الغذائي للطلبة ضعيفاً معتمداً على الوجبات السريعة التي انتشرت في الجامعات ومنها: الفول والمعكرونة والخبز المبخر. ولم يكن هناك أي وقود لتدفئة غرف النوم في الشتاء، علاوة على التقشف في استخدام الزيت الذي لم يسمح بأكثر من مصباح واحد لكل مجمع سكني طلابي يعيش فيه 40 طالباً. وكان طلبة الكيمياء يحصلون على مزيد من المال من تصنيع الحبر ويبيعونه بأسعار منخفضة لزملائهم الطلبة. أما طلبة التشريح في إحدى الجامعات القومية في سيشوان، فكانوا أوفر حظّاً لأنهم يحصلون على الهياكل العظمية من أنقاض المقابر التي يُنشَأُ مبان جديدة عليها. وظل الفقر- حتى مع المنح الحكومية- حاضراً في حياة كل معلم وطالب في وقت الحرب. ونجد أن الملابس التي كان يرتديها الطلبة بالية لدرجة أن أحد المعلمين كان يرتدي معطفاً طويلاً ليخفي الثقوب المنتشرة في بنطاله عن أعين طلبته. وكان القليل من الطلبة يتمتعون بالأناقة النسبية من خلال ارتداء ما يُسمى بـ «بزة روزفلت»، وهي عبارة عن ملابس زرقاء اللون طويلة يحصلون عليها من تبرعات الصليب الأحمر الأمريكي. وفي هذا الوقت، نجح المعلمون في التحايل على المنشورات الحكومية الرسمية واستطاعوا الحصول على وظائف إضافية، في حين اضطر الطلبة إلى إيجاد سبل جديدة للعيش. ويُذكّرنا المؤرخ «إيتو زين صن» بنموذج لجامعة الزمالة الجنوبية الغربية القومية في كانمينج بمقاطعة يونان خلال عام 1941 (التي أقامها عدد كبير من الجامعات البارزة في

الشرق)، إذ يحكى عن طلبة هذه الجامعة أنهم كانوا يرهنون ملابس الشتاء لشراء كتب الفصل الدراسي الصيفي ويرهنون كتب الخريف لاستعادة ملابس الشتاء.

وكان اللجوء إلى السخرية والفكاهة من سمات حياة الطلبة في الأجزاء المحررة من الصين في وقت الحرب لتفادي التفكير في مشكلاتهم، فكانت الغالبية العظمى من الطلبة تعاني، ليس فقط من الهجرة إلى هذه المنطقة غير المألوفة التي توجد بها كلياتهم، وإنما من الانفصال عن ذويهم الذين ظلوا تحت الاحتلال الياباني. وكانت هناك زيادة كبيرة في عدد مؤسسات التعليم العالي من 108 كلية وجامعة في فترة ما قبل الحرب إلى 137 في عام 1944. وكان من بين هذه الجامعات 22 جامعة قومية و18 جامعة خاصة. ومن ثم كان على كثير الشباب أن يواجهوا تحديات التعليم في وقت دبت فيه الفوضى في أنحاء العالم المحيط بهم. واعتاد الطلبة على السخرية من أنفسهم وخصوصاً في المواضيع العاطفية. وكان الطلبة يصفون زملاءهم الذين يسعون وراء الفتيات بأنهم «سينزلقون» إلى «الهاوية» إن قبلت الفتاة بذلك الحب، وأنهم يقومون «بهبوط اضطراري» إذا راحت الفتاة وتركتهم (وإذا تركها الشاب فإنه يُطلق سراح نفسه). أما الطالب الأصغر المنجذب إلى فتاة أكبر منه سناً، فكانوا يصفونه بـ «المدفع المضاد للطائرات»، لأنه يصوب هدفه نحو السماء، وإذا حدث العكس فكان يُسمى بـ «قصف الغواصات».

وفي الوقت الذي كانت المدارس والكليات والمعاهد تستخدم عادة أربع فترات يومية في الفصول، بل أحياناً ما تستخدم الصناديق الفارغة كمقاعد للطلبة، فقد كان من بين أهداف المقاهي التي أشار إليها الكاتب الصحفي لاو زيانغ هي اعتبارها مكاناً للتفكير، فقد أشار إلى أن الكثير من مرتادي المقاهي- ومن بينهم الطلبة- كانوا أقل قدرة على حماية أنفسهم من التضخم. وكانت من بين الأنشطة الاجتماعية القليلة التي أمكنهم ممارستها لقاء الأصدقاء في المقهى والتحدث في جميع المواضيع «من الإبرة إلى الصاروخ، ومن أرسطو إلى وصف أجسام النساء، ومن ناطحات السحاب في نيويورك إلى معبد جوف». وفي وقت كان بعضهم يناقش موضوعات عشوائية ويجري بعضهم نقاشاً حول العمل، كان آخرون يجلسون بمفردهم ليقرأوا الكتب. وكان أمر هؤلاء الطلبة وكذا الأشخاص العاديين أشبه بالمفكرين في مقاهي أوروبا. وأشار لاو زيانغ إلى اهتمام الصينيين بالمجتمعات الأخرى في مقال له قائلاً: «المفكر الفرنسي العظيم بالزاك كان

يحتسي الشاي والقهوة في أثناء تأليف كتاب الكوميديا البشرية». وكان عامة الناس كذلك يفعلون أشياء عظيمة أثناء احتساء الشاي، ويحكي المؤلف أنهم كانوا «لا يقامرون ولا يشربون كثيراً من الكحوليات ويشاهدون العروض المسرحية المحلية أو يتحدثون عن انتشار العاهرات، فلماذا إذاً نتهمهم بالمبالغة في إمتاع أنفسهم؟».

ولم يكن للطلبة أهمية كبيرة في نظر أصحاب المقاهي بالنظر إلى فقرهم. فكانت هناك في عام 1941 صالة شاي في منطقة ريفيو جنوب سيشوان تحاول جذب الطلبة المنتقلين حديثاً إلى المنطقة. وقد تنوعت وسائل الجذب بين إنشاء واجهات جديدة وعمل أضواء ساطعة، وكانت الإضاءة تلعب دوراً كبيراً في جذب الطلبة، لكنهم كانوا يجلسون بعد شراء كأس واحد من الشاي لساعات طويلة مستخدمين الضوء في الاستذكار. أدى ذلك إلى إحجام الزبائن الأكثر ثراء عن المكان بسبب عدم وجود أماكن شاغرة بالصالات وهو أمر دفع صاحب الصالة إلى بيع الإنارة الجديدة إلى الجامعة واستعادة المصابيح ذات الإضاءة الضعيفة التي كان يستخدمها فيما سبق.

المقاهي أماكن للراحة

كان الغزو الياباني للصين شديد الوحشية، وتلخصت سياسة الجيش الياباني فيما مضمونه: «احرق كل شيء واقتل الجميع ودمر كل شيء». ومن ثم كان الموت والدمار من التجارب الروتينية في المناطق التي كانت تنشط فيها القوات اليابانية، وكانت الفرصة مواتية في الأجزاء الحرة من الصين للهروب من هذه الوحشية (على الأقل عندما تتوقف الغارات الجوية). وكانت المقاهي ملاذاً آمناً جزئياً من ويلات الحرب على الرغم من الجدل الدائر حول دورها في مساعدة المجهود الحربي أو عرقلته.

ادَّعى لاو زيانغ في مقالاته عن احتساء الشاي أن «مجرد الكلام يؤذي البلاد». وأشار إلى أن النقاد اعتبروا الاهتمام القومي على رأس الأولويات، لكنهم اكتفوا بالكلام دون التطوع للذهاب إلى الصفوف الأمامية لأجل مقاتلة اليابانيين، وظلوا فقط يتحدثون في الهراء. وفي الوقت الذي تطوع فيه المفكرون والطلبة والنساء للعمل في الحرب من خلال المساعدة في الحملات الوطنية، كانت حياة الجندية في جيش الجومنداغ بائسة وقصيرة. وكانت الرعاية الطبية مسألة استثنائية، وغير منظمة ولم تكن متوافرة إلا لقرابة 3,5 مليون

جندي شاركوا في الحرب. وندرت المياه هناك آنذاك لدرجة أن الجنود كانوا يعتمدون عادة على تجمعات مياه الأمطار للبقاء على قيد الحياة. وكان المجندون الجدد غالباً ما يعاملون بنوع من الشك من جانب القواد لدرجة أنهم كانوا يُربطون معاً لمنعهم من الهرب. ونخلص من ذلك إلى أنه- إضافة إلى الملايين الذين فروا من اليابانيين- كان هناك كثرٌ ممن هربوا من بؤس حياة الجندية. وكان من آثار الحرب ارتفاعُ حدة لغة الجدل. حتى إننا نجد مقال لاو زيانغ يهاجم الذين أصروا على أن مجرد الكلام كان يضر بالبلاد، موضحاً أنه إن صحت هذه المقولة، فإن مرتادي المقاهي هم خائنون بامتياز، ويجب الحكم عليهم بالموت. وذكر المقال أن هؤلاء النقاد كانوا بلا عمل، وقد وفدوا إلى «شينغ دو» بعد الحرب، وأشار كذلك إلى أن الكثيرين منهم كانوا من اللاجئين الجدد القادمين من الشرق، وأنهم وجدوا ثقافة المقاهي في «شينغ دو» هدفاً ملائماً لهم، لأنهم عجزوا عن توجيه انتقادات مباشرة للأثرياء وأصحاب السلطة. واختتم المقال بالتهكم عليهم موضحاً أن الحل الأمثل لهم هو اتباع هتلر وحرق كل الكتب عن الشاي.

وكان من الأدوار التي لعبتها المقاهي خلال فترات الهجرة في زمن الحرب، أن كانت استراحة للمسافرين والتجار القادمين من خارج المدينة، حين لم تتوقف حركة الناس والبضائع والأفكار على الرغم من دمار الحرب. ويرجع ذلك إلى أن اليابان كانت تسيطر فقط على ما يُسمى بالنقاط والخطوط أو المدن والمناطق الرئيسة في المناطق التي احتلتها علاوة على خطوط الاتصال. وكان ذلك الأمر ممكناً حتى من داخل الأراضي المحتلة من خلال التجار الصينيين للتفاوض مع السلطات اليابانية حول بيع منتجاتهم إلى المناطق الحرة من الصين وفقاً لما أشار إليه شيرمان كوشران. ووصفت سنوات الحرب بين الأعوام 1937–1945 بالعصر الذهبي لتجار الأدوية في شنغهاي، حيث توسعوا بشدة في مبيعاتهم وفروعهم حول البلاد.

وكان السفر في زمن الحرب آنذاك أخطر منه في وقت السلم، فكان الجنود اليابانيون يخشون من الإغارة عليهم وكانت معرفتهم باللغة الصينية محدودة أو تكاد تكون منعدمة، ومن ثم كان من المحتمل أن ينفجر أي تواصل مع الجنود المحتلين في صورة موجة عنف عاتية. وكان هناك قصف واسع النطاق للأهداف المدنية من جانب القوات الجوية اليابانية خاصة في شهور الصيف من الأعوام 1938–1941 (فقد كان اليابانيون بعد موقعة بيرل

هاربور منشغلين بمسارح حربية أخرى). ونتج عن ذلك أن سعى الناس إلى تجنب نقاط وخطوط القصف الياباني، فكانت بعض عربات نقل البضائع تقع في يد المهربين المخالفين للأحكام والقوانين.

وكان من الطبيعي لجوء المسافرين إلى المقاهي التي كانت تتمتع بالدفء في الشتاء في وقت كانت زيوت التدفئة فيه نادرة الوجود. وكانت هذه الصالات تمثل مكاناً للإضاءة التي كان الناس يفتقدونها في البيوت، كما أنها كانت أماكن مملوءة بالأنشطة البشرية وذات إيقاع مدني مميز بالنسبة للمرتادين ممن كانوا يذهبون إلى هناك لاحتساء «شاي الصباح الباكر» و«شاي الظهيرة» و«شاي المساء». وقد وصف مقال لاو زيانغ أولئك المرتادين بأنهم مدمنون. وهو ما يدل على أن حياة هؤلاء الناس قد ارتبطت بالمقاهي، فقد كانوا على استعداد لإنفاق سنتات قليلة على كأس من الشاي في سبيل الإحساس بالسلام في زمن الحرب.

وأشار لاو زيانغ كذلك إلى أن المدن والأحياء الصينية لم تكن قد وجدت حتى ذلك الحين بديلاً اجتماعياً للمقاهي، وقال: «إذا كانت هناك أماكن عامة مخصصة للمقابلات وتجمعات الأصدقاء لكان الناس قد قضوا وقتاً أقل في المقاهي. نحن لا نصرخ قائلين: «عاشت المقاهي» لكننا في الوقت نفسه نرفض حظرها. وربما تتوارى المقاهي يوماً ما مع ظهور بديل أفضل». وكانت الحكومة الجمهورية في العاصمة شونغ كينغ خلال الحرب منشغلة ببناء المشاريع التي تبرز حداثة الصين، ومن ثم وجه النقاد انتقاداتهم إلى المقاهي كمظهر من مظاهر المجتمع المتخلف لدرجة أن لاو زيانغ قد توقع هجرة الناس إليها مع زيادة تقدم المجتمع. إلا أن الأهمية الثقافية للمقاهي كانت وما زالت عظيمة لدرجة أن «شينغ دو» كانت في عام 2006 تضم 3000 صالة شاي.

ويوضح ذلك أن الحياة اليومية للمدنيين في الصين خلال الحرب كانت محل جدل دائم من جانب الإصلاحيين والمحافظين، فقد تركز الموضوع الرئيس لهذا الجدل حول كيفية استغلال المدنيين لحياتهم وإنفاق أموالهم والاستفادة من أوقاتهم. وتركزت محاور الجدل على حرية الاختيار والكفاءة القومية. وقد نشرت الصحيفة الليلية لغرب الصين في عام 1942 تحليلاً شبه تهكمي حول هذا الجدل كتبه «يوجي» ووصف فيه ما يُسمى «بالمقهى النموذجية»، ذاكراً إمكانية أن تكون هناك مقهى في قلب المدينة، يديرها مدير

ومساعد للمدير ويتبع فيها كافة الزبائن تعليمات الصالة. وأشار إلى قدرة المقهى على إبراز وطنيتها من خلال تقديم الشاي الصيني فقط، مع ضرورة توحيد كمية أوراق الشاي في كل وعاء من خلال أساليب التقدير الحديثة لتكون مِلّيمترين لكل وعاء شاي أخضر وخمسة مِلّيمترات للشاي الأحمر وثلاث قطع للشاي الأقحواني. وقد لا تكون هناك قيود على عدد مرات إعادة ملء الكوب، لكن في الوقت نفسه يجب عدم زيادة مقدار الماء عن نصف شينج (حوالي 0,56 من ربع الجالون) مع مراعاة اللمسة الإنسانية في ذلك: إذ يحق للزبائن الذين يزيد أوزانهم عن 60 كيلوجراماً أو الذين يسيرون أكثر من 2 كيلومتر في الشمس الحارقة طلب ثلاثة أرباع شينج. وعلى المقهى الحفاظ على ساعات عمل ثابتة منتظمة من السادسة حتى السابعة صباحاً، ومن الظهيرة حتى الواحدة بعد الظهر، ومن الرابعة حتى الخامسة مساءً ومن التاسعة حتى العاشرة ليلاً. ويمكن معاقبة المرتادين الذين يقضون مدة أطول من ساعتين بتهمة إضاعة الوقت، في ظل المجتمع الحديث المنظم ونقص الشعور بأهمية الوقت أثناء الحرب. وفي ظل زيادة النزعة البيروقراطية الحديثة وتدوين السجلات، أصبح من الضروري حصول مرتادي المقاهي على تصريح للشرب في الصالة، يضمن أن عمر المرتاد لا يقل عن 20 عاماً وأنه عامل، ويوضح سبب رغبته في دخول المقهى، على أن يكون السبب من قبيل «صغر مساحة المنزل» أو «عدم استيعابه لشرب الشاي» أو ما إلى ذلك. وقد يُطلب من المرتادين الدخول بالملابس الرسمية «لستر ملابسهم والجلوس بشكل لائق» وارتشاف الشاي بهدوء، ويمكن كذلك حظر «الملابس الغريبة» و«إظهار الرقبة والكتفين» و«الهمس» و«الضجيج» وتجنب «الحديث بصوت مرتفع». وقد يُطلب من المرتادين الذهاب إلى المقهى في وقت معين وعدم السماح لهم بالدخول متأخرين أو الانصراف مبكرين، كما كان حظر قراءة الصحف ولعب الشطرنج حاضراً، وتوجب أن يحتوي المقهى على مذياع يبث برامج معينة فقط لمحطة البث المركزية كالأخبار ومعلومات السوق، وكان على جميع الزبائن أن يغادروا المقهى من خلال السير في صف واحد.

ومن ثم كانت المقهى النموذجية في عام 1942 تعمل كالمصانع ومعسكرات الجيش. وإذا حدث هذا الأمر، كان من شأنه أن يعيد بالتأكيد «شيانغ كاي شيك» الذي كان يقول إن نموذج الحياة الحديثة يجب أن يشبه حياة الجنود. ومنذ عام 1934، حاولت حكومته

شن حملة تُعرف باسم «حركة الحياة الجديدة» لإضفاء الصبغة العسكرية على جميع جوانب السلوك المدني مثل الكلام والسلوكيات والمظهر والملبس والعادات. إلا أن تلك الحركة أخفقت بسبب افتقارها للدعم المناسب، إذ كان مقدراً لهذا المقهى النموذجي أن يظل خيالاً تهكمياً بسبب تجاهل المدنيين الصينيين لتوجيهات الحكومة ولجوئهم إلى المقهى كأماكن خاصة بهم.

الرجال والنساء في الطبقة العاملة

وفي وقت طالت ظروف الحرب الكثير الشركات والأعمال وألحقت بها الدمار وأجبرت ملايين الناس على الهجرة بحثاً عن الأمان وأسهمت في زيادة معدلات التضخم، تواصلت شعبية المقاهي وأصبحت أماكن يمكن من خلالها توفير فرص العمل، إذ أدى نزوح الناس من الشرق إلى الغرب إلى ظهور مواقف وأفكار جديدة مثل عمالة المرأة.

لكن الأمر الوحيد الذي لم يتغير مع الحرب هو الاحترام الاجتماعي على مر التاريخ الصيني لمعلمي الحرف، والذي امتد ليشمل أيضاً كبار مقدمي الطلبات في المقهى. ومن أمثلة ذلك ما حدث في خريف 1942، حين ذهب البطل الحربي والجنرال المتحول إلى المسيحية فينغ يوزيانغ (والذي اشتهر بتعميد جنوده مستخدماً خرطوم إطفاء الحريق) ومعه العديد من الشخصيات البارزة إلى شرفة صالة برايت سبرنغ لاحتساء الشاي في شينغ دو ذات مساء. وقد توجه هو ورفاقه إلى هناك أيضاً لمشاهدة النادل الشهير المعروف باسم «زو (Zhou)، صاحب الندبة في وجهه» على الطبيعة. وأحضر لهم النادل– بمجرد أن جلسوا– برادَ شاي بنفسجيّاً مصنوعاً من البرونز وصينية عليها أكثر من 20 طقماً من كُؤوس الشاي. ووقف النادل على مسافة من الطاولة ووضع أطباق التقديم أمام كل شخص، ووضع وعاء في كل طبق. ومع أن كل زبون منهم طلب نوعاً مختلفاً من الشاي، نجح النادل في تلبية طلباتهم من دون أي خطأ. ثم تحرك خطوتين أو ثلاث إلى الخلف، وأفرغ الماء المغلي في كل وعاء وتقدم للأمام ليرفع الغطاء عن كل وعاء بأصبعه ويغطيه مرة أخرى. نفذ النادل هذا التسلسل بمهارة فائقة في خطوة واحدة من دون أن تسقط قطرة مياه واحدة على الأرض. وشعر الحضور أنهم يشاهدون عرضاً لأحد السحرة. وعند دفع الحساب للنادل لم يتمكن من إعادة المتبقي من الحساب فوراً بسبب انشغاله بخدمة زبائن

آخرين، لكنهم عندما هموا بالمغادرة، أعاد النادل المتبقي من الحساب لكل منهم من دون أخطاء بصرف النظر عن عدد الذين كان يخدمهم، فأُدهش الحضور بذاكرته الفائقة.

وكانت «شينغ دو» مركزاً لكثير من الندل في المقهى ممن حملوا لقب «أساتذة الشاي»، مثل «زو» صاحب ندبات الوجه؛ فكان هؤلاء شخصيات رئيسة في المقاهي وأسهموا في رسم معالم شخصية المقهى، وكان بعضهم يطلق عليهم ألقاباً مثل (مسؤولو القاعة) و(الأساتذة الصغار) أو (العمال حاملو برادات الشاي)، إلا أن لقب «أساتذة الشاي» أصبح من أبرز ألقاب الندل في المقهى، وهو لقب يعكس بالتأكيد المهارة العالية لهؤلاء العاملين ومعرفتهم الكبيرة بالشاي علاوة على خبرتهم الاجتماعية الثرية، على الرغم من أن الهدف من هذا اللقب إنما كان هو التهكم. وانتشر أساتذة الشاي أولئك في كثير من المقاهي في شينغ دو. ففي الوقت الذي بخلت فيه أدبيات سنوات الحرب على العمال بقطاعات الأعمال الصغيرة وأغفلت ذكرهم، جعلت المقاهي- بوصفها أماكن عامة- من عمالها شخصيات أكثر بروزاً من نظرائهم. وجذب كل ما كان يحدث في المقهى أنظار المجتمع وتناولته الصحافة المحلية وملاحظات المعلقين، ما يبرهن على أن الحياة المدنية في الصين في وقت الحرب كانت سجلاً للكثير من الأنشطة والاهتمامات، في حين كانت الحرب في حد ذاتها تحظى باهتمام عام.

وكان غالبية مقدمي الشاي في «شينغ دو» من الذكور، فقد شهدت أواخر الثلاثينيات تغيراً اجتماعيّاً كبيراً مع بدء المرأة في العمل نادلةً. ولعبت المرأة في المجتمع الصيني التقليدي دوراً مهمّاً في الاقتصاد، ولكنها كانت تشتغل- في الغالب- بالأعمال اليدوية في البيوت مثل الغزل والحياكة وصنع الأحذية أو في الخدمة المحلية طاهياتٍ أو ممرضات أو جليسات للأطفال، أما في المناطق الريفية فكانت تقوم بالعديد من المهام في الحقول. ولكن المهنة الوحيدة للمرأة التي يمكن أن تحصل فيها على أجر في الأماكن العامة هي عملها غانية وعاهرة، وهي المهن التي كانت تعتبر مذمومة أو ذات نظرة سلبية. ومن ثم كان دخول المرأة إلى المقهى بوصفها نادلة يمثل تحولاً مهمّاً في كثير من مجالات الحياة في «شينغ دو» مثل أنماط العمل وثقافة المقهى والأدوار العامة للمرأة والعلاقة ين الجنسين. وقد ظهرت مهنة نادلات المقهى في عام 1937 فحظيت باهتمام عام كبير، لأنها كانت من الظواهر الجديدة في المدينة. وقدمت الصحف المحلية كثيراً من التغطيات للحياة الشخصية والمهنية

للنادلات بشكل أكثر من أقرانهن الذكور، إذ قدمت هذه التقارير معلومات قيمة حول دور النادلات في مكان العمل وتأثيرهن الاجتماعي الأكبر.

وجاء ظهور النادلات في المقهى بشينغ دو كنتيجة مباشرة للغزو الياباني والتهجير الإجباري للأهالي، فقد كانت «شينغ دو» في عام 1937 مدينة محافظة منعزلة، مما فرض قيوداً أكبر على المرأة بوجه عام. وحتى مع تغير المواقف تجاه المرأة منذ أواخر عهد شينج، إلا أن هذا التحول كان هو الأسرع من نوعه، فقد أسهم تدفق اللاجئين من شرق الصين الأكثر تحضراً في إدخال مفاهيم منفتحة نسبيّاً إلى «شينغ دو» ظهرت في المناطق الساحلية. وكان الناس كذلك يميلون في بداية الحرب إلى التركيز على الانهيار القومي، بعد أن دمرت القوات اليابانية المدن وقصفت تلك المنشآت مثل الجامعات. وكان تثبيت الأخلاق التقليدية يحصل بعيداً عن أولويات الصفوة والحكومة، ومن ثم ظهرت المرأة في قوة العمل العامة، وهو الأمر الذي لم يبدُ من الوهلة الأولى قضية ثقافية على الرغم من انبهار قراء الصحف والليبراليين بذلك. وأدى ذلك إلى ظهور الكثير من المقاهي مثل: شرفة شاي الحكمة، وصالة الحكماء الثلاثة على طريق الربيع الدافئ، وازدهارها في الأماكن الأكثر رخاءً بالمدينة. ولم تكن هذه الصالات الجديدة التي قدَّمت حجرات خاصة لجذب الزبائن، ولكنها كانت أيضاً الأولى من نوعها التي تعمل بها نادلات. وقد جذبت هذه الصالات المزيد من الزبائن الذكور الذين جاءوا لمشاهدة المرأة وهي تعمل ومن ثم يسخرون منها. وسرعان ما سارت فيما بعد جميع المقاهي في «شينغ دو» على هذا النهج نفسه، وأصبحت النادلات موجودات حتى في أكثر المقاهي بساطة وبدائية، وباتت المقاهي التي لا تعمل بها نادلات من الإناث تعتبر طرازاً قديماً، ومن ثم يبدأ الزبائن في هجرها.

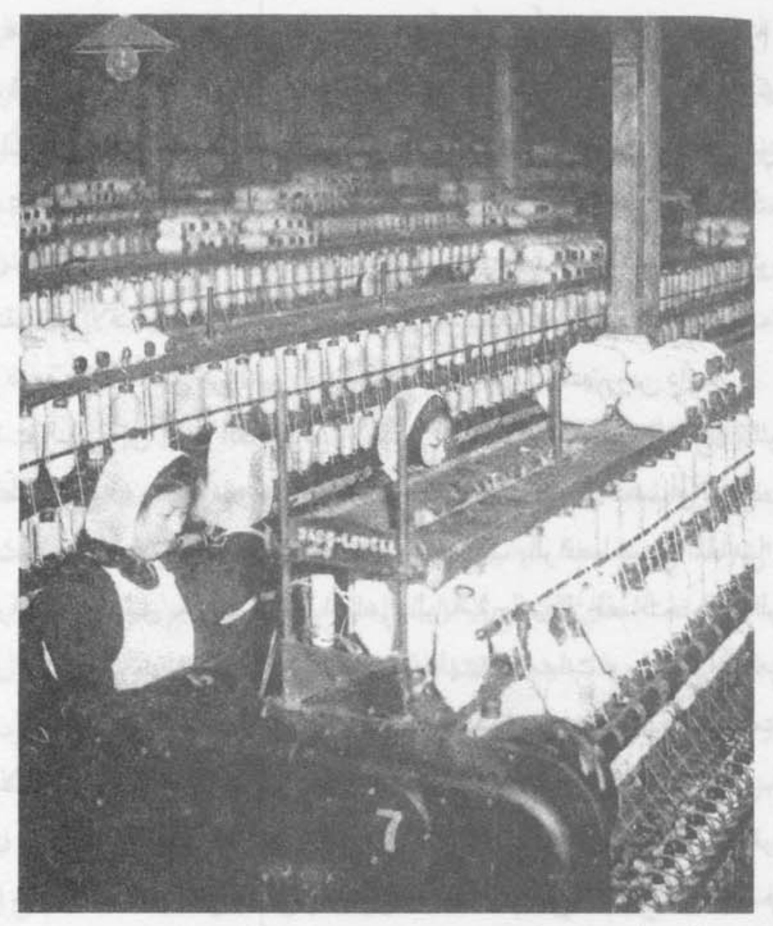
وجاءت المرأة للعمل من بيئات مختلفة، ولكن الغالبية العظمى منهن كنَّ أميات أو زوجات من أسر فقيرة. وكان الاعتقاد الشائع آنذاك في الصين القديمة أن المرأة المتعلمة تمثل عبئاً على نفسها وعلى أسرتها، وكانت النسوة يحظين بالاحترام زوجاتٍ وأمهاتٍ صالحاتٍ وكان يتعين عليهن تحقيق كافة الطموحات داخل منزل الأسرة. ومن ثم كانت الأمية بين المرأة هو المعيار السائد، وكانت من بين أكبر الحملات العامة خلال الحربين دعوة المرأة المتعلمة لتعليم النساء الأخريات القراءةَ. واعتُبِر النهوض بتعليم المرأة الصينية

بمثابة أعظم التغييرات الثورية التي شهدها القرن العشرون، وقد كان تأثير الحرب واضحاً في ذلك. وأدى إلى حدوث المزيد من التقدم خلال حكم النظام الشيوعي في الفترة التي تلت انتصاره في عام 1949. وظلت المرأة خلال الغزو الياباني تحارب التقاليد، على الرغم من الانقلابات الاقتصادية التي أحدثتها الحرب. وهو ما أدى إلى ظهور أحد الكتب التي اشتملت على مقالات دعائية صادرة عن وزارة الإعلام في حكومة الجومندانج عام 1945 إضافة إلى اشتمالها على صورة لعاملات النسيج والغزل وقد كتب تحتها تعليق مضمونه «وأدت الحرب إلى زيادة أعداد المرأة في الصناعة في الصين ولكنها ما زالت تلتحق بالمصانع وسط احتجاجات أسرتها».

وكان السبب وراء سعي المرأة للوظائف الجديدة هو الفقر غير المسبوق. فقد أدى الارتفاع الرهيب في تكاليف المعيشة إلى عجز كثير من الرجال الذين كانوا يتقاضون رواتب شهرية عن إعالة أنفسهم. وذكر أحد المراقبين أن أزواج معظم النادلات كانوا موظفين بائسين بمكاتب الحكومة وعمالاً وجنوداً تركوا منازلهم لمحاربة اليابانيين. أما بالنسبة للنساء في حقبة العشرينيات والثلاثينيات، فكان الفقر شائعاً بينهن، وكن يسعين إلى إقراض أي شيء واقتراضه، على الرغم من صعوبة ذلك الأمر والشعور بالخزي بسبب حاجتهن إلى إطعام أنفسهن وأسرهن.

وكان الفقر والتضخم الذي شهدته فترات الحرب سبباً في شعور غالبية النساء بالتهديد فيما انخفضت فرص إقراض الأشياء واقتراضها. وقصارى القول هنا إنها قد فرضت التغيير على المرأة من أجل الحفاظ على حياتها.

وتجلت شدة معاناة النساء في وقت الحرب في الطريقة التي لجأت إليها النادلات للتغلب على الضغوط الاجتماعية الكبيرة والمضايقات الشديدة من الندل وغيرهم من العاملين الذكور بغرض الحفاظ على وظائفهم. وكانت صعوبة مهنة النادلات في المقاهي في «شينغ دو» عائدة بالأساس إلى هذه العداءات الذكورية. فقد أطلق بعضهم عليهن لقب «الطيور البائسة» اعترافاً بصعوبة موقفهن. وكانت بعض النادلات يحصلن على أجور أعلى من الأخريات، وسرعان ما ظهرت «هرمية تسلسلية» بين النادلات. أما نادلات المقاهي الراقية، فكن أكثر جمالاً وجاذبية، إذ كان مالكو الصالات يختارونهن بعناية. وكانت النادلات يُفضلنَ العمل في الصالات الأكثر ثراءً كي يحصلن على أجور أفضل.



تغير الأدوار العملية لدى النساء. (شركة ماكميلان – نيويورك 1945)

وتراوحت أعمار هؤلاء النساء بين 18–23 عاماً، وكنّ ذوات تعبيرات رقيقة وشعر قصير (وهو النمط الشائع في الأفلام والإعلانات التجارية في فترة الثلاثينيات في شنغهاي) مع قليل من مستحضرات التجميل، الذي اعتُبر في فترة العشرينيات الزي القومي للمرأة. فكانت النساء بفضل هذه المستحضرات يتمتعن بمظهر مشرق براق، تحت القبعات البيضاء التي كانت ترمز إلى النادلات في الزمن الحديث. وكانت النادلات يتسمن بالبراءة بشكل عام، مما أوحى للزبائن الذكور بأنهن حديثات الظهور في الأضواء الساطعة. وسرعان ما كانت النادلات يتعلمن الإيماءات ونبرات الصوت المناسبة لكل نوع من الزبائن واستخدام سحرهن في جذب الذكور. أما غالبية نادلات الصالات الأقل رقياً فكن يتوخين الحذر، لأن أصحاب المقاهي كانوا تجار أقمشة وسجائر، وكان عملهن يقتضي بيع هذه المنتجات،

وكانت هؤلاء النادلات يحصلن على 1,5 يوان أجراً يومياً، ويعملن بنظام اليوم من دون تأمينات اجتماعية. وكان عليهن سداد أية خسائر من أجورهن، وهن في ذلك كن عرضة لسلوك الزبائن. لكن الميزة الوحيدة لهؤلاء النساء كانت حصولهن على وجبتي الفطور والغداء مجاناً. وكانت النادلات عادة في المقاهي البدائية والمقاهي متدنية المستوى لا يتقاضين ما يكفي للعيش. وكانت العاملات الإناث في مجتمع يهيمن عليه الذكور عرضة دائماً للتقلبات الاقتصادية والأزمات الناتجة عن مشكلات الحرب وانتكاسات ساحات القتال وضعف المحاصيل الزراعية ومن ثم بقيت المرأة أول المتضررين دائماً.

وكانت النظرة إلى المرأة العاملة في الأماكن العامة بين تجمعات الرجال تشجع على تحرش قطّاع الطرق والمجرمين بالنادلات. لكن المرأة لم تجد أي دعم أو تعاطف لها من السلطات المحلية أو المجتمع، إذ يمكن تشبيه النادلات بالراقصات في المقاهي اليابانية. وهناك رابط عام وثيق بين أصحاب المقاهي اليابانية وبين الراقصات، وبين الراقصات أنفسهن اللواتي كن يعشن حياتهن الخاصة والمهنية كأمهات وبنات وأخوات كبرى وصغرى لبعضهن. وكانت غالبية النادلات في «شينغ دو»—على النقيض— نساءً متزوجات ومسؤولات عن إعالة أسرهن، ولم يكن لديهن «أخوات» يمكن الاعتماد عليهن. ولم يكن هناك أي رابط بينهن وبين أصحاب المقاهي ومن ثم كانت وظائفهن أقل استقراراً وكن يواجهن مشكلات ناتجة عن العمل بمفردهن. وكانت المقهى اليابانية موجودة في غرف داخلية خلف أبواب مغلقة، وكان شرب الشاي فيها أحد الطقوس الموسمية. أما المقاهي الصينية فكانت أكثر انكشافاً حيث ظلت أبوابها مفتوحة على مصراعيها وكان باستطاعة المارة رؤية ما يحدث داخلها. والكثير منها لم تكن له أبواب، وكان العاملون بها ينزعون الألواح الخشبية عن المدخل في الصباح ويعيدونها وقت الإغلاق. وكان بإمكان العاملين والزبائن تحريك الطاولات والكراسي بسهولة على جانبي المقهى. وكانت المقهى دائماً تبدو مزدحمة وصاخبة ومضطربة تعج بالمشاجرات حتى في زمن الحرب. أما المساحة بين الزبائن والنادلات فكانت محدودة سمحت بحدوث التحرشات الجنسية وزيادتها. وكانت مهنة النادلات في المقاهي في «شينغ دو» من الأمور المستحدثة غير المعترف بها على عكس الراقصات (الجيشا) في اليابان التي كانت مقبولة اجتماعيّاً على الرغم من أن مهمتها الرئيسة تلخصت في إمتاع الزبائن. ومن ثم واجهت النادلات في اليابان

المشكلة التالية: كان كثير من الزبائن يتوقعون منهن أكثر من مجرد الخدمة، على الرغم من أن مهمتهن الرئيسة لم تكن إمتاع الزبائن. وإذا رفضت النادلات تلبية رغبات الزبائن من خلال التدلل وتبادل الضحكات، كان ذلك يزعج الزبائن ومدير المقهى على السواء. وإذا ما تصرفت هؤلاء الفتيات كما شاء الزبائن، كن يجنين رفض المجتمع وامتعاضه بسبب تصرفاتهن المماثلة لسلوك العاهرات. ولذلك كانت صورة النادلات معقدة تكاد تنحصر بين الأداء الوظيفي ونظرة المجتمع لهن.

القانون واللوائح

كان من الواجبات الإضافية المنوطة بالعاملين في المقاهي إمداد الشرطة بالمعلومات. وكانت الشرطة مهتمة جداً بنوعين من الأعداء هما: الجواسيس الذين يعملون لصالح اليابانيين، والخونة العاملين لصالح الحزب الشيوعي الصيني. فوجهت الحكومة تحذيراً للمقاهي بتوخي الحذر الشديد من 120 طالباً ينتمون إلى جامعة المقاومة في شمال شانزي بسبب توجههم إلى «شينغ دو» وشونغ كينغ. وكان الحزب الشيوعي الصيني قد أنشأ الجامعة لبناء جيل جديد من القيادات في حركته، ومن ثم كان وجود الطلبة النشطين يمثل تهديداً مباشراً لسلطة الجومندانج، ولذلك خضعت أنشطتهم في سيشوان للرقابة المشددة. وادعت سلطة «شينغ دو» في عام 1940 أن بعض الخونة قاموا بتدبير مخططاتهم في المقاهي، وطلبت من نقابة المقاهي إعداد تقارير سرية عنهم. ولم يكن أمام النقابة وقتها سوى التعاون حتى وإن كان أعضاؤها غير واثقين تماماً من معلوماتهم. واستخدمت حكومة الجومندانج خلال سنوات الحرب مصطلح «الخائن» لوصف معارضيها أو المعادين لقوانينها.

وتشير التقارير الرسمية إلى أن العصابات كانت كذلك من بين هؤلاء الذين يتجمعون في المقاهي، إذ كان هؤلاء يستهزئون بالنادلات ويضايقون العاملين فيها من الرجال والنساء على حد سواء. وقد وقعت حادثتان شهيرتان في عام 1939، فتعرضت نادلة في الحادثة الأولى إلى الضرب بوحشية عندما رفضت مغازلة أحد الرجال لها، وكانت المرأة وتدعى تانج بينجيون قد باعت منشفتين وسجائر في حديقة تنين الربيع للشاي، وذات يوم وفي أثناء توجهها لشراء الطعام استوقفها رجل العصابات زو زيمينج، وعندما حاول زو التحرش بها قامت بتوبيخه وأسرعت عائدة إلى المقهى، ولكن الرجل ظل يطاردها

وهاجمها، وعندما حاولت مقاومته استشاط غضباً وظل يضربها بعنف حتى جرحت وسال الدم منها. وشملت الحالة الثانية زي ليزن النادلة في صالة حديقة يوان للشاي، التي قام زبون ويدعى دينج بجذب قدمها متظاهراً بالتقاط منديل عن الأرض، وطلبت منه النادلة بأسلوب مهذب أن يتوقف عن ذلك، ولكنه ضربها بعنف هي ومديرها عندما حاول التدخل، وعندئذ خافت زي من مقاومته، إذ تحولت هذه الأحداث إلى مشكلة خطيرة كادت تهدد عمل النادلات.

وقد تعرض الندل كذلك للخطر في أثناء العمل، ففي أحد أيام عام 1943، طلب بعض المحتالين المحليين الشاي في صالة «شرفة الشاي رقم واحد»، وأخبروا النادل لو كينجرونج بعد تقديمه الشاي إليهم بأنهم سيدفعون الحساب لاحقاً، ولكنهم تسللوا هاربين في الوقت الذي كان فيه لو منشغلاً مع زبائن آخرين، واضطر لو لسداد الحساب من ماله الخاص. وعادت المجموعة نفسها في اليوم التالي وفعلوا الشيء نفسه، ولكنهم عندما حاولوا التسلل هاربين طاردهم لو وطالبهم بسداد الحساب، فادعت المجموعة حينئذ أن لو قد أحرجهم أمام الجميع ولم يكتفوا فقط برفض سداد الحساب وإنما أشهروا مسدساتهم في وجهه وأطلق أحدهم رصاصة في الهواء لإخافة المارة. ودافع الذين يعرفون لو عنه قائلين إنه «شخص جدير بالثقة ومسالم ولم يدخل في أية مشكلات مع أحد من الزبائن» منذ مجيئه للعمل في المقهى منذ عدة سنوات. وتُبرِز هذه الحادثة مدى تعرض الندل للخطر، فقد كانوا عاجزين عن تغطية حسابات الزبائن الذين يغادرون دون سداد الحساب، وإذا ما حاولوا حماية مصالحهم فإنهم يتعرضون للضرب أو حتى القتل. وكانت تلك الحوادث موجودة قبل وقت طويل من الحرب ولكن من الواضح أن العنف الذي ساد في زمن الحرب قد أدى إلى زيادة الوحشية داخل الحياة المدنية.

وكان من الأسباب وراء ضعف الاستقرار الاجتماعي انتشار مجموعات من الناس من عديمي الجذور أو من غير المهتمين بالحفاظ على النظام. وضمت هذه المجموعات التي انتشرت خلال فترة الحرب الطويلة المحاربين القدامى في الجيش والذي عاشوا جنباً إلى جنب مع الموت والوحشية. وكانت الشرطة تسعى دائماً لفرض سيطرتها على أولئك الذين كانوا يحاربون ضد اليابانيين، وعلاوة على ذلك، كان الشغل الشاغل لرجال الشرطة هو النظام السياسي وليس المجموعات الاجتماعية الصغيرة نسبيّاً. وبالتالي كانت السلطات

تراقب عن كثب أية مؤشرات للمعارضة السياسية أو للتعاطف مع الحزب الشيوعي الصيني. وعكست أفلام السينما التي تناولت فترة الحرب آنذاك تهديد الجواسيس اليابانيين. وعلى النقيض من ذلك فقد كان الشخص المثير للشغب شديد الأهمية للغاية، فيما كانت المجموعات المنظمة من المجرمين لا تشكل مشكلة لقوات الشرطة التي كانت تتمتع باحترام ودعم اجتماعي محدود. ودفع غياب حماية الشرطة للعمال العاديين كلّاً من الرجال والنساء إلى البحث عن وسائل بديلة للأمن. وكان اتحاد المقاهي هو الداعم الرئيس للمشتغلين في هذه الصالات. ففي عام 1939، وبعد بحث حادثتي الاعتداء على النادلات المشار إليها سابقاً، تقدمت النقابة باحتجاج رسمي للحكومة من أجل حماية العمال ومراعاة تطبيق الأعراف الاجتماعية، وأشار الاحتجاج إلى تعرض المرأة العاملة إلى التحرش والمضايقات وممارسة العنف ضدها. وركز الاتحاد في احتجاجه على حقيقة أن كثيراً من النادلات كن زوجات للضباط والجنود المقاتلين ضد اليابانيين، وذلك من أجل زيادة التعاطف معهن، إذ كانت هؤلاء النساء يعجزن عن توفير الأموال في ظل غياب الزوج، ومن ثم كن يذهبن للعمل في المقاهي. واتهم الاحتجاج– مستخدماً أسلوباً سياسيّاً– حديث أعضاء العصابات بانتهاك حقوق المرأة، علاوة على مخالفة قواعد الأدب وإحباط معنويات الجنود الشجعان من خلال إثارة الاضطرابات في الصفوف الخلفية. وطالب الاتحاد كذلك كلّاً من الحكومة والمجتمع بالنظرة الإيجابية للنادلات موضحاً ضمن نصوصه ما يلي: «أصبحنا اليوم في الوقت الذي تعتمد فيه البلاد على الجيش ودعم كافة المواطنين له، بل وأصبحت المرأة أيضاً على استعداد للحرب إذا ما احتاجت إليها البلاد. ولذا يتعين على الحكومة دعم وحماية الاستقلال الاقتصادي للمرأة»، كما طالب الاتحاد الحكومة بإصدار بيان يجرم التحرش ويعاقب المنتهكين. وقد قام العمدة يانغ بتسليم الخطاب إلى شرطة مقاطعة سيشوان بعد أسبوعين من استلامه، وأكد العمدة يانغ في مذكرته على ما جاء في خطاب الاتحاد من خلال الإشارة إلى أن ذلك السلوك يعد تجاوزاً لقواعد الأدب وانتهاكاً لحقوق الإنسان بالنسبة للمرأة. وفي الإطار نفسه، قام الاتحاد في عام 1943 بالتحقيق في قضية النادل لو كينجرونغ، ومارس ضغوطاً على الحكومة المحلية من أجل تطبيق العدالة. ويبدو لنا كذلك أنه كان من بين سمات الصين في العصر الحديث، تأثر سلطة الحكومة سلباً بالصراع أو تشتت الشرطة بين الخوف من

الثوريين والجواسيس والمتآمرين وكذلك الأشخاص العاديين الذين كانوا ينظمون أنفسهم من أجل الدفاع عن النفس. وحدث ذلك على كافة مستويات الحياة المدنية بدءاً من العمال البسطاء وصولاً إلى رجال الأعمال.

ولم تكن المشكلة الرئيسة التي تواجه عالم الأعمال هي العنف أو الاعتداءات الفردية، وإنما الفروض الجبرية التي كانت الحكومة تفرضها في زمن الحرب على الدخول، من ذلك ما كان يأخذ شكل زيادة الضرائب حتى في الوقت الذي انهارت فيه قيمة العملة بسبب التضخم. أما رجال الأعمال في الصين فكانوا يطورون أساليب جديدة من الشراكة لمواجهة الحكومة منذ اندلاع الحروب الأهلية في فترة العشرينيات ولكن ضراوة الحرب ضد اليابانيين أجبرت أصحاب الأعمال الصغيرة– مثل مديري المقاهي– على الدخول إلى الساحة السياسية وتنظيم الاحتجاجات ضد زيادة الضرائب.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث في أغسطس 1940 عندما فرضت حكومة «شينغ دو» المحلية ضريبة جديدة على التجارة، وطالبت نقابة المقاهي أعضاءها بعدم الاعتراف بهذه الضريبة ومقاومتها حتى النهاية، واتُّفِقَ على قيام جميع المقاهي بالإضراب إذا ما بدأت الحكومة في اعتقال أعضائها (وهو ما يكشف بالتالي عن زيادة التهديد الذي واجهته قوة الحكومة في الحياة اليومية للحرب). ودعت النقابة آنذاك إلى التضامن في وجه هذه الضريبة الجائرة وطلبت من أعضائها شجب كل من يحاول شق الصفوف، ودعت النقابة كذلك في إطار تشجيع المقاومة إلى تحمل نفقات المعيشة بالنسبة لأي عضو يُعتقل، حيث قام جميع المشاركين بالتوقيع على هذا القرار. ورضخت الحكومة لهذه الضغوط وأرجأت الضريبة الجديدة وهو ما يدل على قوة المجتمع المدني حتى في زمن الحرب. واستمرت النقابة في الوقت نفسه في الدفاع عن قضيتها من خلال التفاوض، وتوصلت إلى تسوية مقبولة في أوائل العام التالي عندما قررت الحكومة إخضاع الضريبة لتصنيف المقهى بدلاً من عدد الطاولات فيها، علاوة على دفع رسوم التراخيص بصورة ربع سنوية بدلاً من دفعها بصورة شهرية.

وكانت النقابة تتعاون مع الحكومة المحلية في الشؤون المحلية، وهو ما كان في صالح النقابة بالتأكيد. أما جميع الأعمال في الأنشطة المفتوحة والقانونية فكان ينطبق عليها الشيء نفسه، إلا أن رجال الأعمال لم يغامروا بالتضحية بجميع مصالحهم لاحتياجات

الحرب. ويمكن القول في حالة نقابة المقاهي إن أعضاءها كانوا يقدمون خدمة أساسية تتمثل في الحفاظ على استقرار الحياة اليومية، ولكنها جاهدت من أجل حماية نفسها من تهديد الحكومة لبقائها وانتشارها في عملها. وعلى الرغم من انتصار الحكومة في غالبية الحالات، إلا أن النقابة كانت تحافظ على سيادتها عادة. وكانت المقاهي المتعاونة معاً مثل الأعمال الأخرى تتمتع بالقوة، وهو ما اضطر الحكومة للاعتراف بإمكانية خوض الحرب فقط والنجاح فيها إذا ما وافق الشعب عليها.

تسييس الحياة اليومية

كانت المقاهي بمثابة المكان العام من أجل الراحة أو المحادثة، ومن ثم لعبت دوراً محوريّاً في المجتمع المدني، وبخلاف الأشخاص الذين كانوا يذهبون بهدف مقابلة الأصدقاء أو إجراء الأعمال أو القراءة بهدوء أو مجرد احتساء الشاي، كانت هناك سمة جديدة قد ظهرت خلال الحياة اليومية في زمن الحرب وهم الزبائن الذين كانوا يتحاورون في الشؤون المحلية، والذين كان يطلق عليهم لقب «سياسيي المقهى». وكانت الكثير من المقاهي في الماضي تعلق لافتة كتب عليها «ممنوع الحديث في الشؤون القومية». وأشار مقال بعنوان: «سياسيو المقهى» إلى انتشار المناقشات السياسية في المقاهي بشكل شبه يومي في عام 1934، وكان يطلق على الزبائن من أصحاب الآراء المسموعة لقب «فلان رجل عظيم» أو «فلان وفلان يدبرون مؤامرة». واعتاد هؤلاء الزبائن على ادعاء معرفتهم ببواطن الأمور التي لم يكن يُعلَنُ عنها في الصحف، وكانت الشائعات عادة هي عملة الحوار الرئيسة خلال حياة في فترات الحرب.

وكان بعض النخبة المدنيين ولاسيما اللاجئون الشرقيون ينتقدون سياسيي المقاهي ويعتبرونهم حمقى أو أناساً يهددون وضعهم الاجتماعي. وكان هؤلاء الأشخاص ليبراليين يقرأون الصحف ويتمتعون بآراء قوية. وحظي بعضهم بسمعة إيجابية بين عامة الناس بسبب مشاركة الأخبار والأفكار، في الوقت الذي أصبح فيه آخرون محل سخرية. وكان المقر الرئيس لهؤلاء هو المقاهي التي كانوا يمضون فيها العديد من الساعات يوميّاً. وكانوا يتصرفون مثل الممثلين على خشبة المسرح ويلقون خطابهم قبل الزبائن الآخرين، وكان من الممكن لهؤلاء الناس أن يؤثروا في الرأي العام، فقد كانت مناقشاتهم في المقهى

هي المتنفس الوحيد لغالبية الناس في التعبير عن آرائهم السياسية. ولكن الخطورة كانت تكمن في استغلال الشرطة والحكومة لما يقال ضد المتحدثين علاوة على احتمالات اعتقالهم. وكانت الحكومة تدسّ عملاءها السريين في المقاهي لإفادتها بما يجري فيها، وتمارس الضغوط على أصحاب المقاهي والعاملين بها للإبلاغ عن الحوارات السياسية التي تحصل بين الزبائن. أما الذين تجرؤا على معارضة الحكومة علناً، فكانوا يتعرضون لأشد العقاب. وكان هذا العقاب يطال المقاهي ذاتها إن عجزت عن تحذير الشرطة بما يحدث لدرجة أن بعض هذه المقاهي أُجبر على إغلاق أبوابه. ودفع ذلك بعض أصحاب المقاهي إلى رفض أي حديث خطر، وعلق بعض المقاهي لافتات كتبت عليها: «إذا طلب منك أحد إبداء رأيك فلا تحدثه في أي أمور وطنية، واحتسِ الشاي فحسب».



تسييس الحياة اليومية: محاضرات قومية في أماكن العمل.

وكان من بين أكبر التغييرات التي شهدتها المقاهي خلال وقت الحرب، الغزوُ السياسي للأماكن العامة بصرف النظر عن اعتراض أصحاب الصالات. وقد تولت الحكومة نفسها مع أنصارها هذه المهمة، إذ وضعت حكومة الجومندانغ في عام 1941 خطة لحملة دعائية في المقاهي، وذلك اعترافاً منها بأهمية هذه الصالات في الحياة الصينية. ودارت هذه الخطة حول تقسيم جميع المقاهي البالغ عددها زهاء 640 في «شينغ دو» إلى ثلاث فئات مع استخدام أنواع مختلفة من الدعاية. واعتمدت هذه الجهود الدعائية على إجبار جميع المقاهي على تعليق صور لمؤسس الجومندانغ الدكتور صن ياتسن (المعروف باسم «الأب الروحي للصين الحديثة») علاوة على صور كاي شيك وغيره من زعماء الحزب، وكان يُفرض على المقاهي آنذاك تخصيص مساحة لوضع منضدة لإلقاء الخطب ولوح وعلم الجومندانغ إلى جانب العلم القومي. وكان يُرسَلُ ضباط الجيش إلى المقاهي لاحقاً، للتأكد من تنفيذ هذه التوجيهات، والذين كانوا يجدون في بادئ الأمر عدم التزام بالتعليمات من جانب المقاهي، وهو الأمر الذي دفع عمدة «شينغ دو» إلى تحذير نقابة المقاهي حول التزامات الأعضاء فيها. وعادة ما كانت تُجرى دعايات سياسية وحملات بالمحاضرات في أماكن أخرى مثل المصانع.

وظهرت قوانين أخرى ألزمت المقاهي بتوزيع كتب وصحف من اختيار الحكومة، وهو ما يجعلها تؤدي وظيفة تشبه المكتبة خلال وقت الحرب. وكانت غالبية هذه الكتب تتناول الإشادة بالأبطال الجمهوريين أثناء الحرب وأيديولوجيات حزب الجومندانغ وتوبيخ الخونة. أما الصحف واللوح فكانا يعملان بطريقة متناغمة، إذ كان اللوح يحمل ملخصات أسبوعية للأحداث. ومن ذلك مثلاً، أنه كانت هناك ثلاثة عناصر رئيسة هي: بيان مكون من سطرين حول الحرب في أوروبا، وتعليق موجز عن النجاح الدبلوماسي للصين في توقيع اتفاقية كبيرة تحصل بموجبها على قرض من بريطانيا، ووصف مطول لانتصار الصين على اليابانيين في المعارك الدائرة في مقاطعات هويبي وشمال هيونان. كما وجهت كذلك حكومة تي شرطة كل مقاطعة نحو بناء «مقهى نموذجي» ضخم وممول جيداً ويقع في منطقة مركزية كنموذج تحتذي به المقاهي الأخرى. وكانت هذه المقاهي، علاوة على الصحف والملصقات والأعلام، تحتوي على مذياع أو مسجل وخرائط لسيشوان وباقي أنحاء العالم. وكانت المقاهي قد حصلت كذلك على تعليمات

بتعليق ما يُسمى بتعهدات المواطن على جدرانها، وكان التعهد يحتوي على 12 بنداً يركز أغلبها على خدمة الوطن وعدم الاستسلام أو التجارة مع العدو وعدم العمل أبداً مع- أو لحساب- الخونة. وأشارت تعليمات حكومة الجومندانج كذلك إلى وجود تسعة أنواع من الشعارات يسمح بتعليقها في المقهى، إذ كان من الواجب أن تعزز هذه الشعارات أفكار الحكومة، وأهمية دعم الشعب للحكومة، والعمل على تدمير العدو، ورفض الهروب من الخدمة العسكرية باعتباره أكثر الأعمال التي يمكن أن تخزي المواطن.

وكان الهدف من هذه الحملة الدعائية- نشر فكر الحكومة عن الحرب بين أكبر عدد ممكن من الناس العاديين. وعلى هذا النحو، أصبحت المقاهي مسرحاً «لإنقاذ البلاد» وموقعاً للمعلومات حول سير الحرب، حيث يستطيع الناس من خلال المقاهي معرفة أحدث الأنباء عن الخطوط الأمامية وكذلك القصص حول المقاومة ومدى وحشية الغزاة اليابانيين ومأساة الحرب. وعلى هذا النحو، أصبحت الحرب نقطة تحول، تغير فيها الكلام عن السياسة (ولا نقصد هنا حرية النقاش) من أحد (المحرمات) إلى شيء تشجع عليه الدوائر الرسمية وربما تدفع باتجاهه.

ومثَّلت المقاهي آنذاك جنباً إلى جنب مع طرق الترفيه الأحدث وكذا مع أخبار الحرب مصدراً للمعلومات ومسرحاً للأداء الوطني. وكانت السينمات قد ظهرت بالفعل كجزء من الحياة المدنية في الصين عام 1937، حيث كان المركزان الرئيسان لإنتاج الأفلام هما شنغهاي وهونغ كونغ، وظل كلا المركزين يعملان خلال السنوات الأولى من الحرب ضد اليابانيين، لأن هونغ كونغ كانت مستعمرة بريطانية وشنغهاي كانت جزءاً من المدينة التي تسيطر عليها المجالس البريطانية والفرنسية والأمريكية بشكل فعلي. وقد صُوِّرَ زهاء 200 فيلم في شنغهاي وحدها بين 1938 و1941. وكانت غالبية هذه الأفلام توصف بالمعتدلة سياسيّاً إذ كانت تجسد دراما مبنية على أدب كلاسيكي أو حكايات شعبية. أما أول فيلم طويل للرسوم المتحركة على الإطلاق في الصين فهو «المروحة الحديد للأميرة» (1941) والذي تأثر أسلوبه بشدة باستوديوهات ديزني. واستطاعت بعض الأفلام من شنغهاي أو هونغ كونغ أن تجد طريقها إلى المناطق المحررة من الصين لكنها لم تحظَ بقبول واسع. من ذلك أشار المؤرخ السينمائي ينجين زانج في فيلم «مولان ينضم للجيش» - الذي أُنتج عام 1939 وعُرض في شونغ كونيغ عام 1940- إلى أن المشاهدين قابلوا هذا العرض

بصيحات من الغضب بسبب شعورهم بالخيانة، واتهموا صناع الفيلم بالطعن في وطنية القصة الشهيرة التي قام عليها الفيلم، وأنه ركز على الجانب الرومانسي لإرضاء السلطات اليابانية، على الرغم من أن شنغهاي لم تكن وقتها تحت السيطرة اليابانية الكاملة.

وكان اليابانيون بعد عام 1941 قد سيطروا على كل من شنغهاي وهونغ كونغ وأصبحت هذه الأفلام تمثل دراما سياسية ورومانسية، وفي هذا التوقيت قام عدد محدود جداً من الحركات النابعة من داخل الصين المحتلة، والتي كان يقوم بها أشخاص من الغرب، ولكنها حصلت على السمة الوطنية علاوة على كثير من الكتابات الصحفية والأفلام الوثائقية وأفلام الرسوم المتحركة القصيرة التي كانت الشركات تنتجها بتوجيه من حكومة الجومندانج. أما هذه الأفلام فكانت تُعرض بعد ذلك في المناطق المحررة من الصين عن طريق فرق متجولة من العارضين الذين يعملون لحساب الجومندانج. ولكن التمويل والمخزون السينمائي ظل نادراً للغاية في ظل حكم النظام الجمهوري، وهو ما دفع شركات الأفلام إلى وقف الإنتاج لسنوات عديدة خلال الحرب ضد اليابان.

وكانت وسائل الترفيه الشائعة آنذاك سواء من خلال المقاهي أو المسارح تركز على النواحي السياسية والصحية خلال الحروب. وقد دفع ذلك المحرر في صحيفة «شينغ دو» الجديدة إلى الكتابة قائلاً: «كانت لغة القصاصين في الماضي نمطية وشاذة في حبكتها، وهو ما دمر أفكار الجمهور وسلوكياته». وظل القصاصون حتى بعد الغزو الياباني يستخدمون مواد معروفة أساساً لقصصهم، ولكنهم أضافوا إليها موضوعات وطنية معادية لليابانيين. وهو ما كان يعد استجابة وطنية طبيعية، علاوة على إصرار حكومة الجومندانج على استخدام مصطلح ومضمون وطني معارض لليابانيين. وقد تولت منظمة جديدة تُعرف باسم «اللجنة التوجيهية المؤقتة للحزب القومي الصيني التابع للمنظمات الشعبية في شينغ دو» مسؤولية الإشراف على هذه النصوص.

وظل عدد من هذه النصوص المكتوبة في زمن الحرب، والتي جمعت بين سرد القصص والأغاني الشعبية، موجوداً لفترة طويلة، وتناول بعضها العدوان الياباني ضد الصين وأشاد بعضها الآخر بشجاعة حركة المقاومة والأبطال الذين ضحوا بحياتهم في ساحات القتال ومنها ما يدين الخونة أو يعبر عن الأسى لفقدان الأرض أو الموقف الحزين للبلاد. ومن هذه النصوص نص يحمل عنوان «تحرير الأرض»، يصف جمال الصين واتساع أراضيها

وثراءها بالموارد الطبيعية وتاريخها الطويل وروعة ثقافتها. وظهر نص آخر بعنوان «فضح الخونة»، يشجب جرائم الغزاة اليابانيين ويكشف عن ثمانية من الخونة، ويذكر كذلك وجود عدد كبير آخر من الخونة ممن لا يمكن حصرهم. وكان هناك نص آخر قريب الشبه من هذا الموضوع بعنوان «مصير الخونة»، دعا إلى عدم الرحمة تجاه المتلبسين بالخيانة، علاوة على تحميل أسرهم المسؤولية أيضاً ومصادرة أملاكهم ووصمهم بلقب أعداء الوطن إلى الأبد.

وكان من أسباب هذه البرامج الوطنية بالطبع تشجيعُ العمل، إذ كانت المسارح وأماكن الترفيه تعرف كيفية التعامل مع الحكومة من أجل السماح لها بالاستمرار. وفي عام 1939، تقدم المغني الشعبي وانج كينجيون بطلب للحصول على تصريح لأداء مجموعة من الأغاني الشعبية في مقهى «النسيم العليل». وادعى وانج أنه يريد نشر حملة دعائية لمساندة الحكومة في حرب المقاومة، وتعهد المغني بعدم أداء أية أغان داعية للفسوق وبأداء الأغاني التي تلهب حماس الشعب من أجل النهوض بالوطن. وفي الإطار نفسه، طلب ثلاثة أشخاص في عام 1941 من مقاطعة جيانج سو الحصول على تصريح للغناء الأوبرالي، وادعوا أن دار الأوبرا القومية في نانجينغ كانت مصدراً «للترفيه النبيل» الذي يهدف إلى إثارة روح الحماس لدى الشعب الصيني لاستعادة الأرض التي سلبها اليابانيون. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المبررات كانت وهمية، ولكنه كان من الواجب التأكيدُ على أن الترفيه في زمن الحرب إنما يرجع سببه الرئيس إلى الوطنية حتى يحصل على ترحيب المسؤولين.

حرب تنتهي... فتندلع أخرى!

ظل الشعب بعد الانتصار في حرب المقاومة عام 1945، والتي دامت تسع سنوات، يبحث عن الترفيه الخفيف بدلاً من السياسة، إذ توافرت أفلام هوليود من خلال المنافذ الخلفية، فتدافع الناس إلى السينمات لمشاهدة هذه الأعمال الخالية من السياسة مثل «ابن لاسي». ويذكر في هذا الصدد أنه كان في شنغهاي بعد تحريرها عام 1948 زهاء مليون مشاهد للسينما شهرياً، وقد ساعدت الأمية المرتفعة بمعدل زهاء 80٪ على شهرة السينمات والمسارح أكثر من أي وقت مضى. ولكن التضخم ظل المحرك الرئيس للحياة قبل عام 1945 وبعده. فكان الدولار الأمريكي الواحد في عام 1946 يساوي 2,020 دولاراً صينياً،

وفي منتصف عام 1948، بيعَ سبعة ملايين دولار صيني. وحاولت حكومة الجومندانج آنذاك استعادة سيطرتها على الاقتصاد من خلال حظر الواردات ودعم المصانع المحلية أو المؤسسات ذات الصلة بالحكومة، حيث أدى ذلك التداخل في الاقتصاد إلى تشديد الحظر على واردات البضائع ومحاولة تحسين سمعة الحكومة وتبرئتها من الفساد وعدم الكفاءة.

وتأثرت حياة الطلبة بين العامين 1945–1949 بالشعور بالإحباط، إذ كان هؤلاء الطلبة يستعدون للعودة بعد انتهاء حرب المقاومة من خلال جامعاتهم إلى مدنهم الأصلية. وكانت الحكومة ضعيفة لدرجة بلغت عدم قدرتها على فرض سيطرتها على المناطق الشرقية، ومن ثم أرسلوا إليها فرقاً تفتقر إلى الدعم العسكري والأمني، ما دفعها إلى تعيين الجنود اليابانيين المستسلمين في حراسة المكاتب وتنظيم الدوريات في شوارع المدينة. وقد أدى ذلك إلى إثارة الغضب بين عامة الناس في الصين. وكانت كل من الحكومة والقوات الشيوعية الصينية تسعيان إلى أفضل المواقع وهو ما أدى إلى اندلاع الحرب الأهلية. وحاول الطلبة الحيلولة دون وقوع تلك الحرب الأهلية من خلال توجيه النداءات الداعية للسلام سواء من خلال الصحف أو الأنشطة مثل المسيرات والإضراب عن الطعام. وفي الوقت الذي كانت الغالبية العظمى فيه من الشعب تنظر إلى حرب المقاومة على أنها حرب عادلة فإن الأمر نفسه لم يكن صحيحاً في حالة تجدد القتال، حيث يقتل الصينيون صينيين مثلهم. وقد ظل الطلبة الذين اعتادوا من قبل على الاستماع للمفكرين المنددين بالأداء السيء للحكومة يمثلون آراء الكثير من الناس في كانمينج. ولكن الحكومة قطعت في أواخر عام 1945 أي أمل في التعامل مع الطلبة على مدى السنوات الأربع التالية، عندما استخدمت القوة التعسفية في قمع مظاهرات الطلبة التي وصفتها بأنها من تدبير الشيوعيين.

واستمرت الحرب بين الحكومة والشيوعيين الصينيين بين العامين 1945– 1949. وجرت غالبية المعارك خاصة في الفترة بين العامين 1946 و1947 في الشمال والشمال الشرقي في البلاد، وأسفرت عن سقوط العاصمة الحكومية نانينغ في أبريل عام 1949. وعادت النظرة حتى ذلك الوقت إلى تجريم الحديث السياسي في الأماكن العامة، وأصبحت المقاهي مرة أخرى المتنفس الوحيد للعامة خاصة مع زيادة حدة الغضب من نداءات

شيانغ المستمرة للشعب بضرورة التحمل والتضحية لمواجهة الفساد والتضخم والخلل الاجتماعي. وعادت السلطات مرة أخرى إلى مراقبة الرأي العام مستخدمة عملاء سريين يندسون وسط الزبائن كما كان يحدث في زمن الحرب. ولذا فإن صاحب المقهى كان يتابع الزبائن، وعندما يبدأ أحدهم في الغضب والصياح يقول له صاحب المقهى مذكراً «انتبه فالجدران لها آذان».

وكانت الحكومة تراقب الأحاديث التي تحدث في المقاهي مع تركيز تدقيقها على الاجتماعات العامة المنعقدة هناك. فكانت الحكومة والشرطة المحلية ترسلان عملاء للتجسس على اجتماعات العسكريين في المقاهي. فعلى سبيل المثال، أرسلت الشرطة في عام 1946 عميلاً سريّاً إلى مقهى «التيار الهادئ» للتحري عن اجتماع بين رفاق قدامى في إحدى المدارس العسكرية. وقد ذكر المحقق في تحقيقه أن رجلاً يدعى ليانغ شينجهوي قد نظم الاجتماع لمناقشة كيفية كسبهم للرزق بعد تركهم للجيش. وأنشأت الجماعة رابطة للأصدقاء وانتخبت ليانغ شينجهوي رئيساً لها، ليتولى مهمة السعي للحصول على إعانة من الحكومة والمطالبة ببناء نصب تذكاري حربي لرفاقهم المقتولين في الحرب. إلا أن رد فعل الحكومة جاء متوتراً، وسرعان ما أصدرت مرسوماً عامّاً بحظر مثل هذه التجمعات، جاء نصه على النحو التالي:

«بأمر من شرطة العاصمة في مقاطعة سيشوان، صدر يوم 21 أكتوبر 1946، وبسبب قيام بعض جنود الجيش بتنظيم تجمعات دون الحصول على تصريح وعقد الاجتماعات في الحانات والمقاهي، قررت اللجنة العسكرية الأمنية حظر تلك الأنشطة التي من شأنها تمزيق الوحدة الاجتماعية، وتتولى النقابات المهنية مسؤولية إخطار جميع أصحاب الحانات والمقاهي بضرورة إبلاغ مكتب الشرطة العسكرية عن أية اجتماعات تتم بين عسكريين في الحانات أو في المقاهي، وإلا تعرض للعقاب المشدد».

كان مسؤولو الحكومة يعارضون تجمعات العسكريين في الأماكن العامة، لأنهم كانوا يرون أن هذه الفئة يمكن أن تسبب لهم الكثير من المتاعب بسبب حسها التنظيمي واعتيادها على العنف وخوضهم المعارك الحديثة. ويمكن من خلال المصادر المتاحة أن نستنتج أن

غالبية هذه التجمعات كانت تجمعات اجتماعية، وليست لها أية أجندة سياسية. ولكن الحكومة ظلت بعد عام 1945 تنظر إلى أي اجتماع عام كتهديد محتمل، بل أصبحت الحكومة أكثر قمعاً في محاولة منها لقمع كافة أشكال المعارضة أو حتى النشاط الاجتماعي الذاتي، كما حاولت الحكومة كذلك السيطرة على بقايا المناخ العام في المقاهي. وأدى ذلك إلى استمرار ضياع شرعيتها في عيون المدنيين العاديين، ومن ثم ساهم كل ذلك في ضمان هزيمة جيش الحكومة على يد الجيش الشيوعي في عام 1949.

الهوامش

1. Lewis Walmsley, «Szechuen-That Green and Pleasant Land, » in Canadian School in West China, ed. Brockman Brace, Canadian School Alumni Association, 1974).
2. Isabella Bird, The Yangtze Valley and Beyond: An Account of Journeys in China, Chiefly in the Province of Sze Chuan and Among the Man-sze of the Somo Territory (Boston: Beacon press, 1987), 10. Original published by John Murray in 1899.
3. Bird 1987: 345; Ernest H. Wilson, China: Mother of Gardens (Bosten: Stratford, 1929), 121.
4. Bird 1987: 350; Ba Jin, Jia (Family) (Beijing: Renmin wenxue chubanshe, 1985). First published in 1932.
5. Zheng Yun, «Yifu duilian de miaoyong (A Smart Use for a Matched Couplet), » in Chengdn fengwn (Chengdu Folklore), vol. 1 (Chengdu, China: Sichuan renmin chubanshe, 1981), 82-83; Yu Xun, 73 years old, interview by author, Joy Teahouse, 21 June 1997; Chen Jin, Sichuan chapu (Teahouses in Sichuan) (Chengdu, China: Sichuan renmin chuban she, 1992), 32.
6. Hu Tian, Chengdn daoyou (Guidebook of Chengdu) (Chengdu, China: Shuwen yinshuashe, 1938), 62; Yi Junzuo, «Jincheng qiri ji (Seven Days in Chengdu),

» in Chuankang youzong (Travel Notes in Sichuan and Xikang) (Zhongguo Luxingshe, 1943), 194.

7. Hai Su, «Chopu zhongsheng xiang (Various faces in the Teahouse),» in Slumin jiyizhong de lao Chengdu (Old Chengdu in the memories of its residents), ed. Feng Zhicheng (Chengdu, China: Sichuan wenyi chubanshe, 1999), 143-46.

8. Hu Tian 1938: 69-70; Yi Junzuo 1943:194; Sichuan shengzhengfu shehuichu dang'an (Aechives of Social Department of Sichuan Provincial Government) (Sichuan Provincial Archives, chuangzong 186), 186-1431; He Manzi, Wuzakan (Five Series of Random Talks) (Chengdu, China: Chengdu Chubanshe, 1994), 193; William G. Sewell, The People of Wheelbarrow Lane (New York: A.S. Barnes, 1971), 131-132; Guomin gongbao (Citizen's Daily), 17 October1929; Wen Wenzi, ed., Sichuan fengwu zhi (Customs in Sichuan) (Chengdu, China: Sichuan renmin chubanshe, 1990), 456-57.

9. She Ting, « Zai Qixiangju chaguan li (In the Fragrant Chamber Teahouse),» in Sha Ting xuanji (Selections of She Ting), vol. 1 (Chengdu, China: Sichuan renmin Chubanshe, 1982), 147. Urban Life in China's Wars, 1937-1949: The View the Teahouse

10. Xinxin Xinwen (Latest News) (hereinafter XX), 29 April 1938.

11. Huaxi wanbao (West China Night News) (hereinafter HW), 16 June 1941, 23 November 1941.

12. Lee Mclsaac, «The City as Nation:Creating a Wartime Capital in Chongqing,» in Remaking the Chinese City: Modernity and National Identity, 1900-1950, Joseph Esherick (Honolulu: University of Hawai'I Press, 1999), 175.

13. Stephen Mackinnon, «Wuhan's Search for Identity in the Republican Period,» in Esherick 1999: 170-71.

14. HW, 17 June 1943; Qiu Chi,«Chengdu de changuan(Teahouses ofChengdu),»

XX, 7-8 August 1942; Zhou Zhiying, Xin Chengdu (New Chengdu) (Chengdu, China: Fuxing shuju, 1943), 246.

15. Quote from Sun in J. K. fairbank and Albert Feuerwerker, eds., Cambridge History of China, vol. 13, part 2 (Cambrindge, UK: Cambridge University Press, 1986), 416. Much of this section is drawn from Frank Tao, «Student Life in China,» in China After Seven Years of War, ed. Hollington K. Tong (New York: Macmillan, 1945).

16. These and other terms are noted in Tao 1945: 114-15.

17. Tao 1945: 118.

18. Sherman Cochran, «Marketing Medicine and Advertising Dreams in China, 1900-1950,» in Becoming Chinese: Passages to Modernity and Beyond, ed. Wen-hsin Yeh (Berkeley: University of California Press, 2000), 87.

19. Lao Xiang, «Tan Chengduren chicha» (A chat on tea drinking by Chengdu People), part 1-3, Huaxi Wanbao (west China Night News), December 26-28, 1942.

20. Ju Ge, «Lixiang de chaguan (Ideal Teahouses),» HW, 17 October 1942.

21. Li Sizhen and Ma Yansen, «Jinchun lou ‹sanjue' — Jia Xiazi, Zhou Mazi, Si Pangzi (There Bests in the Bright Spring Tea Balcony: Blind Jia, Pocked Face Zhou, and fat Man Si), » in Chengdu zhanggu (Anecdotes of Chengdu), vol. 1, ed. Chengdu shi qunzhong yishuguan (Chengdu, China: Chengdu chubanshe, 1996), 380-81.

22. Lu Yin, «Xianhua nu chafang (A Chat on Waitresses in the Teahouse),»HW, 25-28 February 1942.

23. Lu Yin 1942.

24. Lu Yin 1942.

25. HW, 16 June 1941.

26. Lu Yin 1942.

27. Chengdu shi shanghui dang'an (Archives of Chengdu Chamber of Commerce) (Republican period; Chengdu Municipal Archives) 104-1401.
28. Chengdu shi zhengfu gongshang dang'an (Archives of Industry and Commerce in Chengdu) (hereinafter CSZGD) (Republican period; the Chengdu Municipal Archives, quanzhong 38), 38-11-908.
29. CSZGD 38-11-908.
30. CSZGD 38-11-984.
31. CSZGD 38-11-908.
32. CSZGD 38-11-908.
33. CSZGD 38-11-984.
34. Chengdu shi shanghui dang'an 104-1401.
35. Yu Xi, «Chaguan zhengzhi jia (Teahouse Politicians), » HW, 15 January 1943.
36. Ci Jun, «Chengdu de chaguan (Teahouse in Chengdu),» parts 1-2, HW, 28-29 January 1942; Lao she, «Chaguan (The Teahouse),» in Lao She juzuo xuan (Elected Plays of Lao She) (Beijing: Renmin wenxue chubanshe, 1978), 78, 92, 113.
37. CSZGD 38-11-952; Chengdu shi shanghui dang'an 104-1384, 104-1388.
38. Chengdu shi shanghui dang'an 104-1390.
39. Chengdu shi shanghui dang'an 104-1388.
40. Zhou Wen, «Chengdu de yinxiang (Impression of Chengdu),» in Wenhmaren Shiyezhong de lao Chengdu (Old Chengdu in the Sight of Intellectuals), ed. Zeng Zhizhong and You Deyan (Chengdu, China: Sichuan wenyi chubanshe, 1999), 229; XX, 9 April 1938; Wang Qingyuan,«Chengdu pingyuan xiangcun

chaguan (Rural Teahouses in the Chengdu Plain),» fengtu shi (folkways) 1 (1944): 37-38; Zhou Zhiying 1943: 224.

41. CSZGD 38-11-1103.

42. CSZGD 38-11-1103.

43. Ci Jun 1942; Zhang Zhenjian,« Nanmen you zuo ‹Shusan qiao' (An Evacuating Bridge at the South City Gate),» in Shimin jiyzhong de lao Chengdu (Old Chengdu in the Memoris of Its Residents), ed. Feng Zhicheng (Chengdu, China: Sichuan wenyi chubanshe, 1999), 321-22.

44. Chengdu shenghui jingcha ju dang'an (Archives of the Police Force in the Capital City Chengdu) (Republican period; the Chendu Municipal Archives, quanzhong 93), 93-2-759.

45. Chengdu shi shanghui dang'an 104-1388.

مراجع مختارة

Esherick, Joseph, ed. Remaking the Chinese City: Modernity and National Identity, 1900-1950. Honolulu: University of Hawai'i Press, 1999.

مجموعة من المقالات المتميزة عن الجوانب المتنوعة للثقافة الحضرية. هناك مقالات ذات فائدة خاصة تتناول الحياة اليومية أثناء الحرب:

Stephen R. Mackinnon, «Wuhan's Search for Identity in the Republican Period,» and Lee McIsaac, «The City as Nation: Creating a Wartime Capital in Chongqing.»

Fairbank, J. K., and Albert Feuerwerker, eds. Cambridge History of China. Vol. 13, part 2. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1986.

مجموعة من أفضل الفصول التلخيصية المتاحة عن الأسئلة الرئيسة، منها:

E-Tu Zen Sun, «The Growth of the Academic Community 1912-1949» (pp. 361-420), Lloyd Eastman, «Nationalist China during the Sino- Japanese War 1937-1945» (pp. 547-608), and Suzanne Pepper, «The KMT-CCP Conflict 1945-49» (pp. 723-88).

كتب كل من إيستمان (Eastman) وبيبر (Pepper) كتباً رئيسة عن الموضوعات ذات الصلة.

Li, Lincoln. Student Nationalism in China, 1924-1949. Albany: State University of New York Press, 1994.

يتناول دور الطلبة في عملية إعادة التوطين بالإضافة إلى الجامعات في بداية حرب المقاومة، والأنشطة التي حصلت أثناء الحرب ومعارضتهم خاصة في عام 1945 حتى استئناف الحرب الأهلية.

Ono, Kazuko. Chinese Women in a Century of Revolution 1850-1950. Stanford, CA: Stanford University Press, 1989.

ملخص عام عن الحركات النسوية على مدار قرن يحتوي على بضع صفحات عن حرب المقاومة.

Urban Life in Chins's Wars, 1937-1949: The View from the Teahouse Pan, Yihong. «feminism and Nationalism in China's War of Resistance against Japan.» International History Review 19 (1997): 115-30.

كتاب عن المرأة الصينية في المناطق الشيوعية ويتعرض أيضاً للمرأة تحت نظام الجومندانغ. ويعتبر موضوع الكتاب، الذي يعتبر شائعاً أيضاً بالنسبة للمرأة اليابانية بين العامين 1937—1945، توضيحاً إلى أي مدى عملت مطالب الأمة المسلحة على تحسين الحقوق وحرية المرأة.

Spence, Jonathan. The Search for Modern China. New York: W. W. Norton, 1990.

عرض للتاريخ العام وضعه واحد من أكثر مؤرخي الشؤون الثقافية والاجتماعية في الصين شعبية واحتراماً.

Tong, Hollington K., ed. China After Seven years of War. New York: Macmillan, 1945.

هذا الكتاب مع أنه عمل دعائي بالمقام الأول يحتوي على مجموعة من الفصول المثيرة جداً كتبها عدد من المراقبين لمجموعة من المواضيع مثل الحياة في تشونغقوين (Chongqing)، وأدوار المرأة وخاصة المقال المفيد لفراك تاو (Frank Tao) بعنوان «Student Life in China».

Westad, Odd Arne. Decisive Encounters: The Chinese Civil War 1946-1950. Stanford, CA: Stanford University Press, 2003.

هذا الكتاب هو أحدث عمل أكاديمي عن هذا الموضوع، ويركز بشكل كبير على الجوانب السياسية والعسكرية للحرب المدنية من خلال المصادر التي أصبحت متوفرة فقط مع نهاية الحرب الباردة.

Yeh, Wen-hsin, ed. Becoming Chinese: Passages to Modernity and Beyond. Berkeley: University of California Press, 2000.

مجموعة أخرى من المقالات الممتازة كتبها عدد من المؤرخين الرائدين في الصين الحديثة، من بينهم ليو أو فان لي (Leo Ou–fan Lee) وديفيد ستراند (David Strand) وجونيور فريدريك ويكمان (Frederic Wakeman) وياه (Yeh). ويعتبر من الفائدة بمكان للموضوع محل النقاش كل من:

Sherman Cochran, «Marketing Medicine and Advertising Dreams in China,

1900-1950,» and Paul Pickowicz, «Victory as Defeat: Postwar Visualizations of China's War Of Resistance.»

Zarrow, Peter. China in War and Revolution 1895-1949. London: Routledge, 2005.

تتجلى فائدة هذا الكتاب في تحديد الخلفية السياسية والعسكرية للحروب بين العامين 1937 و1949.

Zhang, Yinjing. Chinese National Cinemas. London: Routledge, 2004.
يلخص هذا الكتاب أنشطة شركات الإنتاج السينمائي في سنوات الحرب في كل من الأجزاء المحتلة والمحررة في الصين إضافة إلى وصف الحبكات الدرامية لأهم الأفلام.

الفصل الخامس

الحياة اليومية للمدنيين اليابانيين في زمن الحرب 1937–1945

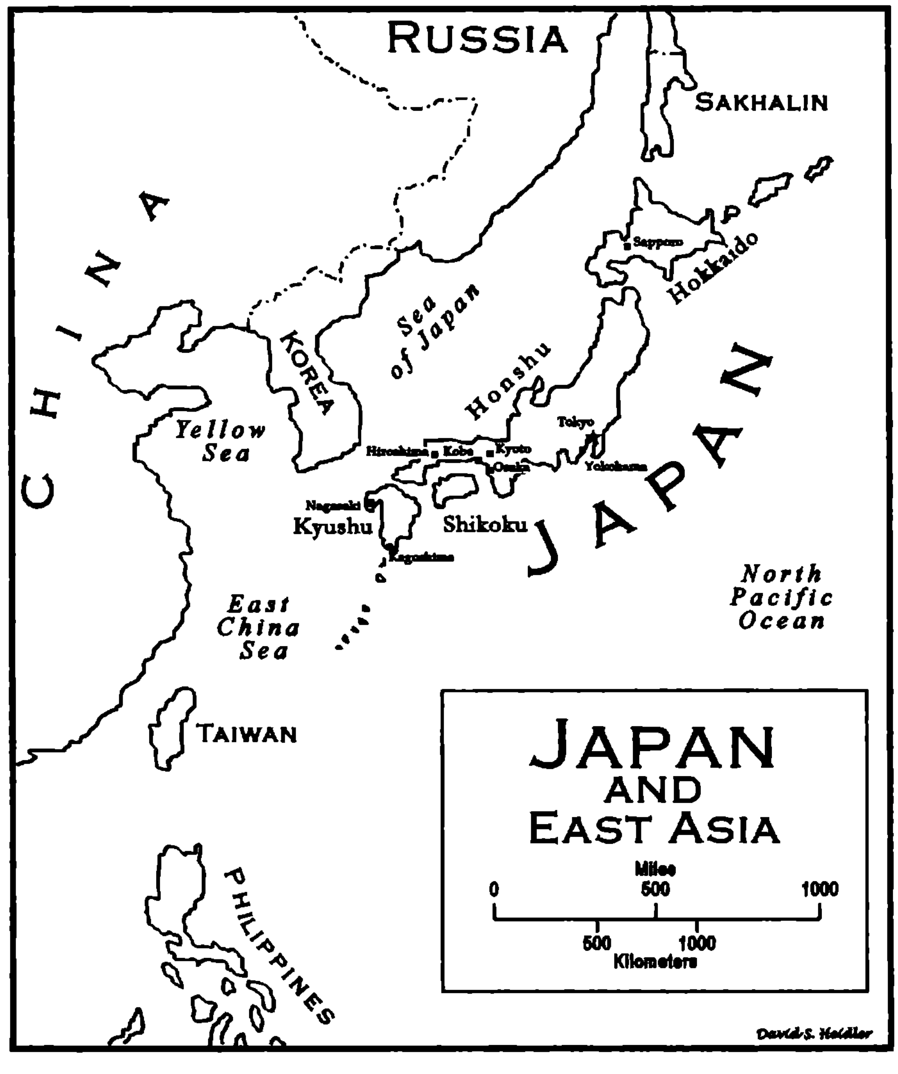
بقلم: سيمون بارتنر

نشأة الحرب ومسارها

كان المجتمع الياباني في الفترة من يوليو 1937 إلى أغسطس 1945 غارقاً في واحدة من أكثر الصراعات عنفاً وتدميراً في تاريخ البشرية. أما اليوم فتشغل الأمور العسكرية حيزاً صغيراً من الحياة اليومية لمعظم اليابانيين على نحو يصعب معه تخيل مدى التأثير الطاغي للجيش في العقود الأولى من القرن العشرين. فقد خاضت اليابان حروباً ناجحة ضد الصين (1894–1895) وروسيا (1904–1905)، كما وقعت معاهدة مع بريطانيا في الحرب العالمية الأولى (حققت بموجبها انتصارات سهلة ضد المصالح الألمانية في الصين ومنطقة المحيط الهادئ)، كما شاركت مع الحلفاء في الحملة متعددة الجنسيات في سيبريا في الفترة مابين 1918 و1922. وقد ساعدت هذه الحملات الناجحة في تعزيز هيبة المؤسسة العسكرية وسلطتها السياسية. فلعب الجيش دوراً رئيساً واستبدادياً أغلب الأحيان في إدارة مستعمرات اليابان الرئيسة في كوريا وتايوان. وفي عام 1931، قام ناشطون داخل المؤسسة العسكرية بالاستيلاء على مقاطعة منشوريا الواقعة شمال شرق الصين وتحويلها إلى دولة عميلة أخذت اسم «مانشوكو»، ليصبح هذا القرار هو آخر الأعمال العدوانية التي وضعت اليابان على مسار تصادمي مع الصين ومع الولايات المتحدة وحلفائها في نهاية الأمر.

كما لعب الجيش الياباني دوراً رئيساً في تشكيل السياسة الداخلية، لعدة أسباب، منها: ضخامة الميزانية المرصودة له. فحتى بداية ثلاثينيات القرن الماضي كانت اليابان تتمتع

بحكومة مدنية مستقرة نسبياً لما يزيد عن عقد من الزمان بحيث انتُخِبَ رؤساء للوزراء كما كانت تتشكل مجالس الوزراء من أعضاء منتخبين في البرلمان الياباني (المعروف باسم الدايت – Diet). إلا أنه بالتزامن مع حدوث الكساد العالمي عام 1930 وما نشره من بؤس وخوف في أرجاء العالم، أدت سلسلة الاغتيالات السياسية إلى زعزعة استقرار الساحة السياسية الداخلية في اليابان، فاتسم هذا العقد بتولي قادة عسكريين برتبة لواء وعميد منصب رئيس الوزراء. وطالت يد الاضطراب الجيش نفسه فكانت هناك فصائل



اليابان وشرق آسيا (ديفيد هايدلر)

متنازعة، قامت إحداها بمحاولة انقلاب في طوكيو في فبراير 1936 (معروفة تاريخياً باسم «حادثة 26–2»). ومنذ بدء التجنيد في عام 1872، كان للجيش الياباني حضور كبير في حياة المواطنين اليابانيين. وخلال فترة ثلاثينيات القرن الماضي زاد هذا الحضور لدرجة صارت معها الأمور العسكرية جزءاً لا يتجزأ من الحياة اليومية المدنية.

كانت هذه هي الحال لاسيما بعد يوليو 1937. فقد اشتبكت القوات اليابانية والصينية على جسر ماركو بولو خارج العاصمة الصينية، وكانت هذه مرة من عدة مرات اقتربت فيها القوات اليابانية من نظيراتها الصينية بشكل كبير (كان اليابانيون في بكين لحماية المصالح الأجنبية استمراراً للدور الذي لعبته اليابان منذ «تمرد الملاكمين»[28] عام 1900). إلا أن الصدام ما لبث أن تحول إلى مواجهة شاملة. وتحت ضغط القادة العسكريين العدوانيين وجدت الحكومة اليابانية نفسها غير قادرة على التراجع، وفي غضون أسبوع صارت الدولتان في حالة حرب.

وسرعان ما دان المجتمع الدولي ما اعتبره عدواناً يابانياً على الصين، خاصة بعد مهاجمة الطيران الياباني للمواطنين الأمريكان والبريطانيين في هذا البلد. ولم يكن لدى القادة اليابانيين شك في قدرتهم على قمع الصينيين بسرعة وبسط سيطرتهم على الصين (كما فعلوا في منشوريا) قبل أن يتمكن أحد من منعهم. إلا أنه في نهاية المطاف تورط الجيش في حرب استنزاف مرهقة امتدت عبر مساحات شاسعة من الأراضي الصينية.

وفي أواخر عام 1940، لم تكن حكومة اليابان قد فقدت الأمل في أن تحقق أهدافها من حملتها على الصين دون أن تضطر إلى مواجهة الحلفاء الغربيين. غير أن آمال الحكومة تبددت نتيجة للتوسع المستمر في ميادين القتال (في عام 1938، ومرة أخرى عام 1939 إذ دارت اشتباكات واسعة النطاق مع القوات السوفيتية على الحدود الصينية منيت فيها اليابان بخسائر فادحة). كما تبددت آمالها نظراً لما حظيت به الصين من التعاطف والدعم من الأمريكان، فضلاً عن سوء تقدير اليابانيين للوضع في أوروبا. فالنجاحات التي حققتها ألمانيا في المراحل الأولى من الحرب الأوروبية دفعت اليابان إلى الدخول في تحالف مع ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية: فيما كان يُعرف آنذاك بتحالف «المحور».

(28) تمرد قام به مجموعة من الفلاحين في شمالي الصين، أرادوا القضاء على أسرة تشينغ وعلى جميع أشكال التدخل الخارجي في شؤون الصين، وقد أطلقت الصحافة الغربية على هذه المجموعة اسم «الملاكمين» لأنهم مارسوا رياضة الملاكمة التي ظنوها تنجيهم من رصاص قوات فض الشغب.

وبعد أن انحازت اليابان إلى ما اعتبرته «معسكر المنتصرين» في أوروبا، اتخذت الحكومة اليابانية قراراً مصيرياً في أواخر عام 1941 بمهاجمة الولايات المتحدة، آملة بأن يجبر ذلك واشنطن على رفع يدها عن الصين والسماح لطوكيو ببسط نفوذها على القارة الآسيوية. وفي هذه الفترة، اعترف الواقعيون في الحكومة والجيش الياباني بأن فرصة نجاحهم في تحقيق ذلك أقل من 50٪.

وكانت السهولة الواضحة التي اتسمت بها الانتصارات اليابانية في المستعمرات الغربية في نهاية 1941 حتى أوائل 1942 أعطت الناس شعوراً بالتفاؤل لفترة وجيزة. ولكن بحلول منتصف 1942 ومع اندلاع معركة «ميد – واي» (Midway) وضعت القوات اليابانية نفسها على الطريق الطويلة نحو الهزيمة. ففي عام 1943، قامت الولايات المتحدة بتدمير البحرية التجارية في اليابان، وبدأت بحرمان الجزر اليابانية من الواردات. وفي أواخر عام 1944، قامت القاذفات الأمريكية بعزل المدن اليابانية الواحدة تلو الأخرى، حتى لم يعد هنالك هدف مهم جديرٌ بالاستهداف. وكانت الحكومة قد أكدت لمواطنيها في بداية الأعمال العدائية مع الصين عام 1937 أن القتال سيكون لفترة قصيرة، لكنها واصلت التوسع بمرور السنين إلى أن دخلت المعارك مرحلة حاسمة جديدة في عام 1941. وبينما كانت عملية التعبئة تحدث على قدم وساق، بدأ الرجال من جميع الأعمار، بالإضافة إلى السلع والخدمات، في الاختفاء من المشهد بشكل متزايد. وفي عام 1945، بدأت معالم الحياة المدنية في الاضمحلال، وصار ملايين اليابانيين يعيشون في بلدهم على فتات الطعام مثلهم مثل اللاجئين. وعلى الرغم من أن التعبئة هي أحد أهم الكلمات التي تصف أي مجتمع في حالة حرب، كان الشعب الياباني منذ عام 1937 حتى 1945 دائماً يُرغم على الانضمام إلى صفوف الجيش لأسباب عدة.

التعبئة الروحية والدين والاحتفالات والمهرجانات

في عام 1937، ومع تنامي دور الجيش في الحياة اليومية، كان اهتمام أغلبية اليابانيين بما يُسمى بالمهمة المقدسة في القطر الآسيوي أقل من اهتمامهم بملذات الحياة اليومية وهموم الحياة العصرية، كالمصانع والأعمال المكتبية والأفلام (كوميديا «شارلي شابلن» التي تمتعت بشعبية كبيرة في الثلاثينيات) والملاهي الليلية وبيوت الدعارة ولعب البيسبول. واستردت

اليابان عافيتها سريعاً من الركود الاقتصادي بين عامي 1929–1930 وتحسن الوضع الاقتصادي مع زيادة الطلب العسكري وزيادة الاستثمار في منشوريا وكوريا. لكن اشتعال أوار الحرب مع الصين كان له وقع الصدمة على المواطنين اليابانيين العاديين.

وكانت النتيجة المباشرة لاندلاع الحرب زيادة الطلب على الأفراد العسكريين، فعبِّئ– في خلال شهر واحد– 500 ألف رجل معظمهم من جنود الاحتياط والرجال الذين أنهوا جولة واحدة فقط من الخدمة العسكرية. وتسببت هذه التعبئة في تمزق فوري لأواصر عدد لا يُحصى من الأسر اليابانية، وصار على هذه الأسر حتماً أن تعتاد العيش دون رجالها، ما يعني إلقاء مزيد من المسؤولية على النساء. وكان من الممكن أن تتوقف آثار الحرب عند هذا الحد مالم تتخذ الحكومة اليابانية سلسلة من التدابير للتحكم في الحياة اليومية للمدنيين اليابانيين، أولها تدشين الحملة الوطنية للتعبئة الروحية في شهر أغسطس 1937.

فمنذ اندلاع الحرب العالمية الأولى، اعترف رجال التخطيط العسكري في اليابان بأن الحروب الحديثة تتطلب أكثر من مجرد قوة قتالية فعالة. فالطبيعة التكنولوجية للحرب الشاملة صارت تتطلب تعبئة جميع السكان. كما يجب توجيه الاقتصاد الوطني بأكمله– فضلاً عن الأعمال التجارية والأنشطة الخاصة للمواطنين– لدعم المجهود الحربي.

ولا شك أن مفهوم التعبئة الروحية جاء على هوى الحكومة اليابانية التي أرادت تحويل البناء الإيديولوجي إلى شعار لزمن الحرب (وقد قامت الحكومة بتضخيم الرقم الحقيقي للسكان) «100 مليون قلب ينبضون كقلب واحد» إلى واقع وفقاً لصورة الأب الروحي الخيري للإمبراطور. ودار تساؤل حول الكيفية التي قامت من خلالها الدولة بتعبئة الحياة الروحية لدى عشرات الملايين من أفراد الشعب؟ وفي نهاية المطاف، وُجِّهت أنشطة التعبئة الروحية إلى عدد قليل نسبياً من الأنشطة المألوفة.

وكان أول هذه الأنشطة تشجيع الادخار، فقد دأبت الحكومة اليابانية على تنظيم حملات الادخار منذ مطلع القرن العشرين. وكانت تعتقد أن الادخار يقوم بوظيفتين مهمتين. الوظيفة الأولى هي تشجيع الاقتصاد وإبعاد المواطنين عن البذخ، وهي فكرة لها جذور عميقة في الإدارة اليابانية منذ حقبة عائلة شوغون توكوغاوا (1600–1868). أما الوظيفة الثانية فهي توفير كثير من الأموال التي تستطيع الحكومة الاستفادة منها في أغراض خاصة إما عن طريق إصدار سندات حكومية أو استغلال الصناديق البريدية

والمصرفية. وفي زمن الحرب، كانت لهاتين الوظيفتين أهمية مضاعفة. فكانت سندات الحرب، التي اشتراها الأفراد أو المؤسسات كالمصارف، وسيلة حيوية لتمويل الحرب. وساعد الانخفاض في استهلاك السلع الاستهلاكية على تحرير الموارد الضرورية للإنتاج العسكري.

واستنفدت الحكومة جميع مواردها الدعائية من إذاعة ومقالات صحف ومجلات وملصقات ومنشورات وخطب للتأكيد على شعارات مثل «اتركوا ربة المنزل تدخر لصالح أسرتها» و«ادخر لنفسك وللدولة». ومع ذلك، كان هناك تأثير مباشر على المدنيين العاديين تمثل في استراتيجية الحكومة لتخصيص حصص محددة من السندات في وقت



ملصق حكومي عن حملات الادخار. (اليابان– وزارة المالية– غير مؤرخ– نسخة عن هاجيمي ميوشي، [الملصقات اليابانية] (نشرتها شيكوشا، كيوتو عام 2003)

الحرب لصالح المحافظات، والتي سلمتها إلى البلدات والقرى وإلى الجمعيات المختلفة في الأحياء. أما المواطنون الذين ترددوا في الانصياع لقرارات الحكومة، فشعروا بأنهم مصدر خزي لجيرانهم بعدم مشاركتهم في شراء السندات.

وتمثل النشاط الرئيس الثاني لحملة التعبئة الروحية في تنظيم المسيرات والاحتفالات. تحت عنوان التعبئة الروحية، فقامت المدن والبلدات في جميع أنحاء اليابان بعقد مراسم صلاة جماعية في أضرحة الشنتو والمعابد البوذية واحتفلت بالانتصارات العسكرية عبر المسيرات الصاخبة والموسيقا الوطنية. وغلبت السعادة على هذه التجمعات في السنوات الأولى من الحرب لأنها كانت تعقد في جو مهرجاني. ولم يكن المواطنون اليابانيون مطلعين، أو ربما لم يكن لديهم الاستعداد للاطلاع على الفظائع التي ترتكبها قواتهم في العاصمة الصينية نانجينغ، فعلى سبيل المثال، قام المواطنون بالاحتفال بسقوط تلك المدينة في ديسمبر 1937 بمسيرات المصابيح وفرق الموسيقا النحاسية. وعلاوة على ذلك، امتلأت الصحافة اليابانية لسنوات بقصص الفوضى والعنف الداخلي في الصين. مما يعني أن المدنيين اليابانيين استطاعوا أن يقنعوا أنفسهم بسهولة بأن الحرب لم تكن فقط عادلة وأنها كانت من الممكن أن تكون قصيرة بل ذهبوا أيضاً إلى أنه من المحتمل أن تكون الحرب شيئاً جيداً يحقق أكبر قدر من الاستقرار في جميع أنحاء آسيا مثلما كانت تدعي حكومتهم.

أما بعد الهجوم على ميناء بيرل هاربور في شهر ديسمبر 1941 صار المزاج العام أكثر تشاؤماً. فأي مقارنة بين القوة الاقتصادية اليابانية ومثيلتها الأمريكية في المجلات أو الصحف قبل 1941 كانت تظهر دوماً حقيقة لا مراء فيها: إن موارد اليابان وثرواتها كانت ضئيلةً جداً قياساً بمثيلتها الأمريكية. حتى إن رئيس بلدية إحدى البلدات اليابانية كتب قائلاً حين سمع عن الهجوم: «أحسست بقشعريرة في جسدي تدفع دمي في عكس مجراه. وباتت قناعتي بأن إمبراطوريتنا تواجه فتنة عظمى منقوشة على جدار قلبي». إعلان الحرب تلته سلسلة من التجمعات الضخمة في طوكيو، منها تظاهرة «سحق أمريكا وبريطانيا» يوم 10 ديسمبر 1941، و«التجمع الوطني المعني بإعلان قرار الحرب» يوم 13 ديسمبر، ومسيرة «تعزيز روح الدفاع الجوي» يوم 16 ديسمبر، ومسيرة «تعزيز محور ميثاق النصر المؤكد» العسكرية في 22 ديسمبر.

ونُظِّمت بعض الاحتفالات المرتبطة بالتعبئة الروحية في الأضرحة، فيما يعد جزءاً من جهود الحكومة اليابانية لتعزيز عقيدة الشنتو كصبغة للدولة. ويرى المراقبون الأجانب أن حملة التعبئة الروحية وعبادة الشنتو قد أذكتا روح التعصب والتطرف. فيما صوّر فيلم الدعاية الأمريكي «اعرف عدوك» اليابانيين، وهم يشاركون في طقوس محمومة يقودها كهنة الشنتو في أرديتهم الخاصة. وتمثلت ذروة هذه الطقوس في الاحتفالات التي شاركت فيها أمهات لا تدمع أعينهن حين يمسكن بصناديق تضم رماد رُفات أبنائهن (يؤكد الفيلم للمشاهدين الأمريكيين أن تلك الأمهات لا يشعرن بأي حزن ذلك أن إخلاصهن للقضية صرفهن عن ألم فراق الأبناء).

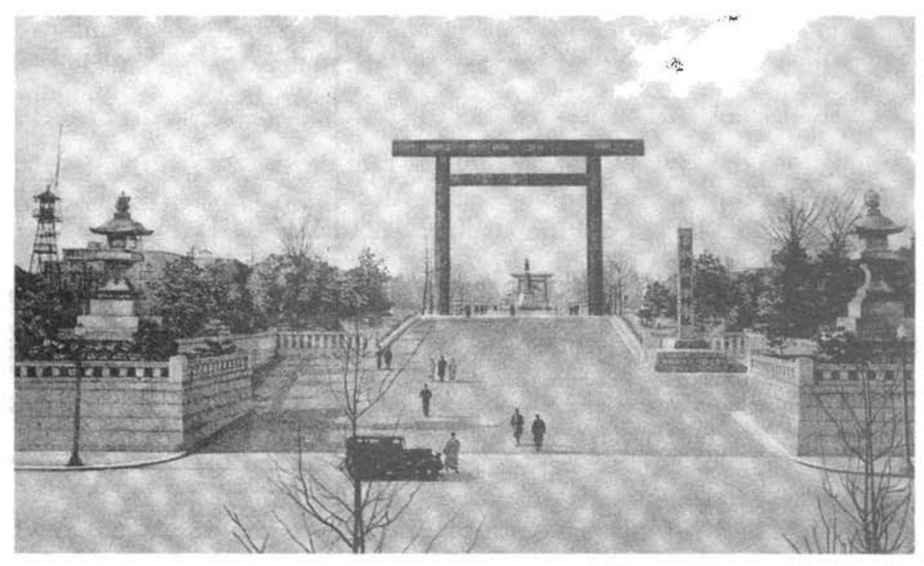
ولا يعدّ انشغال الناس بالصلاة في أي مجتمع يواجه خطراً كبيراً سلوكاً مبتدعاً أو غريباً. لكن الدولة في اليابان تدخلت في وقت الحرب في توجيه النشاط الديني، وارتأت الحكومة أن عقيدة الشنتو هي الوسيلة المثالية لتعبئة الشعور الديني لدى المواطنين. فالشنتو بوصفه ديناً يابانياً فريداً أكد على المصير الخاص للجنس الياباني. في ظل الاعتقاد السائد بأن الإمبراطور سليل آلهة الشمس في الأرض وأنه يحظى بمكانة إلهية خاصة في إطار عقيدة الشنتو، استطاعت الحكومة الدعوة لبذل تضحيات غير عادية باسم الإمبراطور. وقد منح التقليد المتبع والذي يسمح بإدخال آلهة جديدة في عقيدة الشنتو– الفرصة للحكومة لإضفاء القدسية الفورية على جميع الجنود الذين قضوا في المعارك. ولذا فإن ضريح ياسوكوني (الذي شيّد بالقرب من القصر الإمبراطوري في طوكيو في عام 1869 لتكريم قتلى اليابان في الحروب الحديثة) كان في قلب القومية الدينية. وفي وقت لاحق من الحرب، بدأت الحكومة حملة واسعة النطاق لبناء الأضرحة الكبيرة لقتلى الحرب في كل مقاطعات اليابان وإرسال العمال المتطوعين إلى مواقع البناء حتى في أوقات ندرة اليد العاملة.

ويظل السؤال مطروحاً عما إذا كان تبني الدولة لنظام الشنتو نجح في التغلغل إلى وجدان 70 مليون مواطن في فترة ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي. وبعد انتهاء الحرب ظل كثير من اليابانيين يتذكرون كيف كانوا يصلون من أجل السلام من أعماق قلوبهم ولكي يجدوا طريقة لوقف شلال القرابين المروعة التي كانت حكومتهم تطالبهم بها، حتى إنهم كانوا يصلون من أجل انهيار حكومة اليابان العسكرية.

وتمثل النشاط الرئيس الثالث لحملة التعبئة الروحية في تحسين أسلوب الحياة. وهو ما لم يكن بدعاً، وإنما كان إحياء لمبادرة موجودة. فأطلقت الحكومة الحركة الوطنية لتحسين أسلوب الحياة عام 1920 وكان هدفها المعلن هو «إيقاظ وعي الناس لتوجيه تفكيرهم إلى التخلص من التبذير في الملبس والمأكل، والمسكن، فضلاً عن الاحتفالات الاجتماعية... وإلى التجديد في نمط حياة الناس من خلال التخلص من التفاخر وغرس عقيدة العقلانية».

وعلى الرغم من اعتماد نظام التقشف المذكور، استغل العديد من الناشطين الاجتماعيين حركة تحسين أسلوب الحياة في المساعدة على رفع مستوى معيشة الطبقة العاملة الفقيرة في كل بلدة وقرية يابانية. كما اتخذتها ناشطات حقوق المرأة على وجه الخصوص وسيلة للتخفيف من العبء المزدوج الناجم عن مشاركة المرأة العاملة في الإنتاج إلى جانب واجباتها المنزلية، وذلك من خلال نهج عقلاني علمي للعمل المنزلي وربما استطاعت الحركة أن تدخل وسائل راحة جديدة إلى المنزل (مثل المطابخ العصرية)، وبالتالي إعطاء المرأة مزيداً من الوقت والحرية ومن ثم فرصة لتحسين وضعها الاجتماعي.

إلا أنه في إطار حملة التعبئة الروحية تحولت جهود تحسين أسلوب الحياة إلى أداة قسرية سمحت للحكومة ببسط سيطرتها على الحياة اليومية. وبينا لا تزال الحرب على



بطاقة بريدية لضريح ياسوكوني في الثلاثينيات.

الصين مشتعلة الأوار ركز زعماء الحركة على المردود الاقتصادي لترشيد استخدام الموارد وتعظيم الإنتاج وتقليل الاستهلاك. فراحوا يخاطبون النساء بمثل قولهم: «النصر يأتي من المطبخ». وبحلول عام 1940 ظهرت تقارير عن مجموعات نسائية تقوم بحفظ أوراق الشاي لإعادة استخدامها أو إرسالها إلى المؤسسة العسكرية. ومنذ بداية الحرب جاءت الدعوات إلى تحسين نمط الحياة بوصفها تجسيداً عملياً للمراسيم والممارسات الضارية التي اقترنت بحكام الشوكون في القرن الثامن عشر ضد التبذير. وكتب أحد المعلقين العسكريين في عام 1937 قائلاً: «في الأوقات العادية التبديد هو خسارة للأسرة ولكن ليس بالضرورة للمجتمع أو الأمة، أما في هذه الحالة الطارئة فإن التبديد يغدو خيانة للمجتمع والوطن، وهو عمل إجرامي».

ومثل أية مبادرة حكومية، كان لحملة التعبئة الروحية بيروقراطيتها الخاصة. فأنشأت الحكومة لجنة مركزية للتعبئة الروحية الوطنية في شهر نوفمبر 1937، وسرعان ما انضوى تحتها أربع وسبعون منظمة وطنية: شملت الرابطة الوطنية للمرأة، وجمعية الدفاع عن المرأة، ولجنة منظمات المزارعين الوطنيين، واتحاد المزارعين الوطنيين، وجمعية العمال والمزارعين الوطنيين. وصارت كل منظمة مجتمعية متحالفة بصورة رسمية مع حملة التعبئة الروحية، مما أدى إلى انضمام ملايين المدنيين إلى الحركة. وما يدعونا للقول بنجاح هذه الحملة هو أن نجاحها يكمن في اصطفاء عددٍ كبيرٍ من المجموعات والجمعيات المستقلة وشبه المستقلة اليابانية وإدماجها بصورة كاملة مع المؤيدين للحرب. وفي عام 1941، تحولت هذه المجموعة الكبرى إلى اختراع حكومي آخر لتعبئة الحياة اليومية، عرف بمنظمة دعم الحكم الإمبراطوري.

وعلى الرغم من هذا الهيكل التنظيمي الرائع فإن الحكومة كانت تعي تماماً الفعالية المحدودة للتعبئة من خلال الموعظة والإقناع الأخلاقي. لذا فقد عولت الحكومة في هذا الأمر على قانون التعبئة الاقتصادية الصادر في 1938، والذي يعد نسخة قاسية لحملة التعبئة الروحية، كما صُمّم نظام للمجالس ومجموعات الأحياء بغرض تنفيذ هذا القانون الرامي إلى إحداث تغييرات حقيقية في الحياة اليومية للمواطنين اليابانيين.

جمعيات الأحياء

يعد مبدأ المسؤولية المشتركة من أنجح تقاليد الحكم في شرق آسيا. فقد كانت السمة الاستثنائية للقرى اليابانية في عهد توكوغاوا مثلاً أنه لم يكن هناك وجود للشرطة في أجزاء كبيرة من القرى، التي التزمت بمسؤولية جماعية تجاه واجباتها الأساسية، ومنها حصة القرية من الضرائب وخدمة العمالة والإبلاغ عن الأنشطة غير القانونية كالعبادة المسيحية. أما كيفية القيام بتلك المهام، فاعتمدت إلى حد كبير على تقدير القيادة في القرية. وهذا النظام مقتبس من النظام الصيني القديم المعروف بـ«الباو تشيا» الذي كان يُوظَّف لأغراض المسؤولية المشتركة، إذ كان يجمع العائلات في تكتلات مؤلفة من 100 «شيا» وهو تقسيم إداري مكافيء لـ «قرية كاملة» تقريباً، وقُسِّمت كل «شيا» إلى تكتلات مؤلفة من 10 «باو». ويستمد هذا النظام قوته من حقيقة مفادها أن الناس، وخصوصاً في مجتمع مثل (القرية) التي تتميز ببطء الحركة، يفضلون الشعور بالالتزام والولاء لجيرانهم القريبين أكثر من ولائهم لكيان مجرد وبعيد عنهم نسبياً مثل الحكومة أو الإمبراطور.

وفي وقت مبكر من القرن السابع الميلادي استُحدث نظام مختلف في اليابان للسيطرة الاجتماعية على امتداد سنوات كثيرة من تاريخ اليابان المسجل. وحتى في ظل عدم وجود سلطة حكومية فإن الأحياء وجدت أنه من المفيد أن تنظم نفسها في مجموعات أو جمعيات لتقديم الدعم المتبادل في أنشطة معينة مثل: زراعة الأرز وبناء السقوف من القش والوقاية من الحرائق. ومع بداية القرن العشرين كانت آلاف من جمعيات الأحياء ومجالس القرى في جميع أنحاء اليابان تمتاز بالاستقلالية إلى حد ما. وتألفت جمعيات الأحياء عادة من مجموعات تضم ما بين 5 و10 أسر تعيش على مقربة من بعضها بعض. وعلى عكس المجالس المنتخبة التي كانت جزءاً من نظام الإدارة المحلية- واقتصرت عضويتها على الأعضاء المنتخبين الذين جاءوا عادة من النخبة الثرية بالمجتمع- لم تكن مجالس المدن والقرى جزءاً رسمياً من نظام الإدارة المحلية، فكانت عضويتها متاحة لجميع أسر المجتمع، وكانت موافقة هذه المجالس لازمة لإقامة أية أعمال تجارية في محيطها المحلي.

وعلى الدوام بدت الحكومة اليابانية أكثر فعالية في توظيف المجموعات الموجودة لغرض الإدارة، ولم تكن سنوات الحرب استثناء. فقد فَهِم بيروقراطيو الحكومة أنهم إذا أرادوا بسط سيطرتهم على الحياة اليومية للمواطنين اليابانيين فمن المحتم عليهم اختراق

الفئات الاجتماعية التي تفاعل معها اليابانيون العاديون ممثلة في جمعيات الأحياء ومجالس المدن والقرى.

وفي عام 1940، أصدرت وزارة الداخلية لوائح جديدة جعلت العضوية إلزامية في مجالس المدن والقرى وكذلك جمعيات الأحياء التي تضم عشر عائلات. وبحلول نهاية العام، كان هناك نحو 19 ألف مجلس مدينة وقرية ونحو 1,2 مليون جمعية. وقد حددت الوزارة أهداف هذه المجالس بأنها «لتنظيم الناس الذين يعيشون في المدن والبلدات والقرى وتوحيدهم على أساس روح التضامن في الأحياء» و«تنظيم أساس تخطيط التدريب الأخلاقي والوحدة الروحية للشعب» و«جعل كل السياسات الوطنية تسود بين الناس، والمساعدة في تيسير وضع السياسات الوطنية حيز التنفيذ في كل جوانب الحياة» وأن تعمل «كوحدات إقليمية للسيطرة على حياة الناس الاقتصادية، وللتدليل على وظيفتهم الأساسية في فرض رقابة على الاقتصاد والمساهمة في استقرار معيشة الناس».

كانت وزارة الداخلية تقوم شهرياً بإصدار سلسلة من «النقاط التفصيلية» لتعديل موضوع اجتماعات المجالس الشهرية. على أن تقوم الوزارة بإرسال هذه النقاط إلى سلطات المحافظات التي بدورها تنقلها إلى مجالس البلدات والقرى والمدن فترسلها الأخيرة إلى جمعيات الأحياء. في هذه الجمعيات كان عامة اليابانيين على اتصال مباشر مع إدارة الحرب الحكومية. وبمرور الوقت صارت هذه الجمعيات تتدخل أكثر فأكثر في حياة اليابانيين اليومية بعد أن كانت حتى عام 1937 مجرد مؤسسات هامشية نسبياً تقوم بأنشطة اجتماعية أحياناً، مثل نظافة الشوارع، وزراعة الأرز، أو التدريبات على مجابهة الزلازل وإطفاء الحرائق. وقد حظيت هذه الجمعيات بقبول بعضهم لأنها تمثل تعزيزاً للعلاقات المجتمعية أو (بالنسبة لأولئك الذين أصبحوا زعماء الجمعيات) وسيلة لزيادة نفوذهم المحلي. أما بالنسبة للكثيرين فإن جمعيات الأحياء كانت تمثل تدخلاً غير مرغوب فيه في المجال الضيق للحياة الخاصة. فأطلق على نشطاء جمعيات الأحياء اسم الفضوليين، لأنهم كانوا دائماً يحشرون أنوفهم في الشؤون الخاصة بالأسر الأعضاء. أي أن الأسرة التي كانت تحيد عن القاعدة في الملابس والرأي وتصفيفة الشعر وعادات النوم والاستيقاظ أو الأنشطة الترفيهية، كانت تنال نصيبها من التوبيخ من قبل هؤلاء الفضوليين. وكانت بعض الأحياء تقيم حواجز للطرق كي تحول دون مرور الدخلاء، كما ظهر جلياً في واحدة من

المجالس المحلية والتي قامت بتعليق لوحة كبيرة في الشارع كتب عليها: «على هؤلاء الناس ذوي التحركات الدائمة الامتناع عن المرور عبر هذا الحي.» وفي بعض الحالات وُضِعَ الأطفال في زوايا الشوارع في المناطق الحضرية لتوبيخ أي امرأة تظهر الكثير من الاكتراث بمظهرها الخارجي.

كانت جمعيات الأحياء مسؤولة عن كثير من الأنشطة في أوقات الحرب، منها توفير الحصص في إطار جهود الادخار التي تبذلها الحكومة، وتوفير حصص التبرعات النقدية والعينية (وخصوصاً السلع المعدنية) لجهود الحرب، والتدريبات على الغارات الجوية، وتوزيع الخوذات والأقنعة الواقية من الغازات، وحضور المحاضرات والمسيرات لتعزيز جهود الحرب، ودوريات الإطفاء، ودفع الضرائب، وتسليم البريد أيضاً. وكانت هذه الجمعيات تجتمع مرة كل شهر (في اليوم الثامن الذي يُعد يوم صدور المرسوم الإمبراطوري، ما يعتبر تكريماً لإعلان الإمبراطور الحرب في ذلك اليوم) في منزل أحد الأعضاء. وكانت شبكة الإذاعة الوطنية (إن اتش كيه) تبث برنامجاً على مدار نصف ساعة في وقت الاجتماعات يقوم خلاله ممثل وزارة الداخلية بتلاوة توجيهات الشهر.

ومن بين الأنشطة العديدة لجمعيات الأحياء كان توزيع حصص الغذاء، حيث حظي توزيع الغذاء بالقسط الأكبر من الاهتمام. فقد شحَّ الغذاء حتى قبل قصف ميناء بيرل هاربور. وتسببت الحرب في منع دخول الواردات بل وفي تحويل كميات ضخمة من الإمدادات إلى الجيش داخل اليابان وخارجه. كما تقلصت الإمدادات بدرجة كبيرة جراء غلق قوات الحلفاء البحرية والجوية لممرات اليابان البحرية تدريجياً. وكانت الحصص مسألة حياة أو موت بالنسبة للناس العاديين خصوصاً إذا لم تستلم حصتها في الوقت المحدد. واعتمد الأعضاء على نزاهة رؤساء الجمعيات لضمان التوزيع العادل. إلا أن عدالة التوزيع شابها عديد من القرارات الصعبة فبعض الأسر كانت أكثر احتياجاً من غيرها. كما أن الطبيعة المحلية لجمعيات الأحياء جعلت من المشكلات التافهة والحزازات بين الجيران أمراً لا مفر منه.

توزيع الحصص والضوابط الاقتصادية والمأكل والملبس والاستهلاك

وفي مارس 1938 وافق البرلمان الياباني على قانون المركز الوطني للتعبئة، «من أجل

تطبيق ضوابط لمواردنا البشرية والمادية بالطريقة التي تمكن الدولة من تحقيق أهداف الدفاع الوطني في زمن الحرب على نحو أكثر فعالية». وأعطى هذا القانون للحكومة سلطات واسعة للسيطرة على كل من الإنتاج والاستهلاك. واستغلت الحكومة هذه الصلاحيات بدرجة كبيرة في توجيه دفة القدرة الإنتاجية باتجاه الإنتاج العسكري (على سبيل المثال، وُجِّهَت المواد الكيميائية إلى الصناعات العسكرية بدلاً من صناعة الأسمدة الزراعية) ولتقليل الاستهلاك. ويعد إزالة الأنوار من شوارع المناطق الحضرية مظهراً من مظاهر هذا الإجراء إذ أُطفِئ مصابيح النيون لترشيد الكهرباء، كما أغلقت قاعات الرقص وغيرها من أماكن اللهو، مما تسبب في فقدان العديد من النساء الشابات وظائفهن ولم يعد يجد كثير من الشباب مكاناً يقصدونه هرباً من جحيم الحرب. ففقدت معظم العائلات أعمالها، ولم يكن ذلك بدافع الولاء لأهداف التعبئة الروحية، وإنما ببساطة لأن السلع والخدمات لم تعد متوفرة.

كان الطعام، بطبيعة الحال، أهم ما تمارس الحكومة سيطرتها عليه، ففي أوائل عام 1941 قدمت الحكومة مشروع نظام للحصص التموينية يشمل قطاعاً عريضاً من السلع الغذائية. فوزّع الأرز على المتعاملين المحليين وعلى تلك الشركات التي تقدم وجبات الطعام للعمال بحيث تكون الحصة التموينية الأساسية 330 جراماً لكل بالغ في اليوم الواحد. واستُصدِرَت دفاتر حسابية خاصة للعائلات، وكانت محال الأرز تسمح لكل أسرة بالحصول على كيس من الأرز يزن 14 كيلوجراماً مرتين أو ثلاث مرات في الشهر وذلك وفقاً لعدد أفراد الأسرة وأعمارهم. وشاعت في اليابان زمن الحرب مقولة أن هناك خمسة ألوان من الأرز تتفاوت من الأصفر إلى الأسود (فالحصول على الأرز الأبيض صار حلماً من الأحلام التي تراود كثيراً من الناس العاديين). كما كان لصلصتي الميزو والصويا نصيبهما من هذه الكتيبات التموينية. وكانت توزّع حصص أغلب الأغذية الأخرى على جمعيات الأحياء التي يضطلع رؤساؤها بمهمة لا يحسدون عليها تتمثل في توزيع هذه الحصص بشكل عادل. وهي مهمة صعبة لاسيما عندما لا توزّع الحصص كما حدث في كثير من الأحيان في وقت لاحق من الحرب. فكانت الأسر سرعان ما تتدافع إلى نقطة التوزيع ما إن تعلم بوصول الحصص. وفي بعض الأحيان كان الضعفاء والمسنون لا يتمكنون من المطالبة بحصتهم في الوقت المناسب فكان عليهم الاعتياد على ذلك. وبهذه

الطريقة صارت الحياة اليومية صراعاً حقيقياً من أجل البقاء.

وبوجه عام، اعتبر الشعب الياباني نظام تقنين الغذاء نظاماً عادلاً نزيهاً. فالسوق السوداء والتربح غير المشروع، اللذان هما من المشكلات الرئيسة في بريطانيا وغيرها من البلدان، لم يكونا منتشرين في اليابان حتى بعد هزيمة 1945. ومع ذلك، فقد عمد بعض الناس إلى الغش فقامت السلطات بإنشاء شرطة خاصة للأنشطة الاقتصادية. وكان خرق هذه القواعد أو الالتفاف حولها أكثر إغراءً للمزارعين الذين كانوا يشعرون بالغضب من اضطرارهم للتخلي عن الطعام الذي يزرعونه بكدهم في مقابل الحصول على معونات حكومية. كما كان المواطنون في المناطق الحضرية يحاولون بدورهم تحقيق الاستفادة من النظام بطريقتهم الخاصة فلجأ بعضهم إلى افتعال الحمل أو إيجاد أفراد أسرة وهميين من أجل زيادة الحصص.

وفضلاً عن إشكالية الغذاء استنزفت الحرب نسيج الحياة المدنية، فمنذ بدء القتال تقريباً صار من الصعب شراء المنسوجات. فقد كانت المواد المتاحة (والتي كانت مقبولة اجتماعياً) خشنة وباهتة. ومع النقص المتزايد في الأقمشة شجعت الحكومة الأسر في جميع أنحاء اليابان على ارتداء سراويل (المونبي) وهو نوع مصنوع من القماش الخشن، وهو يشبه ملابس المزارعين التقليدية في شمال اليابان، إلا أن (المونبي) يعد من الملابس الغريبة في أجزاء أخرى من البلاد. ومع بداية فترة الأربعينيات شجعت الحكومة الأسر ثم فرضت عليها استخدام ملابس مصنوعة من القطن أو الصوف الممزوج بالسوفو وهو ألياف قصيرة مصنوعة من لب الخشب (كلمة السوفو اختصار للترجمة اليابانية «الألياف القصيرة»). كان السوفو قماشاً ضعيفاً، خاصة عند تعرضه للمياه، وكانت المجلات تنشر مقالات تحض الزوجات على التفكير في طرق لتقوية الملابس المصنوعة من هذه الألياف.

وفي فبراير 1942، قامت الحكومة بعمل بطاقات للحصص التموينية على الملابس في غمرة احتفالات الجيش الياباني بانتصاراته في أنحاء جنوب شرق آسيا. وكانت القيود المفروضة على المواد الغذائية ثم الملابس اختباراً قاسياً لمعاني الوحدة في زمن الحرب. وثار غضب سكان الريف ثانية عندما وجدوا أنفسهم يحصلون على 80 نقطة ببطاقة فقط، في حين حصل سكان المدن على 100 نقطة. حتى من حصل منهم على بطاقات لم

يكن يستطيع العثور على المنسوجات التي كانت قد اختفت من المحال التجارية حتى قبل استحداث النظام، لأن صناعة القطن في اليابان آنذاك كانت تعتمد على الواردات من المواد الخام وجاءت الحرب لتغلق كافة قنوات الاستيراد. فضلاً عن أن كميات الأقمشة التي كانت متوفرة صودرت لصالح جهود الحرب (وفي أواخر الحرب كان يطلب من النساء أن يقمن بتقصير الأكمام الطويلة وإرسال قطع القماش إلى الجيش). نتيجة لذلك، صار العثور على الملابس الجديدة شبه مستحيل مطلع عام 1941 وما بعده. وكانت المجلات التي تصدر في زمن الحرب مليئة بالأفكار حول طريقة التكيف مع هذا الوضع. ونشرت إحدى المجلات اقتراحاً يقضي بخياطة العديد من الملابس المهترئة لصنع زي واحد قوي. مما حدا بقارئة أن تعلق بقولها: «حتى الخيط اللازم لخياطة الخرق لم يعد متاحاً».

بالإضافة إلى الغذاء والكساء قُنّن استهلاك مجموعة أخرى من السلع، بما فيها المسامير والإبر والضمادات والأحذية والساكي (شراب كحولي من الأرز) وزيت الطعام، والإطارات والملح. وكان يسمح للعائلات أن تتقدم بطلب الحصول على حصص إضافية في الحالات الخاصة، فعلى سبيل المثال كان يسمح بصرف حصص إضافية من الساكي لأغراض الأعراس والجنازات. وازداد عدد البطاقات التموينية المخصصة لكل عائلة كي تحصل على مختلف هذه المواد حتى شمل هذا النظام كل السلع (يقال أن بعض العائلات أصبح لديها أكثر من 35 كتيباً مختلفاً).

وأدى الانخفاض المتزايد في كمية هذه المواد إلى تراجع حاد في جودتها ولم يكن أمام الناس سوى القبول بالبدائل المتواضعة. فالصابون مثلاً صار يصنع من زيت السمك، والذي قيل إنه يساعد على تفشي حشرات مثل القمل لأنه يغذي الطفيليات الصغيرة (وعلى الرغم من ذلك تذمرت زوجات المزارعين مجدداً لأن العائلات المقيمة في الحضر كانت تحصل على حصص تموينية مضاعفة من الصابون مع أن خدمات الغسيل متوفرة لها أكثر من الريف وأن عدد أفرادها أقل من عائلات الريف). وراح الإسكافيون يصنعون الأحذية من جلود الحيتان وأسماك القرش ومن أسماك الحبار الذي كانت تظهر مشاكله عندما يبتل الحذاء الماء. أما أولئك الذين سمح لهم حظهم بامتلاك سيارة، فكان عليهم منذ منتصف عام 1938 تزويد سياراتهم بمواقد الفحم إذا أرادوا استخدامها بديلاً عن حصص البنزين. وعلى الرغم من أن منظمات النساء الوطنية كانت تبذل جهوداً لتدريب

النساء على قيادة السيارات، لم يكن هناك سوى عدد قليل من السيارات المتاحة في البلاد وكان استخدام السيارة يتطلب الكثير من الموارد.

ومع كل هذه القيود فلم يكن غريباً أن يتذكر معظم الناجين أيام الحرب بوصفها أياماً رتيبة ملؤها البؤس والشقاء. فبالنسبة لكثيرين، كانت هذه هي الحقيقة حتى قبل قصف بيرل هاربور. وقد أصبح هذا الشعور هو الشائع خاصة بعد عام 1943 مع خسارة اليابان لأسطولها التجاري. وبالنسبة لسكان الحضر وصل هذا الشعور إلى ذروته منذ أواخر عام 1944 مع بدء القصف الأميركي لليابان. في البداية أخطأت كثير من القنابل هدفها في طوكيو وسقطت في الخليج حتى إن السكان المحليين تهكموا من الخطة الأمريكية وقالوا إنها تستهدف قتل الأسماك وتجويع المواطنين. ومع ذلك، فإن الولايات المتحدة كان لديها سيطرة كاملة على سماء اليابان وقامت تقريباً بمهاجمة كل البلدات (استثنت الحكومة الأميركية العاصمة القديمة كيوتو من هذا الهجوم بسبب ما تحويه من الكنوز الثقافية التي لا غنى عنها). فمثلاً في إحدى ليالي مارس 1945 قامت 334 قاذفة أمريكية بضرب طوكيو وتدمير 16 ألف كيلومتر مربع من مركز المدينة (ثمة خريطة متحركة تجسد هذا الحدث بجميع صوره حتى إنه يعد واحداً من أهم معروضات متحف ايدو - طوكيو في الوقت الحاضر) . كما قصفت أمريكا مدينة توياما الساحلية الغربية التي يبلغ عدد سكانها 127 ألف نسمة بإسقاط 1500 طن من القنابل عليها في مطلع شهر أغسطس 1945، وكانت النتيجة أن 99,5٪ من المساحة المبنية قد مُحِيت. وقيل إن القصف الأمريكي تسبب في تسوية أكثر من 2,5 مليون منزل في اليابان بالأرض مما أدى إلى تشريد 10 ملايين شخص. وهكذا بنهاية الحرب مُحِيت الحياة المدنية ومعها الطبقة الوسطى الممثلة للحداثة والنجاح في اليابان حتى عام 1937.

وعلى الرغم من ذلك فلا يزال من المدهش استطاعة بعض أبناء الطبقة الثرية الإبقاء على وسائل الراحة الخاصة بهم حتى نهاية الحرب. فبعض المطاعم والحانات كانت لا تزال مفتوحة، واستطاع من كان لديهم ما يكفيهم من المال العثور على طرق للتحايل على قيود الحصص التموينية. وقد أسهب الفنان المشهور فوروكاوا روبا، في مذكراته في ذكر مداومته على تناول شرائح اللحم في عشائه حينما كان يؤدي فقراته الفنية في مختلف مدن اليابان وأراضيها المحتلة. وقيل إن المونولوجست الفكاهي المشهور شينشو كان

اهتمامه منصباً على النساء والساكي. ويقول عنه المؤرخ باراك كوشنر «بدا شنشو مواطناً حقيقياً من ساكني طوكيو فهو لم يكن يدع الشمس تشرق يوماً على ما كان يربحه في اليوم السابق، كما أنه قام بتغيير اسمه ست عشرة مرة في محاولة للتهرب من الدائنين».

وعلاوة على ذلك، يقول جون داور– وهو أحد كبار مؤرخي المجتمع الياباني زمن الحرب وما تلاها– في مقاله «الحرب المفيدة»: «وعلى الرغم من جلبته الحرب من مشقات مادية استثنائية وانخفاض في الاستهلاك بالنسبة لمعظم اليابانيين فقد خلقت الحرب أيضاً عديداً من الفرص الاقتصادية. بعدما عانت اليابان من نقص مزمن في العمالة في عقود ما قبل الحرب، أما في أثناء فترة النمو الصناعي المحموم زمن الحرب فقد توفرت وظائف للجميع. وبالنسبة لمن لم يتمكنوا من تحصيل مصدر رزق ملائم لهم في اليابان، كانت لديهم فرص كثيرة في الإمبراطورية اليابانية الممتدة عبر الحدود. وبطبيعة الحال تلاشت بعض هذه الفرص بعد هزيمة اليابان في أغسطس 1945، لكن جزءاً كبيراً من البنية الأساسية للقوة الاقتصادية نجا من الحرب، ليعاد إحياؤه خلال فترة ما بعد الحرب التي شهدت نمواً كبيراً.

الإعلام والثقافة الجماهيرية

دأبت الدول المتقاتلة في الحرب العالمية الثانية على استخدام الإعلام الحديث من صحافة ومجلات وسينما وإذاعة كأدوات دعائية لأعمالها ومواقفها. ولم تكن الحكومة اليابانية بدعاً في ذلك، فكان لكل من مجلس الوزراء والجيش والبحرية ووزارة الخارجية مكاتبهم الإعلامية الخاصة بكل منهم، حتى إنهم في أحايين كثيرة كانوا يتصارعون فيما بينهم للتحكم في تدفق المعلومات. وكما هي الحال في أية دولة زمن الحرب كانت الحكومة تتبع نظام رقابة صارماً، فكان يجب على جميع المواد الإعلامية أن تمر أولاً عبر وزارة الداخلية قبل نشرها أو إذاعتها. فأي شيء ينشر عن تحركات القوات أو الأنشطة العسكرية كان يخضع لرقابة صارمة (والواقع أن الصحف والإذاعات اضطرت لتعليق نشراتها الجوية اليومية خوفاً من أن تصبح معلومات مفيدة للعدو). بالإضافة إلى ذلك، حظرت الحكومة نشر أي شيء يُظن أنه منتقد للحرب أو غير أخلاقي أو ينتمي إلى الثقافة الغربية. فالتقبيل، على سبيل المثال، لم يعد مسموحاً به في دور السينما، وفي المقابل

شجعت الحكومة قصص البطولات العسكرية. كما انخفض عدد الصحف والمجلات انخفاضاً كبيراً عبر عمليات الدمج القسري وعمليات الإغلاق، فقد حاولت الحكومة فرض مزيد من الرقابة على ما كان يعرفه الناس ويفكرون فيه.

ومن جهة أخرى ساعدت الحرب على زيادة الطلب على المعلومات بشكل لم يسبق له مثيل. فصار الجميع يريد معرفة آخر أخبار الحرب، كما ارتفع عدد قراء الصحف إلى حد كبير، وحتى في الوقت الذي أصبح فيه عدد صفحات الصحف قليلة بسبب النقص المزمن في ورق الصحف. ومثلما زُجّ بالمواطنين اليابانيين في جهود الحرب من خلال حملة التعبئة الروحية الحكومية وعبر المجالس البلدية وجمعيات الأحياء، وكذلك من خلال حملات التوفير والنمو الصناعي صار المواطنون كذلك مرتبطون بالأمة أكثر من ذي قبل. إذ ساعدت سنوات الحرب على أن تؤتي الثقافة الجماهيرية ثمارها بعدما بدأت خلال العشرينيات والثلاثينيات. وكانت صحيفة يوميوري واحدة من رواد هذه العملية، إذ بيعت الصحيفة في عام 1923 لصالح (شوريكي ماتسوتارو) القائد السابق في الشرطة الذي تمتع بنوع من الشعبية، والذي استطاع أن يزيد انتشار الصحيفة من خلال تشجيعه للمناسبات العامة ومنها مباريات البيسبول. ويعتبر شوريكي مؤسس فريق يوميوري جيانتس (ولا يزال حتى اليوم أحد أشهر فرق البيسبول في اليابان). وفي عام 1934، قام شوريكي بدعوة (بيبي روث) والمنتخب الأميركي بكامل نجومه إلى اليابان للمشاركة في مجموعة من المباريات الاستعراضية الضخمة. وكان شوريكي رئيس مكتب إعلام مجلس الوزراء خلال الحرب، ما يعني أنه من الشخصيات المحورية في الحملة الدعائية الحكومية (وقد سُجِنَ لفترة وجيزة بعد الحرب باعتباره مجرم حرب من الدرجة الأولى بسبب أعماله الدعائية).

أدرك شوريكي أن الناس في حاجة إلى أحداث وفعاليات على نطاق واسع، باعتبار هذه الفعاليات ليست مجرد شكل من أشكال التعبئة الجماهيرية وإنما هي أحد أشكال الترفيه. وبعد عام 1941 خفت ضوء لعبة البيسبول بصورة مؤقتة نتيجة لأصولها الأميركية. ونظراً إلى أن اللعبة تمتعت بقاعدة من المعجبين اليابانيين العاديين فقد تُوصِّلَ إلى حل وسط يقضي بإعادة صياغة مصطلحات اللعبة، فاستبدل اليابانيون بالمصطلح الأميركي الأصل (beesuboru) الكلمة اليابانية (yakyu) (وهي بالفعل تجمع بين الصينية واليابانية). وكان

أحد أسباب شعبية لعبة البيسبول هو استمتا ع العديد من اليابانيين بمشاهدة المواجهة المثيرة بين الرامي والضارب، فكانوا يرون في ذلك نوعاً من المبارزة بين محاربين محترفين. وكثيراً ما كان يُشَبَّه الضاربون بمبارزي الساموراي التقليديين. وفي الواقع كانت المواجهة الفردية دائماً في قلب الوجدان الرياضي الشعبي لليابان وذلك على الرغم من الهدف الدعائي من اللعبة وهو تعزيز الشعور الجماعي للوحدة الوطنية. وبالتالي فإن معظم الرياضات التي رعتها الحكومة بقوة في أثناء الحرب كانت تلك التي لها أصول يابانية، لاسيما مصارعة السومو والجودو.

حقق رعاة الأحداث الرياضية في اليابان نصراً كبيراً عام 1936 حين فازوا بتنظيم دورة الألعاب الاولمبية في طوكيو عام 1940. وطيلة عام 1937 قام العمال ببناء ملعب أولمبي كبير بالقرب من مزار ميجي في غرب طوكيو (استضاف الملعب دورة الألعاب الاولمبية عام 1964). ومع سقوط اليابان في مستنقع الحرب الصينية وتدهور الوضع الأوروبي اضطرت الحكومة اليابانية إلى اتخاذ قرار لا مفر منه وهو إلغاء دورة الألعاب الاولمبية (حُلِّت الفرق الرياضية أيضاً في جميع أنحاء اليابان عام 1943). وعوضاً عنها قامت الحكومة بتنظيم نوع مختلف من الفعاليات بالتزامن مع ذكرى الألفين وستمائة عام على تأسيس الدولة اليابانية في عام 1940 طبقاً للأساطير الرسمية اليابانية. فنظمت الحكومة سلسلة من الفعاليات في جميع أنحاء اليابان لإحياء هذه الذكرى، وبلغت ذروتها في احتفال رائع أقيم في الإستاد الاولمبي. فأطلقت الأبواق أمام حشد كبير بلغ زهاء 50,000 شخص وجلس الإمبراطور والإمبراطورة على عرش طلي باللون الذهبي. وتقدم رئيس مجلس الوزراء كونوي فوميمارو الحشود على وقع النشيد الوطني، ثم ألقى كلمة أكد فيها أن مهمة اليابان هي إشاعة السلام في العالم. وصاحت الحشود على إثر رئيس الوزراء: «يعيش الإمبراطور». وفي اللحظة نفسها دوى صوت البنادق في مقر قيادة الجيش وعلى متن البوارج الراسية قبالة شيناغاوا، كما دوت صفارات الإنذار في كل أنحاء البلاد. وبثت الإذاعة الحدث بأكمله على الهواء مباشرة (باستثناء كلمة الإمبراطور نظراً لمكانته الإلهية) وانضم المواطنون في جميع أنحاء اليابان إلى الأجواء الاحتفالية. التي انتهت بغناء جوقة مؤلفة من 3000 من تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات من مختلف أنحاء البلاد احتفالاً بمرور 2600 سنة. وعكست الأغنية، التي اختيرت في مسابقة وطنية وقامت بتسجيلها

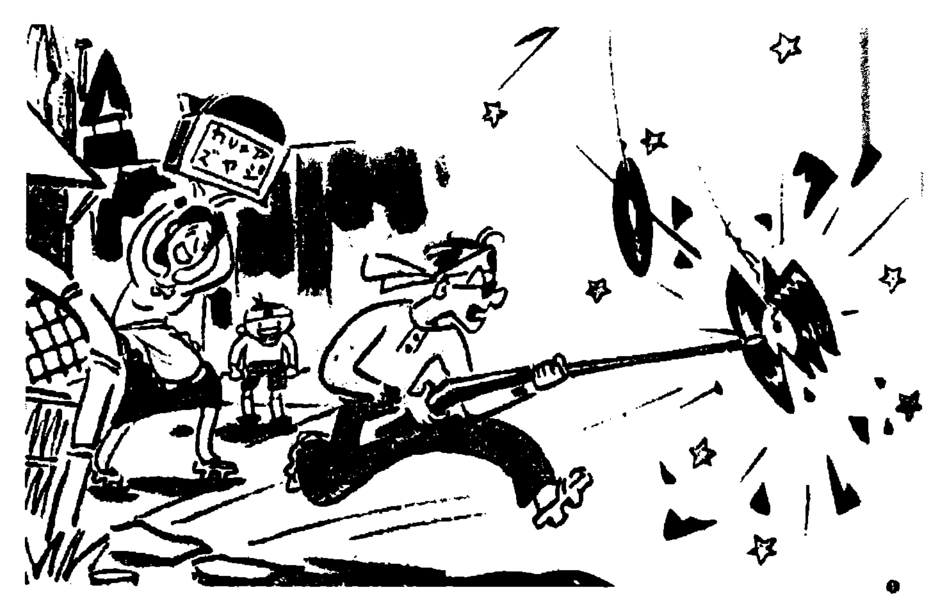
شركات التسجيل الكبرى، طموحات السلطة بدلاً من واقع الحياة المدنية. وكان من ضمن كلماتها: «تتلألأ اليابان المجيدة مثل طير أسطوري من الذهب/ إننا نحتفل اليوم بعيد الغد/ مرور 2600 سنة منذ التأسيس/ آه، 100 مليون قلب يدعون! ».

وتأثر البيروقراطيون اليابانيون أواخر الثلاثينيات بسياسات ووسائل الإعلام النازية. فقد أعجبوا عند حضورهم دورة الألعاب الاولمبية في برلين عام 1936 بمهارات الرقص والحشود التي تعشق أبطالها وهم واقفون بين يدي الفوهرر (الزعيم) فضلاً عن التقنيات العالية التي استخدمها الألمان في استضافة الدورة وإذاعتها. وعندما أطلق النازيون حملة وطنية لوضع مذياع في كل منزل بألمانيا لم تدخر الحكومة اليابانية وقتاً لإطلاق مثل هذه الحملة بهدف «التعبئة الشاملة لروح الشعب، وكذلك لاستثارة الرأي العام الداخلي باتجاه التفكير الصحيح».

وكانت نسبة تملك المذياع في المدن عام 1937 قرابة 40٪ لكنها لم تتعد 10٪ في الأرياف. فقام كونسرتيوم مؤلف من الجيش والبحرية ووزارة الاتصالات بتوزيع ملصقات تدعو الناس إلى «التكاتف من أجل الدفاع عن الأمة والاستماع إلى المذياع». وصارت أصوات المتحدثين الرسميين للجيش في وقت الحرب تُسمع دائماً في المذياع لإعلام الناس أو لخداعهم (كما حدث في هزيمة «ميد – واي»[29] الكارثية والتي رُوِّجَ لها بأنها كانت نصراً مؤزراً)، وصار شهرة نجوم الإعلام من شهرة القادة العسكريين في الميدان. وقامت الحكومة إلى جانب المحاضرات والحملات الإعلانية التي نظمتها حول أهمية الإذاعة للمدنيين، بتخفيض رسوم الترخيص، وأعفت أسر العسكريين العاملين منها كلياً. وشيدت هيئة الإذاعة الوطنية «إن اتش كيه» المحطات على مسافات متقاربة في مختلف أنحاء اليابان لتحسين جودة استقبال الموجات وتخفيض التكاليف التكنولوجية لأجهزة الاستقبال. وعلى الرغم من ذلك كان أرخص مذياع في عام 1942 يُباع بعشرة ينات يابانية، وهي تكلفة عالية بالنسبة للمزارعين وعمال المصانع الذين لم يتعدّ دخلهم الشهري أكثر من 10 أو 20 يناً.

(29) معركة «ميد – واي» يُنظر إليها على أنها أهم معركة بحرية في الحرب العالمية الثانية وحدثت عام 1942 أي بعد ستة أشهر من هجوم اليابان على بيرل هاربور، وفيها دحرت البحرية الأمريكية هجمة قامت بها البحرية اليابانية الإمبريالية، ويقال إن هذه المعركة كانت الأساس الذي مهد الطريق أمام استسلام اليابان للجيش الأمريكي بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناجازاكي.

وفي مطلع أربعينيات القرن الماضي، صار المذياع جزءاً لا يتجزأ من معظم المنازل اليابانية (وصار حيوياً في عام 1944 بوصفه واحداً من أكثر وسائل الإنذار فعالية ضد الغارات الجوية). أما في الأرياف فلم يستطع المذياع غزو منازل اليابانيين حتى ذلك الوقت. وكان كثير من العائلات اليابانية يستيقظ في الصباح لسماع التمارين الرياضية التي تبثها الإذاعة بالإضافة إلى نشرات الأخبار أثناء تناولهم الإفطار المتواضع جداً. كما كانوا يستطيعون كذلك القيام بأعمالهم المنزلية الروتينية على إيقاع أحدث الأغاني الشعبية (مثل «اللحن الوطني»). وكانت البرامج الإذاعية التي تبث في ذلك الوقت منذ انطلاق الإذاعة في فترة العشرينيات برامج جدية ولذلك لم تشهد سنوات الحرب خروجاً عن المألوف. وكانت التغييرات سطحية، فبرنامج «ساعة المرأة» أعيدت تسميته لتصبح «المنزل في ساعة الحرب.» وفي أواخر سنوات الحرب غدا الناس مرهقين من التقشف والدعاية، لذا فقد أعيد ترتيب البرامج الإذاعية لتشمل مزيداً من البرامج الترفيهية، لكنها لم تكن أكثر من برامج حوارية حول أمور مثل: زن البوذية واحتفالات الشاي، وتاريخ الفن، أو العروض من مسرح الكابوكي. وكانت الموسيقا الغربية مقصورة على الأعمال الكلاسيكية لحلفاء اليابان المتمثلين بألمانيا وإيطاليا. على عكس موسيقا الجاز، سواء المذاعة



التطهير الروحي: حملة مناهضة موسيقى الجاز 1943 (شاشين شاتو – 3 فبراير 1943)

في المذياع أو المسجلة، فكانت ممنوعة بوصفها شكلاً من أشكال «التلوث الروحي» وبسبب أصولها الأميركية. حيث وصفها النقاد اليابانيون إبان الحرب بأنها تافهة وحسية وقرينة لنمط الحياة المنحلة. وفي المقابل تمتعت موسيقا الجاز بالشعبية حتى بين الشبان اليابانيين قبل الحرب، لدرجة أن واحدة من حملات الدعاية زمن الحرب عام 1943 كانت تحث الناس على تدمير ما لديها من تسجيلات الجاز. فكانوا يُشجَّعون على تحرير أنفسهم من ثقافة العدو بهذه الطريقة. أما على أرض الواقع، وحسبما ذكر «إي تايلور آتكينز» (E. Taylor Atkins)، فقد كان الموسيقيون والمشترون لهذه الأسطوانات فضلاً عن مالكي ما كان يعرف بمقاهي الجاز يتجنبون الحظر من خلال دمج الإيقاعات الشعبية اليابانية والصينية في موسيقاهم مع موسيقا الجاز أو إعادة تسميتها «بالموسيقا الخفيفة». وتتبدى مقولة أحد الطيارين الانتحاريين في أواخر الحرب: «كان شيئاً مضحكاً أن تستمع إلى موسيقا الجاز قبل الخروج لقتل الأمريكيين العاشقين لموسيقا الجاز» بوصفها دليلاً على أن هذا النوع من الموسيقا ظل حاضراً بقوة في الأذهان.

وفي المساء كان للذهاب إلى السينما شعبية أكثر من أي وقت سابق مع كل قيود الحرب. فشرعت الحكومة في إغلاق دور السينما في وقت مبكر من المساء، كما قامت بفرض ضريبة إضافية مقدارها 90٪ على تذاكر السينما سعياً لكبح ازدهار صناعة الترفيه (قرب نهاية الحرب، قامت الحكومة أيضاً بإغلاق أكثر من 10 آلاف بيت من بيوت الغيشا، كما حظرت «مسرح الكابوكي»[30]، وفرضت قيوداً شديدة على حفلات المنوعات). لكن السينما ظلت وسيلة دعاية حكومية مهمة، وقد تجسد ذلك في الصحف السينمائية التي تُعَدُّ تحت رقابة عسكرية صارمة وكثيراً ما كانت تركز على صور السكان المحليين في أنحاء آسيا وهم يرحبون بالقوات اليابانية. واعتمدت الحكومة أيضاً على الأفلام الروائية للقيام بدورها في تعزيز جهود الحرب، مثل قصة قائد الدبابة نيشيزومي «The Story of Tank Commander Nishizumi» (1940). وأُنتج مثل هذه الأفلام برعاية مباشرة من الحكومة والجيش. أما الأفلام الأخرى، مثل فيلم «الأكثر جمالاً» (The Most Beautiful) الذي أخرجه «أكيرا كوروساوا» وهو مخرج فترة ما بعد الحرب اليابانية، فقد أنتجها القطاع

(30) نمط من الدراما المسرحية عرفته اليابان منذ عام 1603، اشتهر بتمثيل الأساطير اليابانية، وعُرف ممثلوه باستعمال مستحضرات التجميل والملابس شديدة الزركشة والمبتذلة من حيث الألوان والخطوط.

الخاص، إلا أن هذا الفيلم ساهم في شحذ روح التضحية إبان الحرب من خلال تصويره عاملات المصانع اللاتي تحملن المصاعب الرهيبة في سبيل إنتاج الأجهزة البصرية.

وعلى الرغم من أن الغرض الرئيس لإنتاج الأفلام كان الدعاية للحرب، لم تكن نسبة كبيرة من الأفلام اليابانية تشجع على كراهية الأمريكان أو غيرهم من الغربيين. بل لم يكن اليابانيون المدنيون في الثلاثينيات وحتى في سنوات الحرب ميالين بطبيعتهم إلى كره الأمريكان بعكس نظرائهم ممن يعملون في الجيش ويُدَرَّبون على كراهية العدو. وحتى قبيل أيام من الهجوم على بيرل هاربور كانت دور السينما اليابانية تقوم بعرض الفيلم الهوليودي «أردتُ أجنحة» (I Wanted Wings) الحائز على جائزة أوسكار، وهو فيلم درامي رومانسي تدور أحداثه حول تدريب طياري القوات الجوية الأمريكية. كما أن الأفلام اليابانية والتي كان موضوعها الأساس يدور حول الحرب كان العدو غائباً بشكل واضح في هذه الأفلام، وربما يكون أحد أسباب هذا الغياب هو غياب الممثلين من ذوي البشرة البيضاء. ففي أفلام مثل «القائد نيشيزومي» (Commander Nishizumi) كان التركيز على ما ينظر إليه بوصفه شجاعة ونقاء وروح تضحية ميزت الأبطال اليابانيين بشكل يفوق التركيز على الرغبة في قتل العدو. ويصور كلاً من «القائد نيشيزومي» و«الأكثر جمالاً» أشخاصاً ممن تكمن قوتهم في قبولهم الهادئ للمعاناة وهي مثالية دأب السينمائيون على غرسها في أبطالهم. فصار هذا المثل الأعلى سمة بارزة للسينما اليابانية بين عامي 1942 و1945.

وبوجه عام هناك إشارات قليلة جديرة بالملاحظة فيما يتصل بكراهية المدنيين للغرب إبان الحرب في اليابان. فقد نشرت مثلاً الصحف رسوماً كاريكاتورية للرئيس روزفلت، وقد نما في رأسه قرنان شبيهان بقرني الشيطان. وخُطَّ العلم الأمريكي في أحد شوارع طوكيو كي يدوسه المدنيون بوصفه رمزاً وطنياً للعدو. وعندما بدأ الأمريكيون قصف المدن اليابانية كانت نيران الكراهية قد اشتعلت بالفعل وسط الرماد. لكن مع ذلك كله يبدو أن غالبية الشعب الياباني لم يفقد إعجابه بالثقافة الغربية، التي كان لها تأثير هائل في الحياة اليومية لم ينقطع حتى عشية الحرب. وكانت اليابان تمر بتجربة التنمية الاجتماعية وانتشار الثقافة الجماهيرية مثلها مثل أمريكا وبريطانيا وألمانيا، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت الثقافة الشعبية الأميركية تجد مثل هذا القبول الفوري بعد هزيمة اليابان.



إعلان عن الفيلم الهوليودي «أردتُ أجنحة»، أكتوبر 1941
(صحيفة كيوتو هينودي شيمبون، 24 أكتوبر 1941)

المدارس والأطفال وثقافة الشباب

شرعت الحكومة اليابانية في تطبيق نظام التعليم الإلزامي مطلع سبعينيات القرن التاسع عشر وحددت له هدفين رئيسين، الأول: تزويد الشباب الياباني بالعلم الذي يضمن لهم عيشاً كريماً، تأثراً بالأفكار الغربية التي تقوم على مبدأ اخدم نفسك بنفسك. والثاني: بناء المواطن الصالح. فحتى منتصف القرن التاسع عشر كان لدى قليل من اليابانيين فكرة واضحة عما كانت تعنيه اليابان بوصفها دولة أو عما يعنيه الإمبراطور بالنسبة لهم. فكان نظام التعليم فرصة كبيرة للحكومة لتوصيل رسالتها إلى المواطنين الشبان وهم بعد في

سن يسهل عليهم فيه التأثر بأي شيء. ومع مرور الوقت صار حب الإمبراطور والواجب الوطني من العناصر الأساسية للمناهج الدراسية. وبعد عام 1937 صار الجيش بصورة متزايدة جزءاً من عملية التعليم (أصبح الجنرال أراكي ساداو وزيراً للتعليم في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي). وأصبحت وزارة التربية والتعليم مضطرة إلى قبول التدخلات السافرة للضباط والبيروقراطيين في إعادة صياغة الكتب والمناهج المدرسية باتجاه رؤية أسطورية عسكرية قومية يابانية على الرغم من أن الوزارة كانت تحرص في الماضي على الحفاظ على استقلاليتها.

وحصلت تعديلات كثيرة في المناهج في أبريل 1941، فصارت المدارس «الابتدائية» مدارس «وطنية»، كما امتد التعليم الإلزامي من ستة أعوام إلى ثمانية. وأسقطت المقررات الجديدة بشكل نهائي «وجهة النظر الغربية تجاه التعليم الذي هو استثمار أو طريق إلى النجاح والسعادة.» وصار الهدف الجديد للعملية التعليمية هو «استعادة روح التعليم الياباني وتغذية فطرة اليابانيين الذين هم دعامة العالم وقادة الوحدة الآسيوية، والحث على العودة إلى الطريق الإمبراطوري، وتعزيز الروح اليابانية بكل إخلاص وتفان».

وكانت للروح، بصفة عامة، الأولوية على التحصيل الدراسي، وكان ذلك أمراً مناسباً للمجتمع في ذلك الوقت، عندما ظهر نقص ملحوظ في عدد المعلمين وزاد الطلب على التلاميذ كي يشاركوا في الأنشطة الحربية، فيما كان يُعرف بالعمل التطوعي مثل توديع القوات المغادرة والتدريبات العسكرية. ودُمجت مواد اللغة اليابانية مع الأخلاق والجغرافيا والتاريخ في مادة جديدة سميت بالدراسات الوطنية (في بداية الحرب ضد الصين كان هناك توجه عام إلى التركيز على تدريس مادة التاريخ، والذي كان في واقع الأمر تعبيراً عن رؤية قومية ضيقة من التاريخ الياباني، عندما جُعِلَ بوصفه مادة إلزامية جزءاً من امتحانات نخبة الموظفين المدنيين). ولذلك نُقّحت كافة المواد التي كانت تعتبر غربية الثقافة أو غير أخلاقية في الكتب المدرسية الجديدة. وهكذا، صارت الغاية هي «جمال الموت» بدلاً من الاهتمام الغربي السخيف بالجمال السطحي، مثلما كان يحلو لبعض نقاد الثقافة اليابانيين أن يطلقوا عليه. وامتد التركيز على أساطير الأصل الإلهي لليابان ليشمل كافة التخصصات. حتى إن أحد مدرسي الجغرافيا فوجئ بطلبته يصححون له: ربما لم يكن سبب نشأة البحار الداخلية انخساف الأرض التي كانت في الأصل تصل بين

شيكوكو[31] (Shikoku) والبر الرئيس، وأصروا على أن مدرس التاريخ أخبرهم أن «آلهة الأرض استخدمت هذه الأرض في العصور القديمة لبناء جسر بين اليابان والسماء».

وأخذ التلاميذ يمضون قدراً هائلاً من الوقت خارج المدارس للقيام بتدريبات ذات نمط عسكري أو للعمل في ما يُسمى بالمشاريع التطوعية. وكان بعض هذه الأعمال مصدر مرح يفوق بكثير الجلوس في صفوف الدراسة (كانت الفصول على أية حال باردة جداً في معظم فترات السنة بعد أن قام العديد من المدارس بالتبرع بمواقده المصنوعة من الحديد لصالح جهود الحرب). وتظهر الصور الفوتوغرافية الأطفال سعداء بمهاجمة دمى روزفلت وتشرشل بسيوف خشبية أو بإلقاء أنفسهم على الأرض متظاهرين بأنهم ضحايا هجوم بالغاز. لكن التدريبات اتسمت بالقسوة في أوقات أخرى، فكان الأطفال يجبرون على قضاء ساعات طويلة في أيام الشتاء الباردة حفاة الأقدام أو حتى عراة الصدور. وفي كثير من الأحيان كان يُستدعى الأطفال للمساعدة في إزالة الأعشاب الضارة من الطرق والبنوك أو تنظيف أرضيات الأضرحة والمعابد أو حتى بناء مطارات جديدة. ولم تكن أيام العطل والإجازات استثناءً من هذه الأعمال: فخصصت العطلة الصيفية التقليدية للعمل التطوعي بعد تغيير اسمها إلى «فترة التدريب الصيفي».

وكان الأطفال يتعلمون في المدارس حب الإمبراطور وتقديسه، فالكتب الدراسية صورته أباً للأمة، ورمزاً للعطاء. وكانوا يُلقّنون أنه عندما تُوّج الإمبراطور «تكرم وقال إنه سوف يجعلنا سعداء ويجعل بلادنا مزدهرة». وكان في كل مدرسة وطنية مكتبة معلومات، وكانت تقتصر بعض المدارس أحياناً على مجرد خزانة في كل فصل من الفصول إلا أنها غالباً ما تكون مزاراً صغيراً قائماً بذاته على أرض المدرسة، ويضم صور الإمبراطور والإمبراطورة ونسخة من المرسوم الإمبراطوري الخاص بالتعليم، والذي أصدره الإمبراطور الجد. وكان يتحتم على كل طالب يمر بجوار هذه المكتبة في أي وقت أن يقف وينحني بشدة أمامها. كما كان على مدير المدرسة أن يرفع هذا المرسوم ويقرأه بشكل رسمي أمام المدرسة جميعها احتراماً لهذا المرسوم وذلك في عدة مناسبات على مدار العام. وكانت هذه المناسبات محفوفة بجو من الوقار الشديد. وكان المدرسون الذين لا يستطيعون قراءة هذا المرسوم بشكل صحيح أو يخطئون في بضع كلمات يشعرون

(31) أصغر الجزر الأربع الرئيسية المكونة للإقليم الياباني.

بالخزي حتى قيل إن بعضهم كان يقدم على الانتحار.

وعلى الرغم من النقص الشديد الذي طال الغذاء والملبس والوقود وغيرها من لوازم الحياة، وجد تلاميذ المدارس اليابانية كثيراً من وسائل الترويح عن أنفسهم على خلفية الحرب الشاملة. ومع سياسة شد الحزام التي كانت سائدة في ذلك الوقت، ازدهرت صناعة لعب الأطفال الرخيصة مثل نماذج الطائرات ولعبة الأقنعة الواقية من الغاز وورق اللعب المصور (مثال على ذلك أوراق اللعب التعليمية في شرق آسيا الكبرى التي كانت تحتوي على حروف أبجدية ورسوم عليها مشاهد من مستعمرات اليابان الجديدة) . وكانت مجلات الصبية تحتوي على حكايات بطولية مثيرة للجنود أو معلومات عن الأراضي التي أصبحت جزءاً من منطقة شرق آسيا الكبرى ذات الرخاء المشترك. واستُخدمت شخصيات الرسوم المتحركة في كاريكاتير الأطفال، مثل الجندي الكلب الذي تحول من وغد في فترة ما قبل الحرب إلى قائد في وقت الحرب، وذلك لغرس قيم الولاء ونكران الذات. وكان الآباء أيضاً يسعدون بإلباس أبنائهم الزي العسكري في المناسبات الخاصة، مثل احتفال «شيتشيجوسان» عند بلوغ الطفل الثالثة والخامسة والسابعة. وكان يُستدعى الأطفال للمشاركة في توديع الجنود المغادرين والانضمام إلى أفواجهم، وكانت المحطات غالباً ما تكتظ بحشود من تلاميذ المدارس يضحكون ويلوحون بأعلام اليابان هاتفين: «بانزاي» (أي «طالت أعماركم») للجنود. ومع تزايد الغارات الجوية الأمريكية على اليابان، صارت مدارس المناطق الحضرية مهددة من الجو، فبدأت المدن في إجلاء أطفالها إلى المناطق الريفية. وكان الآباء ينظمون أحياناً عمليات الإجلاء بشكل مستقل، فيرسلون أبناءهم إلى الأقارب في الريف. وفي معظم الحالات كانت عمليات الإجلاء تخضع لدوائر محلية معينة بحيث تشمل جميع المدارس. ويتذكر العديد من اليابانيين من ذوي الستين والسبعين عاماً عمليات الإجلاء بوصفها التجربة الحاسمة في الحرب بالنسبة لهم.

وجد الأطفال أنفسهم في بيئات غير مألوفة، فأطفال القرية الذين انضموا إليهم في مدارس الريف يتحدثون في كثير من الأحيان بلهجة قوية، في وقت افتقد فيه هؤلاء الأطفال العديد من وسائل الراحة التي كان يحصل عليها بسهولة تلاميذ المناطق الحضرية، مثل حصيرة تاتامي التي كانت تفرش على الأرض والملابس النظيفة التي لم تعد متوفرة لهم. وعانت القرى من الازدحام (كثير من القرى كانت تُضغَط لاستيعاب ضيوفهم

الجدد) ومن انبعاث الروائح الكريهة (فالأسر الزراعية كانت ما زالت تستخدم السماد البشري في تسميد الحقول) ومن البرودة (إذ كانت الثلوج تسقط غزيرة على مناطق الريف شمال اليابان وغربها بما يفوق المناطق المكتظة بالسكان في الشرق، وكانت بيوت المزارعين جيدة التهوية بشكل كبير) ومن الظلمة (وحتى إن وجدت الكهرباء فنصيب معظم الأسر مصباح واحد فقط قوته 20 واطاً). وبطبيعة الحال، افتقد الأطفال آباءهم، لكنهم سرعان ما اعتادوا على الوضع الجديد، ووجدوا أنفسهم يلعبون ألعاباً جديدة، وكونوا صداقات مختلفة، وتعلموا أسلوباً جديداً للحياة فشهدوا دورة الزراعة والرعاية والحصاد.

ولم يكن من المتاح للأطفال الاستمتاع بطفولتهم سوى لوقت قصير خلال سني الحرب، فالشباب من الرجال والنساء فوق سن الرابعة عشرة تسجل أسماؤهم في مركز إرشاد العمل الوطني بغرض التعبئة العمالية المحتملة فكانوا عرضة لإرسالهم إلى مصانع الذخيرة حيث يتعاظم خطر التعرض للقصف أكبر من أي وقت مضى. وفي السنوات الأخيرة من الحرب كان الجيش والبحرية يقبلان متطوعين من سن 14 عاماً. وفي الواقع، صار الجيش يعتمد بشكل متزايد على الشباب اليابانيين. فما يزيد عن ثلاثة أرباع من قضوا بوصفهم طيارين انتحاريين متطوعين كانوا من طلبة الجامعات (كان الجيش يفضل طلبة الفنون بدلاً من العلماء والمهندسين، الذين كانوا في نظر الجيش مهمين جداً لجهود الحرب الشاملة بما يفوق التضحية بهم). بالنسبة لأولئك الشباب الذين لم يُجَنَّدوا عمالاً أو عسكريين، فكانوا يمارسون الكثير من العمل الشاق في مزارع أسرهم أو في الأعمال الأسرية الأخرى، والتي ربما كانت تعاني من قلة العمال الذين يتمتعون بأجسام قوية؛ فالجيش يجند رجال هذه الأسر.

المرأة والعمل وتنظيم الأسرة

وعندما تورطت اليابان في حربها مع الصين في يوليو 1937، أخذت الأسر تفقد رجالها في الجيش. فارتفع عدد القوات اليابانية خلال السنوات الأولى من حرب الصين إلى مليون جندي. وعند الهجوم على بيرل هاربور صار عددهم ثلاثة ملايين. وفي وقت لاحق وعلى الرغم من الخسائر الفادحة في الجيش التي أدت إلى مقتل زهاء مليوني جندي

أخذ العدد الإجمالي للعسكريين يواصل ارتفاعه حتى بلغ سبعة ملايين في عام 1945، أي 20٪ من مجموع السكان الذكور. وفي وقت سابق من الحرب كان يُعفى المشتغلون في مهن رئيسة أو العاملون في مجال التعليم العالي. أما بحلول نهاية الحرب فقد جُنِّدَ جميع الرجال القادرين ممن تقل أعمارهم عن 45 عاماً للقيام بأي عمل في الجيش.

ومع هذا الاستنزاف الكبير للرجال عانت المرأة مزيداً من الواجبات القاسية. فأكثر من نصف الأسر اليابانية يقومون بأعمال أسرية، مثل الزراعة أو إدارة المحلات أو الصناعات المنزلية. فصار لزاماً أن تبقي المرأة على هذه الأعمال، بمساعدة الأطفال والمسنين. وزاد الأمر صعوبة الحاجة الشديدة للعمالة في المصانع والمناجم وفي مشاريع البناء. وفي غياب الرجال بدأت الشركات اليابانية في توظيف النساء لشغل هذه المناصب. مما مثل أعباء إضافية فرضتها الحرب على المرأة شأنها شأن التدريبات على الغارات الجوية، وحملات الادخار، والعمل التطوعي، فضلاً عن أنشطة الرابطة الوطنية للمرأة وجمعية الدفاع عن المرأة.

تشكلت الرابطة الوطنية للمرأة في مطلع القرن العشرين بعضوية نساء من الطبقة العليا، ولكن بحلول الحرب العالمية الثانية انضم إلى هاتين الجمعيتين الملايين من أفراد الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة، وقد صارت عضوية أي من هاتين المنظمتين إلزامية.

وكانت مراسم توديع الجنود من أهم مسؤوليات العضوات. فكانت هذه السيدات يتوجهن إلى محطات السكك الحديد مرتديات الملابس البسيطة البيضاء بوصفها رمزاً للنقاء إلى جانب الأوشحة التي تمثل شارات الهوية لجمعياتهن فيقدمن الشاي والوجبات الخفيفة للجنود المسافرين على موائد تنصب لهذا الغرض.

أما في المدن، فكانت عضوات هذه الجمعيات يقفن على نواصي الشوارع ليجمعن المساهمات من ألف سيدة، تمثلت في حياكة أحزمة الجنود والبحارة حول خصورهم، والتي قيل إنها توفر الحماية لمن يرتديها بفضل القوى الروحية لكثير من النساء اللاتي ساهمن في صناعتها. وعلى الأقل كانت هذه الأحزمة دليلاً على اهتمام الناس في الوطن بأمر الجنود. وينطبق الأمر نفسه على الباقات التشجيعية التي كانت تعدها المجموعات النسائية، بحيث تحتوي على أشياء مختلفة قد يجدها الجنود مفيدة لهم أو تذكرهم بوطنهم مثل السجائر والمجلات وقصاصات الصحف المحلية ورسائل الأصدقاء من القرية

والحلوى والصابون وشفرات الحلاقة وصور نجوم السينما اليابانية وغيرها من الأشياء. وفي المدن الكبيرة، كان العديد من النساء يشترين هذه الحقائب في مجموعات جاهزة متوفرة في المحال التجارية. وبهذه الطريقة وجد أصحاب محلات التجزئة طريقة للاستفادة من الشعور الوطني عن طريق تسويق بضاعتهم. وكانت تكلفة الحقائب المنمقة تقدر بخمسة ينات وهو مبلغ لم تستطع الطبقات الكادحة توفيره، لذلك لجأت هذه الطبقات إلى شراء أنواع منزلية الصنع كانت أكثر شيوعاً.

وفي فترة متقدمة من الحرب ازداد الطلب على الجماعات النسائية للمشاركة في الجنازات. فكان رماد آلاف القتلى من الجنود يصل إلى الوطن في صناديق خشبية صغيرة على متن سفن تقوم بتفريغ محتوياتها في الموانئ الرئيسة باليابان. على أن تُبَلَّغَ أسر الضحايا بموعد وصول هذه السفن بحيث يذهبون لاستلام رماد أقاربهم. فكانت الجماعات النسائية تستقبل أسر الضحايا في المحطات عند عودتها وترافقها إلى المنازل. وكانت البلديات عادة تتكفل بمصاريف الجنازات التي كانت مناسبات شبه رسمية يحضرها العمداء والمسؤولون المحليون والعضوات بالجمعيات النسائية. وكان الآباء في هذه الجنازات يظهرون رباطة الجأش حتى إنهم يشكرون الآلهة التي أعطت أبناءهم الفرصة للموت في سبيل الإمبراطور والبلاد (ربما كان هذا وراء أسطورة عدم شعور الأم اليابانية بالحزن). فكانت الجماعات النسائية تحرص على مساعدة الأسر في المحافظة على هذا المظهر وذلك بطريقة غير ملفتة للنظر.

كانت عضوات الجمعيات النسائية يشاركن في أنشطة الدفاع المحلية التي اضطلعت بها في السابق الجمعيات الشبابية وجمعيات جنود الاحتياط. وتشمل هذه الأنشطة الوقاية من الحريق ومكافحة الحريق، والتعبئة في حالات الغارات الجوية، وتحسين الأوضاع المعيشية في المدن والقرى، والحفلات الترفيهية. فمثلاً دأبت الجمعيات النسائية على تنظيم محاضرات حول الصحة والنظافة والهجرة والآداب العامة. وكان المحاضرون عادة من الوجهاء المحليين، مثل مديري المدارس والمدرسين والخبراء الزراعيين المحليين أو الأطباء. كما ساعدت الجمعيات النسائية في تنظيم الاحتفالات الوطنية مثل اليوم الوطني وعيد الجيش وعيد البحرية. وكثيراً ما كانت النساء والطالبات دعامة أساسية لحفلات الموسيقا والرقص، التي كانت تهدف إلى رفع عزيمة الشعب.

وقد لعبت النساء دوراً حيوياً بمشاركتهن في جمعيات الأحياء (كان الرؤساء الشرفيون لهذه الجمعيات عادة من الرجال إلا أن معظم الأنشطة كانت تقودها النساء)، كما لعبن دوراً رئيساً في حملات الادخار وجمع التبرعات للجيش وتبرعات السلع المعدنية لإعادة تدويرها لصنع الذخائر. وتعد الحماسة الشديدة لدعم هذه الجهود أحد الأدلة على الرغبة الحقيقية في تقديم الدعم لجهود الحرب من قبل نساء كثيرات. ومن جهة أخرى، أجرت قوات الاحتلال الأمريكي دراسة استقصائية أواخر 1945 على عينة من 5000 شخص من الرجال والنساء والأطفال لتحديد مستوى استعدادهم للقتال. أوضحت الدراسة أن الروح القتالية كانت أقوى بين النساء، ولاسيما الشابات وتلاميذ المدارس.

وعلى الرغم من كل ما وقع على عاتق النساء من أعباء جراء الحرب استفادت النساء من الفرص الجديدة التي توفرت لهن؛ فقد أعطى غياب الرجل الفرصة للمرأة كي تنال شيئاً من الاستقلالية لم يكن متاحاً لها من قبل. فقد كانت المرأة تحتل موقعاً متواضعاً في النظام الشائع للأسرة اليابانية وحتى انهزمت اليابان كان من الممكن تزويجهن أو إرسالهن للعمل وفقاً لهوى زعيم الأسرة، بل وكان من بينهن من يؤدين المهام المنزلية الوضيعة دون شكوى، كما كن آخر من يستشار في أمور الرفاهية أو الراحة. أما مع ارتحال كثير من زعماء الأسر إلى جبهات القتال صارت المرأة قادرة على اتخاذ قرار مستقل وفقاً لمصالحها الشخصية. وعلاوة على ذلك فقد صرن يتلقين أجراً على الأعمال التي كن يقمن بها لصالح جهود الحرب، وفي بعض الأحيان كن يتلقين أجوراً أفضل بكثير من ذي قبل. لذا فقد اكتسب بعضهن استقلاله المالي المحدود على الرغم من مطالبة بقية أعضاء الأسرة من الذكور بمرتباتهن. وعلاوة على ذلك كان بعضهن يشعر بالمسؤولية والحرية عند قيامه بمهام كبيرة من أجل المجتمع، سواء في دور قيادي في جمعيات الأحياء أو في صناعة وسيلة ترفيه للمجتمع لرفع الروح المعنوية.

وبالإضافة إلى واجباتهن في ظل غياب الرجال كان يُستعان بهن لدعم طموحات اليابان الإمبريالية من خلال إنجابهن للأطفال. فحتى أواخر فترة الثلاثينيات كان ينظر للزيادة السكانية باعتبارها واحدة من المشكلات الكبيرة التي تواجه اليابان. وقد تُذرِّع بمشكلة السكان للاستيلاء على منشوريا، فكان يروج لاحتياج اليابان إلى الأرض لإعادة توطين السكان الإضافيين. ولكن نظراً لأن الحكومة اليابانية كانت تفكر في عالم تسيطر

فيه اليابان على شرق الهند الأسيوي أخذ البيروقراطيون المتحمسون يخططون لزيادة عدد سكان اليابان في غضون 20 سنة ليصبح 100 مليون نسمة بدلاً من سبعين مليون (وهو رقم استُخدِم بالفعل على نحو مضلل في العديد من الشعارات زمن الحرب).

وفي بداية الحرب حظرت الحكومة أية وسيلة تساعد في تحديد النسل، وشرعت في تقديم الجوائز لتشجيع النساء على الإنجاب، وكانت زوجة الجنرال توجو، الذي كان رئيساً للوزراء في عام 1941، واحدة من الشخصيات العامة المحورية في هذه الحملة. وتحت رعاية وزارة الرعاية الاجتماعية، قامت المحافظات بتقديم الحوافز النقدية (ومنها جائزة مجانية التعليم العالي) إلى «الأسر التي تتمتع بنسبة إنجاب متميزة»، وهو المسمى الذي أطلقته على الأسر التي لديها عشرة أطفال أو أكثر. وأصدرت المحافظات منشورات تحمل صوراً لعائلات كبيرة تضم عدداً كبيراً من الأطفال الصغار. وبطبيعة الحال، اضطرت الحكومة إلى التصدي إلى جملة من العوامل المحبطة لإنجاب العائلات لكثير من الأطفال ومنها نقص المواد الغذائية الضرورية لإطعام عدد أكبر من الأفواه داخل الأسرة الواحدة، ونقص عدد الرجال اللازمين لإنجاب الأطفال. ومع كل العقبات، كانت السياسة العامة للسلطات طوال سنوات الحرب تتمثل في محاولة الحد من استخدام النساء كأيد عاملة. وكما يقول توماس هافنز (Thomas Havens): كان الهدف دائماً هو حماية المثالية التقليدية للمرأة زوجةً وأماً، ما يمثل تناقضاً واضحاً مع أعداء اليابان الذين قيل عنهم إنهم كانوا على استعداد للتضحية بالمنزل والأسرة من أجل إنتاج الذخائر. وكان الاعتقاد السائد في اليابان أنه من دون أسرة قوية مستقرة لا مجال لأي نصر. وبالتالي كانت معظم النساء المشاركات في العمل في وقت الحرب من الشابات والعازبات اللائي تراوحت أعمارهن بين 15 و24 سنة. وكان هذا السن مقبولاً لعمل المرأة، أما المراحل العمرية الأكبر سناً من ذلك، فكان يُنظر للمرأة فيها على أنها زوجة وربة منزل، تقوم ببناء أسرة ولا يزيد إسهامها تجاه الدولة في أوقات الحرب أو فترات السلم عن الحرف اليدوية أو العمل بالقطعة من المنزل.

الجريمة والشرطة

في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي، بدت اليابان في أعين الأجانب دولة بوليسية،

تشبه إلى حد كبير الاتحاد السوفيتي تحت الرقابة التامة لجهاز المخابرات السوفيتية «الكي جي بي». ويعود ذلك في الأساس إلى إخضاع الأجانب لمراقبة خاصة، وسط أجواء من الريبة سادت معظم أنحاء العالم. وكان زوار البلاد معرضين للوقوع في مشكلات خطيرة إذا قاموا مثلاً بتصوير سفن في المرفأ أو جنود في موكب عسكري. وحتى الذين أقاموا في مناطق نائية كانت لديهم تعليقات على تدخلات الشرطة التي طلبت من السكان مثلاً فتح بيوتهم للتفتيش مرتين في السنة للتأكد من تطبيق معايير النظافة. وكانت صورة رجل الشرطة المحلي الفضولي المعتد بذاته وبسيفه المتدلي على الأرض إحدى الصور النمطية لليابان، التي كان الأجانب يرسلونها إلى بلادهم على الأرجح.

وتعدّ هذه الصورة امتداداً لممارسة قديمة العهد، فقد كان للشرطة وجود سلطوي في حياة اليابانيين منذ أيام «الساموراي»، لكن وجودها هذا لم يكن دائماً غير مرحب به. فبالنسبة لغالبية اليابانيين ظلت الشرطة ضماناً لما اعتبروه السلامة الاستثنائية لدولة الالتزام بالقانون.

أما بالنسبة للأقلية الصغيرة ممن كان لهم باع في المعارضة السياسية، فاتسمت سنوات الحرب بالقمع العنيف لهم. فالاشتراكيون والنقابيون والمحرضون من أجل الاستقلال الكوري، وحتى الليبراليون القدماء أو أساتذة الجامعات كانوا عرضة للاستجواب والسجن بغض النظر عن ثرواتهم أو مكانتهم الاجتماعية. وعندما ساءت الحرب صارت معظم الأنشطة اليومية، مثل قراءة الكتب الأجنبية والاستماع إلى موسيقا الجاز في أحد المقاهي (على الرغم من أن أحد المراقبين أشار إلى أن الشرطة كانت لا تستطيع أن تميز بين ديوك إلينغتون وموتسارت) والتذمر من الحرب، وحتى التباكي على فقدان أحد الأبناء في القتال، كل هذه الممارسات من الممكن أن تضع الشخص في موضع اشتباه. كما كان لأي تعليق طائش يشكك في أسطورة الأصول الإلهية للإمبراطور أن يؤدي بصاحبه إلى الوقوع في ورطة كبيرة لارتكابه جريمة الطعن في الذات الملكية غير واضحة المعالم. كل هذا كان يعني أن المعاناة من الشرطة كانت قد وصلت إلى المرحلة الأصعب أثناء الحرب، وكانت هناك حملة طارئة في عام 1944 لتجنيد قوات شرطة من الأحداث الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين 16 و19 سنة.

وكان أعضاء الشرطة العليا الخاصة (التوكو) إلى جانب أعضاء (الكيمبيتاي)– الذراع

السياسية للشرطة العسكرية– بمثابة الأوصياء على التفكير الصحيح وسياسية الوضع الراهن. وكان للشرطة العسكرية صلاحيات واسعة تسمح لها باعتقال الأشخاص ومحاكمة المشتبه بارتكابهم جرائم تخريبية أمام المحاكم العسكرية، بل كان لها دور شُرطيّ خطير في مستعمرات اليابان الخارجية (وكانت مصدراً للخوف والكراهية) وكذلك في مناهضة الجرائم المحلية. وكان تركيز الشرطة العليا الخاصة ينصب على استئصال الفكر المنحرف، وخصوصاً المتعاطفين مع اليساريين داخل اليابان. وفي المجمل كان الأجانب يطلقون على هذه الوحدة اسم «شرطة الفكر».

ويذكر جون داور (John Dower) أن سبب الحضور الكبير لقوات الشرطة الخاصة هو القلق الحقيقي بين النخبة الحاكمة اليابانية، وخصوصاً في السنوات الأخيرة، من الحرب. فقد كانت اليابان على شفا فوضى اجتماعية وسياسية، وربما باتت على حافة ثورة شيوعية. وأظهر البحث الذي أجراه جونز وجود حالة من خيبة الأمل على جميع مستويات المجتمع الياباني، وهو ما انطبق على صفوف الشرطة نفسها. فقد اكتشف الضباط، الذين قاموا بقراءة أفكار اليساريين كي يفهموا عدوهم، تجاوزات النظام في زمن الحرب. وألقى مستوى السخرية في زمن الحرب والسأم بين اليابانيين العاديين ظلال شك على أسطورة وحدة اليابان وتجانسها، وما كان يُرمز له خلال سنوات الحرب بشعار «100 مليون قلب ينبضون كقلب رجل واحد».

وتكشف سجلات الشرطة تحقيقات عدة حول تعليقات عفوية أو منتقدة للحرب أو للإمبراطور أو للنظام الاجتماعي. فعلى سبيل المثال، سُجن أحد المزارعين الصغار لمدة ستة أشهر لأنه قال: «الزعيم الصيني تشانغ كاي تشيك كان أعظم من الإمبراطور». وقال مزارع آخر مخاطباً جمعاً من أهالي قريته: «أشعر بالأسف لأني ولدت في اليابان... وأنا أكره الإمبراطور». وقُبِضَ على رجل كان ابنه قد قتل في الحرب، لمجرد أن قال: «على الرغم من أنه يجوز للمرء أن يتكلم كثيراً عن الأمة، لا يمكن للوالد فعل شيء حيال البكاء».

وتحتفظ الشرطة أيضاً بسجلات تفيد بالعثور على كتابات على الجدران ورسائل تحريضية في الأماكن العامة أو رسائل مجهولة المصدر. وشملت هذه الكتابات تعليقات انتقادية للحرب والعجز الذي صاحبها وانتقادات للنظام الاجتماعي وللإمبراطور. وعلى

الرغم من أن بعض هذه الكتابات كتبها محرضون على الشيوعية بصورة لا تدعو للشك، جاء بعضها ليعكس أفكار المواطن الياباني العادي، كما في حالة الشخص الذي كتب «غبي» على التاج الإمبراطوري على ورقة نقدية، أو صبي الستة عشر ربيعاً الذي ألقي القبض عليه متلبساً وهو يكتب «أنا أكره الجيش» على جدار إحدى المراحيض العامة. وعندما قامت الشرطة بالتحقيق في الآلاف من هذه الحوادث وجدت أن التعليقات المناهضة للحرب والانهزامية منها ارتفع بشكل ملحوظ في السنة الأخيرة من الحرب. وذلك الأمر أتاح القول بأن المواطنين اليابانيين العاديين، على الأقل من بداية عام 1945، كانوا في انتظار انتهاء الحرب للحصول على فرصة إعادة بناء حياتهم، ولعلّ ذلك يفسر الاستقبال الإيجابي الذي حظي به الحلفاء بمجرد أن احتلوا اليابان أواخر العام نفسه.

الريف الياباني

في مطلع أربعينيات القرن الماضي كان ما يقرب من نصف سكان اليابان لا يزالون في مجتمعات ريفية. وفي فترة الثلاثينيات كانت المشاكل التي تعاني منها المناطق الريفية، مثل: الاكتظاظ السكاني ونظام الإدارة المالكة القمعي والفقر المدقع، من بين القضايا السياسية والاجتماعية المركزية التي تواجه الأمة. وجاءت الحرب لتوجه ضربة أخرى للمجتمعات الريفية، ولكنها من جهة أخرى قدمت رؤية حول الكيفية التي يشق الريف الياباني بها طريقه للخروج من الفقر.

لقد كان الأثر الأول للحرب على القرى اليابانية هو النقص المتزايد في عدد العمالة. والذي كان في حد ذاته مثاراً للسخرية لأن القضية الأساسية في المناطق الريفية في اليابان لمدة أكثر من قرن كانت قلة الأراضي بالنسبة إلى عدد سكانها. فكان متوسط عدد أفراد الأسرة الريفية ستة أعضاء. وتراوحت مساحة المزرعة بين فدان واثنين مما يكفي بالكاد لإطعام هذا العدد من الناس إذا لم يكن على المزارعين دفع حصة من منتجاتهم إلى الملاك والحكومة في هيئة إيجار وضرائب. وكما كان سائداً في ذلك الوقت فإن معظم الأسر الزراعية كانت مضطرة لإرسال بعض أعضائها إلى العمل من أجل المال، سواء في المزارع الأكثر ثراء في القرية أو في مصانع البلدات والمدن القريبة. ولكن مع إرسال الشبان إلى الحرب عانى باقي أفراد الأسرة من ضغوط شديدة للحصول على محاصيلهم.

ويمكن فهم آثار الحرب على الأسر الريفية من خلال تجربة «ساكايو توشيي» وهي إحدى سيدات المناطق الريفية، كان عمرها 12 عاماً سنة 1937. وكانت أسرتها نموذجاً للمزارعين المستأجرين الفقراء في مناطق زراعة الأرز في اليابان. فهذه الأسرة كانت تزرع في أرضها، التي تبلغ مساحتها نحو فدانين في محافظة «نيجاتا» شمال غرب اليابان، ما يكاد يكفيها من طعام، بعد سداد الإيجار وبيع بعض من المحاصيل للحصول على المال، ولم يكونوا على الرغم من ذلك قادرين على تغطية نفقاتهم دون إرسال جميع أفراد الأسرة للعمل في الخارج من أجل المال (حتى إنهم كثيراً ما كانوا يختبئون عندما يأتي المالك والدائنون للمطالبة بأموالهم). وشمل هذا العمل الإضافي كلاً من الأب والأم، اللذين كانا يعملان بالأجرة في مشاريع الأشغال العامة وفي محاصيل الجيران، فضلاً عن شقيقيها الكبيرين، اللذين عمل أحدهما في المزارع المحلية بينما عمل الآخر مساعداً في أحد متاجر العاصمة طوكيو، أما شقيقتها الكبرى فقد أرسلت في سن العاشرة للعمل خادمةً. وحتى «توشيي» نفسها بعد أن أكملت عامها السادس من التعليم الإلزامي أُرسِلَت للعمل جليسة لأطفال عائلة أحد الملاك في قرية مجاورة.

واستُدعي شقيقها الأكبر إلى الجيش عام 1937 فاشترك في حرب الصين، لكنه عاد إلى وطنه مريضاً بنهاية العام التالي. وكانت العائلة قادرة على النضال دون أية مشكلات حتى وقع هجوم بيرل هاربور عندما كانت «توشيي» في السادسة عشر من عمرها فعادت إلى المنزل بعد انقضاء فترة عقد العمل وهي أربع سنوات،كما عادت أختها «كيميي» إلى المنزل أيضاً. ومع بلوغها الثامنة عشر أصيبت «توشيي» بانهيار عقلي مفاجئ وصارت في حاجة إلى رعاية مستمرة.

وبعد الهجوم على بيرل هاربور، استُدعي شقيقا «توشيي» على الفور. وكان شقيقها الأكبر قد تزوج للتو لكنه خرج للحاق بفرقته تاركاً زوجته مع العائلة. ولم تَرَ «توشيي» أياً من شقيقيها مجدداً، فقد لقي أحدهما حتفه أثناء القتال اليائس في جزيرة غوادالكنال ومات الأخر متأثراً بمرض ما في سومطرة. ومع ذلك كان على باقي أفراد الأسرة أن يديروا شؤونها حتى مع فقدانها اثنين من رجالها. ووجدت «توشيي» نفسها عاملة في مزرعة في حين كانت تحاول مساعدة والديها لاستعادة حقل معرض للفيضانات بالقرب من النهر كانت المحافظة قد منحته لهم لقاء إيجار سنوي رمزي.

وكانت الأسرة تقوم بزراعة الأرز وفول الصويا، وقليل من التوت، والخضراوات. فكانوا يبيعون محصول الصويا لقاء قليل من المال، كما كانوا يطعمون دود القز بأوراق التوت فقد كانوا يقومون بتربيته مرتين سنوياً بهدف الحصول على قليل من الدخل الإضافي. أما الأرز (والذي كانوا يخلطونه مع القمح والشعير وأوراق الدايكون (فجل ذو حجم كبير) لزيادة كميته) والخضروات فكانا يمثلان القوت الأساس للأسرة.

وحتى قبل الحرب كان والد «توشيي» يضطر إلى بيع جزء كبير من محصول الأرز لشراء ضروريات الأسرة ودفع إيجار منزله والضرائب. أما مع استحداث نظام الحصص التموينية الجديد اضطر إلى التخلي عملياً عن كامل المحصول. وكانت القرية تحصل من المحافظة على حصة من الأرز للمساهمة في الحصص التموينية. فكان ضباط القرية يقومون بتقسيم الحصص بين القرى الصغيرة، التي تقوم بدورها بتقسيمها بمساعدة جماعة الحي. وبسبب الفقر لم يكن لدى والد «توشيي» رأي في التخصيص. فقد شعر بأن حصته الخاصة كانت مرتفعة جداً نظراً لضعف الإنتاجية في مساحات كبيرة من أرضه، فلم يكن له بد حيال ذلك. كما أنه إذا فشل في تقديم حصته فسيشعر بالخزي أمام جماعة الحي إذ سيكون من الواجب على أعضائها الآخرين التعويض لسد العجز. وبالتالي كانت الأسرة تحصل على بطاقات الحصص التموينية، التي كانت مفيدة فقط في توفير ضروريات الأسرة وذلك في مقابل الحصول على أرزها الثمين.

وكانت الأسرة تقوم بتعويض خسارة محصولها من خلال العمل مقابل أجر. فقد كانت الحرب تعني أن هناك كثيراً من فرص العمل المدفوع الأجر، لذا قام والد «توشيي» بإرسالها هي وزوج شقيقها للعمل مع جماعة العمال على أرصفة ميناء «نيجاتا». ممن يقومون بتفريغ شحنات الفحم من السفن. وكان هذا العمل مرهقاً للغاية فقد كانوا يعملون جنباً إلى جنب مع أسرى الحرب وغيرهم من العمال والعبيد. لكن خمسة ينات في اليوم كانت بمثابة عون كبير للعائلة.

وكان الطلب على الشابات من أمثال «توشيي» كبيراً للقيام بخدمات متعلقة بالحرب. فكانت «توشيي» عضوةً في كل من جمعية شباب القرية وجمعية الدفاع عن النساء. وفي أوقات فراغها النادرة كانت تشارك في حفلات توديع جنود القرية المغادرين، وكانت تساعد في الجنازات، كما كانت تشرف على تدريبات الغارات الجوية، وكانت تحضر

محاضرات حول الصحة والتغذية والهجرة، كما قامت بصنع أحزمة الألف غرزة والباقات التشجيعية. وكانت تقوم بدورها في التسرية عن سكان القرية الذين كانوا يعانون من ضغوط شديدة، فكانت تشارك سنوياً في حفلة من الحفلات الترفيهية في القرية بارتدائها الملابس والتنكر في زي رجل. كانت الحياة صعبة بكل المقاييس، لكنها كانت تشعر دائماً بالامتنان إزاء التقارب والصداقة والدعم المتبادل في مجتمعها القروي الصغير. ولعل هذا هو أحد الأسباب التي دفعتها وغيرها لبذل كل الجهد للوفاء بالتزاماتها تجاه المجتمع وبطبيعة الحال تجاه القرية، والمحافظة، والأمة.

ومن المحاضرات التي كانت «توشيي» وغيرها من القرويين الآخرين تداوم على حضورها، تلك التي شجعت على الهجرة إلى منشوريا. ففي الفترة من منتصف ثلاثينيات القرن الماضي كان هناك زخم للجهد الوطني الكبير إزاء تهجير قرابة مليون عائلة (معظمهم من المناطق الريفية) إلى منشوريا. وأدى برنامج الهجرة لمنشوريا إلى خلق بيروقراطية ضخمة في التعامل مع موضوع توطين الأرض فكان ينطوي على الدعاية، والمحاضرات، وكثير من الكتابات التي كانت تهدف إلى إقناع القرويين اليابانيين أن منشوريا تقدم لهم مستقبلاً مشرقاً. وساهم في البرنامج أيضاً عدد لا حصر له من السلطات القروية في التخطيط لإرسال فقراء القرى إلى منشوريا، وبالتالي القضاء على الانقسامات الاجتماعية المريرة التي استشرت في جميع أنحاء المناطق الريفية اليابانية.

ووفقاً لخطط الحكومة كان يُمنح لكل عائلة مهاجرة 20 هكتاراً من الأراضي (التي شُريت من المستوطنين الصينيين أو الكوريين بأسعار الحكومة أو الأراضي المستصلحة من المستنقعات والغابات)، وكذلك مساعدات مالية تصل إلى 1000 ين لكل أسرة. وكان على القرى الراغبة في المشاركة أن تحدد نسبة القرويين الفائضين على أساس صيغة الحد الأدنى من الأراضي لتحقيق الاكتفاء الذاتي واستهداف عدد محدد من الأسر للهجرة. ثم تقوم القرية بعد ذلك بإرسال بعثة إلى منشوريا لاستكشاف موقع مناسب للتوطين ثم تقدم تقريرها إلى القرويين. وبعد عودتها تقوم البعثة بإقامة معرض للقرويين للتعرف على المواد التي جلبوها معهم.

ثم يتبع ذلك عملية طويلة من الإرشاد والإقناع، فكانت هناك زيارات يقوم بها أعضاء البعثة فضلاً عن أعضاء المكاتب المحلية والوطنية التابعة لمجلس الهجرة إلى

منشوريا ووزارة المستعمرات، ووزارة الزراعة والغابات، وكذلك الممثلات الإقليميات للمجموعات النسائية، ومجموعات الشباب، والتعاونيات الزراعية وذلك لإدارة دفة هذه الاجتماعات. وبمجرد تقدم المتطوعين تقوم القرية بتوفير التمويل للهجرة وشراء أراضي المهاجرين باستخدام الإعانات الوطنية (في كثير من الأحيان كان يستخدم هذا الشراء لإلغاء الديون المستحقة).

وبالنسبة لأولئك الذين كانوا يقررون الذهاب فقد تسبب مشروع منشوريا في خيبة أمل يدمى لها القلب فضلاً عن اليأس وفي نهاية المطاف الوفاة أو انفصال الأسر. ومن بين زهاء 223,000 مهاجر توفي زهاء 78,500 منهم إما على أيدي الروس أو الصينيين أو بسبب الجوع والمرض أو الانتحار.

الرعاية الاجتماعية

وعلى الرغم من المصاعب التي واجهها الشعب الياباني خلال ثماني سنوات من الحرب ساد اليابان عام 1945 جو من العدل والتعاطف والتكافل المجتمعي أكثر مما كانت عليه في عام 1937.

فمنذ بداية الحرب كانت الحكومة مهتمة بصحة المدنيين اليابانيين. وفي ظل هذه الظروف الصعبة المتمثلة في نقص العمالة والغذاء، ارتفع معدل الإصابة بمرض السل ومعدل الوفيات بدرجة كبيرة. وكان للمشاكل الصحية تأثير مباشر على جهود الحرب في ظل اعتماد الدولة على عمالة النساء والأطفال والمسنين. ومثلت الحالة السيئة للمجندين في الاختبارات الطبية مصدر قلق كبير للحكومة سنوات عدة. ففي أوقات السلم اضطر الجيش إلى رفض ما يزيد على 40٪ من المرشحين بسبب ضعف الرئتين وضعف البصر والتراخوما والسل. وأخذت أهلية المجندين تنخفض أكثر في وقت كان الجيش بحاجة إلى أكفأ الرجال اليابانيين.

فأدت هذه المخاوف إلى قيام الحكومة ببذل جهود لم يسبق لها مثيل لتحسين الظروف الصحية. فعلى سبيل المثال، دعا قانون التأمين الصحي الوطني الصادر عام 1938 إلى إنشاء جمعيات التأمين في جميع أنحاء البلاد. وعلى الرغم من كون العضوية اختيارية قامت الدولة بدعم الأقساط. وبحلول عام 1945، كان هناك 10,432 جمعية و41 مليون عضو

غالبيتهم من السكان العاملين. وبحلول عام 1938، بدأت وزارة الرعاية الاجتماعية التي أنشئت حديثاً في تقديم المساعدة المالية لمرافق الرعاية الصحية بالإضافة إلى إنشاء المراكز الصحية وكذلك من أجل الوقاية من الأمراض الطفيلية والسل. كانت الخطة تعتمد على الإعانات المالية للعلاج أقل من اعتمادها على الأنشطة الوقائية. وفي فترة ما بعد الحرب تحسنت الحالة الصحية لسكان اليابان كثيراً ووصل مستوى الرعاية الصحية وطول العمر إلى مستوى أكبر مما كان عليه قبل الحرب. والسبب في هذا التحسن يكمن جزئياً في الإصلاحات الكثيرة التي اضطلعت بها الحكومة اليابانية خلال الحرب.

كما شهدت الحرب أيضاً زيادة في تحويل الأنشطة النسائية إلى أنشطة ذات طابع جماعي، مثل الطهي ورعاية الأطفال. وكان النقاد والمهتمون يدعون طيلة سنوات إلى القيام بمثل هذه الجهود الجماعية، إلا أن نقص العمالة بسبب الحرب هو ما أقنع المجتمعات المحلية في النهاية بأن تتصرف. وبحلول عام 1941، كان هناك أكثر من 18,000 جماعة طبخ في القرى اليابانية. وكان كثير من هذه الجماعات يحصل على دعم مالي من الجمعية الإمبراطورية الزراعية أو من التعاونيات الزراعية المحلية. وكانت كل أسرة في مجموعة الطبخ، التي كانت تضم 30 أسرة تقوم بتوفير الطعام بالإضافة إلى بعض المشتريات التي كانوا يحصلون عليها من الأموال التي تُجمَعُ. وكانت هناك إشكالية في تعيين طاهٍ ليرأس كل مجموعة. فقامت كل مجموعة بحل هذه المسألة بطريقتها الخاصة، فقام بعضهم بتعيين أقل النساء ارتباطاً بدون أجر، بينما قامت الأخرى بتعيين أمهر الطهاة ولكن بمقابل مادي.

وأدت الحرب إلى تحسن أحوال كثير من المزارعين المستأجرين. فقد رأت الحكومة أن دفع المستأجرين حصة كبيرة من عائداتهم إيجاراً لملاك الأراضي لن يكون حافزاً للقيام بالأعمال الإضافية اللازمة للحفاظ على الإنتاج وزيادته، فأصدرت الحكومة عام 1939 قوانين للرقابة على إيجارات المزارع، كما أنشأت نظاماً للتسعيرة ذا شقين عُمِلَ بموجبه على دفع مزيد من الأموال للمستأجرين ثمناً لمحاصيلهم أكثر مما يدفع للملاك وذلك باستحداثها نظام الشراء الإجباري في السنة التالية. وبنهاية الحرب كان الملاك يتلقون جزءاً صغيراً من الإيجار الذي كانوا يداومون على تحصيله سابقاً، ما أدى تقريباً إلى اختفاء ربحية النظام الإقطاعي، وهي خطوة أولية هامة لإصلاح النظام الزراعي في فترة ما بعد

الحرب.

كما ينسب للحرب فضل إصلاح نظام الإدارة في اليابان. فبسبب النقص الحاد في العمالة وحرية تنقل العمال، بذلت الشركات جهوداً استثنائية خلال الحرب لتوفير الأمن لعمالتها، فزادت رواتبهم بشكل منتظم، وكذلك عملت على توفير المرافق المختلفة لهم من سكن وطعام. ولعبت الحكومة دوراً غير مسبوق في إدارة الاقتصاد زمن الحرب، واستمر هذا الدور بجانب نظام الإدارة المعدل لسنوات حتى ما بعد الحرب ليصبحا حجر الأساس في «منظومة النمو الكبير» في اليابان.

ومن المفارقات الكبرى للحرب العالمية الثانية أن اثنتين من الدول المهزومة وهما اليابان وألمانيا تعافيتا وصارتا منافسين اقتصاديين كبيرين للحلفاء المنتصرين. يرجع ذلك جزئياً إلى الدمار الذي خلفته الحرب والذي سمح لهما بإعادة بناء صناعتيهما باستخدام أحدث الأساليب. كما يعود ذلك أيضاً إلى الدعم الاقتصادي الأميركي، ويعزى ذلك أيضاً بدرجة كبيرة إلى سياسات الرعاية الاجتماعية والتغيرات الاقتصادية التي حدثت خلال الحرب نفسها، وهي حرب، كما أسلفنا سابقاً، وُصفت بأنها ‹مفيدة» لشعب اليابان، لكنها كانت مدمرة بالنسبة إلى ملايين المدنيين الذين فقدوا حياتهم وذويهم ومنازلهم وممتلكاتهم فضلاً عن أضغاث الأحلام التي راودتهم عن الحرب والجيش.

الهوامش

1. Quoted from Niigata-shi Gappi Chosonshi Henshushitsu, ed., Ishiyama Sonpo nimiru Senjika no Noson, Niigata City, Japan: Niigata-shi Gappei Chosonshi Henshushitsu, 1984 (p. 112).
2. Matsumoto Sugizo writing in le no Hikari, September 1937 (p. 37).
3. Barak Kushner, The Thought War: Japanese Imperial Propaganda, Honolulu: University of Hawai'i Press, 2006 (p. 113).
4. E. Taylor Atkins, Blue Nippon: Authenticating Jazz in Japan, Durham, NC: Duke University Press, 2001 (p. 127).

5. See «Japanese Cinema Goes to War,» in John W. Dower, Japan in War and Peace: Selected Essays, New York: The New Press, 1993.
6. Masaomi Yui, Senso to Kokumin. Tokyo: Shueisha, 1980 (p. 65).
7. For a detailed discussion of the wartime activities of woman's associations, see Sandra Wilson,«Family or State? Nation, War, and Gender in Japan 1937-45,» Critical Asian Studies 38 (2006): 209-37.
8. Thomas R. H. Havens, Valley of Darkness: The Japanese People and World War Two, New York: W. W. Norton, 1978 (pp. 135-38).
9. Details in «Sensational Rumors, Seditious Graffiti and the Nighmares of the Thought Police,» in Dower 1993.
10. For the story of Toshie's life and society in rural Japan over the twentieth century, see Simon Partner, Toshie: A Story of Village Life in Twentieth-Century Japan, Berkeley: University of California Press, 2004.

مراجع مختارة

Atkins, E. Taylor. Blue Nippon: Authenticating Jazz in Japan. Durham, NC: Duke.University Press, 2001.

يوضح الفصل الرابع بعنوان:

"Jazz for the Country's Sake: «Toward a New Cultural Order in Wartime Japan»

محاولات السلطات تخليص اليابان من «موسيقا العدو» والطرق التي من خلالها التف الموسيقيون وعشاق الموسيقا حول القواعد والقوانين.

Cook, Theodore, and Haruko Taya. Japan at War: An Oral History. New York: The New Press، 1992.

الجزء الثالث من المقابلات يركز على الجبهة الداخلية ويشمل ذكريات الطفولة والعمل المدني والحربي والإعلام وطبقة النخبة.

Daniels, Gordon. «Japanese Domestic Radio and Cinema Propaganda, 1937-1945: An Overview.» In Film and Radio Propaganda in World War II, edited by K.R.M. Short. Knoxville: University of Tennessee Press, 1983.

مقدمة قصيرة عن النظام والمحتوى ورد الفعل الشعبي تجاه الإعلام المرئي والمسموع في فترة الحرب.

Dower, John W. Japan in War and Peace: Selected Essays. New York: The New Press. 1993.

يشتمل عمل داور (Dower) أحد الأساتذة الرائدين في المجتمع الياباني في فترة الحرب، ويحتوى على مقالات موسعة عن الصور المتبادلة لليابانيين والأمريكيين، ودور السينما، و«فائدة» حرب اليابان، وخصوصاً الفصل الذي يحمل العنوان:
Sensational Rumors، Seditious Graffiti and the Nightmares of the Thought» «Police» (ص 101 – 154).

Havens, Thomas R. H. Valley of Darkness: The Japanese People and World War Two. New York: W. W. Norton, 1978.

يعتبر هذا الكتاب أوسع كتب التاريخ الاجتماعي لليابان في فترة الحرب على الإطلاق.

Kushner, Barak. The Thought War: Japanese Imperial Propaganda. Honolulu: University of Hawai'i Press, 2006.

يصف الفصل الرابع أدوار ونمط عيش الممثلين الكوميديين في اليابان في فترة الحرب.

Marshall, Byron K. Learning to Be Modern: Japanese Political Discourse on Education. Boulder, CO: Westview, 1994.

الفصل الخامس من الكتاب: «Mobilizing the Spirit of the Nation، 1931–1945»
يورد تفاصيل السياسات التعليمية في أوقات الحرب وتأثير الحرب على مجموعة من القضايا تشمل حرية الفكر والرابطات الطلابية.

Miyake, Yoshiko. «Doubling Expectations: Motherhood and Women's Factory Work under State Management in Japan in the 1930s and 1940s.» In Recreating Japanese Women, 1600-1945, edited by Gail Bernstein. Berkeley: University of California Press, 1991.

تحليل لسياسة الحكومة اليابانية لزيادة عدد سكانها.

Partner, Simon. Toshie: A Story of Village Life in Twentieth-Century Japan. Berkeley: University of California Press, 2004, Chapter 3, «The Village Goes to War,» expands on the section here on rural society.

الفصل الثالث في الكتاب المذكور أعلاه يتوسع في تناول القسم الخاص بالمجتمع الريفي.

Richie, Donald. A Hundred Years of Japanese Film: A Concise History. Tokyo: Kodansha International, 2001.

يعتبر مؤلف هذا الكتاب أحد المؤرخين والنقاد اليابانيين الكبار في مجال الكتابة السينمائية باللغة الإنجليزية. ويلخص في هذا العمل تاريخ السينما أثناء سنوات الحرب (ص 96 – 106)

Saga, Jun'ichi. Memories of Silk and Straw: A Self-Portrait of Small-Town

Japan. Translated by Garry O. Evans. Tokyo: Kodansha International, 1987.

مجموعة متميزة من القصص التاريخية الشفوية تغطي جميع جوانب الحياة اليومية والعمل في العقود الأولى من القرن العشرين. وتعتبر هذه المجموعة من الأهمية الكبيرة لكل قارئ يريد فهم حقائق الحياة اليومية في هذه الفترة.

Wilson, Sandra. «Family or State? Nation, War, and Gender in Japan 1937-45.» Critical Asian Studies 38 (2006): 209-37.

مناقشة حية ومشوقة للارتباك الأيديولوجي الذي اندلع في اليابان أثناء الحرب بين المرأة بوصفها حامية لنظام الأسرة وبوصفها عاملة ناشطة في المجهود الحربي.

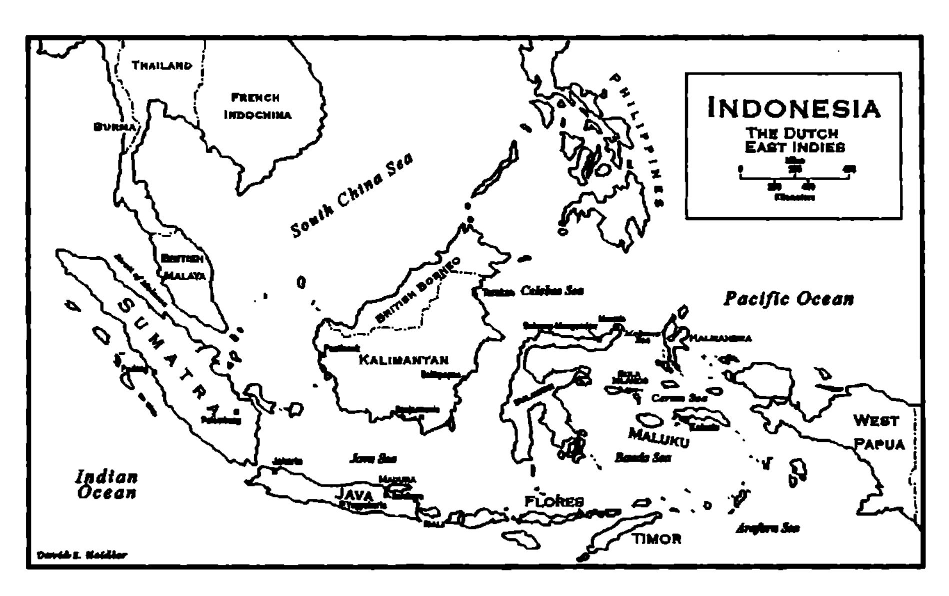
الفصل السادس

الحياة اليومية في إندونيسيا في ظل الحرب
بين 1939 و1949

بقلم: شيجيرو ساتو

نجد في التاريخ الخاص بإندونيسيا أن المعادل الطبيعي للحرب العالمية الثانية يتمثل في فترة الاحتلال الياباني التي بدأت في يوم 9 مارس 1942 (بعد شهرين من المعارك ضد الجيش الاستعماري الهولندي)، واستمرت حتى 15 أغسطس 1945. وكانت الحياة اليومية في إندونيسيا بالفعل قد تأثرت بشدة من جراء تلك الحرب حتى قبل الغزو الياباني. فحين داهمت اليابان مدن الصين الساحلية الجنوبية، واحتلتها بين عامي 1937 و1938، حدث ركود شديد في الحركة التجارية بين الصين وإندونيسيا. وعند اندلاع الحرب في أوروبا أواخر عام 1939، بدأت الحكومة الهولندية في جاكرتا تتأهب لأي هجوم عليها. ومع نهاية هذه الحرب، لم يكن استسلام اليابان عام 1945 إلا مجرد مقدمة لمزيد من العنف. ففي 17 أغسطس 1945، أعلنت إندونيسيا استقلالها، وحين عاد الهولنديون في محاولة لفرض سيطرتهم من جديد اندلعت حرب شرسة– كانت الأخيرة– حتى عام 1949. وعلى أية حال، سيركز هذا الفصل على وضع المجتمع الإندونيسي تحت الاحتلال الياباني بشكل رئيس، مع مراعاة ضرورة وضع الأحداث في سياقها التاريخي، وتخطي الإطار الزمني المعتاد، والنظر إلى الاتجاهات السائدة خلال الفترة الممتدة من لحظة اندلاع الحرب العالمية الثانية في أوروبا حتى نهاية حرب إندونيسيا لنيل الاستقلال.

كذلك فإنه من الضروري، ونحن بصدد فهم أحوال مجتمع ما أثناء فترة حرب، أن نضع في الاعتبار وجود عدة منظورات. لكن بشكل عام، يصور التاريخ الإندونيسي



إندونيسيا (ديفيد إس هايدلر)

الحديث عادة فترة الاحتلال الياباني على أنها أشد الفترات صعوبة وظلاماً. فإذا كانت الحياة اليومية قبل عام 1942 بالنسبة للكثيرين قد شهدت صراعاً من أجل البقاء، فإن هذا الصراع قد خسره أولئك الكثيرون أثناء ذلك الاحتلال. ولعل التعليق التالي على الأحوال في جاكرتا عام 1944، الصادر عن سيدة هولندية من أصل أوروآسيوي، يكشف ذلك بوضوح:

«كانت مشاهد البؤس والشقاء في المدينة لا تُحتمل، فكان المتسولون يرقدون على جانب الطريق ملفوفين في أردية بالية من الخيش أو عراة تماماً لا تكسوهم سوى الجروح البشعة، وكانت وجوههم شديدة الشحوب وقد طغى النحول الشديد على أجسادهم الواهنة. ورأيت شاحنات جمع القمامة في وسط المدينة وهي تحمل الكثير من الجثث، في حين كان الضابط الياباني يركل بعض الأجساد الأخرى بحذائه الثقيل، ليرى ما إذا كان أي من هؤلاء المساكين لا يزال على قيد الحياة، كي يتركه راقداً حيث كان. وكان الفقر والبؤس– عموماً– هو ما تراه في كل حدب وصوب: لا دواء ولا طعام ولا ملبس! فقلت لنفسي: يا إلهي، إلى متى سنبقى تحت هذه الأوضاع؟».

وبعد استسلام اليابان بفترة قصيرة، كتب براموديا أنانتا تور– وهو أحد أهم الكتاب في إندونيسيا– رواية تصف جاوة الوسطى في منتصف عام 1945، وقد اتبعت تلك الرواية

الأسلوب عينه تقريباً:

«حين تذهب إلى المدينة، ترى جثثاً لأطفال ملقاة على جانب الطريق، كما ترى جثث البالغين في كل مكان: أمام الأسواق والمحال، وتحت الجسور، وفوق أكوام القمامة وفي البالوعات، فأينما وليت وجهك لا تجد حولك سوى الجثث! فالأموات- كباراً وصغاراً- موجودون في كل مكان! هل تعلم ماذا كانوا يفعلون وهم على وشك مفارقة الحياة، قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة؟ كانوا يجمعون أوراق الأشجار التي يستعملونها للف الطعام، ثم يقومون بتغطية أجسامهم بهذه الأوراق، ليلفظوا بعدها آخر أنفاسهم! وكأنهم كانوا يعرفون أنهم موشكون على الموت، وأنه لن يقوم أحد بعد موتهم بتجهيزهم للدفن. يا لها من أوقات عصيبة مروا بها! وما سبب كل ذلك؟ لم أرَ طوال حياتي أمراً مثل ذلك: الجثث في كل مكان».

ومع هذه المشاهد، كان هناك آخرون يعيشون حياة مختلفة تماماً. فقد كانت إندونيسيا تختلف اختلافاً شديداً عن بورما والفلبين، ذلك أنها لم تشهد آثار الحرب وإراقة الدماء خلال أغلب فترة الاحتلال. وكانت مناوشات الحلفاء في هجومهم المضاد قد امتدت خلف الحافة الشرقية للأرخبيل الإندونيسي، متجهة شمالاً على طول الخط الذي يربط غينيا الجديدة، والفلبين، وأوكيناوا، وطوكيو. غير أنه لم يكن هناك إنزال وقصف من جانب الحلفاء في جاوة، حيث يسكن 70٪ من سكان إندونيسيا الذين يصل تعدادهم إلى سبعين مليون نسمة. أما سورابايا، وبعض المناطق الأخرى القليلة، فقد شهدت غارات جوية متقطعة بداية من أواخر يوليو عام 1943. وجدير بالذكر أنه لم تكن هناك أية حركات مقاومة تذكر، وأن السكان المحليين- بشكل عام- كانوا يتعاونون مع قوات الاحتلال. ومن ثم، كانت المظاهرات ضد الاحتلال الياباني قليلة ومتباعدة، لدرجة أن التعبير الشائع بين اليابانيين في إندونيسيا خلال الحرب كان: «جاوة النعيم المقيم، أما بورما فهي الجحيم بعينه». ولِمَ لا وقد استولى اليابانيون على منازل الهولنديين الفخمة بما فيها من خدم، ليقيموا فيها، في حين كانت النوادي التي يقضي فيها الضباط اليابانيون وقتهم تعج بأجود أنواع الخمور المستوردة التي تقدمها شابات إندونيسيات جميلات؟ ولعله من المعروف أن ذلك المستوى العالي من حسن النوايا بين اليابانيين والإندونيسيين قد استمر حتى أثناء سنوات الاحتلال الأخيرة، حين حدث التدهور في الاقتصاد المحلي.

وقد كان اليابانيون يرون أن الفقر المدقع الذي شهدوه في إندونيسيا إنما هو بسبب قرون من استغلال الاحتلال الهولندي. وحين أصبح من الواضح أن الحرب والاحتلال الياباني قد تسببا في مزيد من التدهور في المستوى المعيشي في إندونيسيا، كانوا يرون أن ذلك هو التحدي الذي يجب على الإندونيسيين التغلب عليه، كي ينالوا حريتهم، ويعلنوا قيام إندونيسيا جديدة. وقد حافظ اليابانيون على الصداقة بينهم وبين السكان المحليين مع تلك الظروف القاسية. وبالفعل، استمرت العلاقة بين الكثير من اليابانيين والإندونيسيين بعد انتهاء الحرب، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، بل إن بعض علاقات الصداقة قد استمرت لعقود بعد انتهاء الحرب.

ومن المسائل التي يجب أخذها في الاعتبار أن أدوات الرصد التاريخية كانت عادة ما تميز سكان المدن المتعلمين. وقد كانت الغالبية العظمى من السكان في إندونيسيا في ذلك الوقت تعيش في الريف، حيث لا يوجد هناك- غالباً- سوى الأميين الذين لا يملكون أي تأثير في الرصد التاريخي. كما أنه يوجد بعض القصور فيما يتعلق بالأقلية المتعلمة. فقد غدا معروفاً أن غالبية المواطنين الهولنديين الذين كانوا يعيشون في إندونيسيا قبل الحرب يعودون لأصول أوروآسيوية، وأنهم من مواليد إندونيسيا، وأن اليابانيين قد دفعوا هؤلاء المواطنين البالغ عددهم حوالي مائة وخمسين ألف مواطن إلى الاختيار بين أمرين: إما تحديد هويتهم باعتبارهم آسيويين، والانضمام من ثم إلى حركة التحرير، أو تحديدها باعتبارهم أوروبيين، فيُوضعون في معسكرات الاعتقال. وكان أمراً طبيعياً أن يختار أغلبهم الحرية. وبالطبع، لم يتحدث هؤلاء الذين اختاروا الحرية بعد الحرب عن تجاربهم، بخلاف المعتقلين الذين نشروا مذكراتهم.

ويضاف إلى تلك الاختلافات التنوع في أنماط الحياة في المناطق المختلفة في إندونيسيا. فقد كانت هناك أوجه تشابه قليلة بين الحياة اليومية في شوارع جاكرتا المزدحمة القذرة وحياة أولئك الذين يعيشون في جزر مالوكو- حيث زراعة أشجار جوز الهند- أو في مزارع شرق سومطرة، أو في قرى جاوة. وفي داخل كاليمانتان، أو أعالي بابوا الغربية، كان هناك الكثير من المجتمعات التي ظلت بعيدة عن الحرب لعدة عقود حتى جاءهم غرباء من الخارج- منهم المبشرون الأوروبيون- وأخبروهم عن الحرب.

ولم يكن هذا الوعي المحدود بالحرب قاصراً على المناطق النائية، ففي جزيرة جاوة

الأكثر تكدساً بالسكان، جعل اليابانيون من الملايين عمالاً بالسخرة أُطلق عليهم اسم عمال «الروموشا» باللغة اليابانية. وقد كانت الصورة الثابتة للروموشا- أو العمال بالسخرة- هي صورة التعذيب، والموت من جراء سوء المعاملة، وظروف العمل شديدة القسوة. وقد قام مؤرخ إندونيسي- بعد مرور خمسين عاماً على تلك الأحداث- بإجراء مقابلات مع ثلاثمائة من عمال الروموشا السابقين في ولاية يوجياكارتا في وسط جاوة. والغريب أن المقابلات التي أجراها قد أفادت أن اليابانيين نادراً ما تواجدوا في بعض مواقع العمل. بل إن بعض هذه المقابلات مع بعضهم أفادت أنهم لم يروا شخصاً يابانياً واحداً طوال فترة الاحتلال.

كذلك يمكن ملاحظة عدد من التجارب المختلفة داخل كل مجتمع صغير. وذلك عند مراجعة مشروعات التاريخ الشفهي التي لا تزال تجرى على نطاق واسع في إندونيسيا وهولندا واليابان. مع مراعاة أن هذه المشروعات لم تستضف سوى الأشخاص المفوهين الذين تقلدوا المناصب المرموقة خلال الحرب، أو بعدها. وعلى الرغم من أن هؤلاء الأشخاص غالباً ما يفيدون أنهم شهدوا حالة الفقر التي شاعت أثناء الحرب، فإنهم يعترفون- إذا ما سئلوا- بعدم المعاناة من أشكال الشقاء آنذاك، بل إن بعضهم استطاع



عمال الروموشا الإندونيسيون يعملون في المشروعات اليابانية (جاوة بارو، العدد 23، 1 ديسمبر 1943)

جمع ثروة شخصية كبيرة خلال تلك الفترة العصيبة.

ولا شك أنه كان للاحتلال الياباني أثر عميق على إندونيسيا في شتى المجالات، بما فيها السياسة والإدارة المحلية والصناعة والمؤسسات الاجتماعية والجيش والتعليم واللغة والحياة الفكرية والفنون والدين والترفيه. فقد كانت التغييرات التي طرأت على تلك المجالات مؤثرة للغاية، حتى إنه ظهر ما عُرف بين المؤرخين باسم «نظرية التحول» التي ظلت- لعدة عقود- مسيطرة على تاريخ إندونيسيا الحديثة. وظهر التحول الأكثر وضوحاً في الناحية السياسية، إذ أُعلن قيام جمهورية إندونيسيا، ورفض عودة الاستعمار الهولندي، وتنصيب السجينين السياسيين السابقين سوكارنو وهاتا، ليكون أحدهما رئيساً لتلك الدولة المكونة حديثاً، ويكون الآخر نائباً للرئيس. وقد أدهشت تلك التحولات المؤرخين الذين أغفلوا الاستمرارية الحتمية خلف التغييرات الثورية. ولكن على الرغم من هذا التغير الجذري الذي شهده المشهد السياسي، فإن الواقع الاجتماعي والاقتصادي قد شهد تغيراً بطيئاً. ولعل المؤرخين وهم يدققون في تحليل التغييرات السياسية قد أغفلوا حياة الناس البسطاء. ولن نبالغ إذا قلنا: إن هدف هذا الفصل محاولة تصحيح ذلك، عن طريق استعراض أثر الحرب على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، في الحياة اليومية.

المتسولون والعاهرات والعمال

كانت الجماعات المهمشة التي تشمل المتسولين والعاهرات والمشردين، موجودة في إندونيسيا قبل الحرب بفترة طويلة. ولا تزال تلك الجماعات موجودة إلى يومنا هذا بأعداد كبيرة، بل إن بعضهم يلقى حتفه من دون أن يلتفت إليه أحد. والسؤال الذي يُسأل: لماذا زاد عدد هؤلاء خلال الحرب؟ وكيف؟

ونحن بصدد البحث عن إجابة شافية عن هذا السؤال، فنقول بداية: إنه من المعروف تاريخيّاً أن نسبة البطالة وانخفاض الرواتب قد تضاعفت خلال العقد السابق على الغزو الياباني. وقد بدأت هذه الظاهرة خلال الكساد العالمي في ثلاثينيات القرن العشرين، حين انهارت الصناعات التي تعتمد على التصدير، وسُرّح العمال بأعداد كبيرة. وإبان اندلاع الحرب الأوروبية، استمرت تلك الظاهرة في التضخم على الرغم من سعي الحكومة

الاستعمارية الهولندية لتحقيق الاكتفاء الذاتي من الغذاء، وبالتالي قيامها بتقنين صادرات الطعام. وبالفعل، شهدت الصناعات التصديرية الإندونيسية– بداية من شهر سبتمبر 1939، ولعدة أشهر– ازدهاراً، بفضل زيادة الطلب العالمي، وتحقيق المخزون الاحتياطي من قِبَل الحكومة والجيش. إلا أن ذلك الازدهار قد توقف حين احتل الألمان هولندا في يوم 10 مايو 1940. فقد تسبب ذلك في تقويض السلطة الهولندية في جاكرتا، بل إنه أدى إلى خسارة الأسواق الأوروبية بصفة نهائية، تلك الأسواق التي لم تزل ضرورية ومهمة للمصدرين الإندونيسيين.

وبدهي أن تؤثر هذه التغيرات في التجارة العالمية على أغلب الإندونيسيين، لأن اقتصادهم أصبح جزءاً لا يتجزأ من الاقتصاد العالمي. فقد عمل الكثير من الإندونيسيين في المشروعات الأوروبية الكبيرة داخل المستعمرة، مثل المزارع والمناجم التي وظّفت المزيد من العمال خلال فترة الازدهار التي لم تدم طويلاً. ومع انكماش التجارة العالمية، بدأت تلك المشروعات في تسريح العمال بأعداد ضخمة. ومن ناحية أخرى، كان الكثيرون يكسبون عيشهم من زراعة بعض المحاصيل لتصديرها، مثل: المطاط وجوز الهند (كان ساحل الأرخبيل الطويل غنياً بأشجار جوز الهند)، والبن والسكر. كما عملوا في جمع منتجات الغابات المختلفة بهدف تصديرها أيضاً. وقد كان نبات الكوبرا– بالنسبة للسكان الأصليين– هو منتج التصدير الرئيس (لب ثمار جوز الهند المجفف الذي يستخدم لأغراض متعددة، مثل استخلاص الزيت لصناعة الصابون)، حتى إن حجم إنتاج نبات الكوبرا السنوي بلغ ما يزيد عن مليون طن، كان يباع نصفه تقريباً في أوروبا. إلا أنه بحلول منتصف الأربعينيات انخفضت صادرات نبات الكوبرا إلى ربع حجمها قبل الحرب، وبدت علامات الأزمة الاقتصادية واضحة ومنتشرة. فقد أفادت التحريات الطبية في جاوة وجود زيادة سريعة في حالات سوء التغذية، وارتفاع في معدلات الوفيات فاق في بعض المناطق معدلات المواليد التي أخذت في الانخفاض. ومن ثم، فإنه قبل عام 1942 بفترة بدأ تدفق المتسولين والعاهرات والمشردين، إلى مدن إندونيسيا.

وحين احتل اليابانيون إندونيسيا في مطلع عام 1942، زاد عدد الباحثين عن وظائف في المدن بشكل سريع. وكان الكثير منهم ممن خدم سابقاً في جيش الاستعمار أو سلاح البحرية، إلى جانب العاملين بالمصانع التي توقفت عن العمل حين دخل العالم في الحرب

فانشغل عن التجارة. فعلى سبيل المثال، كان قوام العاملين بشركة مارين– إحدى الشركات في سورابايا– خمسة وعشرين ألف عامل. وبعد الغزو الياباني، تراجع هذا الرقم إلى ثلاثة آلاف عامل فقط. وقد قامت الحكومات المحلية بمحاولات بائسة لمساعدة العاطلين، ولكن كان أكثر ما أمكنها فعله إعطاء المسجلين من الباحثين عن الوظائف 250 جراماً من الأرز، وخمسة قروش يوميّاً للفرد.

وكان المسجلون الباحثون عن الوظائف في المدن هم المواطنون أصحاب الامتيازات! أما في الريف، فلم يكن هناك نظام للتسجيل ولا خدمات للرعاية. وبعد أن فقد كثير من سكان الريف أسباب رزقهم في ذلك الوقت (أدى انهيار صادرات الشاي وحده إلى



Het werk van „Penolong Korban Perang"

توزيع الطعام في فترات الطوارئ – شرق جاوة

(وورلدفيوز أون سبورت أون بيلد، 28 من فبراير 1942)

خسارة مائتي ألف من العاملين وظائفهم في غرب جاوة)، وأخفقوا في إيجاد مصادر جديدة للرزق في الريف، غادرت غالبيتهم القرى متجهة إلى المدن، لدرجة أن عدد سكان جاكرتا قد زاد من زهاء ستمائة ألف نسمة ليصل إلى زهاء ثمانمائة وخمسين ألفاً خلال الاحتلال الياباني. وقد وجد بعضٌ ممن هاجروا إلى المدن بعض المهن المربحة، مثل التجارة في السوق السوداء، إلا أن الكثيرين غيرهم غدوا مشردين وعاجزين عن تأمين طعامهم، حيث تفيد سجلات مستشفى سيمارانج العام وجود زيادة هائلة في أعداد المرضى الذين يعانون من سوء التغذية الشديد، والذين دخلوا لتلقي العلاج في المستشفى على مدار عدة أشهر أواخر عام 1943. وسرعان ما اكتظت المستشفيات بالمرضى الذين يعانون سوء التغذية المزمن، والذين فارقوا الحياة بعد دخولهم المستشفى بوقت قصير.

ولكي يظلوا على قيد الحياة، كان على الذين تركوا قراهم أن يختاروا بين التسول أو البحث عن طعامهم في القمامة أو الدعارة أو أن يحالفهم الحظ في الحصول على وظيفة مؤقتة. وزاد عدد الذين انخرطوا في تلك الأعمال بصورة كبيرة بعد عام 1940 في مناطق مثل شرق جاوة، حيث فقدت المنتجات الزراعية– مثل السكر والبن والتبغ– زبائنها في أوروبا. وكان المفكرون المسلمون في جاوة قد عَبَّروا في بداية الاحتلال الياباني عن قلقهم من أن الفقر والبؤس قادا إلى الانحلال الأخلاقي، مما زاد كذلك من الأمراض المنقولة جنسياً. وقد شهد طبيب إندونيسي في شهر يوليو 1943 أن 5٪ من الأشخاص الذين سبق لهم الزواج يعانون من مرض الزهري، وأن النسبة ترتفع إلى 25٪ بين هؤلاء الذين سبق لهم الزواج أربع مرات. وحين أجرى اليابانيون الفحوص الطبية الدورية على العاهرات في المدن في جاوة مطلع عام 1943، لكي يختاروا العاهرات «النظيفات» ليعملوا في حانات الجيش الياباني، وجدوا أن 60 إلى 80٪ منهن يعانين من الأمراض الجنسية، بما فيها مرض الزهري. وكان قادة الجيش يعلمون أنه في الحروب الحديثة تتسبب الأمراض المنقولة جنسياً في إضعاف روح القتال لدى الجنود، بل وفي قتلهم أكثر من سلاح العدو. لذلك استخدم اليابانيون في حاناتهم فتيات صغيرات يفتقرن للخبرة، إما بالتحايل أو بالإكراه، على الرغم من وجود أعداد كبيرة من النساء المتمرسات في البغاء. وبالنسبة لما أطلق عليه محطات الراحة الخاصة بالضباط، استخدم اليابانيون نساء أوروآسيويات. ويشير أحد التقديرات إلى أن زهاء ألفي امرأة من الأوروآسيويات اللاتي لم يفقدن حريتهن

قد أصبحن خليلات لليابانيين. وعلي أية حال، لم يكن أمام هؤلاء الكثير من وسائل كسب العيش.

فخلال النصف الأول من فترة الاحتلال، وصلت البطالة إلى معدلات غير مسبوقة في جزيرة جاوة ذات الكثافة السكانية العالية. وبداية من أواخر عام 1943، أطلق اليابانيون حملة هدفها التعبئة العامة للطاقة البشرية. وقد ساهمت تلك الحملة في القضاء على البطالة، بل إنها أدت إلى خلق نقص في العمالة في أنحاء جاوة. وعادة ما تُربط التعبئة الإجبارية للعمالة بحاجة اليابان إلى إنشاء المنشآت العسكرية، إلا أن الأدلة المتوفرة تشير إلى أن 90٪ من هذه العمالة أستُخدِمت في المشروعات المدنية. ولعل السبب وراء ذلك يكمن في الانهيار الشديد في التجارة العالمية والمحلية– خاصة في فترة ما قبل منتصف عام 1943، وما بعدها– وهو ما دفع حكومة الاحتلال إلى محاولة تحقيق الاكتفاء الذاتي على المستوى الاقتصادي في كل الجزر الصغيرة. وقد كان تحقيق الاكتفاء الذاتي في جزيرة عالية الكثافة السكانية مثل جاوة أمراً مستحيلاً، إلا أن الحرب أجبرت حكومة الاحتلال على ضرورة التعامل مع الكثير من المهام المستحيلة.

وبالتالي لزم أن تُنتَجَ البدائل المختلفة للواردات محلياً، وقد كان ذلك في الغالب عن طريق استغلال العمالة بشكل مكثف. كما تطلب ذلك أيضاً إعادة هيكلة اقتصادية متعمقة، وكذلك إعادة توزيع العمالة. وهو ما أدى– بشكل عام– إلى تدهور الكفاءة الإنتاجية، نتيجة كدح الناس في العمل مع حصولهم على موارد أقل. خاصة مع دخول اليابانيين في مشروعات عديدة، وتحديدهم مواعيد إتمام صارمة، وممارستهم للضغط الشديد على العمال الإندونيسيين. فعلى سبيل المثال، كان عليهم الانتهاء من مشروعات إمداد الري قبل بداية الفصل المطير. ومع اقتراب الموعد المحدد للانتهاء، كان المشرفون على المشروعات غالباً ما يبقون العمل مستمراً على مدار اليوم، بتطبيق نظام العمل في ثلاث نوبات يومياً.

وقد أفادت صحيفة «جاوة شين بان» (Jawashinbun) اليابانية التي تنشر في جاوة، في يوم 6 فبراير 1945، أن متوسط الفترة التي يعملها العمال المسخرون في جزيرة جاوة لا تزيد عن شهرين، إلى أن يصابوا بالإجهاد الجسدي الشديد. إلا أن الفترة المحددة فعليّاً للعمل بالنسبة لهؤلاء الذين يُجمعون من وسط وشرق جاوة، وإرسالهم للعمل في الغرب،

كانت في الأغلب ثلاثة أشهر. وبحلول وقت الانتهاء من العمل المكلفين به، كان الكثيرون يعانون من الإجهاد الشديد، بسبب العمل الشاق، وسوء التغذية، والتعرض لظروف غير صحية. ففي الواقع، كان الكثير من أعمال الإنشاء- مثل تجفيف المستنقعات، وتنظيف الغابات- تحصل في مناطق تعج ببعوضة الملاريا. وقد كانت مناعة الرجال الذين جاءوا من قرى لا تعيش فيها الملاريا أضعف من أن تقاوم المرض. لذا سرعان ما أصيب الكثيرون منهم بالملاريا، وعدد من الأمراض الأخرى- مثل الدسنتاريا، وغيرها من الأمراض المعدية- التي انتقلت إلى أماكن جديدة بعد أن عادوا إلى قراهم.

وجدير بالذكر أن كثيراً من عمال السخرة قد فروا من أماكن عملهم، وغالبا ما كان يحدث ذلك بعد إصابتهم بالأمراض. وفي أثناء محاولتهم العودة إلى الوطن، كان الكثير منهم يقضي نحبه في الطريق، بسبب الجوع والتعب والمرض. ولذلك تفشى- وبشكل أوسع- مشهد وفاة أشخاص على جانب الطريق بداية من أواخر عام 1943، ليس فقط في المدن، ولكن أيضاً على طول الطرق الريفية، وفي مناطق أخرى.

أما من يكمل منهم فترة عمله، فكانت تجري إعادته بالقطار. ولكن هذا سبب مشاكل أيضاً، فالمسافة بين محطة القطار والقرية كانت تحتاج أحياناً للسير عدة أيام. وقد وجد الكثير من العمال أنفسهم في وهن شديد لا يستطيعون معه قطع تلك المسافة سيراً على الأقدام. وعند استسلام اليابان، تزايد- وبشكل حاد- عدد أولئك العمال السابقين المتجولين، وذلك لأن معظم هؤلاء الأشخاص قد تركوا مواقع المشاريع تقريباً في الوقت نفسه، وحاولوا العودة بمعرفتهم لديارهم. وخارج جاوة، كانت سومطرة أكبر مستقبل لهؤلاء العمال. وكان قد جرى إرسال زهاء 12000 عامل من جاوة إلى هناك خلال فترة الاحتلال. وبعد وقت قليل من الاستسلام الياباني، أعاد الهولنديون تأسيس سلطتهم الاستعمارية في سومطرة. وقد تحدث مفتشوهم عن عشرات الآلاف من أهالي جاوة المشردين والتائهين الذين يعانون من نقص في التغذية، ويهيمون في أجزاء عدة من المدينة.

وفي المجمل، أدت إعادة التشغيل الياباني لاقتصاد إندونيسيا إلى إقبال شديد على العمالة، حتى إنه في يوم 6 فبراير 1945 أعلنت «جاوة شين بون» أنه حتى المشردين في المناطق الحضرية سَيُستخدمون في تلك الأعمال. ومن ثم، بدأت الشرطة في مدينة جاكارتا بتعقب المشردين من الساعة الثالثة صباح يوم 5 فبراير. وبحلول الفجر، كانت

الشرطة قد اعتقلت زهاء 931 شخصاً، منهم 792 رجلاً و139 سيدة. وأفاد الكشف الطبي عليهم أن 387 رجلاً (49٪) و90 سيدة (65٪) غير مؤهلين للعمل، بسبب سوء التغذية والمرض. وكان من يصلح منهم يبدأ في العمل فوراً، بينما يعطى من لم يكن صالحاً للعمل منهم الطعام والدواء حتى يكون قادراً على العمل. وبالنسبة للأطفال الذين كانوا برفقة المشردين البالغين، فقد التزمت الصحيفة الصمت حيالهم!

الأطفال والتعليم

لم يتلقَ إلا عدد قليل نسبياً من الأطفال التعليم في إندونيسيا في فترة ما قبل الحرب. ففي جاوة، التحق في عام 1940 زهاء 20٪ من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ست وعشر سنوات بمدارس ابتدائية تقدم دورات لثلاث أو خمس سنوات. وقد كانت نسبة الالتحاق في العام الأول- بشكل عام- أعلى، بينما كان الكثير منهم يتخلى عن الدراسة قبل إتمام الدورات ذات الثلاث سنوات. وفي بالي، كانت نسبة الالتحاق 12٪ فقط. وفي الوقت نفسه، كانت تلك النسبة أقل في أغلب المناطق الأخرى. وكانت بعض المدارس في مناطق معينة قد رفضت عدداً من المتقدمين، نظراً لنقص المرافق والمدرسين. فضلاً عن أنه لم يكن يوجد مدارس بالأساس في بعض المناطق الأخرى.

وعامة كان التعليم منخفضاً بين السكان المحليين، ولم تكن للقراءة والكتابة أهمية في الحياة اليومية لأغلب الناس. فقد نسي العديد من هؤلاء الذين تلقوا المهارات الأساسية تعليمهم بمجرد ترك المدرسة. وبالإضافة لذلك، دعا بعض المعلمين الإسلاميين الناس إلى عدم تعلم الحروف الرومانية، لأن بعض الإرساليات المسيحية قد حاولت- تحت زعم الدعوة للتعليم- أن تنشر المسيحية في المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة. وكان هؤلاء المعلمون المسلمون يخشون أن يؤدي نشر التعليم على النظام الغربي إلى تدمير أسس الدين.

ومع أول مواجهة لليابانيين مع الإندونيسيين، لم يكن اليابانيون مندهشين من نسبة التعليم المنخفضة بين البالغين الإندونيسيين، ولكنهم كانوا مندهشين من المستوى المنخفض في مهارات التعامل مع الأرقام. فعلى سبيل المثال، لم يكن سوى القليل من الإندونيسيين يعرف عمره! وقد يكون مرد هذا لعادة عدم الاهتمام بالأعمار بشكل

دقيق، ولكن كانت هناك أمثلة تدل على أنهم كانوا بالفعل ضعفاء في الأرقام. فقد كان من الصعب على العديد منهم- مثلاً- معرفة التكلفة الإجمالية لست سلع، إذا كانت تكلفة كل سلعة 20 سنتاً. كما لاحظ ذلك أيضاً ضابط عسكري ياباني كان يقوم بتدريب الشباب المحلي على إنشاء قوات دفاع محلية. فقد أمر المتدربين بالتأكد في نهاية كل تدريب عسكري من أنه لا يوجد سلاح مفقود. وكانت تبدو على الشباب الصعوبة في العد حتى انتهوا إلى أن كل البنادق موجودة.

وكان اليابانيون يعتبرون التعليم أساساً لـ «شرق آسيا العظمى» التابعة لهم. ولذا فقد كان هدفهم زيادة الالتحاق بالمدارس في إندونيسيا بنسبة الضعف، ومن ثم أرسلوا المعلمين من اليابان، ووظفوا الأهالي الذين يتمتعون بمؤهلات تعليمية، وقاموا بإصلاح النظام التعليمي والمناهج. وللتغلب على النقص في المباني الدراسية، قاموا باستحداث نظام الفترتين (مجموعة تدرس من الساعة الثامنة والنصف صباحاً حتى قرابة الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، ومجموعة أخرى تدرس من الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر حتى الساعة السادسة والنصف مساءً). كما قاموا بإلغاء الرسوم الدراسية. وتجدر الإشارة إلى أنه خلال عهد الهولنديين، كان يجري إعفاء أطفال المناطق الأشد فقراً- التي تحصل على دخل يبلغ جيلدرين ونصف الجيلدر، أو أقل- من المصاريف الدراسية. أما الأطفال الآخرون، فكانوا يضطرون لدفع نحو 1٪ من دخل المنزل، وهو ما كان يشكل عبئاً على الوالدين. وقد كانت نتيجة هذه الإصلاحات متميزة، على الأقل في البداية. ففي بالي، زاد عدد التلاميذ في المدارس الابتدائية العمومية من 23859 قبل الغزو الياباني إلى 50987 في شهر أبريل 1944 (أي: زادت نسبة الالتحاق من 12٪ إلى 25٪). وكانت الزيادة في الالتحاق بالصف الأول كبيرة على وجه الخصوص، لأن الكثير من الأطفال الأكبر سناً، الذين لم يلتحقوا بالمدرسة على الإطلاق، قد التحقوا بهذا الصف الدراسي. أما طلبة المدرسة الثانوية، فظل عددهم قليلاً جداً بشكل عام، ولكن الزيادة النسبية من 170 إلى 705 في الفترة عينها كانت- بلا شك- هائلة.

وكتب سوزوكي مساهي، وهو تربوي ياباني كان يعمل مديراً لمدرسة في بالي خلال فترة الاحتلال، تقارير بشكل منتظم لزملائه في اليابان حول تلك التجربة. ومما ورد في كتاباته أنه في أحد الأيام أشرف على اختبار شفهي للمتقدمين لمدرسة لتدريب البحارة

أُنشِئَت حديثاً. وكان يأسف لأن معظم المتقدمين، الذين أكملوا ثلاث سنوات على الأقل في المدارس الابتدائية، لا يعرفون سوى القليل عن آسيا، أو عن أهمية ما كانت اليابان تسميه «حرب شرق آسيا العظمى»، وكان المتقدمون يجيبون بتخمينات عن سؤاله: لماذا جاءت اليابان إلى إندونيسيا؟ فقال له أحد المتقدمين، بدلاً من الإجابة المتوقعة والصحيحة (لتحرير آسيا من الاستعمار الغربي): «بحثاً عن الأرض»، وقال آخر: «بحثاً عن الطعام»، والأنكى كانت إجابة طالب ثالث قال إن اليابانيين أتوا إلى إندونيسيا للتدرب على التحدث باللغة الإندونيسية مع الأهالي!

وفيما يخص المعلومات العامة وفهم الحرب، كان الوصول للإذاعة محدوداً. وكانت معدلات ملكية أجهزة استقبال الإذاعة في إندونيسيا تقتصر على عدد قليل من ساكني الحضر من الأغنياء، وهم الهولنديون، والصينيون والعرب والطبقة العليا من الإندونيسيين. ولم تتوفر أجهزة مذياع الترانزيستور التي تعمل بالبطاريات إلا بعد الحرب، فكان الناس يحتاجون قبل عام 1945 إلى مصدر كهربائي لسماع المذياع. ولم تكن بالأساس هناك كهرباء في معظم الريف بإندونيسيا. وبالتالي لم يتعرض أغلب المدنيين العاديين بشكل مباشر لبث الإذاعة اليابانية.

لكن كان هناك ما هو أكثر تأثيراً من الدعاية اليابانية لجعل الإندونيسيين يتقبلون الاحتلال، ألا وهو ما يُسمى «نبوءة جويوبويو». وكانت هذه النبوءة التي تعود إلى الملك جويوبويو– من مملكة كيديري الهندوسية في شمال جاوة– غامضة بالأساس، ولكنها عُدِّلت قبل الغزو الياباني، لتناسب الوضع المعاصر. وبعد التعديل، كانت تشير إلى أنه ستصل قريباً من الشمال قردة صفراء تطرد الحكام البيض، وتبقى لفترة نضج الذرة فقط (ثلاثة أشهر ونصف)، ليحل محلها بعد ذلك ملك عادل من السكان الأصليين.

وعندما رأى الإندونيسيون انسحاب الجيش الهولندي قبل نزول اليابانيين على اليابسة، شعروا بأن نبوءة جويوبويو تتحقق. وقد دفع هذا ببعضهم لتعطيل الانسحاب الهولندي، بقطع أشجار كبيرة على جانب الطريق، وتركها بعرض الطرق الرئيسة. وعندما وصل اليابانيون، كان ما رآه الإندونيسيون هو مجموعات من الصبية ذوي الأرجل المقوسة، يمشون وقد أرهقهم التعب، وعلاهم التراب والعرق والبعوض، ويرتدي معظمهم نظارات ذات إطارات دائرية على وجوههم غير الحليقة. ومع ذلك، قام العديد

من الإندونيسيين بالترحيب بحماس بهؤلاء الجنود ذوي الروائح الكريهة، وقدموا لهم الطعام والشراب، حتى أن بعضهم أزال المتاريس التي أقامها الإندونيسيون على الطرق، لمساعدة اليابانيين على التقدم.

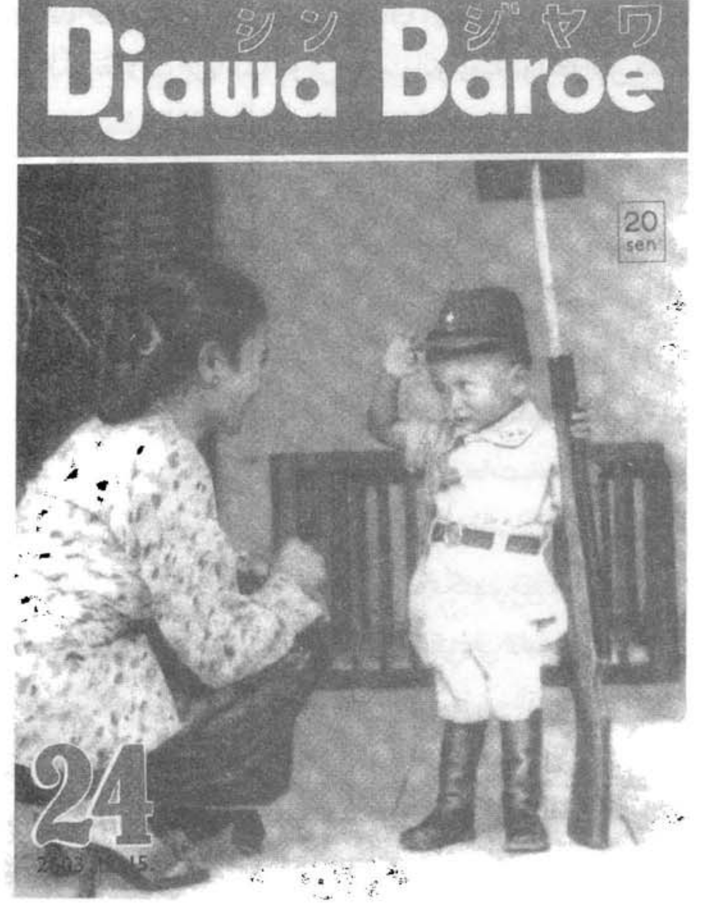
قام المحتلون- بعد وصولهم بوقت قليل- بافتتاح مدارس للغة اليابانية للأهالي في العديد من الأماكن. وقد أنشئت الأولى في مينادو- في شمال سولاويزي- يوم 5 مارس 1942 (قبل أربعة أيام من الاستسلام الهولندي). وكانت مدارس اللغات تمتلئ عادة في أول يوم من التسجيل، وكان تقدم الطلبة سريعاً بشكل ملحوظ. ولعل السبب الرئيس يكمن في أن الأهالي كانوا يعلمون أن التمكن من لغة الحاكم الجديد هو مفتاح النجاح الاجتماعي. إضافة إلى أن اليابانيين قدموا حوافز مالية على شكل علاوات شهرية إضافية لمن يجتازون اختبارات اللغة: جيلدر واحد للصف الأول، ترتفع إلى 15 جيلدراً للصف الخامس، وقد كانت هذه المبالغ قيمة في ذلك الوقت. وقد انتقد اليابانيون النظام التعليمي خلال عهد الهولنديين، لأنه كان يستهدف فقط نقل المهارات الفنية، مثل التعليم الأساسي والمهارات الحسابية، في حين يقمع الصحوة الوطنية، وحسّ الاعتماد على الذات. كما أنه تجاهل التعليم الأخلاقي والبدني، فكانت أغلب مدارس القرى تخلو من الملاعب الرياضية. فضلاً عن استبدال لغة الملايو التي اختارها القوميون الإندونيسيون لغة قومية لهم باللغات العامية في المدارس الابتدائية. وقد منع هذا الأطفال من تنمية أي إحساس بالانتماء للمجتمع الأكبر. وبالطبع، لم تكن ثمة مدارس ثانوية في القرى. وكان التعليم الثانوي، وما بعد المرحلة الثانوية، يحصل في المدن باستخدام اللغة الهولندية التي لم يكن تعليمها يجري في المدارس الابتدائية بالقرى. وبالتالي كانت الأغلبية الساحقة من الإندونيسيين محرومة من أي من مراحل التعليم بعد الابتدائية. وكان لا يسمح سوى لفئة قليلة من أطفال الميسورين الإندونيسيين بالالتحاق بالمدارس الابتدائية الهولندية التي كانت تؤدي لمستويات التعليم الأعلى. ولا شك أن القدرة على التحدث بالهولندية كانت مفتاح التميز والنجاح الاجتماعي، ولكن الهولنديين وفروا فرص تعلم لغتهم لفئة محدودة من الميسورين فقط.

وعلى النقيض من الهولنديين، قام اليابانيون بتعليم لغتهم بحماس. وقد كان جعل اللغة اليابانية اللغة الشائعة في «شرق آسيا العظمى» سياسة يابانية رسمية. لذا كان يوجد

في جاوة وحدها بحلول شهر ديسمبر 1943 زهاء 2211 مدرسة لتعليم اللغة اليابانية تضم 122198 طالباً. كما أصبحت اللغة اليابانية مادة إجبارية في كل مستويات التعليم الرسمي، ووضعت بسرعة كتب دراسية للغة اليابانية للتلاميذ الإندونيسيين. وفي أغسطس 1943، قام اليابانيون بإنشاء كلية المعلمين في جاكارتا، وألزموا معلمي المستقبل في مجال العلوم الإنسانية بالحصول على 13 ساعة أسبوعيّاً في تعلم اللغة اليابانية، كما ألزموا من هم في المجال العلمي بالحصول على 12 ساعة أسبوعيّاً. إضافة إلى أنهم خصصوا ساعتين أسبوعيّاً لدراسة الثقافة اليابانية. كذلك كانت اللغة اليابانية إلزامية في كلية الطب في جاكرتا، حيث كانت تُدرَّس مع محاضرات عن اليابان العظمى. وعموماً، كان على طلبة الطب قضاء مزيد من المحاضرات في تعلم اليابانية، والتعرف على اليابان، أكثر من أي موضوع آخر.

وبخلاف المدارس التي كانت تعترف بها وزارة التعليم، كان ثمة العديد من المدارس الإسلامية الصغيرة والكبيرة في أنحاء إندونيسيا. وقد كانت بعض المدارس الكبرى لها مبانيها، ومقار إدارتها الخاصة. بينما كان بعض الأفراد يديرون المدارس الصغرى باستخدام منازلهم أو المساجد، لتعليم النصوص الإسلامية لأطفال الأهالي. وكان اليابانيون يعطون دعماً مادياً متزايداً لبعض هذه المدارس، لضمان تعاون المدرسين الإسلاميين. كما كانوا يوزعون عليهم الكتب الدراسية الخاصة باللغة اليابانية، كي يتمكن التلاميذ من تعليم أنفسهم.

وعلى صعيد متصل، كان اليابانيون قد صادروا الإذاعات المملوكة للهولنديين، ثم وزعوها على نقاط مركزية (نحو 1000 مدرسة، وزهاء 1500 مكان عمومي). وأصبح يطلق على كل مذياع معلق على قمة برج صغير في مكان عام «البرج المغرد». وهناك قصة تقول إن بعض السيدات العجائز في إحدى المدن أصابتهن الدهشة لسماع أصوات بشر وموسيقا تأتي من صندوق صغير على قمة برج، لدرجة أنهن سجدن أمامه خاشعين على اعتبار أنه صوت الإله. وقد كانت الإذاعة الحكومية تنقل الأخبار بلغة يابانية بسيطة، كي يتدرب الأهالي على الفهم السماعي لها. ومن أجل تمارين القراءة، نشروا صحيفة «كانا جاوة شينبون»، وبعض المنشورات الأخرى التي كتبت بلغة يابانية بسيطة تعرف باسم «كانا».



أطفال إندونيسيون يتعلمون التشبه بالجنود اليابانيين
(جاوة بارو – العدد 24 – يوم 15 ديسمبر 1943)

لكن تحويل اللغة اليابانية إلى لغة شائعة أو وسيلة للتعليم، خلال فترة قصيرة كان أمراً مستحيلاً. وقد أقرّت سلطات الاحتلال بذلك، لكنها استمرت في دعم تعلمها إلى جانب التشجيع أيضاً على استعمال الملايو في السنوات المتأخرة من التعليم الابتدائي، على الرغم من أن معرفة الأطفال بهذه اللغة كانت محدودة في أحسن الأحوال، إذ كانت العامية هي ما يدرس عادة في المدرسة الابتدائية. وفي التعليم الثانوي وما بعد الثانوي، حلت الملايو محل الهولندية، مما جعل الوصول لتعليم ما بعد المرحلة الابتدائية أكثر سهولة للأهالي. ولعل هذا أحد أسباب ارتفاع الالتحاق بالمدارس الثانوية في بالي أثناء الاحتلال بنسبة أربعة أضعاف.

كما جعل اليابانيون التعليم الأخلاقي والبدني إلزامياً. فاستحدثوا الكثير من الأنشطة الجماعية، مثل الكرنفالات الرياضية، والرحلات الترفيهية، والمعارض الثقافية، والتمارين الصباحية المنتظمة، والسير في طوابير، والغناء الجماعي الكورالي، والرقص الجماعي. وقد كانت هذه الأنشطة التي تستهدف تقوية روح التضامن بين الأطفال محبوبة جداً. وكان الأطفال والآباء على حد سواء مولعين بشدة بالأساليب المختلفة من تمارين اللياقة التي تصاحب الموسيقا، ومنها تمارين الإذاعة، وتمارين البحرية، وتمارين الفتيات، وكانوا يطالبون غالباً بالمزيد منها.

كذلك كان الكثير من الصبية يحبون أن يلعبوا دور الجنود. وأصبح دارجاً بينهم أن يحلقوا رؤوسهم مثل الجنود اليابانيين، وأن يرتدوا قبعات مصنوعة من أوراق النخيل. وقد يصر بعضهم على عدم خلع القبعات حتى في أثناء الحصص في الفصل. وإذا سئلوا لماذا لا يخلعونها؟ كانوا يردون بأن اعتمارهم القبعات يمكنهم من أداء التحية مثل الجنود.

وعندما ألقى رئيس الوزراء الياباني كويزو كونياكي في 7 سبتمبر 1944 كلمة في البرلمان تعهد فيها بالاستقلال لجزر الأنديز الشرقية في المستقبل القريب، استغل اليابانيون في إندونيسيا هذه الأنباء في زيادة القومية الإندونيسية. وقد جرى تصوير الجو البهيج الذي ساد إندونيسيا آنذاك على نحو جيد في دراسة بنيديكت أندرسون التاريخية «جاوة في زمن الثورة» (1972). فعلى سبيل المثال، ظل الكثير من الإندونيسيين الذين كانوا في ذلك الوقت طلبة في المرحلة الثانوية يشهدون لفترة طويلة بأن بعض المدرسين اليابانيين الذين شجعوهم على تبني مواقف إيجابية كانوا أفضل من قابلوهم على الإطلاق.

وامتداداً لهذه الجهود، ألّف اليابانيون «قسم الطلبة». وقد كان إلزامياً كل صباح قراءة هذا القسم باللغة اليابانية قبل بدء الحصص، وكان نصه:

«نحن طلبة جاوة الجديدة
نقسم أننا تحت إرشاد اليابان العظمى
سندرس من أجل بناء شرق آسيا العظمى
ونتدرب من أجل بناء شرق آسيا العظمى
ونصبح موارد مفيدة في بناء شرق آسيا العظمى»

وقد كان مطلوباً من الطلبة في بالي ومناطق أخرى تحت حكم البحرية اليابانية ترديد أشكال مشابهة من هذا القسم.

ومع استمرار الحرب وتدهور الاقتصاد، بدأت السلطات اليابانية في اليابان والمناطق المحتلة في تعبئة الطلبة. ففي اليابان، جرى إرسال الطالبات لمصانع الذخيرة، وأُرسل طلبة الجامعات لميادين القتال. وفي إندونيسيا، كان معظم الطلبة صغاراً جداً لدرجة تمنع إشراكهم في الحرب بشكل مباشر. فجرت– بدلاً من ذلك– تعبئتهم من أجل الإنتاج الزراعي والحرفي الذي كان أغلبه متصلاً بشكل مباشر بالحرب الفعلية. وقد أشار المفكرون الإندونيسيون الذين كانوا يعملون مستشارين للاحتلال الياباني إلى أن المعرفة العملية في مجالات الزراعة والحرف كانت– في الواقع– أكثر أهمية لأطفال القرى. ولم يكن المربون اليابانيون متفقين من حيث المبدأ، ولكن مطالب الحرب دفعتهم بشكل متزايد للاعتماد على قدرة التلاميذ على العمل.

وقد أمرت السلطات اليابانية– في فترة الحرب– كل المدارس الموجودة في اليابان بتحويل ملاعبها إلى حقول خضروات، وبناء ملاجئ تحمي من الغارات الجوية. ولما كانت المدارس الإندونيسية ليست فيها ملاعب أصلاً، قام اليابانيون بتعبئة التلاميذ لأغراض مشابهة، مثل زرع المناطق الزراعية غير المستغلة ببذور نباتات زيت القندس (التي يستخلص منها زيت تشحيم محركات الطائرات)، والعمل في حقول القطن (التي قام اليابانيون بتوسيعها بشدة في أنحاء جنوب شرق آسيا)، وإعادة زرع أشجار جديدة على سفوح الجبال بعد جمع الأشجار القديمة من أجل العديد من المشاريع المتصلة بالحرب. كما كانت تجري تعبئة فتيات المرحلة الثانوية من أجل الغزل والنسيج، وتصنيع القفازات والجوارب للجنود. وكذلك عُبِّئ التلاميذ في مجال «التسليم القسري للأرز» سيء السمعة، الذي سنشرحه لاحقاً.

وتدريجياً، بدأ الاقتصاد المتداعي في وقت الحرب يؤثر على الدراسة. ففي جاوة، كان عدد الملتحقين بأول ثلاث سنوات بالمرحلة الابتدائية يبلغ 1286082 في عام 1941، وارتفع العدد إلى 1842804، ولكنه عاد إلى 1697358 في عام 1944. وكان السبب الرئيس في ذلك– وفقاً لرأي عدد من المعاصرين– هو نقص الملابس لدى التلاميذ. فقد توقفت عمليات استيراد الملابس (التي كانت تأتي في الغالب من اليابان) قبل اندلاع حرب الباسيفيك،

عندما فرضت دول الحلفاء حظراً اقتصادياً على اليابان. ومعروف أنه كان هناك نقص حاد في الملابس حتى قبل الاحتلال، وبمرور الوقت تحولت ملابس الكثير من الناس إلى خرق مهترئة. وبحلول عام 1944، لم يكن يملك الكثير من الأطفال ملابس لائقة للمدرسة، وظل أطفال بالي يذهبون إلى المدارس عرايا. وبينما انخفض معدل الالتحاق بالمدارس في جاوة، تزايدت بشكل حاد نسبة التسرّب بين الملتحقين بالمدرسة. وبحسب مسح جرى في عام 1944، تراوح متوسط نسبة التسرّب من 20٪ إلى 53٪ في بعض المدارس، كما كان نقص الغذاء وضعف القوة الجسمانية من الأسباب الأخرى لهذا التدني.

أساسيات الحياة: نقص الغذاء والكساء

عادة ما تعزو القصص الموجودة النقص الحاد في الغذاء أثناء الحرب في إندونيسيا إلى الاستغلال الياباني، وليس هذا دقيقاً بصورة مطلقة، فقد قام اليابانيون بالفعل باستغلال الطعام في الأراضي التي اجتاحوها، حتى إنه في نهاية الحرب كان هناك ستة ملايين ياباني خارج اليابان بعيدين عن الطعام المحلي. ولكن معظم هؤلاء كانوا في الصين. أما المناطق التي كانت تسمى «المناطق الجنوبية»، والتي تضم كل جنوب شرق آسيا، وجزر الباسيفيك الجنوبية الغربية، وجزر «أندمان ونيكوبار»، فلم يكن عدد اليابانيين يزيد في كل هذه البقع على 750 ألفاً. وأما جاوة، فقد تأرجح عدد اليابانيين فيها حول 50 ألفاً، وهو ما يمثل تقريباً 0,1٪ من عدد السكان المحليين. فسرعان ما تحول أغلب المقاتلين اليابانيين الذين اجتاحوا جاوة إلى جبهة القتال الشرقية، وهو ما أدى لترك ما لا يزيد عن 15 ألف جندي في جاوة، ومن ثم كان أغلب اليابانيين في جاوة– وعددهم خمسون ألفاً– من المدنيين.

والحقيقة أن الياباني كان يستهلك في المتوسط ثلاثة أضعاف ما يستهلكه الإندونيسي. ومع ذلك لا يمكن للاستهلاك الياباني أن يفسر وحده النقص الحاد في الطعام في تلك الفترة. خاصة أن اليابانيين قد نقلوا الأرز من جنوب شرق آسيا إلى اليابان، ولم ينقلوه من إندونيسيا، لأنه كانت توجد بجنوب شرق آسيا ثلاثة أماكن كبرى يفيض فيها الأرز عن الحاجة، وهي: بورما وتايلاند والصين الهندية الفرنسية[32].

(32) جزء من الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية في جنوب شرق آسيا.

وقد كان اليابانيون في جاوة يتكونون من تشكيلة واسعة من الناس، مثل: مسؤولي الحكومة ومهندسي القطارات وبنائي السفن ومدرسي اللغات والأطباء والممرضات وموظفي الشركة المكلفة بإدارة المشاريع الاقتصادية والفنانين (كالكتاب والموسيقيين والرسامين ورسامي الكاريكاتير وصناع أفلام الدعاية)، والأكاديميين الذين قاموا بأبحاث في مختلف الميادين.

وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن ثلاثة باحثين يابانيين متخصصين في علم اجتماع الريف والاقتصاد الزراعي قد قاموا بإجراء دراسات مفصلة على الواقع الاقتصادي والاجتماعي لثلاث قرى منتقاة تزرع الأرز في غرب ووسط وشرق جاوة. وقد وفرت نتائجهم سياقاً اجتماعياً لدراسة قضية الغذاء. فعلى أساس مسحهم من باب لباب لكل ما يتعلق بملكية الأراضي المداخل والإنفاق... إلخ، قاموا بتصنيف الأسر على أساس حجم الأراضي التي تمتلكها كل أسرة. وقد حصلوا من خلال هذا التصنيف على هيكل هرمي تتكون قاعدته العريضة من أسر الفلاحين الذين لا يمتلكون أي أراضٍ، تعلوها الأسر التي تمتلك رقعاً صغيرة من الأرض الزراعية. ومع تزايد حجم امتلاك الأراضي، يقلّ عدد الأسر، ويكتمل الشكل الهرمي بقمته المثلثة التي تتكون من كبار ملاك الأراضي.

وكانت قائمة كبار مالكي الأراضي تضم رئيس القرية وموظفيه، لأن أفضل بقاع الأراضي في القرى كانت تخصص لموظفي هذه القرى، بدلاً من دفع رواتب لهم. وقد كان القرويون من مالكي الأراضي يقومون بتشغيل الفلاحين الذين لا يملكون أراضي، والذين كانوا يمثلون الأغلبية في الكثير من القرى في جاوة، ليكونوا عمالاً زراعيين. وكان بعضهم ينشغل بعمل جزئي أو كلي في مختلف صناعات القطن، أو التجارة الخفيفة. مع العلم أن كل قرية كانت تضم قليلاً من المحال الصينية التي تفوق مدخولاتها مدخولات أسر الفلاحين عند المقارنة بينها.

ومن أحد السمات الصارخة للقرى التي تزرع الأرز في جاوة أن الأغلبية الساحقة من سكان القرى في تلك الفترة كانت من مشتري الأرز. فقد كان الفلاحون الذين لا يملكون أراضي والباعة الجوّالون والحرفيون، يكسبون الأموال من أعمالهم، ويشترون الأرز من السوق المحلية. كما كان الفلاحون من أصحاب الأراضي يبيعون أغلب محصول الأرز، للحصول على المال. وعموماً، كان معظم القرويين يشترون أرزاً نظيفاً من السوق على

قدر احتياجاتهم اليومية، وكان عدد قليل من كبار مالكي الأراضي يضعون جانباً جزءاً كافياً من محصول الأرز الخاص بهم لاستهلاكهم الخاص. وهذا يعني يقيناً أنه بخلاف القرى التي تزرع الأرز في اليابان، وبعض الدول الأخرى، كان الأرز بالأساس محصولاً تجاريّاً حتى عندما يستهلكه القرويون في جاوة.

وكان الجزء الأكبر من دخل الفلاحين الذين ليس لهم أراضٍ، وصغار مالكي الأراضي (أكثر من 90٪ من قيمة الدخل تقريباً بعد دفع الضرائب)، ينفق على الطعام الذي تستهلكه الأسرة. ونظراً لندرة فرص العمل بالنسبة للفلاحين الذين لا يملكون أراضي، كانت الأسر الفقيرة التي لا تستطيع توفير كميات كافية من الأرز تضطر للاعتماد على غذاء أرخص، وأقلّ من حيث القيمة الغذائية، مثل نبات المنيهوت (شجرة صغيرة تُعدُّ جذورها الحلوة للأكل كالبطاطا). وفي الحقيقة، كانت الأغلبية الساحقة من القرويين في جاوة تعاني من سوء التغذية حتى بعد إنفاق كل مدخولاتها البائسة على الطعام.

ولا شك في أن أي تعطل في سوق الأرز كان فيه تهديد لحياة سكان الريف في إندونيسيا الذين يعيشون– بالأساس– حياة مضطربة. فقد واجهت إندونيسيا اضطرابين كبيرين في العقدين السابقين لاندلاع الحرب الأوروبية. أما أولهما، فقد وقع في أعقاب الحرب العالمية الأولى، عندما تضافر الحظر الاقتصادي والطقس السيء ووباء الأنفلونزا الذي قتل 50 مليون شخص على مستوى العالم، ليشلوا سعر الأرز في السوق. وأما الاضطراب الثاني، فقد وقع خلال الركود العالمي، عندما انكمشت التجارة العالمية، مما أدى كذلك لانخفاض سعر الأرز المستورد من تايلاند وبورما والصين الهندية الفرنسية. وبدوره أدى تدفق الأرز الرخيص لتقويض الأساس الاقتصادي لمجتمعات زراعة الأرز في إندونيسيا. ولذا، بدأت السلطات الاستعمارية الهولندية في اتخاذ سلسلة من إجراءات الحماية التجارية من عام 1933، فقامت بالحد من استيراد الأرز، كما بذلت جهوداً لزيادة إنتاج الطعام داخل المستعمرة.

وعندما وصلت أنباء الغزو الألماني لبولندا عام 1939 إلى جاكارتا، تحرك الهولنديون بسرعة لتعزيز قدرة إندونيسيا على إطعام نفسها. وقاموا بالحد من استيراد الأرز وسنوا قانون الزراعة القسرية ودشنوا حملة لزيادة إنتاج الطعام في الجزر الخارجية (الجزر الإندونيسية بخلاف جاوة). وتضمنت هذه الحملة مد قنوات الري، وتحويل الأراضي

الزراعية إلى حقول زراعة للمحاصيل الغذائية، ونشر نوعيات أرز عالية الجودة كثيرة المحصول، واستحداث أساليب زراعية أكثر تكثيفاً للعمالة. فقد كان على إندونيسيا لتعويض الأرز المستورد أن تزيد إنتاجها بمقدار 260 ألف طن سنوياً.

وكان هذا يعني وجود تغييرات في نمط توزيع الأرز في إندونيسيا. فحتى الركود الكبير، كان أهالي الحضر- ومن يعيشون في مناطق ذات صناعات تصديرية كبرى، مثل المزارع وأماكن التعدين- يستهلكون أرزاً مستورداً، بينما استهلك أهالي القرى التي تزرع الأرز أرزاً محليّاً. وبعد الحد من الاستيراد، بدأ أرز إندونيسيا يتدفق من الريف إلى المدن، والمزارع، وأماكن التعدين. وقد نتج عن هذا انتشار مطاحن الأرز الآلية، وانتقال ذوي العرق الصيني الذين كانوا يحتكرون عمليات استيراد الأرز إلى صناعة تلك المطاحن. وسرعان ما احتكر هؤلاء الصينيون هذه الصناعة أيضاً، وتمكنوا في ثلاثينيات القرن العشرن من زيادة قدرة المطاحن في جاوة بنسبة ثلاثة أضعاف، حتى أصبح طحن الأرز رابع أكبر صناعة إندونيسية في عام 1939، وذلك فيما يخص الرواتب المدفوعة للعمال.

وحثت الحكومة الاستعمارية من جانبها على التوسع في بناء مطاحن الأرز بعد أواخر عام 1939، وأجبرت كل أصحاب المطاحن على بيع الأرز المعالج لمراكز توزيع أرز جديدة. وقد سبب هذا اضطرابات في العلاقات الاجتماعية للمجتمعات الزراعية. حيث كان الأرز في السابق يُحصد ويُجفف ويُباع ويُدك يدويّاً بواسطة الفلاحين. وكان الحصاد والدك موارد مهمة للدخل، وخصوصاً لسيدات الأسر التي لا تمتلك أرضاً. ومع نمو مطاحن الأرز، بدأ السماسرة- الذين يمولهم أصحاب المطاحن- في الظهور في القرى، ثم شراء المحاصيل من كبار الفلاحين بينما لا يزال الأرز في الأرض، ثم جلب جماعات الحصد الخاصة بهم بعد ذلك. وبلا شك، أدى هذا لحرمان الكثير من السيدات المحليات من مصدر أساس للدخل. كما أدى شراء الغرباء للأرز إلى حدوث ارتفاع في سعره. وهكذا، ربح الفلاحون الكبار، في حين عانت الأغلبية الساحقة من أهالي الريف من التأثير المضاعف المتمثل في نقص العمالة من ناحية، وقلة توفر الأرز وارتفاع أسعاره من ناحية أخرى. وعندما قام الجيش الياباني بالهجوم، انفجر هذا الغضب الشعبي، وقام الإندونيسيون في العديد من الأماكن بتدمير مطاحن الأرز، ونهب محلات الصينيين.

وجدير بالذكر أن اليابانيين قد قاموا بغزو إندونيسيا قبيل الموسم الرئيس لحصاد الأرز.

وأثناء الغزو، قام الأهالي بتدمير المطاحن والمحلات، وتبنى الهولنديون سياسة الأرض المحروقة، بما فيها تدمير البنية التحتية للمواصلات، وقد أدى كل هذا مجتمعاً إلى تعطيل توزيع الأرز. وبالتالي حدث نقص شديد في الأرز، وارتفاع لأسعاره في المدن، في حين حدث ركود للأرز المحصود، وانخفاض لسعره في القرى. وقد قضى المحتلون اليابانيون عامهم الأول في اتخاذ إجراءات طوارئ لمواجهة هذه الأزمة، فكانوا يشترون الأرز من الريف بميزانية اقتصادية خاصة، ويطرحونه في المدن. ومن شهر أبريل 1943، نجحوا بشكل كبير في إعادة النظام الذي أنشأه الهولنديون.

وعندما انتهى موسم الحصاد الرئيس في عام 1943، كانت الكمية التي تسلمتها الحكومة أقل للغاية من المستهدف. وكان أحد التفسيرات لهذا أن الفلاحين تحاشوا تسليم الأرز للمطاحن التي تحاشت بدورها تسليم الأرز للحكومة. ويرجع هذا لكون سعر السوق المتعافي أعلى من سعر البيع الرسمي المحدد على أساس مستوى ما قبل الغزو. وفي أواخر عام 1943، ومرة أخرى في شهر أبريل 1944، حاول اليابانيون إجبار أعداد كبيرة من الفلاحين على تقديم أرزهم للمطاحن. وقد نتج عن ذلك سلسلة من أحداث الشغب من قِبَل الفلاحين في أحد أكبر أماكن تصنيع الأرز في جاوة، وهو «إندرامايو» (Indramayu). واستمرت أحداث الشغب على مدار شهور، ولم تنتهِ إلا بالقمع الدموي الذي حدث في شهر يوليو. وعندما انتهت، قام مستشار إندونيسي للحكومة بتفقد المنطقة وقال:

«عندما قامت الحكومة العام الماضي بشراء الأرز بالطريقة نفسها، مات العديد من الأطفال والراشدين جوعاً، لأنه لم يبقَ سوى القليل من الأرز في القرى. واضطر الفلاحون لإطعام أطفالهم أشياء لا تصلح أن تكون طعاماً للحيوانات، ناهيك عن أن تكون طعاماً للبشر، مثل أوراق الموز وأوراق أشجار أخرى. وقد فعلوا هذا لسبب بسيط، وهو سدّ جوعتهم. وكان الآباء كثيراً جداً ما يبقون دون طعام ليومين، أو ثلاثة. ولم يكونوا يستطيعون البحث عن عمل، لأن إصابتهم بسوء التغذية منعت عنهم الطاقة اللازمة للعمل. وبالتالي، كانت المحصلة النهائية موت أعداد كبيرة من الناس، وخصوصاً الأطفال.

ولذا، قرر الناس أثناء أحد التجمعات في كابيلونجان معارضة جمع الحكومة للأرز،

حتى لو أطلقت الشرطة النار عليهم، وأردتهم قتلى، لأن حالهم ساعتئذ سيكون أفضل من الموت جوعاً، فالألم الذي يسببه الجوع يتزايد بشكل لا يحتمل مع مرور الأيام. هذا من زاوية، ومن زاوية أخرى لن يضطروا- إذا أطلقت الشرطة النار عليهم، وأردتهم قتلى- إلى مشاهدة المعاناة والعذاب الذي يلاقيه أطفالهم أو ذويهم وهم يموتون جوعاً. ولما تجاهلتهم الحكومة، ولم تلبِ- لا هي، ولا موظفوها، ولا أي شخص آخر- مطالبهم، بلغ غضبهم مبلغه، وانفجر بهذا الشكل غير المنضبط».

وقد خصص اليابانيون حصص إنتاج لكل ناحية (الناحية هي أكبر تقسيم فرعي إداري داخل جاوة)، على أن تقوم كل ناحية بتقسيم الحصة الخاصة بها، وإرسالها للقرى من خلال قنوات إدارية حكومية. ومن ناحيتهم، اختار مسؤولو القرى الذين كانوا يستحوذون على أفضل حقول الأرز عدم بيع إنتاجهم الخاص إلى المطاحن، وقاموا- بدلاً من ذلك- بتخصيص حصصهم للفلاحين الأصغر. وعلى أية حال، بدأ التسليم الإجباري للأرز على الرغم من أنه كان تسليماً معيباً. فصغار الفلاحين الذين لم يكونوا يبيعون على الإطلاق أرزهم للمطاحن أصبحوا الآن مضطرين أن يحملوا محصولهم إلى المطاحن، أو إلى أماكن التجميع المخصصة.

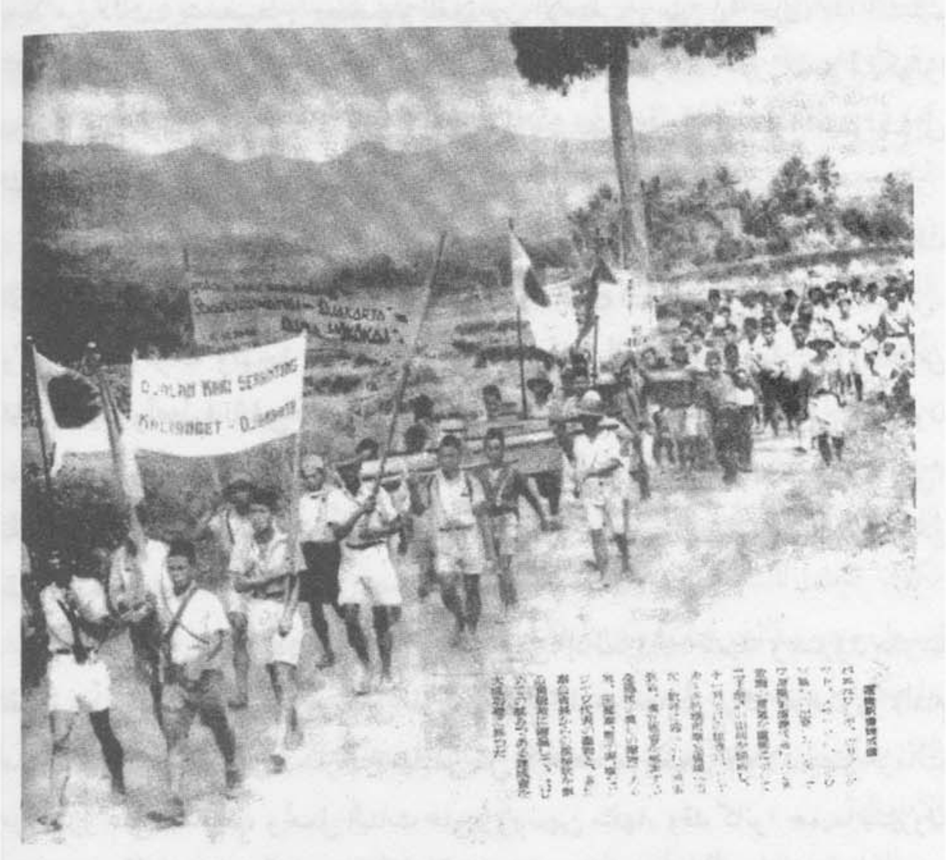
وخلال حملتهم لتسليم الأرز للحكومة، قام اليابانيون بتعبئة طيف واسع من المنظمات الاجتماعية، منها رابطة الشباب وفيلق اليقظة والاتحادات النسائية، وحتى طلبة المدارس. وكي يضفوا فرحة وبهجة على الحملة، قاموا بإضافة أدوات موسيقية- مثل أجراس الجاميلان- وأعطوا للناس أعلاماً ليلوحوا بها. وقد جرى تسجيل ما يمكن أن يكون مشهداً نموذجيّاً لما حدث وقتها بواسطة ياباني في بالي في يوم 2 سبتمبر 1944. وفيما يلي، نقتطف من هذا التسجيل جزءاً قد يكون طويلاً، ولكنه مؤثر بشدة، ويقول الكثير عن تلك الحملة:

«عدد المدارس التي عُبِّئت اليوم هو تسع مدارس، إذ ثمة 1693 تلميذاً وعشرون مدرساً هم تقريباً كل من في المدارس. وعلى طول خمسة كيلومترات من مركز شراء الأرز (أمام مكتب منطقة بونوجورو)، سار التلاميذ من كل الاتجاهات، يحمل الأولاد منهم حزمات من الأرز على أكتافهم، وتحمل البنات على رؤوسهن مثلها. وقد كانوا جميعاً يسيرون على إيقاع الأناشيد العسكرية، ويشكلون طابورين منتظمين. وفي الوقت نفسه، بدا فيلق

الخدمة العمالية الذي ملأ الطرق بطوابير لا نهاية لها من البشر مشهداً مثاليّاً للتصوير.

وقد كانت الكمية التي يحملها كل تلميذ تتراوح بين خمسة كيلوجرامات وثلاثين كيلوجراماً، وتشير أنباء إلى أن الإجمالي يبلغ سبعة عشر طناً تقريباً. ولم تكن هذه كمية قليلة في حد ذاتها، ولكن الأهم هو التأثير الذي تحدثه هذه الخدمة الغيرية على المجتمع. وقد قالت سلطات المنطقة إن تسليم الأرز تحسن بشكل عام منذ القيام بتعبئة تلاميذ المدارس منذ فترة. كما أنها ناقشت الأهمية السياسية لهذه الحملة، وكذلك ظهر على مراقبين من مناطق ونواحٍ أخرى الاهتمام الشديد بما يجري.

وبالطبع كانت هناك مشاهد لا تنسى، مثل مشهد الأطفال الصغار- بعمر سبعة أو ثمانية أعوام- وهم يحملون الأرز بمفردهم أو مع آخرين، ويسيرون بخطوات غير متزنة، أو مشهد خدمة كل فيلق بعد وضع الأرز في مركز الشراء وهم يتصرفون مثل الكبار،



حملة لزيادة عمليات تسليم الأرز عام 1944 (جاوة بارو – العدد 22 – يوم 15 نوفمبر 1944)

ويستخدمون التدريب الذي تلقوه في فيلق الأشبال الصغار. وعلى وجه الخصوص، كان الاحتفال الختامي الذي تضمن كلمات التعبير عن الامتنان والتشجيع مؤثراً للغاية.

وكان هذا الحفل يبدأ بتوزيع الحلوى على كل تلميذ من شركة ميتسوي إندستريز، وهي الشركة اليابانية المسؤولة عن شراء الأرز. وبعد ذلك، تلقى كلمات الرؤساء المحليين وممثلي الملابس. وأخيراً، يُختتم الحفل بأغنية «فوق البحار». ويظل هذا الاحتفال الأكثر تأثيراً بين المشاهد التي رأيتها منذ مجيئي إلى المناطق الجنوبية».

وفي واقع الأمر فإنه على الرغم من هذا المشهد والضغط المتزايد المشار إليه سابقاً، فقد تراجع– وبشكل مطرد– معدل تسليم الأرز الفعلي للحكومة، ولتحسين الأمور، كان مسؤولو القرى يقومون غالباً بإرسال رجال لتفتيش منازل ومخازن حبوب الفلاحين. وإذا عثروا على أرز مخبأ كانوا يقومون بمصادرته باسم حكومة الاحتلال. كما كان هناك حظر على نقل الطعام من مكان لآخر. ومن أجل فرض هذا الحظر، قامت السلطات المحلية باستخدام المنظمات الاجتماعية– مثل الشرطة الاقتصادية، وفيلق اليقظة– التي أنشأها اليابانيون في أنحاء جاوة، وأماكن أخرى. وقد كان دور هذه المجموعات المحلية التي تتكون غالباً من شباب مشكوك في سمعتهم هو شنّ حملات أمنية على تهريب الطعام. وكانوا غالباً ما ينتظرون قرب حدود قرية أو منطقة، مثلما كانت تفعل عصابات المجرمين في الأزمنة الماضية، وعندما يجدون أي شخص يحمل طعاماً على الحدود الإدارية يقومون بالقبض عليه. والغريب أنه أحياناً كان هؤلاء المراقبون يصادرون من الأهالي أنواعاً من الطعام لا تندرج ضمن السلع المحظورة رسميّاً، مثل البصل، والخضروات الأخرى.

وعلى الرغم من هذه الزيادة في الشرطة المحلية، تواصلت العمليات الاقتصادية السرية. وما زاد إمدادات الطعام المتدنية سوءاً الانخفاض بنسبة 40٪ في الإنتاج الفعلي للطعام في جاوة. وكانت حالة الجفاف التي حدثت في عام 1944 هي السبب وراء ذلك، بالإضافة للتعبئة الشديدة للعمالة من أوساط مجتمعات الفلاحين إلى مشاريع أخرى، إلى جانب الصيانة السيئة للبنية التحتية، مثل قنوات الري. وقبل كل ذلك، كان العامل الأبرز هو السعر الرسمي المنخفض للأرز الذي كان من أهم عوامل تثبيط الفلاحين.

والجدير بالذكر أن إندونيسيا كانت قبل الحرب تعتمد بشكل جزئي على استيراد الطعام. أما ملابسها، فكانت تأتي بالكامل تقريباً من أوروبا حتى الحرب العالمية الأولى،

ثم أصبحت تأتي بعد ذلك بشكل أساسي من اليابان. وخلال الركود الكئيب الذي وقع في ثلاثينيات القرن العشرين، بدأت السلطات الهولندية باتخاذ إجراءات حمائية، وقامت بإنشاء مصانع الغزل في جاوة. فارتفعت سعة النسج في إندونيسيا بشكل هائل خلال العقد السابق للغزو الياباني، ولكن الصناعة ظلت تعتمد على الغزل المستورد من اليابان. وقبل نهاية الحكم الهولندي، ظل إنتاج النسيج عند أقل من 10٪ من الكمية المطلوبة محلياً. وفي أواخر فترة الاستعمار في إندونيسيا، كانت مواد الملابس (الغزل والقماش والأثواب) تمثل أكبر مجموعة من السلع المستوردة.

وكانت اليابان في ذلك الحين أكبر مصدر للنسيج في العالم، إذ شكلت المنسوجات أكثر من نصف الصادرات الإجمالية لها. ومع ذلك كانت معظم المواد الخام تأتيها من خارج «شرق آسيا العظمى»، فكان القطن يأتي من الولايات المتحدة والهند البريطانية، وكان الصوف يأتي من أستراليا.

وقد حاول اليابانيون تقليل هذه التبعية بتوسيع إنتاج القطن داخل «شرق آسيا العظمى». حيث قاموا بُعيد احتلال جنوب شرق آسيا بتطبيق خطة خمسية لزراعة القطن. وكانت هذه الخطة تستهدف زراعة أكثر من 13 مليون هكتار من الأراضي، منها 180000 هيكتار في جاوة، و140000 هكتار في سومطرة، و339600 هكتار في باقي إندونيسيا. وهكذا كان القطن– إلى جانب نبات زيت القندس، والمواد الأخرى غير الصالحة للأكل– يتنافس مع المحاصيل الغذائية في الأراضي الزراعية المحدودة. وقد سعى اليابانيون لتعبئة العمالة من أجل إنتاج هذه الإمدادات دون الإضرار بالإنتاج الغذائي. ومع استحداث أنواع عالية الإنتاج من الأرز، بدءوا حملات من أجل أساليب زراعة مركزة العمالة، وقاموا بإنشاء قنوات ري وصرف عبر إندونيسيا (62 مكاناً في جاوة ومادورا فقط). ومع ذلك، ظل المؤرخون يفسرون الحملة من أجل التعبئة الكاملة للعمالة من زاوية حاجة اليابان لمنشآت عسكرية. مع أنه في جاوة– على سبيل المثال– كان زهاء 90٪ من العمال المسجلين يستخدمون بهذا الشكل لزيادة الإنتاج الزراعي، وفي مشاريع مدنية أخرى.

ولا شك في أن إصرار اليابانيين على تعبئة ما كان يبدو أنها عمالة غير ضرورية، مثل الفلاحين الذين لا يملكون الأراضي، كان أحد الأخطاء الكبرى التي وقعوا فيها. وقد كان لهذا الخطأ توابع خطيرة على المواطنين الإندونيسيين العاديين. فقد تناسى هذا الإصرار

أن تلك القوة العاملة التي تبدو سطحية كانت في الحقيقة هي التي تقوم بمعظم العمل الزراعي للفلاحين الذين يملكون أراضي، خاصة خلال المواسم المزدحمة. وقد أدى نقلهم إلى جعل الزراعة صعبة- أو مستحيلة- في العديد من القرى. وإضافة لذلك، خططت سلطات الاحتلال لنقل 85 ألف ثور من شرق جاوة إلى وسط وغرب جاوة، لتحسين طرق نقل محصول الأرز من القرية للمطاحن. ولكن ذلك حرم الفلاحين من حيوانات السحب المطلوبة من أجل الحرث. ولأن الحقول كانت تعاني بالفعل من الجفاف، وإهمال البنية التحتية، وانخفاض الأسعار، أدت هذه الأعباء المضافة حديثاً في النصف الثاني من فترة الاحتلال إلى ترك العديد من الحقول دون زراعة، واختفاء فرص العمل في القرية.

وكان الكثير من الأهالي الذين يبحثون بشدة عن وظائف في إندونيسيا قد تطوعوا في النصف الأول من فترة الاحتلال للعمل مع اليابانيين. وذلك بعد أن أغرتهم الرواتب الكبيرة التي سمعوا بها إثر عودة العمال السابقين محملين بالأموال. لكن منذ أواخر عام 1943، أصبح القليل منهم فقط على استعداد للتطوع في ذلك العمل الشاق الذي تتزايد صعوبته. وفي وجه هذا التراجع، قام اليابانيون بتطبيق نظام حصة لكل قرية، مثلما هي الحال في تسليم الأرز. وبناء على ذلك، كان مسؤولو القرية يختارون المتطوعين، ويرسلونهم أحياناً في مهام من دون أن يخبروهم بالوجهة الذاهبين إليها أو بالوقت الذي سيستغرقه العمل.

ويبدو أن اليابانيين في هذه السنوات الأخيرة بشكل عام، ضاعفوا الاستفادة من القوى العاملة من دون أن يقدموا لهم سوى ما يسد الرمق! لأن العمال كانوا يعيشون في مجتمع محلي، وكان عليهم أن يشتروا الطعام من رواتبهم. وعند إرسالهم للعمل في مكان قصي، كانوا يوضعون في ثكنات مؤقتة، ويُعطون طعاماً غير مطهي يقومون بطهيه بأنفسهم. ومع تدني كميات الأرز التي أصبح الفلاحون يقدمونها للحكومة، انخفضت كميات الطعام المقدم إلى العمال. وفي الفترة ذاتها، ترددت أنباء بأن الطعام الذي يُرسل بالسكك الحديد إلى أماكن العمل كان يختفي في الطريق إليهم. وفي مكان العمل، كان الرؤساء يسيئون توزيع الطعام المخصص للعمال، في حين أصبحت محاولات شراء الطعام من التجار المحليين أكثر صعوبة مع انخفاض الرواتب بسرعة وتدهور جودة توافر ضرورات الحياة اليومية.

وبالتدريج امتدت المرارة والإحباط إلى المحتلين اليابانيين إلى كل مجالات المأكل والمشرب. وتسببت الصدفة وحدها في وقوف مؤلف هذا الكتاب على شيء من ذلك. فعندما كان المؤلف لم يزل طالباً، تحدث إليه أستاذه الإندونيسي في إحدى المحاضرات، مسترجعاً ذكرياته وهو شاب صغير أيام الاحتلال. فقال له إن اليابانيين كانوا قساة القلب، ومن الأمثلة التي استدل بها أنهم كانوا يقدمون كميات كافية من الشاي للناس ولكن من دون سكر! وهذا يعني أنه لا يمكن شرب الشاي (فعلى عكس اليابانيين أو الصينيين، كان الشعب الإندونيسي يضع الكثير من السكر في الشاي). وكانت إندونيسيا في ذلك الوقت مكتظة بمزارع الشاي والسكر. وحتى في أثناء الاحتلال، كان لدى إندونيسيا مخزون كبير من الشاي والسكر لا يجد أسواقاً خارجية. وكان اليابانيون يزعمون أنهم وزعوا مزيداً من السكر على المستوى المحلي، لكن المواطنين العاديين لم يشعروا أبداً بذلك، وهو ما جعل غضبهم يتجدد كلما جلسوا لاحتساء كأس من الشاي.

وقد اتضح بجلاء تداخل العلاقة في وقت الحرب بين الطعام والملابس والعمالة في تقرير عن جزر سولا. فقبل الحرب، كانت هذه الجزر تستورد لب جوز الهند المجفف وتستورد الأرز والملابس. ومع غزو اليابان، توقف هذا النمط من التبادل التجاري. وأصبح نقص الملابس بمرور الوقت أمراً خطيراً. وكانت مشكلة عظيمة تحدث عندما يزور شخص غريب أسرة ما لم يبقَ لها سوى رداء ساورنج[33] واحد، فكان الأطفال الصغار والشابات يضطرون للاختباء وإعطاء الساورنج أمهاتهم كي يظهرن به أمام الضيف. وما زاد الأمر صعوبة على هذه الأسر أن السيدات اضطررن للخروج كثيراً للحصول على الطعام بعدما أخذ اليابانيون 1500 رجل من جزيرة سنانا إلى كايراتو ليستعملوهم كعمال متجولين. ذلك أسهم في نقص للعمالة على المستوى المحلي وأدى إلى تراجع نسبته 10٪ في الأراضي المزروعة عام 1944. وعلى الرغم من أن السيدات الباقيات كن يعملن في الحقول، لم يكن باستطاعتهن حرث الأرض أو إصلاح الأسوار في الوقت عينه. ومن ثم عانت الأسوار من الإهمال ودمرت الخنازير البرية المحاصيل. فزادت تبعاً لذلك أسعار الطعام بمقدار أربعة أضعاف تقريباً في منتصف عام 1944. وفي ذات الوقت ارتفع

(33) الساورنج: هو كسوة تتدلى من الوسط لتستر ما بين البطن وكعب القدم، تشبه التنورات النسائية، منتشرة في أنحاء آسيا.

سعر الخيش (الذي كان الأهالي يصنعون منه ملابس تستر أجسادهم العارية) 12 ضعفاً. وهكذا أزالت الحرب بشكل متزايد عن النساء في جزر سولا أعمدة الحياة اليومية المتمثلة في الطعام والكساء اللذين لم تكن العائلات تستطيع العيش من دونهما.

وفي شمال سولاواسي (Sulawesi)، بدأ بعض التجار الصينيين- بعد استسلام اليابان- في نقل الأرز من بولانغ مونجوندو إلى ميناهاستا لجلب الملابس مقابل ذلك. وبعد وقت قليل، أعاد الهولنديون تأسيس سلطتهم في بولانغ مونجوندو، وقاموا بفرض حظر على تصدير الأرز لشحّه وأهميته. وانتقد التجار الصينيون والسلطة المحلية هذا الإجراء من جانب السلطة الهولندية، إذ أوضح الأمير المحلي أنه في حين كان الوطنيون يرددون صيحات «الحرية أو الموت» ويشنون حرباً من أجل الاستقلال، كان أهالي الإقليم مخيرين بين شيئين لا ثالث لهما هما «الحرج أو الموت». وكانت عملية تصدير الأرز واستيراد الملابس سترفع الحرج عن بعضهم، وترحم بعضهم الآخر من مواجهة الموت بسبب نقص الطعام.

الترفيه والثقافة

وعلى الرغم من أن تلاميذ المدارس كانوا جوعى وشبه عرايا، فقد كانوا يجدون شيئاً من الإثارة في الأنشطة التي يمارسونها خارج المنزل. وكذلك العاملون المجندون الواقعون تحت وطأة الجوع وقسوة العمل والمرض، كانت لهم أيضاً لحظات المتعة الخاصة بهم. فعندما كان المتطوعون يتجمعون في نقاط تجمعهم وينتظرون عدة أيام قبل أن يُرسَلوا بالقطارات أو السفن، كان المسؤولون المحليون يتعاملون معهم عادة بكل تعقل، ويوفرون لهم الطعام والرعاية الطبية (التطعيم)، وينظمون لهم أحياناً أعمالاً ترفيهية مثل الوايانغ (مسرح خيال الظل التقليدي) إلى جانب عروض مسرحية أخرى.

وكذلك كان هؤلاء العمال البسطاء يشاهدون أحياناً بعض الأفلام في نقاط تجمعهم وفي مواقع العمل. وكان ثمة في جاوة- قبل الغزو الياباني- نحو 300 دار سينما تجارية في زهاء 80 مركزاً حضريّاً و9 استديوهات سينمائية أغلبها يملكها رجال أعمال صينيين. أما ريف إندونيسيا، فلم يكن فيه وجود لدور السينما، وبالتالي لم تشاهد أغلب القرى أي فيلم سينمائي. لكن خلال الاحتلال، قام فيلق الدعاية الياباني بتكوين فرق لعرض الأفلام

السينمائية. وكان كل فريق من هذه الفرق يحمل على شاحنة جهاز عرض سينمائي وشاشة ومولداً كهربائيّاً وبكرات من أفلام الدعاية، ثم يزور إحدى القرى أو أماكن العمل التي يتواجد فيها العمال المتنقلون الذين ينتظرون الرحيل. وكان كل فريق تصحبه شخصيات إندونيسية مشهورة تلقي الكلمات أمام الحشود قبل عرض الأفلام، ولم يكن هؤلاء المتحدثون يلقون دائماً ترحيباً طيباً (فكان بعض الجمهور يصيح: «كلامك بليغ يا سيدي، لكننا لا نجد ما يسد الرمق أو يستر الجسد»). بينما كانت الأفلام تلقى تفضيلاً على الدوام. ويبدو أن أهالي الريف في إندونيسيا كانوا مفتونين بهذه الأفلام باعتبارها أحد أشكال الترفيه، وليس بوصفها لوناً من ألوان الدعاية. ففي أوائل عام 1944، أصبح هناك 15 فرقة تعرض أفلاماً يشاهدها 126000 من العمال المتنقلين كل أسبوعين.

وكانت أغلب دور السينما في جاوة– قبل الغزو الياباني– مصممة لأغنياء الحضر (وأغلبهم من الهولنديين والصينيين) مع تخصيص مقاعد قليلة في أماكن معزولة في كل دار لغير الميسورين من الإندونيسيين (وكان المقعد الذي يصنف على أنه درجة أولى يُكَلِّفُ جيلدرين بينما أرخص مقعد يُكَلِّفُ ستة سنتات). وبعد الاحتلال، قام اليابانيون من أجل جذب الأهالي بتعديل هذا النظام، فزادوا عدد المقاعد الرخيصة بنسبة 50٪ في كل دار. مع ذلك لم يتوافر لدى هذه الدور سوى القليل من الأفلام. وكانت ثلاثة أرباع الأفلام المعروضة في إندونيسيا– قبل الحرب– صناعة أمريكية بترجمة هولندية ونصف الربع المتبقي أفلاماً صينية.

ولأن اليابانيين لم تكن لديهم أفلام بديلة لتوزيعها، لم يفرضوا حظراً على الأفلام الأمريكية على الفور، ولكنهم قاموا– بدلاً من ذلك– بفرض رقابة عليها، وحذف الموضوعات «غير الملائمة». وهو ما سبب أحياناً بعض الفوضى. فعلى سبيل المثال، عُرِضَ فيلم «روميو وجوليت» بعد قص مشهد التقبيل بشكل غبي، حتى إن المشاهدين بَدءوا بالضحك بدلاً من التعاطف مع المأساة الرومانسية. ومن يوم 1 أبريل 1943، قامت السلطات بحظر كل الأفلام التي يصنعها العدو. فانخفض عدد دور السينما التجارية لقلة الأفلام المعروضة بنسبة تقارب الثلثين، ليصبح عددها 117 فيلماً فقط. وكان حرج اليابانيين شديداً عندما اكتشفوا أن أغلب أفلامهم المحلية لا تؤثر في الجمهور العالمي. وعلى عكس ذلك، حققت أفلام هوليود نجاحاً كبيراً جداً، ولعل ذلك راجع إلى أن

معظمها منذ «ذهب مع الريح» (عرض لأول مرة عام 1939) حتى أفلام «والت ديزني»، كان يستهدف الترفيه. بينما كانت معظم الأفلام اليابانية تتعامل مع الصعوبات، مثل الصراعات المنزلية في قرية فقيرة تعيش على صيد الأسماك أو عرض فلاحات يرتدين ملابس العمل في كوخ متهدم سقفه من القش. ولما كان الاحتلال يريد تقديم اليابان كدولة عظيمة ومتقدمة ليرفع من الروح المعنوية لمرتادي السينما، فإنه لم يجرؤ على عرض هذه النوعية من الأفلام التي تكشف حقيقة الريف الياباني وأنماط حياة الفقراء في الحضر. لذلك استُخدِمت النشرات الإخبارية السينمائية التي لم تعرض إلا الأساليب المستغربة من اليابان، كعرض جزء من المنظر الطبيعي لمدينة طوكيو بمبانيها العالية وعرض الدبابات والبوارج القوية التابعة للجيش وكذلك الثقافة العالية التقليدية (مثل رداء الكيمونو الجميل).

لكن مثل هذه النشرات والأفلام التسجيلية كانت نادرة، فقامت سلطات الاحتلال في إندونيسيا على وجه التحديد بعمل أفلام لنشر الدعاية بين الأهالي. وكانت تلك الأفلام- المصنوعة في إندونيسيا- تتحدث عن إندونيسيا أكثر منها عن اليابان. وكان الموضوعان الرئيسان فيها هما الدفاع والإنتاج. وكان الهدف العام منها أن تظهر للناس كيفية زيادة إنتاج الغذاء والملابس والضروريات الأخرى. ولا نعلم على وجه التحديد عدد الأفلام التي أُنتجت وقت الحرب في جاوة، خاصة مع قيام اليابانيين بإحراق معظم الأفلام بعد الاستسلام، وهو ما شهد به بعض الرجال الذين كانوا يعملون في الوحدات المسؤولة عن تلك الأفلام. لكن الهولنديين العائدين نجحوا في الحصول على ما يفوق الـ150 فيلماً تقريباً (يمكن مشاهدتها على أشرطة فيديو وأسطوانات ممغنطة في عدد من المؤسسات في هولندا).

وبخلاف بعض الأفلام والموسيقا الغربية، قام اليابانيون باحتكار البث الإذاعي، وأغلقوا كل أقراص أجهزة استقبال الإذاعة، ليكون من المستحيل تلقي بث على الموجات القصيرة من الخارج. كما أجبروا الصحف، والصحف التجارية، على الاندماج بشكل جزئي، لتوفير موارد الورق والحبر في الظاهر، وليُتَحكَّمَ فيها بشكل أكثر فعالية بالأساس.

وقد كانت زيادة استخدام الملايو (الإندونيسية) أحد الآثار الجانبية لتنظيم وسائل الإعلام وترشيدها. فمع وجود حظر على استعمال الهولندية، وعدم فهم لليابانية إلا

من جانب القليل جداً من الأهالي، كانت الملايو الاختيار الوحيد المناسب، لذا أصبحت اللغة الأساس في معظم الأفلام، والبث الإذاعي والصحافة والتعليم ما بعد الابتدائي والقانون. وقد قامت حكومة الاحتلال بإصدار مراسيم عديدة بالملايو. ولأنها كانت تعرف ان غالبية الشعب غير متعلم، قامت ببث هذه المراسيم على الإذاعة. ولا شك في أن الكثير من سكان الحضر كانوا يفهمون الملايو بوصفها لغة محادثة، ولكن كان من الصعب عليهم فهم لغة الملايو الرسمية المستخدمة في وسائل إعلام الاحتلال. وبالنسبة إلى أهالي الريف في إندونيسيا، فإنهم لم يكونوا يفهمون الملايو عادة، فيما عدا مناطق معينة كانت اللهجة العامية فيها شبيهة بها. ولهذا السبب، تردد المثقفون في إندونيسيا في استخدام الملايو باعتبارها وسيلة للتعليم، على الرغم من أنهم كانوا قد قرروا في مؤتمر الشباب عام 1928 تبنيها لتكون لغتهم القومية (مع تسميتها اللغة الإندونيسية). ووصل الإصرار الياباني على استخدامها بوصفها لغة الحكومة إلى حد إنشاء «لجنة تحسين اللغة الإندونيسية». وقد قامت هذه اللجنة باستحداث قائمة كبيرة من المصطلحات الفنية، ليكون بالإمكان استعمال اللغة في التعليم العالي والحكم والمجالات الأخرى التي كانت اللغة الهولندية تسيطر عليها من قبل. ولذا، كانت سنوات الاحتلال نقطة تحول في اللغة المكتوبة والمنطوقة للشعب الإندونيسي.

وبعد أن حظر اليابانيون الأفلام والموسيقا الأمريكية، وأساليب الترفيه الأمريكية الأخرى، وضعوا أنفسهم تحت وطأة ضغوط شديدة للبحث عن أساليب لتخفيف ضغوط الحرب على الناس العاديين. ومثل الأفلام التي أتت من اليابان، كانت الأساليب التقليدية الأخرى للترفيه في اليابان– مثل المسرح والأغاني الشعبية السردية والمحاورات الكوميدية– شديدة الارتباط بالجزيرة بشكل يصعب معه تصديرها للخارج. ولم يشذ عن ذلك بوضوح إلا الغناء الذي كان أحد الأشياء القليلة التي حرص اليابانيون على تقديمها، وسعدوا بنشرها، خاصة أن كُلّاً من اليابانيين والإندونيسيين كانوا يحبون الغناء. وقد أحب كلا الطرفين بالفعل أغاني الآخر، حتى إن أغنية «النهر الوحيد» (أغنية إندونيسية، شاعرية، رومانسية، أُلِّفَت في سبتمبر 1940) قد أسرت قلوب الجنود والمدنيين اليابانيين على حد سواء. وفي المقابل، كانت بعض الأغاني اليابانية (مثل أغنية «ليل الصين» التي أُلِّفَت في عام 1935، وكذلك بعض الأغاني الأخرى التي قد تفوق «النهر الوحيد» رومانسية

وشاعرية) مشهورة جداً بين الإندونيسيين، لدرجة أن بعض كبار السن منهم ظل يتذكر كلمات عدد من هذه الأغاني حتى بعد مرور 60 عاماً.

كما أدى استبعاد الترفيه الغربي خلال فترة الحرب إلى إحياء الأشكال الترفيهية القومية. ومن ضمن هذه الأشكال ما سُمي بعد ذلك باسم «الساندیوارا» (Sandiwara)، بلغة المالاي (Malay)، وهو يشبه إلى حد ما حفل المنوعات، أو الحفل الموسيقي الذي يتضمن المسرح والموسيقا والرقص، وأحياناً بعض عروض الأزياء والمسرحيات الهزلية القصيرة، مع نسج كل هذا في عمل مسرحي غنائي. فقد زاد عدد فرق الساندیوارا ليصل إلى أكثر من 300 فرقة في جاوة وحدها. وكانت هذه الفرق تسافر إلى أماكن متعددة، لتقدم الترفيه للأهالي، وكذلك للجنود اليابانيين، وتستخدم دور السينما الفارغة ومباني المدارس والمنشآت الأخرى. وقد كانت بعض العروض التي قدمتها تلك الفرق رائعة، بينما كان بعضها الآخر سيئاً. حيث كان بعضها دعاية لليابانيين (الذين أيدوا إحياء «الساندیوارا»)، بينما كان بعضها الآخر هجاءً سياسيّاً واجتماعيّاً. ولا شك في أن انتقاد الحكومة كان أمراً ينطوي على خطورة، ولكن الممثلين كانوا أحياناً يسعون للإثارة إلى حد الجرأة. ففي أحد الاسكتشات (المشاهد) الهجائية، يظهر رجل شبه عارٍ على المسرح، ويشتكي من أنه منذ قدوم اليابانيين لم يعد لديه ما يستر جسده، وأن الفئران تحاول قضم أعضائه التناسلية. وهنا، يذكره الرجل المستقيم بأن ما يحدث في البلاد ليس لعبة يلعبونها، ولكنه حرب لتحرير أنفسهم من الهولنديين، حرب ينبغي عليهم فيها الاستعداد للتضحية ليس فقط بملابسهم، بل بأي شيء، وكل شيء! فيمسك الرجل العاري بأعضائه التناسلية، ويجري وهو يصرخ «لا لا!»، ويفهم المشاهدون بالطبع النكتة، فتتعالى ضحكاتهم.

وقد كانت السلطات اليابانية حساسة جداً من أي شكل من أشكال النقد، لذا قامت بالفعل بإلقاء بعض الممثلين في السجن. وكانت قد قامت بنشر الكثير من الجواسيس، ولكن رقابتهم كما رأينا كانت فاشلة، فنجح الكثير من الإندونيسيين في نقد ما يجري، والتعبير عن استيائهم منه، أو تقديم تعليقات ساخرة حوله، من خلال الإيحاء، أو أي من الأساليب الأخرى المعروفة في هذا السياق. وعامة، كان نحو 10٪ من عروض الساندیوارا دعاية حكومية، وكان جزء مماثل يتضمن انتقادات لليابانيين، فيما ظل الباقي ترفيهاً خالصاً.

وأدى استبعاد التأثير الثقافي الغربي والتشجيع الياباني للقومية إلى إحياء أشكال أخرى من النشاط الثقافي في مجالات الأدب والفنون الجميلة والموسيقا. وإن كان اليابانيون حاولوا أيضاً استخدام هذه الوسائل في الدعاية لأهدافهم، وحرصوا مراراً على إقامة المعارض الفنية، إلى جانب مسابقات القصص القصيرة، وتأليف الأغاني. وقد أدى ذلك لتحول المؤلفين الإندونيسيين إلى الكتابة باللغة الإندونيسية، بعد أن كانوا يكتبون من قبل باللغة الهولندية. وتجدر الإشارة إلى أنه ظهر خلال تلك الفترة أحد أشهر شعراء إندونيسيا، وهو شايريل أنور (Chairil Anwar)، مع ملاحظة أن شعره كان منفصلاً إلى حد كبير عن أهداف اليابان. وعموماً كان الاحتلال الياباني نقطة تحول في التاريخ السياسي الإندونيسي، كما كان نقطة تحول في تاريخها الثقافي.

وهناك نقطة أخيرة عن الحياة الثقافية للإندونيسيين خلال الحرب، ألا وهي الدين. نقول بداية ونحن بصدد إلقاء الأضواء عليها: بلا شك كان النظام العسكري الياباني متعصباً داخل الوطن، ووسط صفوفه، بشأن عبادة الإمبراطور. ولكن كان ذلك أحد مجالات الحياة التي لم ينجح اليابانيون في تصديرها، مع أنه جرت بعض المحاولات لتوليد الاحترام للإمبراطور الياباني وعبادته في بعض أجزاء «شرق آسيا الكبرى». وفي المجمل، التزم اليابانيون بسياسة احترام الأنشطة الدينية القائمة. وقد تجلت تلك السياسة بوضوح في التعامل مع الديانة الإسلامية تحديداً، التي تعرض معتنقوها مراراً للمعاناة- قبل الغزو الياباني- بسبب محاولات إخضاعهم المتتالية للاستعمار والقيم الغربية. فلم يتعهد اليابانيون فقط باحترام العادات والمعتقدات الإسلامية في المناطق ذات الأغلبية المسلمة من إندونيسيا، بل إنهم سعوا كذلك للتعاون مع زعماء المسلمين. وقد استغل بعض رجال الدين المسلمين هذه العلاقة التعاونية، وأجبروا المدنيين الذين كانوا يحملون بالاسم فقط لقب مسلمين على حضور الصلاة في المسجد. وبخلاف الديانات المحلية اليابانية التي كانت ضيقة جداً بقدر لا يسمح بجذب مؤمنين بها في الخارج، كانت هناك حالة واحدة على الأقل نجح فيها الإندونيسيون في جذب شخصية يابانية كبيرة إلى دينهم، وهو ما حدث في جزيرة فلوريس التي كان أهلها من المؤمنين الكاثوليك. وقد كانت تلك الجزيرة تحت الحكم الفيدرالي للبحرية اليابانية. فقد أوضح القائد الضابط ساتو توسوكو في مذكراته الرائعة «أتذكر فلوريس»، التي تحدث فيها عن الفترة التي

قضاها هناك بعد الحرب، أنه تأثر بالتقوى التي لاحظها في أسلوب الحياة المتبع هناك، حتى إنه اعتنق الكاثوليكية. ويؤكد هذا بوضوح الحقيقة التاريخية التي ترى أنه يوجد دوماً في أي شكل من أشكال الحرب أو الاحتلال أو الاستعمار، شيء من التبادل الثنائي بين الحكام الجدد والمحكومين.

وضع أثر الحرب في سياقه مجدداً

إن حرب 1939– 1945، والصراعات التي رافقتها قبل هذا التاريخ وبعده، قد غيرت اقتصاد العالم، وأثرت فعليّاً على سكانه من البشر. ونحن لذلك في حاجة لدراسة تأثيرها على حياة الناس في السياق التاريخي، والمحلي، والعالمي. ولكن مع الأسف لم يُفسَّر حتى الآن تأثير الاحتلال الياباني على الحياة اليومية في إندونيسيا إلا خارج هذا السياق. فمعاناة المدنيين كانت بسبب الأفعال المباشرة، مثل القسوة والاستغلال. وقد قام اليابانيون بالفعل بتعبئة أعداد كبيرة من الإندونيسيين للعمل في المشاريع المدنية والعسكرية التي أقاموها، وأساءوا معاملتهم، حتى إن الكثير منهم مات نتيجة لذلك. كما كان الكثيرون الآخرون ضحايا بشكل مباشر لمحاولة اليابان الطائشة إنشاء «نطاق الرخاء المشترك». غير أنه يبقى عدم دخول– كما رأينا– بعض المتطوعين في اتصال مباشر مع أي من اليابانيين. حيث كان بعض الأهالي– مثل مسؤولي الحكومة، ومسؤولي العمال– يقومون بتنفيذ خطط الاحتلال، في حين لم يظهر اليابانيون أنفسهم في مواقع العمل إلا نادراً. ولهذا، فإن التعجل باتهام أفراد معينين بأنهم مجرمو حرب لن يقدم فهماً ناضجاً لتأثير الحرب.

ولا شك في أن التعبئة القسرية للعمالة، والتسليم القسري للطعام، كانا أسوأ سياستين للاحتلال تأثيراً على الشعب الإندونيسي. وعلى الرغم من وجودهما، رأينا كيف أن سلطات الاحتلال لم تستطع أن تحقق أبداً هدف المشتريات السنوي من الطعام، وهو الهدف الذي وُضِعَ عند الكمية نفسها التي حددتها من قبل حكومة الاستعمار الهولندي. فقد باءت كل محاولاتهم بالفشل، وهو ما تسبب في فوضى بنظام توزيع الطعام، ونقص في هذا الوضع الطعام في الأراضي المحتلة. وبالطبع، هذه المسألة تحتاج كذلك للدراسة في سياق إقليمي ودولي واسع.

ويبدو أن الهولنديين كانوا على دراية تامة بأنه بمجرد أن تصبح إندونيسيا منعزلة بفعل

الحرب، ستواجه مشاكل اقتصادية فادحة، وخصوصاً من ناحية توفير الطعام والكساء للأهالي. ونتيجة لذلك، بدءوا في التحرك لتعزيز الكفاية الذاتية في إندونيسيا بمجرد أن بدأت الحرب في أوروبا. وبشكل موسع، كانت السياسات الاقتصادية اليابانية استمراراً لهذه التحركات. وحتى عندما استسلمت اليابان، وتولت الحكم حكومة جديدة شكلها الإندونيسيون، كان الزعماء السياسيون الجدد على وعي بالحنق العام على فشل اليابان في توفير الطعام والكساء. ولكن لعجزهم عن توفير أي بديل، اضطروا للاستمرار– بشكل أساس– في انتهاج السياسات نفسها، مثل نظام تسليم الطعام. وبالمثل، جاء إنجازهم أقل كثيراً من هدفهم من التدابير، لدرجة أنه بالنسبة لكثير من المدنيين كان هناك مستوى من الاستمرارية غير المرضية في حياتهم الاقتصادية على مدار ثلاثة نظم للحكم.

إذن، لم تتحسن أساسيات الحياة اليومية بشكل كبير في إندونيسيا بعد أن استسلمت اليابان. فقد استمرت قلة توفير الطعام والكساء، على الرغم من استئناف توريد كميات قليلة من الملابس. وبعد مرور عام على إعلان الاستقلال، كان أهالي القرى في جاوة غاضبين بسبب النظام الذي انحاز للأغنياء ضد الفقراء. ففي هذا النظام، كان الفلاحون الأغنياء نسبيّاً (ممن كانوا عرايا بنسبة أقل من 95٪!) يتسلمون حصة كساء مقابل تسليم 50 كيلوجراماً من الأرز للحكومة، ومن لا يستطيع منهم تسليم الكمية نفسها من الأرز لا يتسلم أي كساء على الإطلاق.

وقامت حكومة الجمهورية الإندونيسية– وكذلك الهولنديون عند عودتهم لاستعادة المستعمرة– بتوزيع كميات من الملابس على بعض الناس. ومع ذلك، شهدت السنوات المباشرة بعد الحرب انخفاضاً في الطعام والأنسجة. والحقيقة أن هذه المشكلة كانت مشكلة عامة في كثير من الدول، ولا تقتصر على إندونيسيا، حتى إن كبرى الدول المصدرة للأنسجة من قبل كانت تكافح لتلبية احتياجاتها المحلية فقط! والغريب أن تلك المحنة الصعبة للغاية قد فتحت المجال أمام ظهور نوعيات غير مألوفة من التجارة. فقد غدا بعض التجار في إندونيسيا يقومون بتجميع ملابس الخيش من أولئك الذين أصبحوا يرتدون ملابس مناسبة، ثم ينقلونها للمناطق الأكثر فقراً في البلاد، حيث يوجد أولئك الذين لا يستطيعون توفير– أو العثور على– ملابس جديدة، وقد ربح هؤلاء التجار مبالغ لا بأس بها من تجارتهم الغريبة تلك. وهكذا إذن، ارتدى الكثير من الإندونيسيين الأكثر

فقراً ملابس خيش بعد فترة طويلة من رحيل اليابانيين. بل إنه في بعض المناطق في شرق جاوة، ظل 80٪ من أهالي القرى يرتدون ملابس من الخيش القديم جداً.

ويبدو أن الحرب التي تميل لتدمير النظم الاقتصادية القائمة قد فتحت آفاقاً جديدة من الربح أمام بعض الفئات، كتجار الملابس المستعملة عموماً. كما أنها خلقت بالفعل العديد من فرص المشاريع الرسمية وغير الرسمية، مثل التجارة بين الجزر. وقد كانت السفن الكبيرة التي تعمل في المنطقة في سنوات ما قبل الحرب تخص- بشكل عام- بريطانيا وهولندا، في حين كان الأهالي يملكون عادة المراكب الأصغر حجماً. وقبل الغزو الياباني، رحلت معظم السفن الكبرى عن المنطقة فراراً من الوقوع في الأسر. وبالتالي كان اليابانيون يأملون في فرض تحكم احتكاري على الشحن بين الجزر. لذا، حاولوا الاستيلاء على كل السفن الباقية، ولكن الكثير من هذه المراكب الصغيرة كان قد اختفى كذلك قبل قدوم اليابانيين، ليس لخارج المنطقة، بل في قاع البحر! حيث كان أصحابها يخرقونها، كي يُستولى عليها، ثم يعيدون تعويمها بعد أن يكون الساحل قد أصبح آمناً.

ولأن اليابانيين كانوا على وعي بأن السيطرة الكاملة على النقل بين الجزر ليس ممكناً، تغاضوا عن كثير من التجارة غير الرسمية التي يقوم بها أصحاب المراكب الصغيرة. فكان هناك الكثير من التجارة السرية عبر بحر جاوة، ومضيق ملاكا، أو من ميناء لآخر عبر ساحل الجزيرة نفسها. وقبل الاحتلال، كانت تستورد الملابس من اليابان إلى جاوة، ثم يعاد تصديرها إلى جزر أوتر. ولكن الاحتلال عطل هذا النمط، وسبب نقصاً شديداً في الملابس في جزر أوتر. وفي الساحل الغربي من بورنيو، كان رداء الساورنج المهرب من جاوة يكلف 150 جيلدراً في أغسطس 1943، على الرغم من أن تكلفته كانت جيلدرين ونصف قبل الحرب. وقد أدى قيام التجار بتهريب الملابس من جاوة إلى بونياناك، ثم إلى بنجرماسين، لحصول هؤلاء التجار على أرباح كبيرة. و على أية حال، كان الكثير من التهريب في الواقع استمراراً غير رسمي لأنماط التجارة قبل الحرب.

ومن ناحية أخرى، قدمت الحرب فرصاً رسمية لبعض رجال الأعمال. فقد حاول اليابانيون، مثلما فعل الهولنديون من قبلهم، السيطرة على الاقتصاد، ولهذا قاموا باستغلال النظام القائم. وقد اعتمدوا خصوصاً على مسؤولي الحكومة المحلية، وشبكات أعمال ذوي العرق الصيني. حيث كان المسؤولون المحليون- مثلاً- هم من نفذ التسليم

القسري للأرز، كما كان أصحاب مطاحن الأرز الصينية هم من تعامل مع الأرز المستلم. وقد تآمر أولئك المسؤولون من أهل البلد مع تجار الأرز الصينيين، واختلسوا أجزاءً كبيرة من الأرباح، كما عرضوا الكثير من الأرز المستلم في السوق السوداء، في حين كان الكثير من الناس يموتون جوعاً. لذا انتهز المواطنون العاديون الفرصة عندما انتهى الحكم الياباني، فقاموا بنهب المحلات الصينية، واغتصبوا الصينيات، واعتدوا على مسؤولي الحكومة. ووفقاً لما ورد في دراسة لـ «أنطوان لوكاس» (Anton Lucas)، كانت المعاناة الشديدة للعامة أثناء الاحتلال، وكذلك فراغ السلطة خلال فترة الثورة، السبب في جعل هذا العنف أكثر دماراً واتساعاً واستمرارية، إذ امتد لفترة أطول بعد الاستسلام الياباني مقارنة بالعنف الذي حدث أثناء غزوهم.

ويبرز مجتمع الفلاحين تنوع تجربة الحرب بالنسبة للإندونيسيين بشكل أكثر وضوحاً. فقد ربح بعض الفلاحين الأغنياء على الرغم من تلك الفترة العصيبة، لأن الكثير من الفلاحين الفقراء- الذين كانوا في حاجة شديدة للأموال النقدية، لشراء الحاجات اليومية الأساسية، أو لدفع الضرائب- قاموا ببيع أراضيهم، أو دوابهم. ولأن وضعهم لم يكن يسمح لهم بالمساومة، اضطر هؤلاء البؤساء لقبول أي سعر يقدم لهم. وبهذه الطريقة، استطاع الفلاحون الأكثر ثراءً زيادة ثروتهم بسهولة، ومن ثم زيادة نفوذهم وسلطتهم داخل القرية والإقليم.

وإجمالاً، كان الاضطراب السياسي والاقتصادي الذي حدث أثناء فترة الحرب مصحوباً بتحول ثقافي إيجابي وسلبي على حسب وجهة نظر المرء. فعندما انتهى استيراد وسائل الإعلام الأجنبية، بدأ الفنانون المحليون يستخدمون وسائل الإعلام الخاصة بهم، على الرغم من استمرار خضوعها للسيطرة الأجنبية. فمثلاً، أصبح أغلب الفنانين الذين ذاع صيتهم خلال الاحتلال الياباني نجوماً سينمائيين، عندما حصلت إندونيسيا على استقلالها، استُؤنِفَ الإنتاج السينمائي. وكذلك يمكن ملاحظة ظواهر شبيهة في مجالات مثل الأدب والموسيقا والفنون الجميلة. ولكن لا ينبغي علينا التسرع، ونسب هذه التغيرات ككل للاحتلال الياباني. فمثلما كان الحال في الاقتصاد والسياسية، برزت مؤشرات على وجود تغير ثقافي مبكر قبل الغزو الياباني. ومن ذلك أن بعض الكتاب والخطباء الإندونيسيين الذين بدءوا مهنتهم باستخدام اللغة الهولندية قد تحولوا- وبشكل

مستقل- للغة الملايو قبل عام 1942. فقد قام السياسي الإندونيسي محمد حسني ثامرين (Mohamed Husni Thamrin)- على سبيل المثال- بإلقاء خطبه في المجلس الاستعماري باللغة الإندونيسية، وقد كان ذلك بلا شك ينطوي على تحدٍّ للأعضاء الهولنديين الذين كان من الصعب عليهم فهم تعليقاته.

وهكذا، يتضح أن الاحتلال الياباني- كما بيّن هذا الفصل- كان عاملاً مساعداً أكثر منه سبباً مباشراً في التغير الكبير الذي حدث في العديد من المجالات. كما يتضح كذلك أنه من أجل فهم أشمل للطرق المعقدة التي أثرت من خلالها الحرب على الحياة في إندونيسيا في المناطق المحتلة، ينبغي علينا دراسة الحدث في سياقه التاريخي والعالمي الأوسع. خاصة أن التعقيد الموجود في التأثيرات المختلفة للحرب قد أدى إلى تعقد العلاقات والتفاعلات داخل المجتمع الإندونيسي وتشابكها، وأيضاً تعقد الطريقة التي مثلت بها إندونيسيا هذا الجزء من الأسرة العالمية.

الهوامش

1. L.de Jong, The Collapse of a Colonia Sociely: The Dutch in Indonesia during the Second World War (Leiden, Netherlands: KITLV Press,2002),279
2. Pramoed ya Ananta Toer,The Fugitive, trans. Willem Samuel (Harmondsworth, England: Penguin Books, 1990),33.
3. P. J. Suwarno, Ramusa Daerah lstimewa Yogyakarta (Romusha in the Special Region of Yogyakarta), Yogyakarta, Indonesia: Penerbitan Universitas Sanata Dharma, 1999.
4. Boentaran Martoatmodjo, «Pemandangan Singkat Perihal Kesehatan dan Makanan Rakjat dll (Brief Overview of the People’s Health and food etc.),»Berita Ketabitan: Madjalah dari Diawa lzi Hoko Kai (Medical News: Journal of the Java Medical Service Association) 4-6 (1944): 43-52.
5. Masahei Suzuki, Nippon Senryoka Bari-tv karano Hokoka Tonan Ajia deno

Kyoikn Seisakn [Reports from Bali under the Japanese Occupation: Education Policies in Southeast Asia] (Tokyo: Soshisha, 1999), 91.

6. Economisch Weekblad voor Nederlandsch-Inde (Economic Weekly for the Netherlands Indies) 1 Novembar (1940): 2065-67 , December (1941): 87. in 1941.

كان هناك زهاء 100 مطحنة للأرز في إندونيسيا، نصفها في جاوة والنصف الآخر في الجزر الخارجية. وكان الكثير من المطاحن في جاوة كبيرة الحجم، بينما كانت مطاحن الجزر الخارجية– والتي أقيمت بعد سنة 1939– صغيرة.

7. Prawoto Semodilogo, «Menindjaoe Keadaan di Indramajoe (Inspection of the Situation in Indramayu),» Collection of C.O. van der Plas, 2. 21. 226, no. 160, The National Archive, The Hague.

8. Suzuki 1999: 187-88.

9. «Compilation of NEFIS Interrogation Report, nos 351-364,» Indonesian Collection 061024, The Netherlands Institute for War Documentation, Amsterdam.

10. «Rapport inzake de Algeneene Situatie in de Onderafd. Bolaan-Mongondow (Report on the General Situation in the Subdistrict of Bolaan-Mongondow),» 17 June 1946, NEFIS/CMI collection, part one, in 1769, held in the Ministry of Foreign Affairs, The Hague.

11. Tuong Vu, «Of Rice and Revolution: The Politics of Provisioning and State-Society Relations on Java, 1945-49,» South East Asia Research 11 (2003): 256.

12. William H. Frederick, «The Appearance of the Revolution: Cloth, Uniforms, and the Pemuda Style in East Java, 1945-1949,» in Outward Appearance: Dressing State and Society in Indonesia, ed. Henk Schulte Nordholt (Leiden, Netherlands: KITLV Press, 1997), 207.

مراجع مختارة

Alisjahbana, Sutan Takdir. Kalah dan Menang (Defeat and Victory). N.p.: Dian Rakyat, 1978.

هذه الرواية، التي كتبها المؤلف الذي عمل في «اللجنة المعنية بتطوير اللغة الإندونيسية»، تلتقط ملامح المشهد في جاوة في فترة الاحتلال الياباني.

Anderson, Benedict R. O. Java in Time of Revolution: Occupation and Resistance, 1944-1946. Ithaca, Ny: Cornell University Press, 1972.

عمل أكاديمي متفرد يتناول بالتحليل الشباب الإندونيسي الثوري في جاوة في الفترة بين أواخر عصر الاحتلال ومطلع فترة الثورة.

de Jong, L. The Collapse of a Colonial Society: The Dutch in Indonesia during the Second World War. Leiden, Netherlands: KITLV Press, 2002.

يتمثل تركيز هذا العمل بالأساس على المواطنين الهولنديين والهولنديين من أصول أوروآسيوية، لكنه يهتم أيضاً بالحياة اليومية في إندونيسيا.

Frederick, William H. Visions and Heat: The Making of the Indonesian Revolution. Athens: Ohio University Press, 1989.

يتابع هذا الكتاب التغيرات السياسية والاجتماعية والظواهر المتواصلة في سورابايا أثناء الحقبة الهولندية واليابانية والإندونيسية.

Kratoska, paul, ed. Asian Labor in the Wartime Japanese Empire: Unknown Histories. New York: M. E. Sharpe, 2005.

يشتمل هذا الكتاب على خمسة فصول عن تعبئة القوى العاملة اليابانية في إندونيسيا

وعواقب ذلك.

Lucas, Anton. One Soul One Struggle: Region and Revolution in Indonesia. St. Leonards, Australia: Allen and Unwin, 1991.
يعد هذا الكتاب بمثابة دراسة حالة مفصلة ورائدة عن الحركة الثورية للفلاحين في وسط جزيرة جاوا بعد الاحتلال الياباني.

Malaka, Tan malaka. From Prison to Prison. Translated by Helen Jarvis. Athens: Ohio University Center for International Studies, 1991.
سيرة ذاتية للقائد الإندونيسي الشيوعي الذي عمل مسؤولاً في الرعاية الصحية للمجموعات التي عُبِّئت للعمل في مناجم الفحم في غرب جاوة أثناء فترة الاحتلال الياباني.

Pakahan, G. 1261 Hari di bawah Sinar Matahari Terbit, 6 Maret 2602-17 Agustus 2605 (1261 Days under the Rising Run, 6 March 1942-17 August 1945). 2nd ed. Jakarta: Marintah Djaya, 1979.
رواية مفصلة عن الحياة اليومية في إندونيسيا من وجهة نظر إندونيسي عاش في جاكارتا في فترة الاحتلال الياباني.

Sato, Shigeru. War, Nationalism, and Peasants: Java under the Japanese Occupation, 1942-1945. New York: M. E. Sharpe, 1994.
يحلل هذا الكتاب الأثر الاقتصادي للإدارة العسكرية اليابانية على طبقة الفلاحين في جزيرة جاوة.

Sato, Shigeru. «Emperor Worship and Language Teaching in Java under the Japanese Occupation.» In Coloniality, Postcoloniality and Modernity in Japan,

ed. Vera Mackie et al. Melbourne: Monash Asia Institute, 2000.
دراسة استقصائية للسياسة الأيديولوجية والتعليمية لليابان في جزيرة جاوة في وقت الحرب.

Sato, shigeru. «Indonesia 1939-1942: Prelude to Japanese Occupation.» Journal of Southeast Asian Studies, 37 ,no. 2 (2006):225-48.
يحلل هذا المقال الأثر الاقتصادي للحرب الأوروبية على المجتمع الإندونيسي واستجابة الحكومة الاستعمارية لها.

Sato, Tasuku. I Remember Flores. New York: Farrer, Straus, 1957.
رواية للحياة اليومية في جزيرة فلوريس ذات الأغلبية الكاثوليكية للقائد العسكري الياباني الذي تأثر كثيراً بالشعب لدرجة جعلته يعتنق الكاثوليكية.

Toer, Pramoedya Ananta. The fugitive. Translated by Willem Samuel. Harmond-Sworth, England: Penguin Books, 1990.
أول رواية كبيرة كتبها هذا الكاتب المعروف تصف صراع شاب إندونيسي يافع في نهاية فترة الاحتلال الياباني.

Vu, Tuong. «Of Rice and Revolution The Polities of Provisioning and State-Society Relations on Java, 1945-49. »South East Asia Research 11 (2003): 237-67.
يشير هذا المقال إلى أوجه الشبه بين السياسات اليابانية والإندونيسية فيما يتصل بتوزيع الغذاء.

الفصل السابع

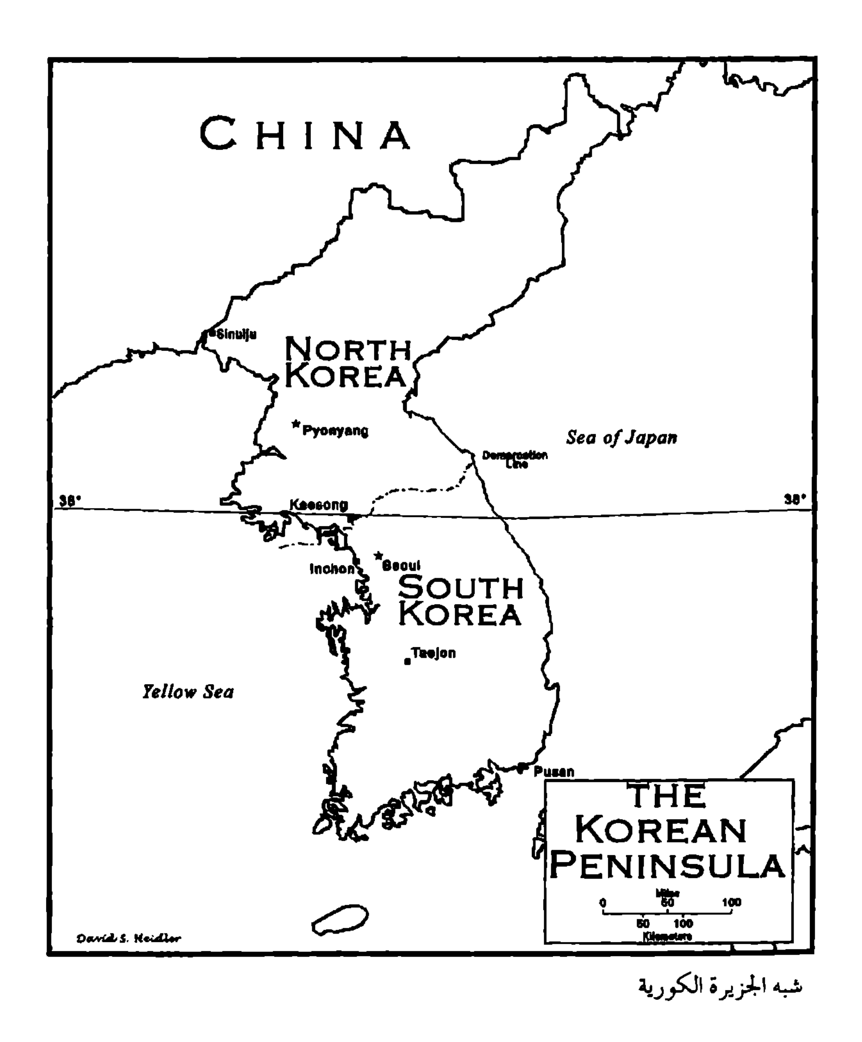
المدنيون في الكوريتين الشمالية والجنوبية بين عامي 1950 و1953

بقلم: أندري لانكوف

حصلت كوريا على استقلالها بعد استسلام اليابان في 15 أغسطس 1945، وذلك بعد مرور 35 عاماً على الاحتلال. وكان ثمة ثلاثة أسباب رئيسة على الأقل منعت المملكة الكورية وحكومتها من الحصول على استقلالها عام 1910 وهي:

أولاً: رفضت كوريا التحول الصناعي في أواخر القرن التاسع عشر تخوفاً مما قد ينتج عنه من فوضى اجتماعية، وهو ما أصاب البلد بالفقر نسبيّاً، كما جعل من الصعب عليها تعبئة قواتها للحرب. ثانياً: كانت النخبة الكورية قد تلقت تعليماً قائماً على المعتقدات الكونفوشيوسية الأرثوذكسية، وهو ما جعل الجيش موضع احتقار بوجه عام مع النظر إليه على أنه نوع من الاحتلال، وهذا بالطبع ما أضعف من دفاعات البلد وجعلها غير ملائمة. ثالثاً: أن الصين– المدافع التقليدي عن المصالح الكورية– كانت تعاني في هذه المرحلة من تدهور سريع على مستوى السياسة الجغرافية، ولم تكن هناك أي قوى أخرى ترغب في منع اليابان من فرض سيطرتها على شبه الجزيرة الكورية.

وبعد أن حصلت كوريا على استقلالها في عام 1945، كان هناك تنافس بين اثنين من الأنظمة القومية هما: الشيوعيون بزعامة كيم إل سونغ، الذي ذاع صيته بوصفه زعيماً لحرب العصابات ضد المصالح اليابانية في منشوريا، والمحافظون برئاسة «سينغمان ري» (Syngman Rhee)، والتي مثّلت القاعدة التي تدعمه من بين النخب التي كانت في المنفى سابقاً. أما الأمر الذي اشترك فيه كلا النظامين فكان عدم السماح لكوريا بأن تعاني



شبه الجزيرة الكورية

من الضعف مرة أخرى أمام التهديدات الخارجية، إلى جانب الإيمان المطلق بالمذاهب الفكرية الخاصة بهما كأفضل وسيلة للدفاع عن البلد. وقد أدى رفض كل منهما لأي شكل من أشكال مشاركة السلطة عام 1948 إلى تأسيس الجمهورية الكورية في الجنوب وجمهورية كوريا الشعبية الديمقراطية في الشمال، ولكن ما يمثل تناقضاً في هذا الصدد هو أن كلا النظامين قد سعى إلى الحصول على مساعدات خارجية من أجل دعم موقفه ضد الطرف الآخر، ومع حلول عام 1950، توقفت الولايات المتحدة عن دعمها للزعيم «ري»، وعملت على دعم موقفها في اليابان.

وفي هذه المرحلة، عمل «كيم إل سونغ» (Kim II–Sung) على إقناع مؤيديه داخل

القوتين الشيوعيتين الرئيستين– ستالين[34] في موسكو، و«ماو تسي تونغ»[35] في بكين– بأنه يمكن توحيد كوريا مرة أخرى من خلال حرب أهلية قصيرة الأجل. وبناءً على ذلك وفي صباح يوم الأحد الموافق 25 يونيو 1950، شنت كوريا الشمالية هجمة مباغتة على طول «الخط الثامن والثلاثين»، وهو الخط الفاصل الذي رسمته الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي مع نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد افترض المخططون العسكريون في بيونغ يانغ ومستشاروهم السوفيت أن الحرب ستنتهي في غضون ثلاثة أشهر على أكثر تقدير، إلا أن ما حدث أن هذه الحرب قد استمرت على أشدها لمدة ثلاث سنوات أعقبها نصف قرن آخر على الأقل من الحرب. وقد خلفت هذه الحرب، والتي أُطلق عليها اسم «الحرب الساخنة»، ما يقرب من ثلاثة ملايين قتيل كوري وحوّلت المدن الكبيرة، مثل سول وبيونغ يانغ، إلى مدائن أشباح أو أرض قاحلة.

وقد سارت الأمور في البداية كما خطط لها القادة الشيوعيون، إذ كانت الفرق العسكرية لكوريا الشمالية مدربة تدريباً جيداً (كان لدى الكثير من الجنود خبرة حديثة إثر خوضهم الحرب إلى جانب القوات الشيوعية المنتصرة في الصين) إضافة إلى التسليح الجيد، ما مكنها بسهولة من اختراق وحدات كوريا الجنوبية التي انهارت معنوياتها، وذلك على طول «الخط الثامن والثلاثين»، وبدأت تقدمها نحو سول التي كانت تبعد 50 كيلومتراً فقط تجاه الجنوب. ومن المعروف أن مدينة سول كانت أكبر مدن البلد عام 1950، حيث كان تعداد سكانها 1,5 مليون نسمة، ليس ذلك فحسب بل كانت هذه المدينة عاصمة البلاد لمدة ستة قرون من الزمان، تمتعت بنفوذ سياسي عريض، وكانت موطن الطبقة الراقية من الأمة، إلى جانب كونها أيضاً هدفاً رئيساً للهجوم.

ويرى العديد من المراقبين أن هذه الحرب لم تكن مفاجأة نظراً لتصاعد التوتر بين الكوريتين منذ عام 1945، وعلى وجه التحديد منذ أواخر الأربعينيات، حيث عمل كل جانب على استكشاف نقاط الضعف لدى الجانب الآخر. وفي سول، كتب كيم سونغ شيل عام 1950، ويقال إنه أشهر كاتب يوميات في هذه الفترة، قائلاً: «إن خطر الحرب الأهلية الذي كان يحوم فوق رؤوسنا منذ خمس سنوات قد أصبح حقيقة». أما تشانغ

(34) ستالين: أبرز رموز الشيوعية وقائد الاتحاد السوفيتي السابق.

(35) «ماو تسي تونغ»: ثوري صيني ومنظّر سياسي وقائد شيوعي، حكم جمهورية الصين الشعبية منذ إنشائها عام 1949 حتى وفاته عام 1976.

تو يونج، رئيس المخابرات العسكرية لكوريا الجنوبية، فقد كان أكثر إيجازاً في كلمته، إذ قال: «ما كان من المنتظر أن يحدث حدث بالفعل».

مع ذلك، وفي الساعات الأولى من الحملة العسكرية، لم يكن من السهل على المدنيين العاديين في سول فهم مغزى ما كان يحدث على طول «الخط الثامن والثلاثين»، فقد اعتاد الناس على وقوع تصادمات بين الطرفين على الحدود. وبالتالي نظر الكثيرون إلى هذه الحملة على أنها مجرد صراع جديد سوف ينتهي من دون أن يحدث أي تغير أساسي في حياتهم. ولا شك في أن سكان سول ظلوا لفترة من الوقت دون أية دراية بسرعة تقدم قوات كوريا الشمالية أو مدى هذا التقدّم. ولعلهم لاحظوا اتخاذ بعض إجراءات الطوارئ في المدينة، مثل توجيه أوامر إلى كل الجنود عبر الإذاعة بالعودة إلى وحداتهم، ووقف المباريات الرياضية للطلبة في أنحاء البلاد، مع توقف مسرح واحد على الأقل عن أداء عروضه المسرحية، وقُطِعت العروض في بعض دور السينما لإعلام المواطنين بالأحداث الأخيرة، كما استُعملت كلمة «الحرب» بالفعل. غير أن هذه الأمور كانت بمثابة استثناءات، وكان ينظر إلى هذه التحذيرات على أنها تحذيرات رمزية تستخدم لإبقاء المواطنين في حالة تيقظ.

وفي واقع الأمر، فبالنسبة لمواطني سول بدأت الحرب الكورية بعرض للقول المأثور إن أول ضحايا الحرب هي الحقيقة، وفي هذه الحالة فقد كانوا ضحايا للتكنولوجيا الخاصة بهم، وكانت الإذاعة– إذ انتشرت أجهزة المذياع بين المواطنين في السنوات الأخيرة– تُستخدم لإقناع المستمعين بالاستمرار في حياتهم كالمعتاد. وحتى مع انهيار الدفاعات الكورية استمرت النشرات الإخبارية في طمأنة الجماهير بأن التقدم الأولي لكوريا الشمالية تُصُدِّيَ له وأُوقف بل وقُلِبَ الموقف لصالحها. وعلى الرغم من سماع أصوات نيران المدفعية البعيدة في وسط سول في صباح يوم 27 إلا أن الزعماء كانوا يخبرون المواطنين بأن الوضع تحت السيطرة. وبالنسبة لمن كانوا يعيشون في الضواحي الشمالية والذين كانوا يسمعون أصوات المعركة بشكل قريب، فقد اختاروا ترك منازلهم وبدء التحرك تجاه وسط المدينة حيث كانوا يظنون أنه المكان الأكثر أمناً بالنسبة لهم.

وتعزز الانطباع الزائف لدى المواطنين بشأن استقرار الوضع عندما بثت محطات إذاعة سول في يوم 25 يونيو 1950 خطاباً للرئيس «ري» (Rhee)، حث فيه جميع المواطنين على

بذل أقصى وسعهم لحماية سول من العدو. وقد افترض معظم سكان سول أن هذا البث كان بثاً مباشراً، إذ لم يكونوا معتادين على البرامج المسجلة مسبقاً، ومن هنا فقد اعتقدوا أن الرئيس يقف بجوارهم، بينما الحقيقة أنه في الوقت الذي كان يُذاع فيه صوت الرئيس «ري» كان هو نفسه قد لاذ بالفرار إلى الجنوب، وسرعان ما تبعته المؤسسات الكبرى بجمهورية كوريا.

وبينما كان لدى العديد من المواطنين مثل رجال الأعمال والمتعلمين وهؤلاء الذين حققوا نجاحاً بدرجات متفاوتة في ظل الاستعمار الياباني أسباب منطقية للتخوف من الجيوش الشيوعية المتوغلة، فإنه بدا واضحاً أن هناك الكثير غيرهم يشعرون بأن السياسة تمثل شيئاً بعيداً عن نظام حياتهم اليومي. وبمعنى آخر، كان الكثير من المواطنين الكوريين العاديين في الجنوب غير مبالين بشكل كبير بالأطراف المتحاربة. ولم تكن إدارة «ري» تنال شهرة واسعة (على الرغم من أن الرجل نفسه نال نصيباً من الاحترام بسبب حملته التي استمرت سنوات من أجل استقلال كوريا). وكانت التوقعات في عام 1950 تشير إلى أن أي تغيير للحكومة سيمثل حالة من التحسن ضد حالات الفساد والمحسوبية واغتيال المنافسين السياسيين. وهكذا لم يساور معظم المواطنين في سول أو المناطق الأخرى من الجمهورية الكورية قلق كبير بشأن الشيوعيين القادمين. فربما لاحظ عامة الشعب اتساع شهرة الجنود الشيوعيين الصينيين وقت انتصارهم في أواخر عام 1949، وربما تكون الأحداث في الصين قد أهلت الناس عاطفياً لدعم انتصار الشيوعية في أي مكان آخر في آسيا، حتى إن كان كوريا.

وتؤكد المستندات التي أُفرِجَ عنها مؤخراً من الأرشيف السوفيتي ما كان محل شك طويل من قبل الباحثين، فقد كان الاستراتيجيون في كوريا الشمالية صادقين في افتراضهم أن غزوهم سيشعل انتفاضة شيوعية كبيرة بين الشعب الذي يعيش تحت مطرقة القمع في الجنوب. وكانوا على خطأ، ذلك لأن معظم مواطني كوريا الجنوبية لم يكونوا على استعداد لقتال الشمال الشيوعي أو الجنوب الجمهوري. وأراد معظمهم ببساطة الخروج من هذه الأوقات الخطرة منذ أصبحت الحرب صراعاً داخلياً بين الأنظمة المتنافسة وليست حملة وطنية عظيمة ضد أي جيش أجنبي غازٍ. كما كانت هناك أيضاً مجموعة أصيبت بالإحباط بعد أن رأت نيران الحرب تشتعل بين الكوريين أنفسهم بعد خمس سنوات فقط

من التحرر من الحكم الياباني. ويمكن وصف الموقف العام للعديد من المواطنين العاديين من خلال المقولة الكورية: «حتى إذا سقطت السماء فستكون هناك بعض الفتحات للهروب». ومن هنا بدأ العامة بحثهم عن هذه الفتحات للهروب.

الحرب: مرتكز الدمار

إن طريقة سير الحرب وطبيعتها لجميع المدنيين في كوريا تقع في فئتين: تمثل الفئة الأولى تلك الاضطرابات الموجودة نتيجة للحركات المتذبذبة والسريعة للخلف والأمام بين الجيوش المتنازعة والأعلام المتغيرة. ثم تمثل الفئة الثانية وعقب ذلك بسنوات حيث تلاشت تحركات القوات على الساحة، وحل محل ذلك بالنسبة لكوريا الشمالية تهديد مستمر بالتفجير، وعلى صعيد كوريا الجنوبية فقد كانت هناك فترة من الانتظار والتحمل من أجل إنهاء الحروب.

سيطرت القوات الشمالية على سول في 28 يونيو 1950، وفي أوائل شهر أغسطس سيطر الشيوعيون على 90٪ على الأقل من شبه الجزيرة الكورية. وبدا الأمر كما لو أن كوريا الشمالية قد انتصرت في الحرب الأهلية بسهولة ودون إراقة دماء تماماً مثلما تنبأ كيم إل سونغ. غير أنه في هذه المرحلة قررت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة الرئيس ترومان إنقاذ جمهورية كوريا من أجل دعم سياسته التي تقضي باحتواء الشيوعية على المستوى العالمي. وقد اتُخِذَ هذا القرار مدعوماً بقرار رسمي من الأمم المتحدة، جعل التدخل العسكري مبرراً في النظام الشرعي الدولي الجديد. ومن أجل جميع الأغراض العملية، فقد تألفت قوات الأمم المتحدة من القوات الأمريكية وقوات من كوريا الجنوبية، إضافة إلى بعض الوحدات البريطانية والتركية، وكذا مساهمات رمزية من العديد من الدول الأخرى. وفي 15 سبتمبر استقرت قوات الأمم المتحدة بقيادة الجنرال «دوجلاس ماك أرثر» (Doglas MacArthur) في ميناء إنشيون (Incheon) وهو الأقرب لمدينة سول على الساحل الغربي لكوريا. وفي أواخر سبتمبر، سيطرت هذه القوات على سول ثم بدأت تقدمها السريع تجاه الشمال. ومثلما انهارت قوات جمهورية كوريا في منتصف 1950 فقد عانت وحدات كوريا الشمالية من التفكك تحت ضغط الضربات الثقيلة لهجمات قوات الأمم المتحدة ذات التسليح الأفضل. وفي 19 أكتوبر استطاعت قوات الجنرال «ماك

أرثر» دخول بيونغ يانغ، ونتيجة لذلك فقد هربت حكومة كوريا الشمالية إلى الحدود الصينية، في حين تلاشى جيش كوريا الشمالية كقوة مقاتلة. وفي أواخر نوفمبر سيطرت قوات الأمم المتحدة على 90٪ على الأقل من كامل الأراضي الكورية، وهو ما يعدّ انقلاباً في الوضع الذي شهده شهر أغسطس.

وفي هذه المرحلة، قررت قوة عظمى أخرى الانضمام للحرب وفرض حركة أخرى لمؤشر الحرب. وقد نظرت الحكومة الشيوعية حديثة النشأة في بكين إلى تقدم قوات الأمم المتحدة عبر حدودها مع كوريا بوصفه تهديداً مباشراً لها، وحذرت ماك أرثر من خلال القنوات الدبلوماسية أنها ستكون مجبرة من أجل حماية أمنها على التصرف إزاء ذلك ما لم يتم التوقف عن التقدم. ولم تأبه الولايات المتحدة للتحذير، ونتيجة لذلك تحرك الجيش الصيني (الذي يوصف رسميّاً باسم «المتطوعين الصينيين الشعبيين» للحفاظ على الصورة الدبلوماسية لحياد الصين) صوب الجنوب من منشوريا إلى كوريا. وبدأ الهجوم الصيني في آخر شهر نوفمبر، ومع كل هذه الصدامات السابقة فيما بدا حرباً أهليةً ثم التحول إلى حرب بين الدول، تطور الوضع بسرعة كبيرة للغاية، إذ استُرِدَّت بيونغ يانغ في أول سبتمبر، وفي 4 يناير 1951 دخلت الدبابات الصينية إلى سول. وفي محاولة أخيرة أعادت قوات الأمم المتحدة تشكيل قواتها واستعادت السيطرة على العاصمة الجنوبية. وعقب ذلك فترة طويلة من حروب الخنادق، واستمر ذلك حتى إعلان الانتهاء الرسمي للحرب في يوليو 1953. وخلال هذه السنوات شهد الشمال قصفاً شديداً بواسطة القوات الجوية الأمريكية، لكن الوضع على الأرض استقرت فيه الجبهة بوجه عام. وفي 27 من يوليو 1953 حصل أخيراً توقيع هدنة وإعلان انتهاء الحرب الساخنة. وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت حالة الحرب بين النظامين الكوريين لعدة عقود، مع التأكيد على أن التحول للطبيعة العسكرية والاستعداد للحرب قد أصبح جزءاً أساسيّاً من الحياة اليومية للمواطنين على جانبي الخط الثامن والثلاثين.

سول: الوجه المتغير للمحتل

في تمام الساعة 11:30 صباح يوم 28 يونيو 1950 شهد المواطنون في وسط مدينة سول رفع علم كوريا الشمالية على المبنى المركزي للحكومة المعروف للأجانب باسم «برلمان

سول» (Seoul Capitol). وأُنشِئَ المبنى بوصفه مركزاً للإدارة الاستعمارية اليابانية بشكل متعمد لكي يسمو فوق أبنية وسط المدينة التي كان يتألف معظمها من طابق واحد أو طابقين (وقد هُدِمَ في التسعينيات كحدث متأخر للقومية). وبعد نحو ثلاثة أيام من القتال، أصبح المبنى وجميع عاصمة كوريا الجنوبية الآن تحت سيطرة جيوش كوريا الشمالية، وقد دامت سيطرة كوريا الشمالية ثلاثة أشهر حتى آخر شهر سبتمبر.

وكانت سول حينذاك– ولا تزال– مدينة كبيرة، حيث اعتبرت أكبر مدينة في الدولة في سنة 1950، وضمت بين حدودها غالبية سكان كوريا الجنوبية. ومن بين هذا الكم من السكان، وقع الناس الذين رغبوا في الفرار من الزحف الشيوعي القادم– ضحية لدعاية حكومتهم وفوجئوا بسرعة تقدم الشمال، فوجدوا أنفسهم تحت الاحتلال– وقد تضمن العدد 60 عضواً من إجمالي 200 عضو من أعضاء برلمان كوريا الجنوبية. وقدر أنه من بين إجمالي 1,45 مليون نسمة لم يغادر سول أكثر من 400,000 نسمة (حوالي 27٪) قبل انهيار دفاعات كوريا الجنوبية. وكان عدد كبير– وربما معظم من استطاعوا الفرار من القادمين حديثاً من الشمال، وهم الأفراد الذين كانت لديهم معرفة مسبقة بظروف الحياة– تحت ظل نظام كوريا الشمالية، ولم يكن لهم وطن قائم في سول لحمايتهم. وقد تصوروا أيضاً– ولديهم سبب منطقي لذلك– أن هروبهم في البداية من الشمال إلى الجنوب سيجعل منهم أهدافاً في حالة تولي الشيوعيين السلطة. وكان من بين من استطاعوا الفرار أيضاً رجال السياسة البارزون وكبار البيروقراطيين، وهم الذين كانوا يعلمون بشكل أفضل وأكثر دقة حقيقة الحرب. وأرسلوا عائلاتهم بعيداً باتجاه الجنوب يومي 26–27 يونيو، فامتلأت الطرق الضيقة غير الممهدة المتجهة إلى الجنوب في هذين اليومين بسيارات النخبة من سكان سول. ومع هذا كان معظم الكوريين في عام 1950 لا يمتلكون سيارات خاصة. ففي أواخر الأربعينيات، كانت هناك 10,000 سيارة وشاحنة فقط في الدولة بأكملها– بمعدل سيارة واحدة لكل 2,000 شخص. ولم تجد أفواج اللاجئين العاديين أية وسيلة نقل سوى القطارات شديدة الزحام أو السير على الأقدام.

ولعبت قوات جمهورية كوريا نفسها دوراً رئيساً في حبس سكان سول، كان ذلك بعد ورود تقارير زائفة حول ظهور دبابات للعدو في المنطقة، وقام ضباط القيادة لكوريا الجنوبية في فجر يوم 28 يونيو بتوجيه أوامر بتدمير الجسرين اللذين كانا يعبران

نهر الهان، فقد كانا يمثلان طريق الهروب الوحيد لكل من اللاجئين الفارين من سول والقوات المتراجعة إليها. وقد أسفرت الانفجارات عن مقتل عدة مئات من الأشخاص ممن تواجدوا لسوء حظهم على هذين الجسرين أو بالقرب منهما وقت تفجيرهما. والآن ومع عجز مواطني سول عن عبور النهر فلم يجدوا أمامهم أي خيار سوى التعامل مع الجيش الشيوعي المنتصر.

ومع هذا لم تتعامل القوات الكورية الشمالية كقوات غازية أثناء فترة سيطرتها على سول. فقد نص دستور كوريا الشمالية في عام 1948 على أن عاصمة جمهورية كوريا الشعبية الديمقراطية لكوريا الشمالية يتعين أن تقع في سول التي تمثل المركز السياسي لدولة كوريا المتحدة منذ أواخر القرن الرابع عشر، ولم تكن بيونغ يانغ سوى مقر مؤقت للحكومة. ووفقاً لوجهة نظرهم الرسمية، كانت قوات كوريا الشمالية عبارة عن مدافعين عن جميع الكوريين، ومسخّرة لخدمة الأمة بأكملها من خلال طرد «الإدارة الدمية» التي فُرِضَت على الجنوب بواسطة من دُعوا بالإمبرياليين الأمريكيين. وعلى ذلك فقد ألقى كيم



مشهد معتاد للكوريات في الشارع عام 1950م
(الأرشيف الروسي للصور والوثائق السينمائية)

إل سونغ خطاباً هناً فيه «جماهير شعب سول» بتحريرهم على أيدي جنود الشمال. هذا إضافة إلى أن انضباط قوات كوريا الشمالية في الأيام الأولى قد أكسبهم مكانة كبيرة لدى السكان المحليين، بيد أنه في شهر سبتمبر ومع تغير طبيعة الحرب، فقد ازدادت حالات السلب والسرقة التي ترتكبها قوات كوريا الشمالية حتى صارت أمراً شائعاً نسبيّاً.

وقد عمل الشيوعيون بدأب لعودة الحياة الطبيعية في المدينة. وفي 27 يونيو وقبل تثبيت أقدامهم، شُكّلت اللجنة الشعبية المؤقتة في سول للعمل كحكومة للعاصمة، وترأس هذه اللجنة واي سونغ–يوب، وهو شيوعي بارز كان له نشاط سياسي في سول حتى ارتداده إلى الشمال (وأصبح لاحقاً ضحية لعمليات التطهير السياسية في الشمال). ونظراً لإدراكه بعدم مبالاة المواطنين عموماً بالسياسة حيث انصبَّ تركيزهم على احتياجاتهم الأساسية، فقد كان أول أعماله هو الحدّ من أي إضرار بالوظائف والأجور والإمدادات. وفي مساء يوم 29 يونيو، أصدر بياناً عبر الإذاعة حث فيه المواطنين على «العيش بسلام واستئناف أعمالهم في المصانع والمزارع والمتاجر».

وتمثلت المظاهر الرئيسة الأخرى لاستعادة الحياة الطبيعية في التعليم والانتقال، فقد استأنفت المدارس الابتدائية في سول أنشطتها في منتصف شهر يوليو، وغُيِّرت المناهج الدراسية في عجلة لتناسب الوضع السياسي الجديد، كما أن معظم الدروس الخاصة بالأطفال والتي تتعلق بالقراءة أو الكتابة، كانت أساسية للغاية، وبالتالي لم تشهد تغييرات كبيرة. وتعهد الشيوعيون بتمكين الناس من تبادل الخطابات والرسائل من خلال مكاتب البريد التي كانت مستمرة في قبول البريد، وكان ذلك بمثابة لفتة مهمة بشأن الوحدة الوطنية، وقد تضمن ذلك لأول مرة منذ سنوات عديدة إرسال البريد واستقباله من الشمال (فقد كان تبادل البريد العادي بين الكوريتين مستمراً لفترة عقب الانقسام في 1945، غير أنه وقع ضحية للتباعد بين الشمال والجنوب). وكانت مسألة البريد أحد الأمور السيئة وقتها، حيث عمل الشيوعيون على حظر استخدام طوابع البريد التي أُصدِرت من قبل تحت حكم «ري»، ولأن الطوابع الجديدة استغرقت وقتاً كبيراً حتى تصل فقد اضطر العامة إلى السداد نقداً مقابل كل خطاب أو طرد. واستأنفت خدمة الترام عملها داخل سول بعد مرور يومين فقط من الانقطاع، وهو ما يمثل أهمية رمزية وعملية كبيرة إذ كان

الترام وسيلة النقل الرئيسة للجماهير داخل حدود المدينة. ومع أول شهر أغسطس 1950 عبرت قرابة 120 حافلة شوارع سول، وهو معدل لا يقل كثيراً عن طاقة العمل الإجمالية قبل الحرب.

وإضافة إلى الاتصالات والتنقل، كانت هناك مسألة إصلاح الوسائل الإعلامية، على الرغم من أنها اتخذت في ذلك الوقت شكلاً وصوتاً مختلفاً تماماً. وأعيد فتح دور السينما أمام الجمهور منذ بداية شهر يوليو. وبدلاً من عرض الأفلام الغربية البرجوازية، سرعان ما قُدّمت الأعمال السينمائية السوفيتية الأكثر تطهيراً لجماهير سول. وتراوحت هذه الأعمال بين قصة خيالية بعنوان «زهرة الحجر» (Stone Flower) و«الحارس الشاب» (Young Guard) وهي قصة بطولية للمقاومة السوفيتية الوطنية ضد الوحشية النازية في الحرب العالمية الثانية. هذا إضافة إلى بيع مؤلفات لينين والدراسات التي تناولت النظرية الشيوعية في المكتبات بسول.

وبدأت سلطات كوريا الشمالية منذ مطلع شهر يوليو بنشر صحيفتين في سول نفسها، وبدأت بعد ذلك في بيع نسخ من صحيفة «أخبار العمال» (Nodong Sinmun) وهي الصحيفة الرسمية اليومية من بيونغ يانغ لحزب العمال الكوري الحاكم. مع هذا ففي ظل الظروف المستمرة للحرب، بات من الصعب نقل عدد كافٍ من النسخ من الشمال، وبالتالي كانت معظم المعلومات المتاحة للشعب في سول تأتي من وسائل الإعلام التي يقدمها شيوعيون محليون.

وقد ظهرت الحياة اليومية بهذه الطريقة في سول الواقعة تحت الحكم الشيوعي في البداية كأمر طبيعي، بيد أنه بعد مرور بضعة أسابيع بدأت الأمور تتكشف. وكانت إحدى المصاعب الكبرى أمام حكومة العاصمة هي مواجهة الغارات الجوية المتكررة والمتزايدة للقوات الأمريكية. وكإجراء دفاعي ضد الهجمات الجوية حُظِرَ انتقال المركبات بين الساعة التاسعة مساء والخامسة صباحاً، ووُجِّهت أوامر للمدنيين ببناء حصون بسيطة ضد الهجمات الجوية. كان ذلك بمثابة أعمال يسيرة إذ كان عليهم إصلاح الحصون التي حُفرت بين عامي 1944 و1945، عندما توقع المستعمرون اليابانيون انطلاق هجمات جوية أمريكية عليهم (والتي لم تأتِ أبداً، حيث كانت الولايات المتحدة في ذلك الوقت ترى أن الكوريين مجرد ضحايا للاستعمار الياباني وليسوا من حلفائها). وقد أظهرت

الهجمات الجوية لشعب سول أن انتهاء الحرب لا يزال أمراً بعيداً.

لكن ما أضعف سلطة الحكومة الشيوعية في سول هو صعوبة السيطرة على هذا المجتمع المدني الضخم. وفي هذا السياق، ربما استفادت كوريا الشمالية عندما استطاع عدد كبير من اللاجئين ترك العاصمة في شهر يونيو. أما بالنسبة للوضع المتغير للأفراد، فإن مذكرات كيم سونغ–شيل (Kim Song–ch'il)– التي أوردت الأعمال التاريخية الكورية تخبرنا عن ذلك وبشكل موضوعي. فقد ظل كيم، البروفيسور الشاب الذي يُدرّس مادة التاريخ بواحدة من الجامعات الكبرى، في سول خلال الثلاثة أشهر التي شهدت احتلال كوريا الشمالية لكوريا الجنوبية. ومثله مثل الكثيرين، لم يُبْدِ كيم مشاعر العداء تجاه الإدارة الشيوعية. لكنه لم يدعم «سينغمان ري» في الوقت ذاته. وعندما دخلت الدبابات التابعة لقوات كوريا الشمالية المدينة في بداية الأمر، كتب كيم أنه لم يكن في استطاعته رؤية إخوانه الكوريين كأعداء. وكانت مذكراته تشيد بالانضباط والتدريب الجيد لجنود كوريا الشمالية. وفي أواخر سبتمبر 1950، كان كيم والكثير غيره ينتظرون بحماس قدوم قوات الأمم المتحدة، ذلك لأن كيم لم يعقد آماله على الرئيس «سينغمان ري» ونظامه. وكان متفهماً بصورة ما لهؤلاء الكوريين الذين أوقعهم قدرهم مع الشيوعيين. وأدرك كيم في ذلك الوقت أنه تحت الإكراه قد بدأ طرفا الصراع كلاهما يعاملان العامة بقسوة ووحشية، لكن عند المقارنة بينهما كان يرى أن الشيوعيين أسوأ حالاً.

وتمثلت إحدى المشكلات في طبيعة السياسة الشيوعية المعاصرة في ذلك الوقت. فقد شعرت حكومة كوريا الشمالية مثل أي نظام تابع لمذهب ستالين أن من الضرورة استخدام أساليب ترسيخ العقيدة بين الشعب وحشد قواه. وهذا يعني أن العامة في سول كانوا مطالبين دوماً بإظهار حماسهم للنظام الجديد. ولم يكلّ المسؤولون في كوريا الشمالية البتة من تذكير الناس بما أسموه بالمناطق المتحررة التي تعتمد عليها سعادتهم الفردية وقوتهم الجماعية والمتمثلة في «التطهر» من الأفكار والعادات البرجوازية المتفسخة وإعادة تشكلهم في صورة مدنيين اشتراكيين نموذجيين من خلال إعادة التعليم الأيديولوجي.

ونتيجة لذلك أصبحت الاجتماعات السياسية والجلسات التلقينية الإجبارية جزءاً ثابتاً من الحياة اليومية، إذ قضى العمال العاديون أياماً كثيرة يستمعون بدرجات متفاوتة من الاهتمام والتفهم إلى الخطب السياسية، وتنظيم محاضرات عن شرور النظام الإمبريالي

للولايات المتحدة (رغم أن الولايات المتحدة لعبت الدور الرئيس في هزيمة اليابان عام 1945) ومجد الاتحاد السوفيتي (على الرغم من كان حقيقياً بشكل كافٍ من خلال مقاومة ألمانيا النازية وتدميرها) ومزايا ستالين وكيم إل-سونغ (التي لم تكن تأكدت لشعب سول بعدُ) وشرور نظام «سينغمان ري» (التي تمثلت في انسحابه المثير للجدل من سول).

وكانت هناك أوامر موجهة إلى أصحاب المنازل برفع أعلام جمهورية كوريا الشعبية الديمقراطية على منازلهم، مما تسبب في جو من التوتر والقلق. ففي ظل هذا النظام الذي سُيِّسَ فيه كل عمل، كان أي خطأ، مهما صغر، يمكن أن يفسر على أنه نوع من المقاومة. وفي هذا الصدد، كتب كيم سونغ-شيل في يومياته بتاريخ 7 يوليو يقول: «اشتريت بعضاً من الحبر الأسود والأحمر وبدأت في رسم علم لجمهورية كوريا الشعبية الديمقراطية، وللتأكد من أن شكل العلم صحيح ذهبت إلى مكتب الحيّ لمقارنته بالعلم الموجود هناك».

وكان الشيوعيون، طوال فترة وجودهم في السلطة في كوريا، يأمرون أصحاب المنازل بأن يكتبوا شعارات على منازلهم. وكانت هذه أيضاً إحدى سمات الأنظمة الشيوعية الأخرى لا سيما في الصين. ومن بين الشعارات التقليدية في ذلك الوقت: «تحيا جمهورية كوريا الشعبية الديمقراطية» و«يحيا الجنرال كيم إل- سونغ، قائدنا المحبوب» و«يحيا الرفيق ستالين- نصير الأمم المضطهدة في العالم». وتعين في ذلك الوقت تعليق الرايات التي كتبت عليها هذه الشعارات على أبواب المنازل، ولذلك كان حجم الدعاية المرئية في سول في وقت الحرب، كما هو مقصود، ضخماً ومنهكاً في الوقت نفسه.

ولم تمضِ فترة طويلة حتى أصبح التلقين السياسي، بكل ما يمثله من تطفل على حياة المدنيين، مجرد مشكلة ثانوية، بعد أصبحت مشكلة الغذاء من أواخر شهر يوليو هي المشكلة المباشرة والملحة. وعلى الرغم من أن حكومة كوريا الشمالية، خلال الأسابيع الأولى من الاحتلال، أعلنت مراراً أن المؤن الغذائية ستصل «قريباً»، وأنه سيتم خلال فترة قصيرة اعتماد نظام شامل لتوزيع الوجبات الغذائية، فإن هذا لم يحدث أبداً. عن ذلك كتب كيم سونغ شيل في يومياته في منتصف يوليو تقريباً: «مهما يقولون لك تبقى المشكلة العظمى هي الغذاء». وذكر أيضاً أن الشباب في بعض الأحيان كانوا يتطوعون في الخدمة العسكرية أملاً في الحصول على ما يكفيهم من طعام. (وكما نعلم لم يكن

هذا يعكس الواقع بالضرورة، إذ إن المؤن الغذائية لم تكن كافية حتى داخل الوحدات العسكرية). ولم يعد أمام السلطات الجديدة، التي عجزت عن توفير الغذاء لمدينة يزيد تعداد سكانها عن المليون، أي حل سوى اتخاذ قرار بإجبار الناس على الرحيل. وعلى الرغم من توجيه أوامر إلى الكثير من سكان سول بالرحيل إلى الريف، لم تُنفّذ هذه الخطة بالقدر المطلوب، فظلت المشكلة قائمة دون حل.

وبعد أن أدرك العامة في سول فشل قادتهم الجدد، لم يكن لديهم خيار سوى أن يشرعوا بدءاً من يوليو 1950 في تأسيس نظام اقتصادي بديل يتمثل في بيع أو رهن متعلقاتهم المنزلية من أجل الحصول على الطعام، كما بدأ سكان المدن في القيام بحملات منتظمة إلى الريف، فكانوا يمشون إلى القرى المحيطة بحثاً عن أي مأكولات يمكنهم شراؤها مقابل أثاثهم المنزلي. فعلى سبيل المثال، كان المذياع أو ماكينة الحياكة تساوي وزنها ذهباً، إذ يمكن مقايضتها بما يكفي من المؤن الغذائية لمدة أسبوع، ولكن ما حدث بالفعل هو أن كل المدن القريبة من العاصمة، بحلول منتصف أغسطس، أصبحت هي الأخرى تعاني من نقص في الطعام، وهو ما دفع الناس إلى السير لأماكن أبعد محملين مثل الدواب ببضائع ثقيلة لمقايضتها بالطعام.

ولقد استمر الحكم الشيوعي الأول لمدة ثلاثة أشهر فقط، فقد كانت نهايته في منتصف سبتمبر 1950 على يد قوات الأمم المتحدة التي هبطت في إنشون وبدأت في تقدمها نحو سول، والتي تعرضت لهجوم يعد الأكثر ضراوة بين مرات الهجوم الأربع التي تعرضت لها المدينة في الفترة من يونيو 1950 وحتى مارس 1951، حيث قررت قيادة كوريا الشمالية القتال حتى الموت، وذلك لأنها اعتقدت (وهو اعتقاد صحيح بوجه عام) أن خسارة سول سيسمح بتوجيه ضربة قاضية لنظامها بالكامل. ولهذا تحولت سول والمناطق المجاورة لها في الفترة من 20 إلى 30 سبتمبر 1950 إلى ساحة قتال، وقد نسفت نيران المدفعية أجزاءً من وسط المدينة، وتأثرت جميع المباني الكبيرة في الكثير من المقاطعات.

وقد أسفر القتال عن وقوع إصابات بين المدنيين، وهو أمر حتمي لم يكن تجنبه ممكناً، وعلى الرغم من مغادرة بعض أنصار الشيوعية للمدينة دون أن يشعر بهم أحد، إلا أن الحكومة الشيوعية لم تقم بأي محاولة خلال الأيام التي أعقبت هبوط قوات الأمم المتحدة لإجلاء السكان، وبدلاً من ذلك تصرفت بشكل مشابه بدرجة كبيرة لما قامت به حكومة

«ري» في يونيو التي لم تكشف عن أخبار تقدم قوات الأمم المتحدة، وذلك بهدف منع حدوث أي فوضى أو احتجاج. وكما حدث مع «ري» لم يدرك المدنيون الحقيقة إلا من خلال اقتراب أصوات المدفعية خارج المدينة. وفي هذا التوقيت لم يعد هناك سبيل للفرار، ولهذا فقد ظل كثير من السكان داخل المدينة، ليقضوا أيام المعركة الحاسمة مختبئين داخل الملاجئ أو السراديب أو الأقبية.

وقد حاز انتصار قوات الأمم المتحدة في سول ترحيباً لدى معظم سكان المدينة، إذ كان يعني نهاية حملات التعبئة الجبرية والدائمة في حياة الأشخاص دعماً للشيوعية والزعيم كيم إل- سونغ. والأهم من ذلك أن وصول قوات الأمم المتحدة كان مصحوباً بكميات كبيرة من المساعدات الغذائية، وهو ما يعني إنهاء الروتين البائس المتمثل في الهجرة، والمقايضة، وخسارة كل الممتلكات لمجرد الحصول على الطعام. ومع ذلك، فقد صاحب انتصار الأمم المتحدة حملات مطاردة مكثفة ضد أنصار الشيوعية الحقيقيين والمزعومين على السواء على الرغم من كثرة أعدادهم، ولهذا كان من الممكن اتهام أي شخص، حتى أولئك الذين لم يقوموا سوى بتعليق علم كوريا الشمالية أو لصق شعارات شيوعية على جدران منازلهم. وفي ظل مثل هذا المناخ السياسي المتوتر، أو حتى الهستيري، كان من السهل أن يتحول الإخفاق في مقاومة العدو إلى دليل على التعاون معه.

وفي أوائل أكتوبر، بدأ بعض لاجئي كوريا الجنوبية وأغلب مسؤولي الحكومة في العودة من بوسان الواقعة على الساحل أقصى الجنوب. ولفترة بدت الحياة في سول كأنها تعود مرة أخرى إلى طبيعتها قبل الحرب، إلا أنه لم تكد تمر ثلاثة أشهر أخرى حتى بدأت القوات الشيوعية العودة إلى أبواب المدينة، مصحوبة هذه المرة بالقوات الصينية التي انضمت إلى قوات كوريا الشمالية.

ولذلك حرصت قيادة الأمم المتحدة على نقل معظم سكان سول تقريباً خارج المدينة قبل سقوطها في يد الشيوعيين. وحتى بالنسبة للمدنيين الذين فضلوا البقاء تحت حكومة كوريا الشمالية القديمة، فقد كانوا أكثر استعداداً وتصميماً هذه المرة على تجنب تكرار تجربتهم السابقة. ونتيجة لهذه الهجرة الجماعية، ظل 130000 شخص فقط، أي ما يقل عن 10٪ من إجمالي السكان الأصليين، في العاصمة خلال «الاحتلال الشيوعي

الثاني»[36]، وكان معظمهم من كبار السن، وبالتالي لم يكن لديهم خوف من التجنيد العسكري الإجباري، كما لم يكن لديهم في الغالب مكان آخر يفرون إليه. وفي هذه المرة أيضاً، اعتبرت السلطات الشيوعية مدينة سول، في المقام الأول، بمثابة قاعدة لعملياتها العسكرية، ولذلك لم تحاول حتى إعادة إنشاء ولو صورة شبيهة بالحياة المدنية الطبيعية في المدينة التي سرعان ما تحولت إلى مدينة أشباح.

وفي مارس 1951، استعادت قوات الأمم المتحدة سيطرتها مرة أخرى على مدينة سول، لتنتقل المدينة من يد إلى يد أخرى للمرة الرابعة خلال ثمانية أشهر، ولكن لحسن الحظ لم يكن عدد الضحايا هذه المرة كبيراً مثل المرات السابقة. ومع ذلك، ظلت المدينة حطاماً حتى آخر الحرب، إذ دُمرت أجزاء كبيرة منها وهجرها معظم سكانها. وتواصل القتال في ضواحي المدينة، التي لم يفصلها عن جبهة القتال شمالاً سوى مسافة ساعة بالسيارة، ولذلك فضلت كافة المؤسسات الحكومية ومعظم اللاجئين أن يظلوا في بوسان والأماكن المجاورة لها. وعندما أصدرت حكومة سول المحلية، في فبراير 1952، ما يطلق عليه شهادات المدنيين لسكانها (كطريقة للتأكد من الانتماء أو المصداقية السياسية لحامليها)، كان عدد السكان 321626 فقط، أي نحو ربع إجمالي سكان المدينة قبل الحرب. ولم تصرح الحكومة المركزية لجمهورية كوريا بعودتها إلى سول إلا بعد توقف القتال رسميّاً في أغسطس 1953. ومع ذلك لم يكن مجرد التوقف الجزئي للحرب كافياً بالنسبة لمعظم اللاجئين، الذين واجهتهم أيضاً أعمال إعادة البناء الضخمة، للبدء في العودة إلى مساكنهم أو إلى المناطق التي كانت تقع فيها مساكنهم قبل تدميرها، إلا بعد مرور عام أو عامين.

بوسان[37]: اللاجئون

كانت الحشود الضخمة للاجئين هي إحدى الصور المتكررة للحرب الكورية في وسائل الإعلام الغربية في ذلك الوقت، فكانت الصور والأفلام التسجيلية القصيرة تصور أناساً منهكين في ملابس بالية، يحملون أمتعتهم ويسيرون أياماً بلياليها في مجموعات

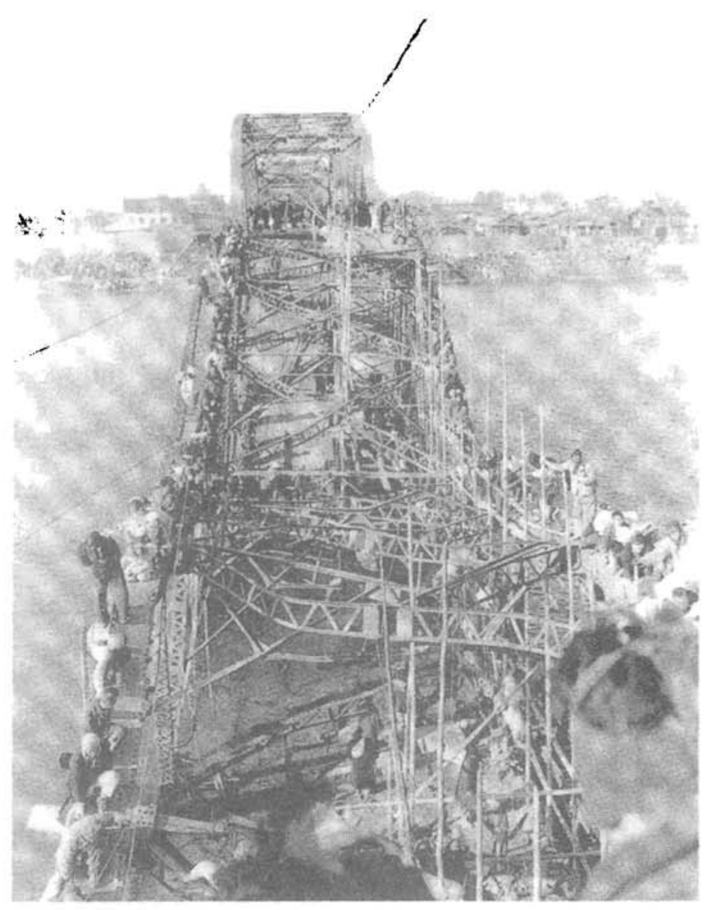
---

(36) يشير الاحتلال الشيوعي الثاني إلى احتلال الصين الشيوعية لسول في 4 يناير 1951، تلك الحرب التي انتهت بانتصار قوات الأمم المتحدة على الشيوعيين وتحرير سول

(37) بوسان هي أكبر موانئ كوريا الجنوبية وخامس أكبر ميناء في العالم وهي أيضاً ثاني أكبر مدن كوريا الجنوبية بعد سول.

بالآلاف. وكانت الحرب بمثابة حركة بشرية ضخمة، ولكن هذا بدأ بالفعل قبل نشوب الحرب، أي بالتحديد بعد تقسيم شبه الجزيرة الكورية عام 1945. وقد أدى إصلاح الأراضي في الشمال واضطهاد العناصر التي يزعم أنها مناصرة لليابان إلى فرار الأثرياء من سكان الشمال إلى الجنوب. وبعد ذلك، عملت الحملات العنيفة المناهضة للدين التي قامت بها السلطة الشيوعية على إبعاد الكثير من المسيحيين من كافة الفئات الاجتماعية، وليس من الطبقة الثرية فحسب (وفي الواقع، كانت المسيحية من بين أبرز الحركات القومية المناهضة لليابان، لا سيما في السنوات الأولى من الاستعمار، وقد كان كيم إل سونغ نفسه ينتمي إلى إحدى الأسر المسيحية). وجدير بالذكر أن العدد الكلي للاجئين من كوريا الشمالية في الفترة التي سبقت الحرب غير معروف، غير أن بعض التقديرات المعقولة تشير إلى أنه يصل تقريباً إلى مليون لاجئ، أو ما يقرب من عشرة بالمائة من إجمالي سكان كوريا الشمالية. وكان من الحتمي أن يرتفع عدد الأشخاص الذين أجبروا على ترك بيوتهم أو اختاروا ذلك بمحض إرادتهم بشكل كبير مع تقلبات الحرب. وفي مارس 1951، وهي الفترة التي وصل فيها عدد المشردين في كوريا الجنوبية إلى ذروته، أشارات التقديرات إلى بلوغ عدد اللاجئين عتبة 5,8 مليون لاجئ، أو بمعدل واحد بين كل خمسة كوريين، ولذلك كان التنقل بحثاً عن الأمن– سواء قبل الحرب أو خلال السنوات الأولى منها– واقعاً ملموساً في الحياة المدنية.

وكان إجلاء المدنيين من سول وضواحيها مفتوحاً أمام الجميع على نحو فوضوي وقت نشوب الحرب، إلا أنه خلال الفترة من أواخر ديسمبر 1950 وحتى بداية يناير 1951 نقلت الأمم المتحدة كل السكان المحليين تقريباً بعيداً عن طريق القوات الشيوعية المتقدمة. وكان ذلك إحدى أكبر موجات نزوح اللاجئين في تاريخ الحرب وأكثرها تنظيماً على السواء. ومع ذلك اعتمد اللاجئون أثناء عملية الإجلاء على شبكة السكك الحديد، ولم تكن هناك عربات ركاب مريحة وإنما كانت عربات بضائع، ازدحمت بشدة باللاجئين، ناهيك عن هؤلاء الذين كان يركبون على أسقف هذه العربات. وعلى الرغم من ذلك، لم يحظَ الجميع حتى بموطئ قدم في القطارات المزدحمة، ولذلك فقد اضطر بعضهم إلى المشي وهم يحملون معهم ما يستطيعون حمله من أمتعتهم. وكان متوسط معدل المواليد قبل الحرب ستة أطفال لكل امرأة، مما يعني أن العديد من الكوريات اضطررن إلى حمل



اللاجئون: جسر نهر تادونغ، بيونغ يانغ (الأرشيف القومي للولايات المتحدة)

صغارهن بدلاً من أي أمتعة أخرى. وفي أول سنة من الحرب لم يكن من الغريب على أسرة أن تمشي مسافة شبه الجزيرة الكورية بأكملها من مدينة سينويغو بالقرب من الحدود الصينية شمالاً، حتى مدينة بوسان في أقصى الجنوب– وهي مسافة تبلغ 1000 كيلومتر. وفي الغالب كان اللاجئون يتساقطون من التعب والجوع، حتى كان وجود جثث على الطريق في صيف وخريف عام 1950 من المشاهد المألوفة.

ومنذ منتصف عام 1950، أصبحت بوسان بمثابة العاصمة المؤقتة لجمهورية كوريا، واحتلت مكان سول كمركز للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية طيلة فترة الحرب الكورية تقريباً. وفي يوم 27 يوليو 1950، اجتمع برلمان الجمهورية الكورية هناك ليعقد أولى جلساته في إحدى الخيام المؤقتة، وسرعان ما انتقلت مؤسسات قومية أخرى إليها.

وباستثناء الفترة الوجيزة التي عادت فيها الحكومة إلى سول خلال الاحتلال الأول للأمم المتحدة، ظلت بوسان المركز العامل للإدارة حتى انتهاء الحرب. وقد استولى مجلس الوزراء على مبنى الحكومة الإقليمية، في حين احتل البرلمان (في وضع يدعو للسخرية غير المقصودة، كما هو مفترض، لطبيعة السياسات الحديثة) أكبر مسارح المدينة. وعلى الجانب الآخر، استقر الرئيس «سينغمان ري» وعائلته في قصر الحاكم الإقليمي (وهو أثر آخر للاستعمار الياباني، فقد تم بناء هذا القصر بالأساس من أجل الحاكم الياباني لإقليم جنوب كيونغسانغ[38] في عام 1926).

وقد أظهر مسح أجري في فبراير 1951 أن بوسان في ذلك الوقت كانت مكتظة بزهاء نصف مليون لاجئ، وصل كثير منهم إليها بعد الاحتلال الثاني لسول من قبل القوات الشيوعية (كما استقبلت مدن أصغر على طول الساحل الجنوبي لكوريا الكثير من اللاجئين في ذلك الوقت). ونظراً لموقعها الجنوبي فإن مدينة بوسان دافئة نسبيّاً، إذ نادراً ما تصل درجة الحرارة في فصل الشتاء إلى أقل من درجة التجمد. ومع ذلك، كان اللاجئون لا يزالون بحاجة إلى أن يُسكَّنوا في عدد من المباني، ولهذا أخليت كافة المباني العامة، مثل الكنائس والمدارس والمصانع لكي تستخدم كملاجئ مؤقتة. وعلى الرغم من من هذا فقد لقي بعض اللاجئين حتفهم متجمدين في شتاء عامي 1950 و1951، بعد أن ظنوا أنهم أخيراً وجدوا الملاذ الآمن.

ومن أكبر التحديات التي ظهرت في ذلك الوقت كان توفير مياه الشرب للاجئين، إذ إن مرفق المياه الوحيد في المدينة، الذي بني في الثلاثينيات، كان مصمماً لتوفير احتياجات 300000 ساكن فقط من مياه الشرب (وهو خمس الإجمالي الفعلي لعدد السكان في عامي 1950 و1951)، ومع حلول عام 1950، لم يُصلحَ نظام مياه الشرب لأكثر من عقد من الزمان. ومن هنا، فقد اعتبر بعض اللاجئين من الرجال الأقوياء هذا بمثابة فرصة للحصول على عمل، فسارعوا إلى جلب المياه من المضخات والآبار البعيدة إلى البيوت والمطاعم والأماكن الأخرى التي كانت بحالة مادية جيدة. ولهذا كان مشهد بائع الماء وهو يحمل معه دلوين كبيرين مصنوعين عادة من براميل الزيت المستعملة، صورة شائعة في أزقة بوسان وقت الحرب. وهناك تعبير ما زال يُذكر في كوريا بشكل قوي حتى الآن هو pukch'ong mul

(38) إقليم يقع في جنوب شرق كوريا الجنوبية.

changsu (بائع المياه من بوكتش أونج). وقد أنتجت هذه المدينة، الواقعة في شمال كوريا، عدداً ضخماً من باعة المياه في بوسان، والذين- كما تقول الأسطورة الشائعة (الصحيحة جزئيّاً)- كانوا يعملون في المقام الأول من أجل كسب المال اللازم لتعليم أولادهم. ومن ناحية أخرى كان نقص المياه بالنسبة لأناس آخرين، السبب وراء أخطار أخرى تفشت في ذلك الوقت، نذكر منها الأوبئة في الأحياء المكتظة التي تمثل تهديداً دائماً، وكذلك الحرائق التي تلتهم معسكرات اللاجئين. وللتصدي لهذه الأخطار المختلفة التي كانت تهدد الصحة العامة والأمن، اعتمدت السلطات على قدر كبير من حملات التوعية، وتتمثل في وضع ملصقات على الجدران تذكر الأشخاص بمخاطر الأوبئة، وتحث الجميع على الالتزام بالنظافة الشخصية، وتطلب منهم اتخاذ كافة التدابير الوقائية الضرورية ضد الحرائق. كما كان يستخدم مبيد الحشرات «دي دي تي» على نطاق واسع في الأماكن العامة، مثل المدارس.

وفي نهاية الأمر، بدأ اللاجئون، الذين كانوا يعيشون بداية في الخيام والمخابئ، في بناء أماكن دائمة لهم، وقد استخدموا في ذلك كل المواد المتاحة أمامهم. ومع نهاية الحرب، كان هناك ما يقرب من 40000 مسكن مؤقت في بوسان، ملتصقة ببعضها بعض، ومصنوعة من الحديد المتموج، وألواح الخشب القديمة، وأنواع أخرى من الأخشاب الرقيقة. ولعل صناديق الطعام الخاصة بقوات الولايات المتحدة كانت تمثل في ذلك الوقت أكثر مواد البناء استخداماً. وجدير بالذكر أن هذه البيوت كانت مكتظة بدرجة كبيرة، حيث كان من الطبيعي أن تسكن أسرة مكونة من خمسة إلى سبعة أفراد في مسكن مساحته عشرة أمتار مربعة، وإن كان هذا لا ينفي وجود أماكن أكثر ازدحاماً.

وقد اعتمد اللاجئون في كسب قوتهم على بعض الأنشطة التجارية الصغيرة أو الأعمال العادية، والتي كانت في بعض الأحيان ذات طبيعة مختلفة تماماً. ومن بين الأنشطة الأخرى التي كان يمارسها اللاجئون جمع قطع الخشب الطافية من البحر ثم تجفيفها وبيعها حطباً، كما كانوا يجمعون العلب المعدنية والبراميل القديمة ويقطعونها إلى أجزاء صغيرة لاستخدامها في بناء البيوت المؤقتة، إضافة إلى جمع بقايا الطعام الصالحة للأكل والملقاة بالقرب من القواعد العسكرية لاستخدامها في الطهي. ومثل هذه الأطباق، التي كانت تقدم في مطاعم اللاجئين، كان يطلق عليها «يخنة الأمم المتحدة»، إلا أنها غالباً ما

كانت تعرف بـ kkulkkul–i chuk أو «حساء الخنازير».

وكان هناك أيضاً المزيد من الأنشطة التقليدية، فكان اللاجئون يعملون حمالين أو عمالاً يدويين، أو يعملون بأكشاك بيع الطعام، أو يبحثون عن فرصة عمل في الصناعات التي كانت لا تزال قائمة. وكان هناك الكثير من هؤلاء الأشخاص من العمال والفنيين المهرة، إلا أنه لم يكن في الغالب طلب على هذا النوع من الخبرة، حيث كانت مسيرة الصناعة في كوريا الجنوبية قد تعطلت بسبب اهتمام اليابان، بوصفه مستعمراً، في الثلاثينيات بتحويل الشمال إلى منطقة صناعية وترك الجنوب للأنشطة الزراعية. ولهذا، فإن الأنشطة الصناعية المحدودة في كوريا الجنوبية توقفت تماماً خلال فترة الحرب، وهو ما جعل الحصول على فرصة عمل أمراً صعباً، وهي حقيقة تقرها الطوابير المتزايدة التي كانت تحتشد كل صباح أمام الأماكن التي قد توفر بعض فرص العمل التقليدي. والأكثر من ذلك أن أية فرصة عمل في القواعد العسكرية للأمم المتحدة كانت بمثابة حلم للكثيرين، إلا أنه حلم لم يتحقق سوى للقليلين. وسط هذا المناخ الذي تسوده الفوضى واليأس، كان حتمياً أن يتحول بعض الرجال إلى ارتكاب الجرائم العنيفة أو الانضمام إلى العصابات، إلا أن هذا لم يمثل مشكلة خطيرة بالنسبة للمدن في زمن الحرب. ومع ذلك، فقد ظلت عمليات السرقة الصغيرة تمثل مصدراً عامّاً للإزعاج (كان هناك قول شائع في سول بعد الحرب وهو: «إذا أغمضت عينيك، فسيسرق أحدهم أنفك»).

ومع فقدان الوظائف والبيوت والممتلكات، وكذلك الأقارب الذين قضوا في هذه الحرب واسعة التدمير، اضطر العديد من الأشخاص العاديين إلى الاعتماد على المساعدات الإنسانية، التي كان يأتي الكثير منها عبر البحار، ولكن عدم أهلية الحكومة البيروقراطية وكذلك انتشار الفساد جعل من الصعب توزيع هذه المساعدة بشكل عادل ومنظم. ولهذا اضطر هؤلاء الذين لم يكن لديهم اتصالات بالحكومة أو كانوا بلا عمل إلى التوجه إلى مصدر بديل أكثر مصداقية متمثلاً في الكنائس المسيحية من كافة الطوائف. وعلى الرغم من أن المؤمنين بالمسيحية ازداد عددهم بكثرة بعد الحرب، ولم يكن عددهم عام 1950 يتجاوز 1٪ من السكان، غير أنه كان لكثير من المجموعات الكنسية الكورية علاقات قديمة بالجماعات المسيحية في الولايات المتحدة، ولذلك كانت لديهم القدرة على طلب المساعدة بشكل مباشر، وكذلك القيام بدور بارز في ضمان وصول هذه المساعدة إلى

الأشخاص الذين هم في أشد الحاجة إليها. وعلى الرغم من سيادة مناخ عام من الفوضى والتمزق طيلة أربع سنوات من الحرب، إلا أن الجماعات المسيحية حافظت على درجة كبيرة من التماسك معتمدةً في ذلك، بلا شك، على قوة إيمانهم والإحساس بأن التماسك في وقت الحرب هو أسمى اختبار لكل من الفرد والمجتمع على حد سواء. ولهذا بدا أن الانتماء لإحدى الكنائس المسيحية ميزة رائعة أمام اللاجئين للنجاة من الحرب.

وعلى الجانب الآخر، ساعدت التقاليد الكونفوشيوسية الخاصة بالواجب الاجتماعي في الحد من أضرار التشريد، ولهذا توجهت المجتمعات القروية المحلية إلى أعضائها الأثرياء لتحمل قدر أكبر من المسؤولية تجاه أولئك الذين شردتهم الحرب. ونتيجة لذلك فغالباً ما كان اللاجئون في الأقاليم الجنوبية يحصلون على بيوت أكبر بموافقة أصحاب هذه البيوت عادةً.

ولا شك في أن الحرب دمرت حياة العائلات بصورة مريعة، فاضطر الرجال إلى ترك عائلاتهم إما بسبب انضمامهم لإحدى القوات المحاربة أو فرارهم من الاضطهاد السياسي، تاركين خلفهم النساء ليعتنوا بالصغار، وكذلك، اتباعاً للعادة الكونفوشيوسية القديمة، بأقارب أزواجهن (في كثير من الحالات، كانت النساء يعشن مع آباء أزواجهن إذا كانوا لا يزالون على قيد الحياة). ولم تكن النجاة بالأمر السهل بالنسبة للرجال، إلا أنها في الوقت نفسه كانت أصعب بالنسبة للنساء. ولكي تستطيع النساء الحصول على قوت يومهن، كن يضطررن إلى بيع ملابسهن أو المقايضة بها، وكذلك بيع كل المتعلقات العائلية غير الضرورية، ثم يبدأن بعد ذلك في البحث عن عمل، ولم يكن لدى الكثير منهن أية مهارات مميزة، ولذلك كن يعملن عمالةً غير ماهرة أو خادماتٍ في البيوت.

وفي ظل ضغوط الحرب وحضور قوات أجنبية، كان هناك مجال للمتاجرة بالأجساد. ولم تمر فترة طويلة حتى طُوِّقت مباني قوات الأمم المتحدة بالأكواخ التي يقطنها مختلف أنواع المشردين الذين استضافوا الكثير من النساء اللاتي كن يعشن على المتاجرة بأجسادهن، وكذلك من خلال القيام ببعض الأعمال الروتينية للجنود، مثل غسيل الملابس أو كيها أو إصلاحها. كما أن هذه الأكواخ المجاورة للمعسكر جذبت إليها سماسرة الدعارة وصغار التجار الذين فتحوا حانات وصالات رقص ومحال لخدمة الجنود والعاهرات. وكان انتشار الأطفال ثنائيي العرق إحدى ثمار ممارسة الدعارة داخل المعسكرات، وهم

الأطفال الذين رفضهم المجتمع الكوري أحادي العرق، ولكن في السنوات التي أعقبت انتهاء الحرب مباشرة تبناهم آباء من بلاد أخرى.

ولم تكن الدعارة مقتصرة على خدمة الجنود فحسب (على الرغم من أن هذا النوع كان يحقق أكبر عائد)، بل كانت المعسكرات الخاصة بقوات كوريا الجنوبية، وكذلك المراكز الرئيسة للاجئين، تجذب إليها ممارسات الدعارة هي الأخرى. وكان هذا هو الوضع أيضاً في مدينة سول أثناء الحرب، حيث تحولت المنطقة المجاورة لسكة حديد شونجريانجري (Chongryangli) إلى سوق للجنس التجاري في عام 1952 تقريباً. وقد حدث هذا عندما بدأت المحطة في العمل بوصفها محطة عمل لكل القطارات المتجهة إلى الشرق على طول الخط الأمامي، والتي كان معظمها يحمل جنوداً متجهين إلى وحداتهم. وكان هؤلاء الرجال، نظراً لإحساسهم بأن نيران العدو في انتظارهم، من زبائن الجنس المتعطشين، كما أن الكثير من فتيات القرى، تحت وطأة الفقر، فررن إلى شونجريانجري بحثاً عما يكفي من النقود للعيش.

كما أن نسبة الوفيات المرتفعة بين الرجال في الخطوط الأمامية للمواجهة أسفرت عن نشأة مجتمع جديد يكتظ بالأرامل واليتامى. ووفقاً لما تشير إليه إحصاءات 1957، كان هناك 550000 أرملة حرب في كوريا الجنوبية في ذلك الوقت، وكان معظمهن زوجات لجنود أو رجال شرطة لقوا حتفهم في الحرب في الفترة بين 1950 و1953. ومن بين هؤلاء النساء، كان عدد بسيط فقط يُقدر بزهاء 34000 يعشن بمفردهن، في حين أن بقية النساء جميعهن كن يعتنين بالأقارب، ليس فقط من أطفالهن وإنما أيضاً أقارب أزواجهن، سواء آباء أزواجهن أو أشقاؤهم الصغار. وهذا بالطبع يعني أن أكثر من 900000 شخص كانوا أعضاء في عائلات رباتها من الأرامل. وخلال فترة الحرب، وأيضاً خلال السنوات التي أعقبتها، كان على هؤلاء النساء أن يتمتعن بقوة استثنائية، فبدا مستقبلهن كئيباً، إذ أن كوريا، مثلها مثل الكثير من المجتمعات الزراعية الكبيرة، لم تهتم بتعليم النساء، فمن بين كل هؤلاء الأرامل اللاتي خلفتهن الحرب، كان عدد الحاصلات على شهادة جامعية لا يتعدى 640 سيدة (0,1٪ من إجمالي الأرامل)، في حين أن نصفهن تقريباً لم يتلقين أي تعليم مدرسي بشكل منتظم.

ومع ذلك، فإن أحد الإنجازات التي لا يمكن إنكارها لمجتمع كوريا الجنوبية خلال

سنوات الحرب تتجسد في قدرته على المحافظة على نظام التعليم بل وتطويره، فقد كان 70٪ من الأطفال في سن الدراسة يتلقون التعليم في المدارس الابتدائية، حتى في عام 1951، وهو أكثر أعوام الحرب مشقة وصعوبة، وقد ارتفعت هذه النسبة إلى 75٪ تقريباً عام 1953. ومن بين الذكريات العالقة في أذهان العامة خلال وقت الحرب المدرسة المؤقتة التي كانت تعمل في الخلاء، أو داخل أحد مخيمات الجيش الكبيرة (بالطبع في الوقت الذي كانت تتاح فيه هذه المخيمات، التي كانت تعد رفاهية في ذلك الوقت). وخلال عامي 1950 و1951، لم تكن المدرسة سوى فناء محاط بسياج، حيث يفترش الطلبة الأرض، في حين يقف المدرس أو يجلس أمامهم. وكان يُدار أكثر من فصل في الفناء في الوقت نفسه، وكان عدد التلاميذ داخل الفصل الواحد يصل إلى 100 تلميذ، يتشارك كل خمسة منهم كتاباً واحداً فقط. كما كان نقص الورق والأقلام يقف عقبة أمام الدراسة. ومع ذلك، استمرت الفصول، وكان الموضوع الدائم والملحّ في حياة الأطفال في أثناء فترة الحرب يتركز في تشجيع آبائهم لهم بالاجتهاد في مذاكرة دروسهم.

وبالنسبة للتعليم الجامعي، فقد كان بمثابة ظاهرة جديدة على كوريا، فقبل عام 1945، لم تكن هناك سوى جامعة واحدة في البلد كلها (وهي التي أنشأتها في الأساس السلطات اليابانية في العشرينيات). وفي أواخر الأربعينيات، افتُتحت أكثر من جامعة جديدة، وإن كان ذلك يحصل بدرجة كبيرة من خلال تطوير بعض الكليات الصغيرة والمدارس الثانوية وتحويلها إلى جامعات. وفي بداية عام 1951، أنشأت الجامعات في كوريا الجنوبية أربع جامعات مشتركة وقت الحرب، ومنذ سبتمبر 1951 كانت المؤسسات الثلاثية الكبرى على ثقة من قدرتها على تشغيل الجامعات المؤقتة الخاصة بها. وبالنسبة لعدد الفصول فقد ارتفع بشكل كبير، وذلك بسبب إعفاء الطلبة الذكور من القرعة، أما بالنسبة للنساء فقد ظلت أعدادهن صغيرة، فمن إجمالي عدد الطلبة المسجلين في عام 1952 والبالغ عددهم 27542 طالباً، كان عدد الإناث 3985 طالبة فقط، ومع ذلك فنسبة الإناث هذه لم تختلف كثيراً عن الفترة السابقة لعام 1950، كما أنها لم تشهد تقدماً ملحوظاً حتى أواخر الستينيات.

وعلى نقيض الحركة الطلابية الراديكالية في كوريا الجنوبية في العقود الأخيرة، كان معظم الطلبة في الكليات خلال الأعوام 1950 و1953 ينتمون إلى الجناح اليميني والتيار

المعادي للشيوعية. وخلال ولاية «ري»، أُنشِئ العديد من منظمات الشباب المختلفة، وكانت العضوية إجبارية. واضطلعت هذه المنظمات بمسؤولية تعليم المبادئ الأيديولوجية وتقديم دعم كبير في أثناء التجمعات المناصرة للحكومة. وكانت صور البنات المراهقات وهن يؤكدن ضرورة محاربة الشيوعية حتى الموت من سمات الدعاية المألوفة، كما أنها غالباً ما كانت تظهر في وسائل الإعلام الخارجية. وقد لا يكون من الصواب القول إن هذا كان مجرد استغلال الطلبة، وذلك لأن معتقدات الطلبة المناهضة للشيوعية، في ظل الغزو الشمالي والدمار الذي خلفته الحرب، كانت حقيقية دون ريب.

ومن الجدير بالذكر بخصوص كوريا الجنوبية في وقت الحرب، أنه بمجرد أن انتقلت أعمال العنف إلى الشمال في ربيع 1951، أصبحت الحياة روتينية لأن الناس كانوا في انتظار انتهاء الحرب. كما أن خطر المجاعة ونقص المؤن الأساسية لم يكن قطّ بالبعيد، ولكن على العكس من الكوريين في الشمال، كان احتمال وقوع قتلى بين المدنيين نتيجة للعنف ضعيفاً. وهذا الإحساس بجو من السلام في وقت الحرب أعطى الفرصة لعودة بعض أشكال الرفاهية، فبدأت بعض الملاهي في تقديم عروض للأثرياء، أما الأشخاص الأقل ثراءً فكانوا يذهبون إلى دور العرض التي تعرض الأفلام الأمريكية بشكل كبير، كما انتشرت أشكال كثيرة من وسائل التسلية في متناول الأشخاص العاديين. وبالرغم من أن عدداً قليلاً جداً امتلك المال لتناول العشاء في أحد المطاعم، غير أنه كان باستطاعة الناس الاسترخاء داخل صالات تقديم الشاي (ومع من أن هذه الأماكن كانت تسمى «صالات الشاي»، إلا أنها كانت تقدم القهوة السريعة، والتي كان يُحصَل عليها من السوق السوداء من قواعد الأمم المتحدة أو من اليابان). وفي وقت الحرب في بوسان، توزّعت صالات الشاي بين تلك التي يتردد عليها بعض رجال الأعمال الصغار، وأخرى يتردد عليها الصحفيون، وصالات أخرى تشتهر بزبائنها من الكتاب والفنانين. وبهذه الطريقة، تمكّن المدنيون من إنشاء ملاذات لهم والمشاركة في الأنشطة الاجتماعية واستخدام وسائل التسلية لمواجهة ضغوط الحرب.

الشمال والجنوب: العنف يستحيل روتيناً

شاع العنف السياسي في وقت الحرب في مدينة سول وغيرها من المدن الكبرى. ففي

أوائل يوليو 1950، قُدِّمَ أهم المشتبه بهم من أعداء الاشتراكية إلى محاكمات مفتوحة، وذلك تماشياً مع النموذج الصيني في ذلك الوقت. وفي سول، كانت مثل هذه المحاكم تقام في وسط المدينة، وعادة في الميدان القريب من المركز الثقافي للمدينة، وليس بعيداً عن مبنى الحكومة. وكان أغلب المدعى عليهم من الأشخاص الذين لعبوا دوراً في حكومة «ري»، وقد تألفت الدعوى القضائية من خطب بلاغية كبيرة تضمنت مبادئ ستالين وماو، وكانت تنتهي بالحكم بالإعدام الذي يُستقبل بصيحات عالية من الجماهير، وأحياناً كانت ترمى الضحية بالرصاص في موقع المحكمة. أما بالنسبة لقضية «كيم كي-جين»، أحد كتاب اليسار البارزين سابقاً، والذي حوكم بتهمة الخيانة عام 1950، فقد أخفق منفذو الإعدام في أداء عملهم كما ينبغي، ونجا «كي-جين» من الموت على الرغم من رميه بالرصاص، وتمكن بعد ذلك من الزحف بعيداً بعد أن استرد وعيه. غير أن هذه الأعمال الوحشية التي كانت تُنفذ في شوارع المدينة تركت انطباعاً ظل باقياً في ذاكرة كثير ممن عاينوها.

وكان الريف هو المكان الذي وصل فيه الاضطهاد السياسي إلى أقصى درجات القسوة واللاشرعية. فبصفة عامة، كان التأثير الكلي للحرب على الحياة المدنية في الريف أقل ذيوعاً مقارنة بالمدن، وذلك لأن معظم الفلاحين الكوريين كان لديهم اكتفاء ذاتي، ولم تكن لديهم حاجة كبيرة إلى التواصل مع المراكز السكانية المهمة من الناحية الاستراتيجية. وعلى الرغم من أن معدلات التواصل بين المدنيين والقرويين ارتفعت في عام 1950 من خلال التجارة والمقايضة، إلا أن ذلك غدا نادراً بعد عام 1950 بسبب بدء وصول المساعدات الغذائية. ونظراً لأن الفلاحين يعيشون في أماكن متفرقة، ولا يتكدسون في إحدى المدن، فقد أعطاهم ذلك بعض الأمل في تجنب أعمال العنف، لكن مع نشوب أي قتال في الريف يصبح القتل والإرهاب من الأمور الشائعة. وقد اعتمد الجيشان على أساليب حرب العصابات، وشجعا استخدام الإرهاب ضد أعدائهما، كما أسفرت التغيرات الجذرية للوضع العسكري عن مناخ مناسب لتحقيق أهداف سياسية وشخصية على السواء، حيث كان يجري إعدام الأشخاص المشتبه بهم على الفور. وإضافة إلى ذلك، فقد أصابت المليشيات المحلية، سواء من اليمين أو اليسار، موجة من العنف، كما أن القوات الرسمية للحكومتين المتنازعتين ضربت بالاعتبارات الشرعية عرض الحائط. ولا ريب في أن عمليات القتل التي يرتكبها أحد الأطراف كانت تولد رغبة في الانتقام

لدى الطرف الآخر، ومن ثم دخل العنف في دائرة مغلقة. وفي تحقيق لإحدى اللجان من كوريا الجنوبية حول المذابح التي ارتكبت في فترة الحرب أجرته في أوائل القرن الحادي والعشرين، فقد توصلت إلى أن ما يقرب من 200 ألف مدني لقوا مصرعهم في الفترة بين عامي 1946 و1953 نتيجة لأعمال التمرد وتنفيذ أحكام الإعدام بشكل عشوائي، وقد أشارت في تقريرها إلى أن معظم هؤلاء القتلى كانوا ضحايا لقوات حكومة كوريا الجنوبية. ولذلك كانت طريقة النجاة بالنسبة للريف تعتمد على السرعة في معرفة الاتجاه الذي تهب منه الريح. وقد كتب أحد ضباط كوريا الجنوبية عن الفلاحين في مذكراته اليومية يقول: «من خلال التجربة الصعبة، تعلموا أن الحكمة تقتضي أن يكونوا مع الجانب المنتصر».

ومن بين الجماعات التي عجزت عن الدفاع عن نفسها في ذلك الوقت تلك الجماعات التي كانت بالفعل رهن الاعتقال. وشهدت الأشهر الأولى من الحرب عدداً كبيراً من حالات القتل الوحشي للسجناء على يد الجيشين المنسحبين. ولقد وقعت أشنع المذابح من هذا النوع في كوريا الجنوبية في بداية يوليو داخل سجن تايغون، وراح ضحيتها عدد كبير من المعتقلين السياسيين، ذلك أنه بعد اقتراب الجيش الشيوعي من المدينة، كانت شاحنات الشرطة التابعة للجمهورية الكورية تصل إلى السجن كل مساء، وهي محملة بالمعتقلين، وتتجه بهم نحو الغابات في المنطقة الجبلية، إذ كانت هناك خنادق معدة وجاهزة لتُلقى بها جثث المعتقلين بعد إطلاق النار عليهم. وفي غضون أيام قليلة، كانت الشرطة قد قتلت ما لا يقل عن 1800 سجين.

وفي الحقيقة، ولم تكن مذبحة تايغون هي المذبحة الوحيدة من هذا النوع، فقد شهد شهرا يوليو وأغسطس 1950 قتل معتقلين سياسيين في أماكن كثيرة في كوريا الجنوبية مع أولى علامات تقدم القوات الشيوعية. وبالطبع، لم يكن الكثير من الذين قتلوا، إن لم يكن معظمهم، أعداء فعليين لحكومة الجمهورية الكورية، إذ لم تتعدّ جرائمهم المشاركة في الإضراب عن العمل بقيادة الشيوعيين، أو مجرد التصريح ببعض الكلمات المختارة على نحو سيء، إلى أحد الضباط المحليين، وهناك أمر لم يقم به منفذو هذه العقوبات، ألا وهو التمييز.

وفي حين تشير الأرقام إلى أن الكثير من الذين قتلوا كانوا ضحايا لقوات كوريا الجنوبية،

سواء الرسمية أو غير الرسمية، ويلاحظ أن سلطات كوريا الشمالية، في الواقع، لم تسلك طريقاً مختلفاً. فمع التقدم السريع لقوات الأمم المتحدة نحو بيونغ يانغ في أكتوبر 1950 أسرعت حكومة كوريا الشمالية بإعدام كل المعتقلين السياسيين داخل سجون المدينة. وبالطبع كان من بين الذين قتلوا الكثير من الأبرياء، حتى وفقاً للمعايير الملتبسة لنظام العدالة حسب النظرية الستالينية. وقد كانت الضحايا تُجَرُّ إلى ملاجئ الدفاع الجوي ثم يُرمون بالرصاص أو يُقتلون بالمدافع الآلية في المناطق المجاورة للسجون. ولقد بلغ عدد الذين قتلوا في مدينة بيونغ يانغ في الفترة بين 10 و15 أكتوبر زهاء 2000 شخص، ولم تخلُ المدن الكبيرة في كوريا الشمالية من جرائم قتل مشابهة.

وإضافة إلى أشكال العنف الصارخة، كان الإرهاب السياسي سمة أخرى من سمات الحياة وقت الحرب، فأثناء احتلال الجنوب، حاولت قوات كوريا الشمالية فرض نظام كامل من المراقبة والضبط، قائم على «النظرية الستالينية»، فاتبعت السلطات المحلية الإجراء التقليدي الستاليني الخاص بتحديد رقم معين من الأعداء المفترض اكتشافهم داخل مقاطعة محددة. وكان أي شخص يتعاون مع حكومة «ري» (والمقصود هنا أي شخص سبق له العمل داخل أي من المنظمات الحكومية)، أو حتى كان له نشاط صغير مع الحكومة، فإنه يُصَنَّف كـ «عنصر مضاد». ولكي يثبت الشخص الولاء للنظام كان عليه أن يُبلغ عن الآخرين، وبالطبع كانت هذه بمثابة استراتيجية للدفاع عن النفس، وهي استراتيجية «اتهم الآخرين قبل أن يتهموك». وكما هي الحال في الريف، فقد أطلق هذا المناخ الذي يسوده الخوف العنان للعداوات والأحقاد الشخصية.

وغالباً ما اتخذ الاضطهاد الحكومي شكلاً عشوائيّاً، ولكنه في الوقت نفسه كان أسلوباً متعمداً لجعل الجميع يعيشون في جو من الشك. ولذلك يلاحظ أن السلطات الشيوعية المحلية ربما كانت تلقي القبض على فلاح مُسنّ كان زعيماً لقرية في عهد حكومة «ري» مثلاً، أو على معالج بالأعشاب أصبح غنيّاً وفقاً لمعايير القرية، أو على عامل عادي من سول كل ذنبه أنه كان غريباً في المنطقة (وهذه أمثلة حقيقية، وكانت حالات الاعتقال هذه تحدث داخل قرى تعداد سكانها أقل من المائة عائلة)، وبالطبع كان من المستحيل رؤية من يُعتقل على قيد الحياة مرة ثانية.

وعندما كانت قوات الجمهورية الكورية تستعيد سيطرتها على إحدى المناطق، لم تكن

تختلف كثيراً حول رغبتها في إبادة العدو. وقد عبر أحد الأفراد السابقين في مليشيات الجناح اليميني في مقابلة متلفزة عن هذا الاتجاه الذي ساد تلك المرحلة قائلاً: «كنا نضطر إلى قتل الشيوعيين، نضطر إلى قتلهم! لماذا؟ لأننا إذا لم نقتل واحداً منهم، فكان سيقتل منا عشرة بعد ذلك. وكنا سنخسر بذلك عشرة أو عشرين من رجالنا لو حدث أن تركنا واحداً منهم على قيد الحياة، ولذلك كنا نضطر إلى القتل. فلو صادفنا أحد الشيوعيين كان علينا أن نقتله». ولا شك في أن هذا الاتجاه ساد أيضاً بين القوات الشيوعية، ولم يحاول أي من الطرفين تحديد السياسة الحقيقية المتبعة للضحايا.

ومن بين النقاط التي كانت تثير الخوف والرعب داخل نفوس المدنيين والقرويين على السواء هي التجنيد الإجباري داخل الجيش، وكان هذا التوجه يمارس على نطاق واسع من قبل الطرفين، ولكن فيما يبدو أن الشيوعيين، الذين كانوا أقل فساداً وأفضل تنظيماً، تميزوا بقدر أكبر من البراعة في كيفية تجنيد الرجال وإقناعهم بارتداء الزي العسكري. وقد حدثت أولى نوبات التعبئة خلال الحرب في أول شهر يوليو 1950، عندما صرحت حكومة كوريا الشمالية بأن كل الرجال بين الثامنة عشرة والسادسة والثلاثين يمكن استدعاؤهم للجيش في أي وقت. وتجدر الإشارة إلى أن ذلك كان قبل الاعتراف بكوريا الجنوبية كياناً منفصلاً (كانت تعتبر بمثابة إقليم تحتله الولايات المتحدة على نحو غير شرعي)، وكان قانون التعبئة العام يطبق في كل من الكوريتين، الجنوبية والشمالية، على حد سواء.

وانطلقت حملة تعبوية ضخمة في أغسطس 1950، وليُميَّزَ بين القوات النظامية لكوريا الشمالية والقوات الجديدة التي جُنِّدت على عجل، كان يُطلق على الأخيرة اسم «جيش الأبطال الأبرار» (Uiyonggun). وعلى الرغم من هذه التسمية البلاغية، وباستثناء عدد قليل من المتطوعين من الجناح اليساري، أصبح هؤلاء الرجال أبطالاً على مضض. وقد جاءت نوبة التعبئة هذه على غرار النموذج السوفيتي، مما يعني أنها كانت أكثر قسوة من مثيلاتها في أمريكا وغرب أوروبا. ففي مقاطعة سيهانغ مثالاً، طلبت السلطات 3050 مجنداً، في حين بلغ إجمالي سكان المقاطعة، بمن فيهم الشباب والمسنون، 6591 نسمة فقط، ما يعني أنه كان على الرجال بين سن الثامنة عشرة والسادسة والثلاثين القتال والتعرض لخطر الموت أو الإصابة. ولم يقتصر هذا على مقاطعة سيهانغ وحدها، ولهذا تغيرت التركيبة السكانية في قرى كوريا الجنوبية

وفي الشمال أيضاً بسبب متطلبات الحرب من الجنود.

ومن العواقب الحتمية لحركات التعبئة الإجبارية أنها دفعت المجندين إلى التفكير في طرق للهرب. ومع بداية شهر أغسطس، عملت الكثير من وحدات كوريا الشمالية على ضم أعداد كبيرة من المجندين من كوريا الجنوبية. وعلى عكس قوات كوريا الشمالية، التي تميزت بالمهارة وحسن التدريب، كان هؤلاء المجندون الجدد، الذين لم يعرفوا في الغالب كيفية استخدام البنادق، يرتعدون تحت نيران العدو، وبالتالي كانوا يتجرعون الموت جماعة. أما الذين نجوا، فكانوا أول من فر عندما بدأت قوات كوريا الشمالية في التفكك في الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر. ولذلك لم تدم الخدمة العسكرية لكثير من هؤلاء الذين كان يطلق عليهم متطوعين سوى عدة أسابيع، عادوا بعدها إلى صفوف المدنيين من جديد، وأصبحوا يبذلون قصارى جهدهم لتفادي التجنيد في صفوف قوات الجمهورية الكورية. لكن سلطات الجمهورية الكورية، ونظراً للعجز الدائم في أعداد المجندين، لجأت إلى تكوين فرقاً شرطية مهمتها اصطياد البالغين من الذكور، ما جعل الخوف جزءاً من الحياة اليومية للشباب والرجال متوسطي العمر في جميع المدن والقرى الكورية على مدار سنوات الحرب.

بيونغ يانغ: حياة على الأرض القاحلة

كما هي الحال في كوريا الجنوبية، كان التنقل جزءاً من الحياة في فترة ما قبل الحرب وخلالها في كوريا الشمالية، وضمت هذه الحركة أعداداً كبيرة من الجنوب. وقبل عام 1950، فر بعض المتعاطفين الشيوعيين الذين كانوا يعيشون في الجنوب من حكومة «ري». وفي منتصف سبتمبر 1950، وبعد وصول قوات الأمم المتحدة إلى إنشون قرر العديد من الكوريين الجنوبيين، الذين كانوا يعملون مع الإدارة الشيوعية، الفرار إلى الشمال، يحرك بعضهم التزام سياسي محض، ويحدوهم الأمل في الاستمرار في الهروب لسبب يؤمنون به بدرجة كبيرة. ولكن من ناحية أخرى، كان السبب وراء فرار معظم هؤلاء الأشخاص هو الخوف من اتهامهم بالتعاون مع العدو، ومن ثم معاقبتهم.

ومن بين هؤلاء الذين وصلوا من الجنوب أشخاص كانوا إما معارضين للشيوعية وإما ليس لديهم أي اهتمامات سياسية، ولهذا شرعت الحكومة الشيوعية، في سول،

بدءاً من أغسطس 1950، في إرسال عدد كبير من الكوريين الجنوبيين إلى الشمال. وفي بعض الأحيان، كان هؤلاء الأشخاص أعضاء بارزين في النخبة القديمة، مثل الصحفيين والسياسيين ممن عُزِلوا عن أنصارهم، وفي أحيان أخرى، كانوا عبارة عن عمال مهرة أو جنود من الذين جُنِّدوا في جيش «كيم إل–سونغ» ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشمال ضمن وحداتهم. ومن المستحيل التمييز بين الهجرة الاختيارية والهجرة الإجبارية، ولذلك يجب التعامل مع كل الإحصائيات المتاحة بحذر. ومع ذلك، ادعت حكومة كوريا الجنوبية في الخمسينيات أن زهاء 88000 شخص رحّلوا إلى الشمال في ذلك الوقت.

ومقارنة بكوريا الجنوبية، غدت كوريا الشمالية– بحلول عام 1950– مجتمعاً منظماً بدرجة أفضل، ولكن مستوى السيطرة الاجتماعية كان أشد إحكاماً هناك. ولا ريب في أن وجود المستشارين السوفييت كان دليلاً على أن نظام السيطرة، الذي يمكن أن يطلق عليه الستالينية الناضجة، معمول به في كوريا، كما كان دليلاً أيضاً على ظهور دولة شبه ستالينية. بيد أن السياسات والقوانين الصارمة، في ظل التخلص من ذلّ الاستعمار الياباني، كانت تلقى تأييد كثير من الكوريين. وكان حزب العمال الكوري– وهو التجسيد المحلي للحزب اللينيني النموذجي– يمثل القوة السياسية الوحيدة المهمة، ولكنه كان أيضاً كياناً منظماً ومهيكلاً ومتماسكاً وخاضعاً تماماً لإرادة قيادته. وكانت الرتب العسكرية الموجودة به تضم شباباً طموحاً يحركه الطموح والمثالية، قبلوا الأهداف الوطنية والاشتراكية بلا أي قيد. ووجود عنصر الشباب هذا قد ضمن تمتع جيش كوريا الشمالية بمعنويات مرتفعة، ذلك لأن معتقداتهم الأيديولوجية جعلت منهم جنوداً أشداء، كما أن توافر عنصري الحرب والأيديولوجية جعلهم قادرين على التعامل مع أعدائهم بوحشية ملحوظة، وهو ما جعلهم أيضاً الأهداف الرئيسة للإرهاب والعنف من قبل قوات كوريا الجنوبية والأمم المتحدة التي كانت تسعي إلى القضاء على معظم محاربي كوريا الشمالية الأكثر إخلاصاً لمعتقداتهم.

وبالطبع، لم يكن كل ضباط كوريا الشمالية من الملتزمين أيديولوجيّاً تجاه الشيوعية، فبالنسبة للبعض، كانت الشيوعية لا تعدو كونها الحكومة، ومن ثم حاولوا أن يجدوا لأنفسهم أفضل مكان داخل النظام القائم. وعندما تفككت كوريا الشمالية في أكتوبر 1950، تخلص معظم أعضاء حزب العمال الكوري من بطاقات هوية الحزب التي كانوا

يحمونها، ما مثّل تحدياً لإحدى أكثر الأساطير أهمية للشيوعية اللينينية، حيث كان يتعين على أعضاء حزب العمال الكوري الأوفياء أن يحافظوا على بطاقات الهوية طوال الوقت. غير أنه اتضح من التحقيقات التي أجريت في عام 1951 أن أكثر من 80٪ من أعضاء حزب العمال الكوري، في بعض قرى الشمال، لم يكن باستطاعتهم تقديم بطاقاتهم عقب الفترة الوجيزة للاحتلال الكوري الجنوبي، وذلك لأن هؤلاء الذين تخلصوا من بطاقات هويتهم كانوا على يقين من أن اكتشاف قوات الجمهورية الكورية كونهم أعضاء في حزب العمال الكوري يعادل عقوبة الإعدام.

وبالنسبة للمدنيين من كوريا الشمالية غير المتورطين بدرجة كبيرة مع السلطة الشيوعية، فكان وصول قوات كوريا الجنوبية يحمل لهم الخير والشر على السواء، حيث لم تعد مدنهم مستهدفة بالقصف الأمريكي، وأصبح بمقدورهم الاعتماد على بعض الأطعمة التي تُوزَّع والتي كانوا بحاجة ماسة إليها. ورحّب أعضاء الجماعات المضطهدة، ومنهم المسيحيون، بالقوات الجنوبية باعتبارها قوات التحرير. وعلى الرغم من ذلك فقد وفر الشماليون القليل من الدعم للزعيم «سينغمان ري»، كما أن الإرهاب الذي مارسته قوات الجمهورية الكورية القادمة كان سبباً في عزل الكثير من عامة الناس.

وفي يوم 30 أكتوبر 1950، تمكن سكان بيونغ يانغ للمرة الأولى من مشاهدة «سينغمان ري» عندما زار مدينتهم وألقى خطاباً أمام الجماهير التي تجمعت أمام مبنى الحكومة، واختلط بالناس لفترة قصيرة. وكان تصرفاً شجاعاً منه بالطبع، إذ لم تكن الحرب قد انتهت بعد، وكان اغتياله لا يزال احتمالاً قائماً، لكنه هدف من تلك الزيارة الإشارة إلى أن كوريا الشمالية لم يعد لها وجود، وأنها باتت تحت سيطرة الحكومة الجمهورية في سول.

وعلى الرغم من تظاهر «ري» بالشجاعة، فإن الاحتلال الذي قامت به كوريا الجنوبية لم يستمر طويلاً، ولم يُؤسس النظام الجديد، لأن معظم أجزاء الشمال لم تستمر تحت سيطرة كوريا الجنوبية لأكثر من شهرين فقط، وإن كانت هذه الفترة كافية جداً من ناحية أخرى لتشكيل جماعات محلية من مليشيات اليمين، التي سارعت بإعدام المتهمين بالتعاون من النظام الشيوعي. ولم تكد تمر بضعة أسابيع حتى جاء دور رجال المليشيات ليفروا أو ليواجهوا المصير المحتوم على أيدي القوات الشيوعية العائدة. ولقد وضع الهجوم الصيني الضخم نهاية لحكم إدارة «ري» في الشمال، الذي لم يدم سوى فترة قصيرة، وذلك في

ديسمبر 1950.

وبعد فترة وجيزة، استقر الخط الأمامي للمواجهة على طول الخط الذي بدأت عنده الحرب، وأعقب ذلك فترة طويلة من حرب الخنادق، وهو ما وفر درجة نسبية من الاستقرار بالنسبة للأشخاص العاديين خلف كل طرف من طرفي البلد. ومع أواخر عام 1951، تعافت البيروقراطية الخاصة بكوريا الشمالية واستعادت قوتها وسيطرتها على المجتمع. وقد خرجت كوريا الشمالية من الحرب دولة ستالينية نموذجية، إذ قامت السلطة، تطبيقاً لتجربة ستالين في الاتحاد السوفيتي بشكل كبير، بإنشاء شبكة مكثفة من منظمات يفترض أنها منظمات حرب تطوعية وظيفتها التعبئة للحرب، ويأتي على رأسها حزب العمال الكوري، الذي كان يضم زهاء 10٪ من إجمالي السكان مع نهاية الحرب. وذلك إضافة إلى اتحاد الشباب الديمقراطي، وهو الآخر إحدى المؤسسات الكبيرة ويضم أعضاء من كوريا الشمالية تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين. ولقد وصلت هذه الشبكة إلى كل أسرة، وبمرور الوقت زادت سيطرة الدولة على الحياة اليومية بشكل كبير على الرغم من الدمار الشامل للحياة المدنية.

ونتيجة لذلك، صارت الحياة المدنية في كوريا الشمالية أكثر انتظاماً واستقراراً من كوريا الجنوبية. وفي الوقت نفسه كان أمام الأفراد فرصة أقلّ لتحدي الأوامر الرسمية. فعلى العكس من الجنوب، حيث استمرت ظاهرة الفرار من القرعة حتى نهاية الحرب، كان من المستحيل في كوريا الشمالية أن يهرب رجل مؤهل جسديّاً من أداء الخدمة العسكرية. وقد وصلت طلبات الاستدعاء للحرب إلى كافة فئات الأشخاص، فهؤلاء الذين تركوا في المؤخرة– من النساء والأطفال وكبار السن– كانوا يُخضَعون بصفة مستمرة للعمل في حملات التعبئة. وفي عام 1953 فوجئ الدبلوماسيون الأجانب في الشمال عند رؤيتهم فتيات في سن الثالثة عشرة يعملن على معدات معقدة وخطيرة داخل المصانع.

وفي الوقت الذي كان يعني فيه التحول إلى حرب الخنادق في الجنوب إبعاداً للمدنيين، بصفة عامة، عن الخطر المباشر، فقد اختلف الوضع تماماً في الشمال، حيث قتل عدد كبير من سكانها في الفترة بين عامي 1950 و1953. وبالنسبة للشمال، كان هذا الوقت هو وقت القصف المكثف والدائم، في حين حالف الحظّ سكان كوريا الجنوبية بفضل تفوق السلاح الجوي للأمم المتحدة الذي حال بينهم وبين أي تهديد حقيقي من التعرض



المدنيون من كوريا الشمالية بعد قصف قوات الأمم المتحدة: سينيوجو 1951
(أرشيف روسيا للوثائق المصورة والسينمائية 1–7677).

لهجمات جوية. وقد كانت قيادة الولايات المتحدة تأمل أن تتمكن غارات القصف الجوي المكثفة من تدمير قدرات كوريا الشمالية القتالية، إلا أن هذه الاستراتيجية جاءت على عكس التوقعات تماماً، حيث استخدمت كل من قوات كوريا الشمالية والقوات الصينية الأسلحة الصينية والسوفيتية، واقتصر دور الكوريين الشماليين على نقل الأسلحة. وبالطبع فإن العدد الفعلي لضحايا هذه الغارات الجوية سيظل مجهولاً، ذلك أن خسائر كوريا الشمالية تختلف بشكل كبير، وحسب ما تؤكده أفضل التقديرات المتاحة فإن عدد القتلى في صفوف كوريا الشمالية طيلة ثلاث سنوات من الحرب بلغ 1,3 مليون قتيل.

وعلى الرغم من أن هذا الرقم يتضمن ما بين 300000 إلى 500000 من الضحايا في صفوف القوات العسكرية، إلا أن النسبة الأكبر من الضحايا كانت في صفوف المدنيين الذين راح معظمهم ضحية القصف. وهذا يعني أن واحداً من بين كل سبعة من مواطني كوريا الشمالية لقي حتفه خلال الحرب.

ونتيجة لهذا القصف المكثف تحولت معظم مدن كوريا الشمالية إلى أنقاض. وفي بيونغ يانغ، على سبيل المثال، لم يسلم أي مبنى كان موجوداً قبل الحرب من القصف، كما أن معظم المنشآت دُمّرت تماماً، ولم يختلف مصير المدن الصناعية الكبيرة ومحطات القطارات عن ذلك، فقد سوّيت جميعها بالأرض. أما أولئك الذين لم يغادروا المدينة فقد اضطروا إلى العيش في الخنادق والملاجئ، أو داخل المخيمات التي كانت بالطبع أقلّ أماناً. وفي الغالب، كانت تضطر العائلات إلى العيش في الملاجئ التي حفرتها في الأفنية الخلفية لمنازلهم. وعلى الجانب الآخر، رُحّل معظم سكان المدن إلى الريف، كما وُزّع معظم مؤسسات الدولة المهمة على أماكن مختلفة داخل الدولة لتوفير الحماية لها، وذلك مثل جامعة «كيم إل– سونغ»، وهي أكبر معهد تعليمي في الشمال، التي نُقلت إلى منطقة جبلية لتستمر في نشاطها، حيث كان يُستدعى الطلبة المتفوقون من خنادقهم لاستكمال تعليمهم. ومن هنا فإن التعليم في الشمال، كما هي الحال في الجنوب، استمر، بل تطور أيضاً طيلة سنوات الحرب. أما بالنسبة لهؤلاء الذين يعملون داخل المؤسسات الحكومية، فقد كان الترحيل سبباً في تفكك أسرهم، حيث لم يكن يرحل سوى الموظفين الضروريين فقط لتسكينهم بعد ذلك في المهاجع أو الملاجئ، مع اتباع الروتين الصارم عينه الخاص بالثكنات العسكرية، ولهذا فإن ترحيل السكان ونقل المنشآت قد ساهم في انفصال أفراد العائلة وقت الحرب.

وتمثلت استجابة كوريا الشمالية على القصف في إنشاء برنامج ضخم لبناء حصون تحت الأرض، وهو البرنامج الذي اعتمد نجاحه على قدرة الحكومة على تنظيم المدنيين في فرق للعمل، ويرجع الفضل في إنجاز الجزء الأكبر من المشروع إلى العمل اليدوي، الذي كانوا يعملون به لفترات طويلة، ولم يكن لديهم سوى أدوات العمل الأساسية. وبالطبع كان يُشَغَّل الشباب، على وجه الخصوص، بشكل أكبر، ولذلك نجحت كوريا الشمالية في بناء منشآت محكمة تحت الأرض، كانت تشتمل على التجهيزات العسكرية، ومصانع

الذخيرة، والثكنات. وبالنسبة لمراكز قيادة حكومة كوريا الشمالية فقد تأسست في نظام من الأنفاق والحصون تحت الأرض لمسافة عميقة تحت تل مورانج بونج بمدينة بيونغ يانغ. وداخل هذه المدن الواقعة تحت الأرض كانت توجد أيضاً مراكز ثقافية، مثل مسرح بيونغ يانغ الكائن تحت الأرض، والذي كان يقدم أعمالاً ترفيهية إلى جانب استخدامه مقراً لعرض الأحداث الرسمية. ومن هنا يتضح أن الحكومة بذلت جهداً كبيراً لتوفير نوع من الترفيه لمواطنيها، كما حرصت أن يكون ذلك أمراً «صحيّاً»، وسليماً من الناحية الأيديولوجية، إذ كانت تأتي معظم الأفلام التي تتناول التضحية الوطنية من الاتحاد السوفيتي، وإن كان هذا لا يمنع من وجود بعض العروض الموسيقية والقصص الخيالية. وكانت هذه الأفلام تعرض في شتى أنحاء الدولة داخل مسارح من الخيام يسهل نصبها وفكّها.

وإضافة إلى الاعتماد على المدنيين من كوريا الشمالية في بناء عالم تحت الأرض، جرى استخدامهم أيضاً كعمال يعملون ليلاً، فقد كان إصلاح منشآت النقل، لا سيما مسارات السكك الحديد، من الوظائف الرئيسة التي مكنت كوريا الشمالية من الاستمرار في الحرب، وذلك لأن القوات الجوية الأمريكية كانت تستهدف، على وجه الخصوص، السكك الحديد بهدف قطع خطوط الإمداد، ولم يواجه طيارو القوات الأمريكية أية صعوبة في تدمير هذه المسارات نهاراً. ومع ذلك، كانت سلطات كوريا الشمالية قادرة على إرسال فرق عمل من المدنيين كل ليلة لإصلاح الأضرار. أما في حالات وجود فجوات في شبكة النقل، فكان يُجَنَّدُ المدنيون، في الغالب، كحمالين لنقل الأحمال الثقيلة على ظهورهم عبر الأماكن التي لم يكن بالإمكان استخدام الشاحنات أو القطارات فيها.

وقد ساهمت الفعالية النسبية للنظام البيروقراطي المستبد لكوريا الشمالية في إنشاء نظام توزيع شامل، ظل جزءاً من الحياة في كوريا الشمالية منذ ذلك الوقت. فقد كان كل سكان المدن تقريباً يتلقون خلال الحرب وجبات من الحبوب والأغذية الأساسية، وهو ما كان ضرورياً بالنسبة لهم ليتمكنوا من تنفيذ الأعمال التي تكلفهم بها الحكومة. أما بالنسبة للفلاحين، فكان من المفترض أن يعيشوا على ما تبقى لهم من محاصيلهم بعد الشراء الإجباري لها من قبل الدولة. ومع ذلك، فقد صرح مسؤول رفيع المستوى في كوريا الشمالية، في ربيع عام 1953، بأن أكثر من ربع سكان الريف عانوا من المجاعة.

وكما هي حال الجنوب، لم تكن هناك مساواة حقيقية بين الطبقات الاجتماعية في وقت الحرب، فكان المسؤولون يحصلون على كميات أكبر من الأغذية والوجبات مقارنة بالعامة. وكانت المرأة أو الرجل العادي يحصل على وجبات ضئيلة، ولكنها كانت وسيلة جيدة للسلطات كي تضمن توفير القوت للأغلبية. ومع ذلك، ظل نقص الأدوية والحاجات الأساسية المشكلة الرئيسة فارتفعت معدلات الوفاة أثناء الحرب، ليس بسبب الغارات الجوية فحسب، بل بسبب انهيار الخدمات الصحية. وكان الشخص المدني، في وقت الحرب، يحتاج إلى معارف خاصة كي يُسمح له بدخوله المستشفى التي كانت مخصصة للعسكريين فقط. وكانت أفضل الأدوية تُقدَّم إلى الجيش فقط. وبالتالي عزّ توافر الكثير من الأدوية والعقاقير كالمضادات الحيوية. وكان مرض السل الرئوي سبباً رئيساً في حصد أرواح المدنيين والجنود على السواء. وكان هناك قناعة بأن زهاء 250 ألف جندي أصيبوا بهذا المرض عام 1953 (ولم يكن هناك سوى خمسة من المتخصصين لعلاج هذا المرض في ذلك الوقت، وربما عدد أقل بين السكان المدنيين). وفي أواخر هذا العام صرح طبيب كوري شمالي لأحد الدبلوماسيين الأجانب بأن عدد الذين لقوا حتفهم بسبب مرض السل خلال الستة أشهر الأخيرة تجاوز عدد الذين قتلوا على جبهة القتال.

ولذلك كان المهرب الأساس أمام المدنيين من كوريا الشمالية هو الحصون المؤقتة، فأثناء النهار كان دوي القنابل فوق رؤوسهم، بينما يعملون أثناء الليل لإصلاح ما دُمِّرَ، ولقد عاشوا تحت الأرض لتفادي التهديد المباشر للغارات الجوية، وكان عليهم مجابهة الجوع والمرض. ولقد فُصلوا عن عائلاتهم، إما بسبب ترحيلهم لتفرق بينهم المسافات، وإما بسبب الموت، الذي كان يحصد أرواح الكثيرين ليفرق بينهم وبين أسرهم للأبد. وقد خضعوا طيلة هذا الوقت لتوجيه قوي ومتزايد لدولة شكلت عاصمة سياسية كبيرة، ثم بعد ذلك وطوال عقود لاحقة، ونظراً لقدرتها الحقيقية على البقاء خلال كل ذلك تمكنت قوات الرأسمالية من الوقوف في وجه هذه الدولة.

خاتمة

في يوم 27 يوليو 1953، وقَّع جنرالات الصين وكوريا الشمالية والولايات المتحدة معاهدة هدنة، لم تكن إعلاناً للسلام وإنما مجرد وقف للقتال، مما يعني أن الكوريين على

جانبي الخط الثامن والثلاثين كان عليهم العيش تحت تهديد نشوب حرب جديدة في أي وقت، وهذا ما شكّل عقبة جديدة أمام انفصال الحياة المدنية بشكل كامل عن أجواء الحرب.

وقد ظلت السياسة والحكومة في كل من كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية، حتى أوائل التسعينيات، في قبضة رجال هم في غالبيتهم من المدنيين الذين خاضوا تجربة الحرب، ولا يتجرعون مرارتها. فأغلب من لقوا حتفهم في الحرب كانوا من المدنيين، وكان للأعمال الإرهابية في الجنوب والغارات الجوية في الشمال نصيب الأسد من أرواح المدنيين في ذلك الوقت.

فلا تزال ذكرى أعمال الحرب الوحشية، التي غالباً يُعادُ إذكاؤها وإشعالها لأغراض سياسية، حاضرة حتى يومنا هذا، ولعل هذا الأسى الذي تركته الحرب وراءها هو أحد العوامل التي تحول بين تحقيق مصالحة حقيقية بين الطرفين.

لقد تأقلم اللاجئون منذ فترة طويلة في منازلهم الجديدة، لكن الهجرة الجماعية للسكان الذين كرهوا السياسة، ساعدت في إرساء قواعد الاستقرار لكلا النظامين، ولولا موجات النزوح الجماعي الضخمة التي مارسها اللاجئون بين عامي 1945 و1951، ما نجت كوريا الشمالية من بأس المعارضة الداخلية. أما في الجنوب، فقد ساهم وصول اللاجئين البائسين بدرجة كبيرة في الإبقاء على النظام السياسي هناك دون تغيير (حتى وإن تغير رأس السلطة كما حدث مع الزعيم «ري» عام 1960). وبعد سقوط أعداد ضخمة من القتلى في صفوف الجانبين، كانت المعارضة دائماً تُواجَه بالمصير نفسه، إما الاستئصال وإما الترهيب والتخويف حتى تلزم الصمت. ولذا فإن تأثير الحرب على المدنيين في كوريا شمالها وجنوبها، كان قويّاً شديداً، وواصل حضوره على فترة طويلة في حياتهم السياسية والثقافية واليومية.

الهوامش

1. Kim Tong- ch'un, «Hankuk chonchaeng-ui misichok punsok. Soul siminkwahankuk chonchaeng: Chanliu, tokang, p'inan (Microanalysis of the

Korean War. Seoul Population and the Korean War: Staying at place, Crossing a River, Fleeing),» Yoksa pip'yong (summer, 2000):45-46.

2. Chon Sang-in, «6.25 chonchaeng-ui sahoesa: Soul simin- ui 6.25 chonchaeng (Social History of the Korean War:Seoul Population and the Korean War),»in Hankuk-kwa 6.25 chonchaeng (Seoul: Yonsei University Press, 2000), 187-88.

3. The most recent publication of this document is Kim Song-ch'il, Yoksa ap'eso (Seoul: Ch'a-pi, 2005).

4. Kim 2005: 92.

5. Kim 2005: 95.

6. Son Chong-mok, Hankuk tosi 60 nyon-ui iyaki (The 60-Year Story of Korean Cities), vol. 1 (Seoul: Hanul, 2005), 70.

7. Chung-gu chi (Description of the Pusan Central District) (Pusan, Korea: Pusan Chung-gu office, 1990), 264.

8. 20 seki yosong sakon sa (The History of Female-Related Incidents in the 20th Century) (Seoul: Yosong sa, 2001), 124.

9. Korea Times, 11 January 2005.

10. Peak Son- yop, Kun-Kwa na: 6.25 chonchaeng-ni kirok (Army and Me: A Memoir of the Korean War) (Seoul: Taeryuk yonguso, 1989), 233.

11- للحصول على أحدث الأبحاث والدراسات عن مذبحة تايجو (Taegu) وغيرها من الأحداث المشابهة، انظر:

Pak Myong-rim, Hankuk 1950: Chonchaeng-kwa pyonghwa (Korea 1950: War and Peacel) (Seoul: Nanam, 2002), 320-27.

12. Interview for the MBS TV company, cited in Yi Sin-sh ol, «6.25 nampuk Chonchaeng sigi ipuk chiyok-eso-ui minganin haksal (The Massacres of Civilians In the Northern Part of the Country during the North-South War

from June 25),» Yoksawa hyonsil 4 (2004): 154.

13. Pak Myong-rim 2002: 211.

14. Balazs Szalontaii, Kim Il Sung in the Khrushchev Era (Stanford, CA: Stanford University Press, 2006), 44.

15. Szalontaii 2006: 44.

مراجع مختارة

Cumings, Bruce. Korea's place in the Sun: A Modern History. Rev. ed. New York: W.W. Norton, 2005.

يعتبر Cumings أحد المؤرخين المبرزين في كوريا الحديثة. وفي هذا الكتاب الذي أُعدّ لجمهور من القراء العاديين، تتوفر خلاصة متميزة للأحداث التي أدت إلى اندلاع الحرب الكورية وأثرها على تاريخ البلاد فيما بعد.

Goldstein, Donald M., and Harry J. Maihafer. The Korean War: The Story and Photographs. Washington, DC: Brassey's, 2000.

مجموعة من الصور لوقت الحرب تغطي كلاً من العمليات العسكرية والحياة المدنية.

Lee, Ho-chul. Southerners, Northerners. Translated by Andrew Killick and Cho Sukyeon. Norwalk, CT: EastBridge, 2004.

يشمل هذا الكتاب رواية مكتوبة بصيغة أدبية للحياة في كوريا قبل الحرب وأثناء اندلاعها، بناء على وقائع حدثت بالفعل.

Ottoboni, Fred. Korea between the Wars: A Soldier's Story. Sparks, NV: Vincente Books, 1997.

سرد لشاهد عيان عن الحياة في كوريا في أواخر أربعينيات القرن العشرين.

Peters, Richard, and Xiaobing Li. Voices from the Korean War: Personal Stories of American, Korean, and Chinese Soldiers. Lexington: University Press of Kentucky, 2005.

مجموعة من الذكريات لعدد من جنود الجيوش الكبرى مع إحالات لحياة السكان المدنيين.

Riley, John W., Jr., Wilbur Schramm, and Frederick W. Williams. «Flight from Communism: A Report on Korean Refugees.» Public Opinion Quarterly 15(1951): 274-86.

دراسة ميدانية مبكرة للاجئين في كوريا تقدم صورة معاصرة متميزة للمشكلات التي كانت قائمة في تلك الفترة.

Stueck, William. Rethinking the Korean War: A New Diplomatic and Strategic History Princeton, NJ: Princeton University Press, 2002.

تعتبر الروايات المتصلة بالحرب الكورية متعددة. ويُنصح باستخدام هذا الكتاب بوصفه أحد أحدث الأعمال التي تستفيد بشكل جيد من المصادر المتوفرة حديثاً.

West, Philip, and Suh Ji-moon, eds. Remembering the «Forgotten War»: The Korean War through Literature and Art. Armonk, NY: M. E. Sharpe, 2001.

مقال يتناول مفهوم وذاكرة الحرب على الجانبين العسكري والمدني.

باللغة الكورية:

Hanguk-kwa 6.25 Chonjaeng (Korea and the Korean War). Seoul: Yonsei University Press, 2002.

مجموعة من المقالات تتناول أثر الحرب على المجتمع والحياة اليومية في كوريا الجنوبية.

أفلام (مترجمة إلى الإنجليزية)

Spring in My Hometown. Directed by Yi Kwang-mo. South Korea, 1998.
دراما عن الحياة كما عاشها مراهق كوري نشأ في مطلع خمسينيات القرن العشرين في مدينة قروية.

Toegukgi (Korean Banner). Directed by Kang Jegyu. South Korea, 2004.
نظرة عادلة ومحايدة للاختيار المؤلم الذي واجهه شاب كوري في وقت الحرب.

الفصل الثامن

نبذة تأملية في حياة فيتنام الجنوبية
بين عامي 1965 و1975

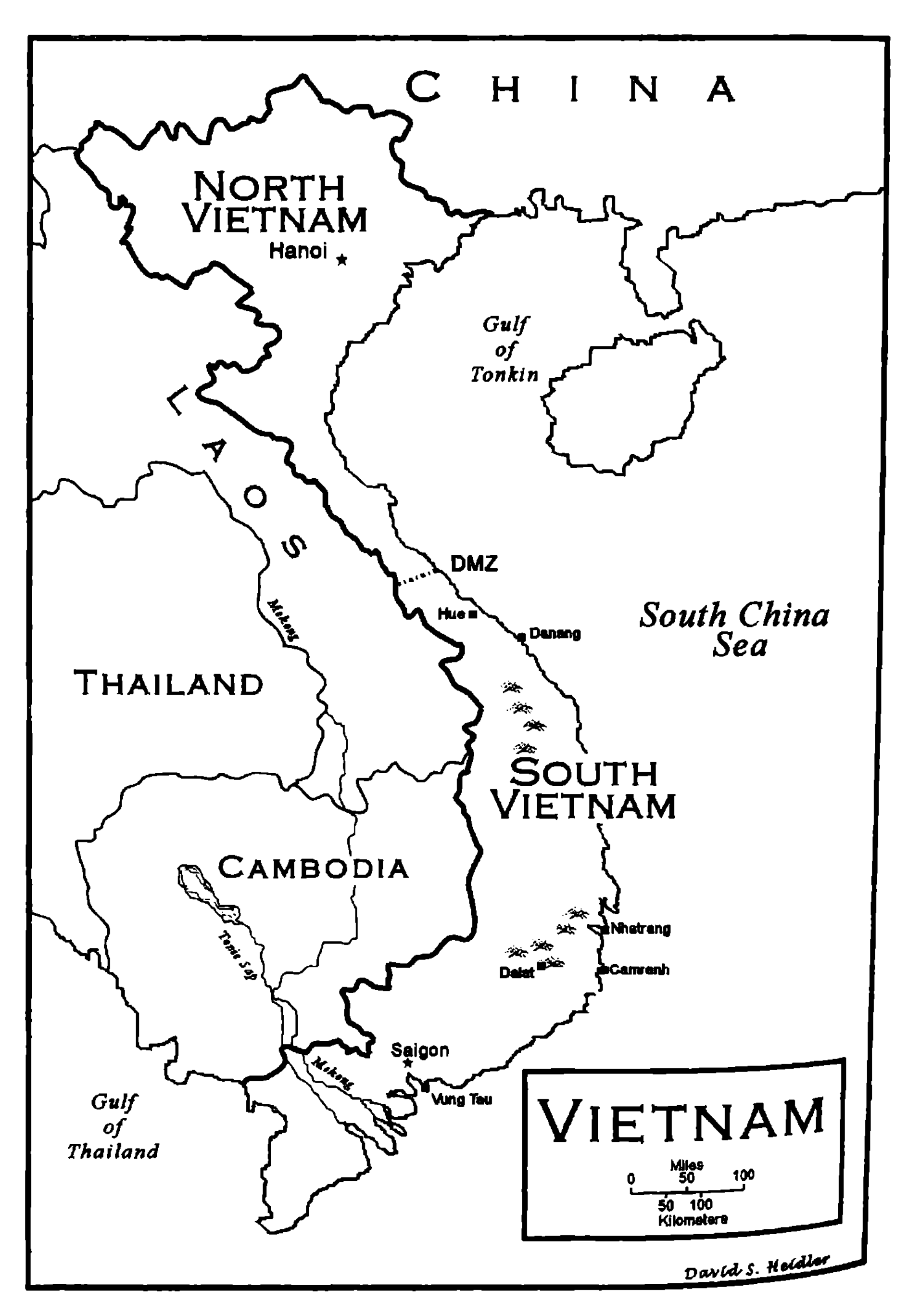
بقلم: ستيوارت لون

من الأشياء التي لا تزال تنبض في ذاكرة أهالي فيتنام الجنوبية معايشتهم الحرب في كل يوم. فلقد أدت الحرب العالمية الثانية إلى احتلال فيتنام من قبل القوات اليابانية. وفي نهاية هذه الحرب، شهدت فيتنام عودة الاستيطان الفرنسي، الذي أشعل نيران حرب الاستقلال في الفترة بين عامي 1946 و1954. وبعد انتهاء هذه الحرب هي الأخرى، سرعان ما اندلعت نيران حرب أهلية اشتد وطيسها، وبلغت ذروتها، في المناطق الريفية من فيتنام الجنوبية بين القوات الحكومية والمليشيات الشيوعية أو ما أُطلق عليه فيما بعد قوات «فيتكونغ»[39]. ثم اتسعت الحرب الأهلية منذ عام 1965 مع تدفق قوات المشاة الأمريكية، والدمار الهائل الذي حل بمظاهر الحياة، والأرض، والممتلكات، خاصة في الجنوب (حيث أسقطت القوات الأمريكية قنابل تعادل ست مرات ما أسقطته على فيتنام الشمالية). وبحلول عام 1969، التحق قرابة مليون رجل من أهالي فيتنام الجنوبية بجيش الجمهورية الفيتنامية، في حين أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية إلى البلاد قرابة نصف مليون من القوات العسكرية، كان السواد الأعظم منهم في سن صغيرة، وليس لديهم خبرة في القتال. وفي العام نفسه، أعلن الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون من طرف واحد تقليص الوجود العسكري الأمريكي في فيتنام، وتسليم الجزء الأكبر من مسؤولية القتال في هذه الحرب

---

(39) «فيتكونغ» هي جبهة التحرير الوطنية وكانت عبارة عن منظمة سياسية وعسكرية حاربت الولايات المتحدة وحكومات فيتنام الجنوبية أثناء حرب فيتنام (1959–1975).

المبالغ في شأنها إلى حكومة فيتنام الجنوبية، وكان ذلك جزءاً من تحول أكبر في سياسة



فيتنام (ديفيد هيدلر)

الولايات المتحدة الأمريكية في آسيا، في ظل ما كان يُعرف بـ «نظرية نيكسون»[40]. وبانسحاب القوات الأمريكية، بدأ جيش فيتنام الشمالية يرى فرصة لإحراز النصر، فشن هجوماً عسكرياً شاملاً في غاية الضراوة على فيتنام الجنوبية، لكن الأخيرة تمكنت من دفع هذا الهجوم. ولاحقاً في عام 1975، بعد إقصاء نيكسون من الحكم، وخفض دعم الولايات المتحدة لمدينة سايغون (Saigon) بشكل جذري، قامت قوات فيتنام الشمالية بعملية اجتياح ناجحة. وبذلك، لم تعد فيتنام في حرب– ولا حتى على شفيرها– لمدة 35 عاماً. وفي أثناء هذه الفترة، وُلدت أجيال، ووصلت إلى مرحلة النضج.

كانت الضوضاء أول شيء تلحظه عندما تستيقظ من نومك في مدينة سايغون خلال عقد الستينيات. ولم تكن هذه ضوضاء الحرب، ولا الشاحنات التي تملأ الطرقات، ولا الجنود الذين يسيرون بخطىً عسكرية، ولا التجمعات التي تعقدها الحكومة، أو أعمال الدعاية التي تقوم بها. بل كانت ناتجة عن الجلبة التي يحدثها الباعة في الشوارع من الساعة الخامسة صباحاً وصاعداً. وكانت غالبية هؤلاء الباعة– تقريباً– من النساء، اللائي يستيقظن مبكراً لإعداد الطعام الذي سيحملنه في سلتين متزنتين على طرفي قضيب يحملنه فوق أكتافهن. وقد كان بعضهن يبيع المعكرونة، والأرز (مطهواً وملفوفاً في أوراق الموز، لجعله سهل الأكل)، والخبز الفرنسي. ويتوجه جميع الباعة إلى ساحة السوق الرئيسة، لكن الزبائن– سواء الذين في طريقهم إلى العمل، أو أولئك الذين يعملون في تنظيف الشوارع، أو العائدين من عملهم في نوبة ليلية– كانوا يستوقفون هؤلاء الباعة، ليشتروا منهم الإفطار. وبالنسبة للبائع، كانت أول نقود يحصل عليها من بيع سلعته تمثل أهم شيء بالنسبة له في بداية اليوم، فذلك كان علامة الحظ الطيب في بقية اليوم. ولذلك، كان أي زبون ينادي على بائع يُعتبر ملزماً– من الناحية الأدبية– بأن يشتري من هذا البائع، سواء أحب ما رآه لديه أم لا. وبعدها، كان المشتري يتناول هذا الإفطار في الشارع، أو في البيت، أو في مكان عمله. وجدير بالذكر أن الضوضاء كانت شديدة بسبب أعداد الناس الذين يتحركون في الشوارع، وليس بسبب أن السيدات كُن يتشاجرن، لتُسمع أصواتهن (فلسن في حاجة إلى الصياح، لكثرة الزبائن حولهن). وباستثناء مَن يعيشون في

(40) نظرية أعلنها الرئيس نيكسون عام 1969 أعلن فيها أن الولايات المتحدة تتوقع أن يبدأ حلفاؤها في تولي مهمات الدفاع العسكري عن أنفسهم مع إمكانية تدخل الولايات المتحدة في توفير الدفاع لحلفائها بناء على طلبهم.

الضواحي التي يسكن فيها الصفوة على ضفاف النهر، كان سكان المدينة يستيقظون على المؤثرات الصوتية التي يستقبلون بها يومهم. وبالنسبة للعديد من المدن، كان ينتشر طنين الحياة العصرية، مقارنة بسكون الريف الذي لا يشوبه شيء.

ومنذ عقد الستينيات، تزايد نوع آخر من الضوضاء، هو ضجيج وسائل المواصلات، وحركة المرور التي أصبحت تعتمد على الآلات. ولم يكن التغير الذي طرأ على صوت الحركة في المدينة نتيجة للحرب، وإنما بسبب توافر السيارات صغيرة الحجم، رخيصة الثمن، في مختلف أنحاء العالم. فقبل عقد الستينيات، كانت الدراجات هي وسيلة المواصلات الرئيسة في مدن فيتنام، وكانت من أهم ممتلكات الأسرة، ولعله كان لكل أسرة دراجة واحدة. وقد كانت الدراجات فرنسية الصنع هي المفضلة لدى الفيتناميين، إذ كان التأثير الفرنسي لا يزال جلياً في شعبية رياضة ركوب الدراجات، وليس أدل على ذلك من سباق السيارات الوطني (Tour d'Indochine)، والذي صُمِم على نهج سباق الدراجات الفرنسي (Tour d'Indochine). وسيلة التنقل «السايكلو» (Cyclo) هي الأرخص ثمناً والأكثر استخداماً آنذاك، وهي- أيضا- عبارة عن دراجة بها عربة تحمل راكبين فقط. وفي المقاطعات الغربية- حيث كان يُطلق على هذه الوسيلة اسم «اكسي لوي» (xe loi)-، وكانت المركبة مثبتة في مؤخرة الدراجة، وبالتالي كان يركب فرد خلف السائق. أما في مدينة سايغون، فكانت المركبة مثبتة في المقدمة، مما يجعل الراكب يشعر بأنه يركب في عربة تصادم، بينما يندفع به السائق مسرعاً وسط الزحام في الشوارع.

وفي الستينيات، تزايد عدد سيارات الأجرة في طرقات المدن، وكان معظمها سيارات رينو فرنسية الصنع مطلية باللونين الوطنيين: الأزرق والأصفر. وعلى الرغم من ارتفاع أجرة سيارات الأجرة بما يجعل استخدامها مقصوراً بشكل كبير على رجال الأعمال والمسؤولين الحكوميين، كان هناك- على الأقل- سبعمائة سائق أجرة في مدينة سايغون حتى عام 1968. وعلى عكس ذلك، كانت السيارات الخاصة لا تزال نادرة إلى حد ما، وكان عدد السيارات المستوردة المسجلة في الفترة بين يناير ومايو 1967 هو 1587 سيارة فقط. وكما هي الحال بالنسبة للدراجات، شهدت أواخر الستينيات تحولاً لدى أولئك الذين أصبح بإمكانهم اقتناء السيارات الأمريكية، الأكبر حجماً، والأكثر جاذبية، بدلاً من المركبات فرنسية الصنع. ومع ذلك، توضح صورة لمرأب جامعة في مدينة سايغون عام

1972 أن الطبقة فوق المتوسطة من الأكاديميين كانت لا تزال مرتبطة بالسيارات الفرنسية، إما بسبب سعرها المناسب وإما بسبب الانحياز الثقافي.

وفي أواخر الستينيات، كان الصوت السائد في شوارع مدينة سايغون- وغيرها من المدن والبلدات- هو صوت الهوندا. فنتيجة لازدهار صناعة الدراجات البخارية اليابانية في ذلك الوقت، حلت دراجات هوندا، وياماها، وسوزوكي، محل ماركات الدراجات الشهيرة في العالم، سواء الأمريكية، أو البريطانية، أو الإيطالية. وفي فيتنام الجنوبية، كانت دراجة (cc 50 Honda) منتشرة للغاية، حتى أصبحت كلمة الدراجة تعني هوندا. وكان الرجال والنساء في سن المراهقة- ومتوسطو العمر- يستخدمون هذه الدراجة في التنقل بين أرجاء المدينة وقت النهار، ويذهبون بها لمشاهدة الأفلام، والجلوس في المقاهي مساءً، أو للانتقال من مدينة سايغون، في رحلة مدتها يوم، إلي منتجع «فان تاو» الساحلي القريب. وبالنسبة للسيدات، كن يستخدمن الدراجة «هوندا ديم» ذات الحجم الصغير، والألوان الأكثر بريقاً، المثبتة بها سلة للتسوق على العجلة الأمامية، والتي تمتاز- كذلك- بأغطية، للوقاية من الطين والأتربة. وقد استخدمت المحركات الصغيرة- أيضاً- في عربات الأجرة (سايكلو)، لكن كانت «الهوندا أوم»- وهي ابتكار يعود إلى عقد الستينيات، وتعني كلمة «أوم» باللغة الفيتنامية: الحضن الدافئ- بالنسبة للراكب الجريء بمثابة نوع جديد من وسائل الأجرة. يجلس فيه الراكب على مقعد إضافي خلف السائق، ويتشبّث به جيدا كأنه يحتضنه!

وأحيانا، كان العاملون يستخدمون دراجات الهوندا في الانتقال إلى أعمالهم من الضواحي التي يعيشون بها. وبالنسبة لمن يعملون في المكاتب الحكومية، أو الشركات الكبيرة، كان هناك من يعتنون بدراجاتهم في أثناء النهار. أما بالنسبة للآخرين، فكانت السرقة خطراً يهدد دراجاتهم، ويمثل جزءاً من الحياة في المدن. وبالطبع، كان من يمتلكون السيارات أحسن حالاً، فكان عدد السيارات في شوارع المدينة قليلاً، حتى أن أي محاولة لسرقة سيارة ما قد تلفت الانتباه في الحال. وفي ذات الوقت، كان قطار الضواحي يُستخدم بكثرة، حيث كانت التذاكر فيه رخيصة الثمن، كما انتشر العديد من المحطات الصغيرة في مختلف أرجاء سايغون. وأمام محطة القطار الرئيسة، كان يقع السوق الرئيس، وبالتالي كان القطار يُستخدم بشكل أساسي من قِبَل تجار السوق. وحسب ما يتذكره

سكان سايغون، لم تهاجم قوات «فيتكونغ» أبداً محطة السكة الحديد الرئيسة، على الرغم من أهميتها لحياة المدينة، وسهولة دخول أي فرد إليها.

أما خطوط السكة الحديد الرئيسة، فكانت تُستخدم بدرجة أقل نظراً لاستهدافها بانتظام بالتفجيرات ويبدو أنها كانت أهدافاً سهلة. فطبقاً لما قاله زائر صغير السن قدم إلى مدينة «هيو» (Hue) عام 1968، كانت محطة السكة الحديد شبه ميتة بسبب تعطل العديد من الخطوط. ولعل انتظام جدول حركة القطارات جعل المهمة يسيرة على المتمردين. وعلى أية حال، شكلت الألغام تهديداً مستمراً، وكثيراً ما كانت تتعرض القطارات إما للتفجير أو الخروج من مسارها بسبب تدمير خطوط السكك الحديد التي تسير عليها القطارات. وعلى عكس ذلك، كان السفر بالحافلات، أي في مجموعات صغيرة، يمنح المسافرين شيئاً من الأمل في تجنب لفت انتباه قوات «فيتكونغ»، وإمكانية الابتعاد عن البقاع المحفوفة بخطر بالغ. والطريف أنه كان هناك مساعد لسائق هذه الحافلات يظل أثناء الرحلة في حالة حذر وحركة ويطل من الأبواب ويتسلق السطح من أجل الوصول بالعربة إلى وجهتها بسلام.

وعموماً، كان الخوف في فترة الستينيات هو الشعور السائد– إلى جانب الضوضاء– في شوارع سايغون أو البلدات الصغيرة المجاورة. وظلت الحال كذلك حتى عام 1975. وحتى هذا التاريخ، عاش الكثير من الناس مع الحرب أمداً طويلاً، حتى إنهم لم يعرفوا أمراً ثابتاً في حياتهم غيرها. وكما هي الحال في بلاد أخرى، عندما تستمر الحرب زمناً طويلاً، يتكيف الناس مع إمكانية التعرض لأية تفجيرات أو أعمال عنف. ومن ثم، فإنهم عندما تقع مثل هذه الحوادث يتغلبون على الصدمة بسرعة ويواصلون حياتهم من جديد. وباستثناء هجوم عام 1968 الكبير (هجوم التيت)[41]، الذي وقع خلال احتفالات بدء السنة القمرية، عندما شنت قوات «فيتكونغ» هجوماً شاملاً على مراكز المدن على امتداد فيتنام الجنوبية، اقتصرت المعارك– التي يكون فيها القتال وجهاً لوجه– على المناطق الريفية لا المدن. وكان احتفال رأس السنة القمرية عام 1968 هو المرة الأولى التي رأى فيها سكان المدن مقاتلي «فيتكونغ».

(41) حملة عسكرية أثناء حرب فيتنام بدأت في يناير 1968، وفيها تقاتلت جبهة التحرير الوطنية لفيتنام الجنوبية وجيش فيتنام الشعبي ضد قوات جمهورية فيتنام (فيتنام الجنوبية) والولايات المتحدة والقوى الموالية لهما.

وتحذيراً من تكرار ذلك، كانت القوات الحكومية- من وقت لآخر- تعلق جثة أحد مقاتلي قوات «فيتكونغ» في أسواق بعض البلدات الصغيرة، على سبيل الإنذار للآخرين. وبوجه أعم، كانت هناك أجزاء من سايغون- ومدن أخرى دون شك- إما يتجنب المدنيون السير فيها، وإما يمرون بها مسرعين، خاصة أثناء الليل. ففي سايغون، توزّعت بؤر الخطر حول اثنين من الجسور الموجودة في المدينة هما: جسر الملح، وجسر واي. وفي الليل، كان الخطر في هذه المناطق- أو عند مفترق طرق باي هاين- يتمثل في المجرمين الذين يرشقون سائقي الدراجات البخارية بالحجارة، لإصابتهم، وطرحهم أرضاً، والسطو عليهم. وقد ظهر نوع آخر من السرقة في أواخر الستينيات، لكنه لم يتزايد سوى في الفترة التي أعقبت سقوط فيتنام الشمالية، وهو الركوب خلف شخص آخر يقود الدراجة البخارية بسرعة، وخطف الحقائب أو المجوهرات- مثل: الساعات، أو الأساور- من الأفراد. وجرت العادة أن يعمل هؤلاء اللصوص في أزواج. وكانت الأهداف المفضلة لهم الشابات اللائي يركبن الهوندا ديم، أو السيدات المسنات، اللائي يسرن في الشوارع. وبعيداً عن النشل بطريقة «اخطف وفر» هذه، كان الشباب أكثر عرضة لمحترفي النصب، الذين يعملون في ساحات الأسواق، ويستخدمون- غالباً- حيلاً ماكرة لجر الرجال إلى المقامرة في ألعاب تبدو سهلة، لكن سرعان ما يكتشف هؤلاء الشباب الضحايا أنهم سُلبوا كل ما معهم من نقود.

وعلى النقيض تماماً من صخب الصباح الباكر، اتسمت ليالي فيتنام الجنوبية بمزيج من الهدوء الذي غمر المدينة من الداخل والغضب القادم من الخارج. فكان حظر التجول المفروض من منتصف الليل حتى الساعة الخامسة، أو الخامسة والنصف فجراً، يعني أن أي شخص يسير في الشارع يُشتبه فوراً بكونهِ شيوعياً. ومن الناحية العملية، كان الذين يخرقون حظر التجول قبيل الفجر هم- غالباً- الفلاحون الذين يعيشون في المدينة، ليحموا أنفسهم من قوات «فيتكونغ»! وكان هؤلاء الفلاحون يُضطرون إلى الخروج مبكراً، لرعاية أراضيهم الزراعية الواقعة خارج حدود المدينة. أما القلة الذين يتجولون بطريقة شرعية في أنحاء المدينة طوال الليل فكانوا الفتية- أو الشباب الأكبر منهم بقليل- الذين يخدمون في فرق الدفاع المدني. ويذكر رجلٌ كان في التاسعة عشرة من عمره عام 1970 أن جميع الشبان- تقريباً- في مدينة توي هانا كانوا يؤدون هذه الخدمة. وقد

جرت العادة في مدينة توي هانا أن يقوم كل رجل بدورية مرة في الأسبوع. وفي هذه الدوريات، كان الشباب يسيرون مثنى مثنى، ويتناوبون الخدمة فيما بينهم كل ساعة، حاملين البنادق، على الرغم من أن اللوائح كانت تحتم عليهم إبقاء الرصاص بعيداً عن البندقية. وحسبما يتذكر الشاهد السابق، كان هو وبعض الشباب الآخرين ينزعون- أحياناً- كبسولة القدح من الرصاصة، ويقذفون الظرف الفارغ تجاه إحدى الأشجار، ثم يملئون الرصاصة بشظايا من الخشب. وفي الدوريات التي تكون في ليالٍ شديدة الظلمة، كانوا يلهون بإطلاق أعيرة الخرطوش الفارغة (الخالية من الرصاص) في اتجاه الكلاب الشاردة في الليل.

وكان الصوت الثابت الذي يجدونه في كل ليلة هو سيمفونية القتال غير الطبيعية في الغابات التي تقع خلف المدينة، حيث تُسمع هناك قعقعة طلقات البنادق، وانفجار القنابل. وقد يُسمع- أيضاً- صوت النحيب على الموتى، وكان من خدع القوات الأمريكية إذاعة تسجيلات لأصوات أشباح من الطائرات المروحية، باعتبار ذلك وسيلة لإخافة قوات «فيتكونغ». وعلى الرغم من وجود معارك في أثناء النهار، فإن صخب المدينة كان يغطي- إلى حد ما- على أصوات المعارك، لكن في الليل، ينكشف هذا الغطاء الواقي. ويبدو أن الناس قد تكيفوا مع تلك الأصوات التي تذكرهم بقرب الحرب، ووجدوا طرقاً للنوم بسلام. وبالفعل، تذكر سيدة- كانت طالبة في جامعة سايغون عام 1972- أنها كانت دائماً تستيقظ من نومها وبداخلها شعور بالحماس والطاقة لليوم المقبل.

ولعل هذا النوع من التكيف كان موجوداً في القرى أيضاً. فها هو رجل من هذه القرى يتذكر فترة طفولته في قريته الواقعة أمام حدود كمبوديا تماماً: فكان والده- وقتها- يدير ورشة نجارة يعمل بها عدد كبير من المهاجرين الفيتناميين. وبعد بدء القصف الأمريكي على كمبوديا عام 1969، أصبح هو وعائلته مضطرين إلى التعود على سماع أصوات طائرات المراقبة الأمريكية التي تقترب منهم. وقد كانوا يعرفون، بناء على التجربة، كم دقيقة متبقية أمامهم قبل أن تصل القاذفات، وتبدأ القنابل تنهال عليهم. كما يعرفون- أيضا- كم يبعد عنهم أقرب مخبأ محصن تحت الأرض يمكنهم اللجوء إليه، سواء أكانوا في المنزل أم المدرسة. ويذكر أنهم- ذات مرة- كانوا في مخبأ، ولم يكن لديهم سوى مخزون قليل جداً من الطعام، وشمعة واحدة للإضاءة، كانت تستخدم- أيضاً- في طرد العناكب

التي تخيف بعض الأطفال ربما بقدر ما تخيفهم القنابل. والعجيب أنهم كانوا يستطيعون كذلك تخمين كم سيستمر القصف تقريباً. وبهذه الطريقة، تعلم المدنيون كيفية التعامل- بقدر المستطاع- مع الحرب التي تقتحم حياتهم. وفي هذا المثال، كان الشيء الذي لم يستطع والد الطفل فعله هو مواصلة العمل، فقد ثبت أن أشجار الغابة مليئة بالشظايا المعدنية الناتجة عن القنابل، لذا لم يعد بإمكانهم قطع تلك الأشجار، واستخدامها تجارياً.

وحتى منتصف السبعينيات، كان الأطفال يمكنهم الذهاب إلى المدرسة سيراً على الأقدام أو بالحافلة أو وسيلة السايكلو أو اللامبريتا (Lambretta) (دراجة ثلاثية العجلات، معها عربة تسع ثمانية أفراد موزعين على مقعدين). وقد انتشرت المدارس الصغيرة في أرجاء المناطق الريفية، وبالتالي نادراً ما يضطر الأطفال إلى قطع رحلة طويلة من منازلهم للذهاب إلى المدرسة. وكان الفصل في المدارس الابتدائية صغيراً، يتكون من عشرين تلميذاً، وبالتالي كان هناك اتصال وثيق بين المعلم والتلميذ. أما في المدارس الأعلى، فكانت الفصول أكبر بوجه عام، تتكون- ربما- من خمسين طالباً. أما المعلمون فكانوا من الرجال والنساء. وكان التدريس- ولا يزال- مهنة ذات مكانة اجتماعية رفيعة في فيتنام، كما في باقي أرجاء آسيا، لذا اعتاد الفتيان والفتيات على وضع التدريس على رأس قائمة رغباتهم الوظيفية. مع أن هناك مقولة سائدة بين الفيتناميين عن القوى الطبيعية، وغير الطبيعية، المعذبة للإنسان: «أولاً: الشيطان، وثانياً: الأشباح، وثالثاً: التلاميذ». ولعلك تدرك السبب في هذا الموقف من التلاميذ إذا علمت أنه من بين الخدع التي انتشرت بين طلبة الثانوية في الستينيات بفيتنام الانتقام غير المبرر من المدرس عن طريق انتظاره حتى ينتهي من الكتابة على السبورة، ثم وضع نوع من البودرة المسببة للحكة- خفية- على الكرسي الذي سيجلس عليه. وقد كان ذلك موضوعاً للمنافسة بين الفتيان، لتحديد مَن الأكثر جراءة. والغريب انتشار هذه الحيل بين الفتيات أيضاً!

وكانت الفصول الدراسية في المدارس الابتدائية تعمل على مدار خمسة أيام ونصف في الأسبوع. لكن في سايغون، في الشهور الأشد حراً، كانت الدراسة تستغرق نصف يوم في المرة الواحدة. ومن ثم، كان بإمكان مجموعة واحدة من الأطفال- في بعض المدارس- أن تستخدم حجرة الدراسة من الثامنة صباحاً حتى الثانية عشرة مساءً، كما يمكن لمجموعة أخرى استخدام غرفة الدراسة من الثانية حتى السادسة مساءً. وعلى

صعيد الأسس المتبعة في التعليم في فيتنام الجنوبية، أفاد مسؤول سابق في التعليم أن المبدأ التوجيهي- الذي لم يطرأ عليه تغيرٌ جراء الحرب- يتمثل في أن «الأخلاق تأتي في المقام الأول، ثم الثقافة في المقام الثاني». وهو ما يسير على قدم المساواة مع المبدأ الكونفشيوسي المعروف، المتمثل في أن الرجل المتحضر مَن يدرك في البداية الفرق بين الخطأ والصواب، والحقوق والواجبات. وعلى ذلك، كانت الرؤى التعليمية هناك ترى بوضوح أن غياب هذا الأساس الأخلاقي القوي، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة، بإمكانه أن يعيق عمليه التقدم نحو مستوى ثقافي أعلى. لذا خُصِّصت عدة ساعات إضافية، بغية إلقاء دروس في الأخلاق في كل المدارس الابتدائية والثانوية. ونظراً لأن الدراسة اختيارية في المدارس العليا أو الجامعة، اتجهت الفتيات- في كثير من الأحوال- نحو الفنون، في حين انخرط الشبان في دراسة العلوم. ومع ذلك، كان هناك شعور يدفع الكل إلى التميز في الرياضات. وقد تركزت الرياضة لدى الفتيات في ألعاب القوى، مثل الجري، في حين أن القفز كان يمارس في المنزل. أما الشباب فقد تأثروا بالفتيان الفرنسيين، حيث شُغفوا حباً بكرة القدم، فراحوا يلعبونها بلا انقطاع خارج المدرسة، وانخرطوا في منافسات تُقام بين فرق كرة القدم المحلية في فيتنام. وقد احتلت كرة السلة- أيضاً- شعبية بين الشبان، ومثلها في ذلك كرة الطاولة، في حين اقتصرت ممارسة لعبة الدا كاو على المنزل، وهي تشبه لعبة تنس الريشة، بيد أنها تُلعَب بالأقدام عوضاً عن المضرب. أما لعبة البايسبول التي كانت تحظى بشعبية في اليابان، فلم تكن معروفة فعلياً في فيتنام حتى وضعت الحرب أوزارها.

وخُصِّصت مجموعات عديدة لدعم التعليم الأخلاقي لدى الأطفال، شملت ما يُسمى بأطفال بوذا، وهي مجموعة تضم الشباب حتى يصلوا إلى سنوات المراهقة. ويتميز أعضاء هذه المجموعة بزيهم الرمادي البسيط المكون من بنطال قصير وقميص للأولاد وبلوزة وتنورة للفتيات، إضافة إلى قبعة ومنديل رقبة. كما كانت هناك فروعٌ لجمعيات الكشافة الدولية للأولاد، وجمعيات الإرشاد للبنات. وقد ساهم هذا- كما هي حال الدول الأخرى- في تعلُم المهارات الحياتية من قبيل «ربط العقد» واستكشاف الريف. وقد تبدى الاختلاف عن بعض الأقاليم الأخرى، من ناحية ثانية، في أن ثمة حياة برية فقيرة جداً تركت آثارها حول المنطقة المتاخمة لسايغون (حيث باتت الحديقة تحوي نزراً يسيراً

من الحيوانات ما أصبح مبعث إحباط في نفوس الأطفال). وكان من الصعوبة تصور وجود نمط حياة مليء بالحيوانات والطيور المحلية، وكان أطفال المدينة يستمدون الإدراك الأكبر للطبيعة من زياراتهم لأقاربهم في الريف ولاسيما في عطلة العام الفيتنامي الجديد.

ولم تشهد الثقافة المعروفة لدى الأطفال في فيتنام الجنوبية في ستينيات القرن العشرين– وحتى مقتبل السبعينيات– اختلافاً في الكيف أو النوع، كذلك الذي شهدته مثيلتها في المجتمعات الرأسمالية الأخرى. فتلخّصت معظم اهتمامات الأطفال في اللعب مع أصدقائهم والسير بالدراجات حول المدينة أو القرية وممارسة الصيد بين الحين والآخر. كما انتشرت لعبة مشهورة بين الأطفال الفقراء تُمارس بتكوين حلقة وتصويب أحذيتهم نحو علبة لاختبار مهاراتهم في الرماية. وكان من تبعات الحرب والتجنيد الجماعي للذكور البالغين توفر أعداد كبيرة من الأسلحة في حوزة أفراد المجتمع. وكان الأطفال– الذين يعمل آباؤهم بالجيش– قادرين على الحصول على الأسلحة والذخيرة الحية. ومن بين الألعاب الخطرة التي تعلمها الأطفال من أقربائهم المنخرطين في الحياة العسكرية كيفية صنع القذائف من الفحم المشتعل. وبعيداً عن الحرب، كانت المجلات الأسبوعية تضفي– فيما يبدو– كثيراً من المتعة والتشويق على حياة الأطفال ومنها مجلة ثانج بوم (Thang Bom)، وكذلك النكات. وبشكل عام كانت التسلية الكوميدية في فيتنام الجنوبية– مثلها مثل بقية مظاهر الحياة– تأتي من مصدرين لا ثالث لهما: فرنسي أو أمريكي. ولهذا لا يزال الفيتناميون– الذين كانوا أطفالا آنذاك– يتذكرون جلياً مغامرات أواخر العصر الأوسط لاستريكس وتان تان من فرنسا، وكذلك الرجل الوطواط (Batman) ودراكولا (Dracula) من الولايات المتحدة. وحين بدأ التلفاز في الظهور على نطاق أوسع في أواخر الستينيات، تمتع الأطفال بمشاهدة أفلام الكرتون من قبيل أسترو بوي (Astro Boy) من اليابان، والأفلام الهزلية الحية وخصوصاً (باتمان)، والبرامج الحقيقية في ذلك الوقت وما تضمنته من مزج بين الأسلوب والحركة والسخرية من الذات.

وبالطبع كان هناك الكثير لا تستهويهم الحياة الدراسية والألعاب. وتمثل الأثر المباشر، والأكثر وقعاً، للحرب على الأطفال في زيادة أعداد الأيتام. ومع أن عددا من الملاجئ قد حاول توفير مأوى لبعض هؤلاء الأطفال اليتامى، فإن رؤية الأطفال بلا مأوى ظلت مشهداً مألوفاً في شوارع فيتنام الجنوبية في أواخر الستينيات. وقد كانت الطريقة الآمنة

الوحيدة المتاحة أمام هؤلاء الأطفال للحصول على قوتهم هي عمل بعضهم ماسحين للأحذية، وعمل بعضهم الآخر ببيع تذاكر اليانَصيب. أما الطريقة الوعرة، شديدة الخطورة، فقد تمثلت في بيع المخدرات– مثل سجائر الماريجوانا– للجنود الأمريكان. وبين الطريقتين– الآمنة والخطرة– كانت تُمارس بعض طرق الاحتيال، مثل نثر المسامير على الطريق، لثقب إطارات الدراجات، على أن تتزامن هذه اللحظة مع ظهور الشخص مصطحباً صندوق العدة، للقيام بأعمال الصيانة. وقد انضم بعض المراهقين صغيري السن، سواء كانوا أيتاماً أو لا يزال والداهم على قيد الحياة، لعصابات الشوارع. وقد أفاد تقرير أُعِدَّ في سايغون– في شهر سبتمبر 1968– حدوث اقتتال بين عصابتين تتراوح أعمار أعضائهما ما بين 13 و14 سنة، من أجل السيطرة على الزعامة في سوق «ثو دُك». هكذا إذن، استطاع الصبية الأيتام، أو من انقطعت صلتهم بالمدرسة، الحصول على المال، أو على العمل، من الشارع. أما الفتيات، فكان الأمر المتاح لهن أن يختفين عن الأنظار، على أمل أن يتاح لهن العمل في الحانات (كان السن القانوني الذي تستطيع عنده الفتاة العمل في الحانات– حتى في هونغ كونغ التي كانت واقعة تحت السيطرة البريطانية في منتصف الستينيات– هو 14 سنة). ومن ثم، ظهر البغاء بجلاء وانخرطت فيه الكثيرات من القاصرات.

وكان الهدف من مدارس الأطفال (أو على الأقل هدف الآباء) هو اجتياز الامتحانات، للالتحاق بالمدارس العليا الخاضعة لإشراف الدولة. وكان التعليم في هذه المدارس مجانياً، لكن الأطفال الراسبين في الامتحان كانوا يضطرون للالتحاق بمدرسة خاصة، تخضع لإدارة جمعية بوذية أو كاثوليكية، وتكون نفقات التعليم بها– عادة– باهظة. ولضمان تحقيق النجاح، اعتاد القادرون على تحمل نفقات إضافية على إرسال أطفالهم إلى منزل المعلم، من أجل الحصول على دروس إضافية مسائية، أو في عطلات نهاية الأسبوع. ومجدداً نقول: إن الرياضات كانت من بين تلك المواد التي احتلت أهمية قصوى، والتي خصص لها ست ساعات أسبوعياً. وقد كان تلاميذ المدارس الخاضعة للدولة يتميزون بزيهم، الذي عادة ما يتألف من قميص أبيض، أو بلوزة، وبنطال أسود أوتنورة سوداء اللون. وقد كانت الدراسة في المدارس العليا أيضاً إلزامية. ومع أنه لم يكن هناك متسع من الوقت للراحة، فقد دأب الآباء الأثرياء على تحفيز أطفالهم على تعلم الموسيقا، وعلى

تعلم العزف على البيانو أو الكمان في كثير من الأحيان، سواء في المنزل، أو على أيدي أحد المعلمين، أو حتى في معهد موسيقي. وكان أطفال المدارس الابتدائية يقومون خلال الإجازة الطويلة، التي تستغرق ثلاثة أشهر في النصف الجنوبي صيفاً، بمساعدة أقربائهم في العمل، من خلال زراعة الأرض، أو رعاية الحيوانات، وأحياناً كانوا يلعبون كرة القدم، أو يمارسون الصيد. أما طلبة المدارس الثانوية فيستمرون- غالباً- في الدراسة، لضمان الحصول على مكان بالجامعة.

وكان الامتحان الذي يُعقد في نهاية المرحلة الثانوية- وهو الامتحان المؤهِل للالتحاق بالجامعة- يُقام في المدن الكبرى فقط على مدار ثلاثة أيام كانت هي والشهور التي تتقدمها بالنسبة لطالب سابق تعتبر «وقت الكوابيس». وقد كان المراهقون يتهكمون على بعضهم مستغلين التذكير بعدد الأيام المتبقية قبل هذه اللحظة الحاسمة. ويبدو أن هذا الحدث كان يعتبر الأكثر أهمية بالنسبة للشباب في فيتنام الجنوبية، فهو الذي يسهم في تحديد مسار حياتهم بشكل كبير. كما أن حصول طلبة الجامعات، والمتخرجين من الجامعة، على الإعفاء من الخدمة العسكرية كان يشكل ضغطاً إضافياً ألقت الحرب بثقله على عاتق أولئك الشباب البؤساء. فقد كان الراسبون في الامتحان، ممن تتراوح أعمارهم بين 17و18 سنة، ملزمين في واقع الأمر بالتجنيد في الجيش إلى أمد بعيد. وعلى العكس من أقرانهم في الولايات المتحدة، الذين يمكنهم عبور الحدود إلى كندا، لم يكن ثمة ملاذ حقيقي بالنسبة لهؤلاء الرافضين للحرب. فعلى الرغم من وجود مجموعات بوذية، متعددة، متورطة في إيواء المتهربين من التجنيد، فإن أماكن الاختباء الحقيقية في أي من الأقاليم في ذلك الحين ظلت- في ظل الحرب- قليلة للغاية. لكل ذلك، وبغض النظر عن الضرر المادي البالغ الذي يلحق بالفرد، كان الالتحاق بالجامعة الطريقة المؤكدة لحماية النفس من قسوة الجيش، واحتمال الموت في سن صغيرة.

ولعل انخفاض نفقات الجامعات الحكومية هو ما بثّ الأمل في نفوس معظم المراهقين في الحصول على مكان فيها حال اجتيازهم الامتحان. وعلى أية حال، أخذ نظام الدراسة المنتظمة في الجامعة في الازدياد على نحو سريع. وفي مواجهة هذه الزيادة المطردة، اضطر القائمون على الأمر إلى تصميم مهاجع الطلبة على نحو يشبه ثكنات الجيش، لجهة الأسرة التي تنتظم في صفوف يلي بعضها بعضاً في مكان فسيح، والحجرات المفتوحة التي تتميز



طالبات بكلية الاقتصاد والأعمال في الزي التقليدي بجامعة فان هانه – سايغون 1972.

بوجود بعض خزانات الأمتعة الشخصية، حتى يتسنى للشباب وضع أغراضهم بها، واستخدامها بوصفها مكتباً في آن معاً. وبالطبع، فضل من كان لديهم أقارب في المدينة العيش معهم. وقد زاد ذلك بدوره– من ناحية ثانية– من الإحساس بالالتزام العائلي في نفوس الطلبة. وفيما يخص مكتبة اتحاد الطلبة، فإنها كانت تفتح طيلة ساعات النهار (حتى الغروب). وفيها، كان الطلبة يقومون باستخدام الكربون لنسخ نصوص كاملة، بدلاً من استعارة الكتب (قام الطلبة في اليابان في الثمانينيات بالشيء نفسه مستخدمين آلات النسخ). وكان مما يُشكل تحدياً إضافياً أمام الشباب الفيتنامي أن المقررات الدراسية في المناهج المختلفة كانت في كثير من الأحوال بلغات مختلفة (مثل الفرنسية والإنجليزية، وحتى الروسية بالنسبة لبعض الأعمال الفنية، وربما الألمانية للطب). وقد جعل ذلك من

تعلم اللغات الأجنبية جزءاً طبيعياً- أيضاً- من حياة الطالب.

وعلى أية حال، غدا التعليم الجامعي ظاهرة عامة في العديد من المجتمعات- بما في ذلك الولايات المتحدة وبريطانيا واليابان- بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها. لذا، أُنشِئت الجامعات على نحو سريع في الخمسينيات والستينيات. ففي سايغون، أُنشئ معهد «هوا هاو»، الذي يعد أحد أكبر المعاهد الحديثة والذي يتبع جامعة «فان هانه» الخاضعة لإدارة بوذية، في عام 1964 على نسق محلي. كما أُسِّست كلية رائدة في مجال دراسات الأعمال في المدينة الغربية في لونج زويان، وذلك في أواخر الستينيات. وقد كان التصميم المعماري للجامعات الجديدة قريباً- بوجه عام- من الطراز الحديث العالمي، الذي يتميز بالجدران الإسمنتية، غير المزخرفة، التي تجمع بين نعومة الملمس واللون الأبيض، وربما يتميز كذلك بالأعمدة التي تحوي ألواحاً كبيرة من النوافذ الزجاجية. ولعل ذلك كان يعتبر- آنذاك- أمراً حديثاً، وأجمل- في طريقته المعتدلة- مما كان عليه منظور السنوات الأخيرة، الذي أصبح فاتراً، وغير مقبول. وقد سار إنشاء الجامعات الجديدة جنباً إلى جنب سفر الرجال والنساء إلى خارج البلاد، من أجل الحصول على التدريب، فقد سافر أساتذة الجامعات الفيتناميون الطموحون إلى فرنسا والولايات المتحدة. وهناك، اطلعوا على الكثير من الدراسات العصرية والجديدة، مثل العلوم الاجتماعية والاتصالات. ولا شك في أن تعليم الحكومات لشبابها- بقدر ما يتسنى لها- يعدّ هدفاً عاماً، يُنظر إليه على أنه استثمار قومي للمستقبل يهدف لتحقيق التقدم على المستويين الاجتماعي والاقتصادي للدولة. ونتيجة لذلك، أصبحت العناية بالذهاب إلى الجامعة أمراً مألوفاً بالنسبة للشباب الذين كانوا يجدون أنفسهم يدرسون وسط خضم كبير من الشباب والفتيات. ففي العديد من الفصول الدراسية في سايغون، كان مدرج المحاضرات يكتظ على نحو مفرط في مستهل السبعينيات، حتى إن الأمر استدعى وضع شاشة تلفزيونية، ونظام مضخم للصوت، لإذاعة المحاضرة للطلبة الجالسين بالخارج. وتصديقاً للمقولة السالفة الذكر التي تتحدث عن الشيطان، والشبح، والطالب، كان بعض هؤلاء الطلبة يسلي نفسه عن طريق إطلاق الصرخات الاستهزائية نحو المحاضر، في محاولة لاستثارة رد فعله أثناء تسليط الكاميرا عليه.

وبالمناسبة، فإن مظاهرات الطلبة والشباب كانت مظهراً من مظاهر الحياة المتكررة

خلال سنوات الحرب، ولاسيما في سايغون، حيث شكّلت الجماعات البوذية معظم المقاتلين. وقد كان ذلك بمثابة استمرار للدور الرائد الذي لعبه الكهنة البوذيون في مناهضة «نجو دنه ديم» (Ngo Dinh Diem)، أول رئيس لفيتنام الجنوبية، من 1955 حتى اغتياله على أيدي قادته في 1963. وبعد هذا الاغتيال، قام خلفاء نجو بدعم عملية التسييس المستمر للطلبة البوذيين بشكل غير مباشر حتى عام 1966 (انقسمت الكنيسة البوذية الموحدة بفيتنام في هذا العام إلى شطرين هما: المتشدد «آن شوانغ» (An Chuang)، والمعتدل «كوك تو» (Quoc Tu)). وفي هذا العام، بدأ نظام الرئيس «ثو» (Thieu) في محاباة المعتدلين بشكل علني، مما أدى إلى تصاعد وطيس الصراع القائم أصلاً.

وبلغ احتجاج الطلبة أوجه في مايو 1970. مع العلم أنه لاحت في الأفق توترات ازدادت حدتها منذ مارس من العام نفسه، حين ألقي القبض على أحد قادة الطلبة في سايغون بتهمة أنه عميل شيوعي، ثم توالت بعد ذلك عمليات اعتقال الطلبة على نحو سريع، وتقديمهم للمثول أمام محاكم عسكرية أكثر منها مدنية. إضافة إلى أنه في نهاية أبريل، أُعلن أن القوات الأمريكية والقوات الفيتنامية الجنوبية قد اتخذت من «كمبوتشيا» (Kampuchea) المجاورة ساحة للحرب. كما أن الطوائف الدينية المتناحرة قد دخلت– في غمرة تلك التطورات– في حروب فيما بينها. وكان ذلك قد بدأ يوم الأحد 3 مارس حين قام 200 من رهبان «آن شوانغ» وأتباعهم بمداهمة المعبد الرئيس للكوك تو، الواقع على بعد ميل من المعقل الرئيس لهم. فرد المعتدلون– بعد مرور يومين– بهجوم مضاد قبيل الفجر، لاسترداد المقر. وقد شارك في هذه المعركة 1300 شخص– على الأقل– روي أن نحو عشرة منهم لقوا حتفهم، في حين أصيب 18 بإصابات بالغة. وقد تزامن مع حدوث ذلك، قيام 200 من طلبة جامعة فان هانه البوذية في 4 مايو (اليوم نفسه الذي أطلق فيه الحرس الوطني النار على أربعة من المعارضين للحرب في جامعة أوهيو الحكومية) بمعارضة الحظر المفروض على التظاهرات، عن طريق عرقلة حركة المرور في وسط المدينة، وتنظيم الاعتصامات، من أجل المطالبة بسلام ترعاه جمعية وطنية. وكالمعتاد، كان تفريق الشرطة لجموع المتظاهرين باستخدام الغاز المسيل للدموع هو الرد. وفي هذه الحادثة، ألقي القبض على نصف الطلبة. وقد افترض الطلبة أن الشرطة ستستخدم أسلوب التعذيب بمجرد القبض عليهم، وذلك بغرض إجبارهم على الاعتراف بأنهم مناصرون

للقوات المقاتلة الشيوعية («فيتكونغ») بفيتنام الجنوبية. ومن جهتها، قامت الحكومة- على الفور- بإغلاق كافة المدارس في سايغون، في أعقاب مايو 1970، وكلفت الشرطة بملاحقة الشباب، خاصة من يركبون دراجات بخارية. وفي الحقيقة، يعتبر الاضطراب الذي نشأ عن عمليات غلق الشرطة المتكررة للطرق، من أجل فحص مستندات الهوية، أحد الذكريات التي ما زالت حاضرة بقوة في ذاكرة من كانوا طلبة في السبعينيات.

جدير بالذكر أن الأعمال المتطرفة التي قام بها الطلبة والشباب بفيتنام الجنوبية في الستينيات لم تكن تقترن بشكل مباشر بالحركات الطلابية العالمية، التي اندلعت في باريس في 1968، والتي سرعان ما انتشرت حتى طوكيو. وقد كانت تلك الحركات تناهض الاتجاهات العامة لحكوماتها، مثل: جمود الأنظمة التعليمية، وسطوة التجارة واسعة النطاق، والبيروقراطية الراسخة، والمهاترات التي مارستها الحكومات والقوات العسكرية فيما يخص تورطها في الحرب الباردة، في ظل ما كان يُعرف بمصطلح «ضمان الدمار المتبادل»[42] (M.A.D) في حال نشوب حرب نووية. ولا ريب في أن الصراع بالنسبة للطلبة الموجودين خارج فيتنام لم يكن إلا أحد منغصات الحياة. أما بالنسبة للطلبة الفيتناميين، فقد مثّلت الحرب الحقيقة الوحيدة التي عرفها الطلبة في فيتنام الجنوبية، لذا ألزموا أنفسهم على نحو غير مشروط بالحصول على الحرية التامة. ومع أن ذلك جاء متوافقاً- بالمعنى العام- مع ما ينادي به العديد من الشباب الذين يتمتعون بوعي سياسي عبر العالم في أواخر الستينيات، فإن غضب الشباب الفيتناميين كان منصباً بالأساس على ما يرونه شمولية شيوعية. وعليه، فإنهم على الرغم من معارضتهم لاتساع رقعة الحرب، وممارسة الحكومة لأعمال القمع في الوطن، لم يسعوا خلف إسقاط النظام السياسي، أو مساندة القوات المقاتلة الشيوعية («فيتكونغ»).

وعلى مستوى السلوك الشخصي، بخلاف التطرف السياسي، شارك الشباب في فيتنام الجنوبية بالاتجاه العالمي في أواخر الستينيات نحو أسلوب حياة الهيبي، الذي تركز حول الانسحاب من الحياة في العالم المتمدن، الرأسمالي، المادي. وكان مبدأ «قوة الزهور» الهيبي يتمثل في الاستمتاع بالطبيعة وتحرير الأحاسيس ونبذ العدوانية بين بني

(42) مبدأ في العقيدة العسكرية يشير إلى استخدام طرفين أو أكثر للقوة النووية بشكل موسع في وجه الآخر مما ينتج عنه دمار جميع الأطراف، وهو جزء من نظرية الردع.

البشر، ونبذ الطابع الرسمي للمؤسسات، والاحتفاء بمناقب السلام، وما إلى ذلك من أشياء يمكن اختزالها- تقريباً- في شعارهم المعروف: «مارس الحب، لا الحرب». وفي العديد من النواحي، كانت فلسفتهم مشابهة لتلك التي كان يتبناها الفوضيون اليوتوبيون في القرن الثامن عشر. ونتيجة التأثر بالمجلات والأفلام المستوردة، بدأ بعض الشباب في فيتنام الجنوبية في إطلاق شعرهم، باعتبار ذلك علامة على الخروج عن الأنماط الثابتة الخاصة بسلوك كل جنس. وقد استحضر نجويان كي دو- وهو رجل كان لا يزال طالباً في مطلع السبعينيات- في سيرته الذاتية واقعة اعتقاله لمجرد إطالته شعره إلى الحد الذي وصل فيه إلى ياقته، إذ كان ذلك يعد جريمة، لأنه يمثل عدم احترام للعسكرية (كان كل الرجال في العسكرية يقومون بتقصير شعورهم). ومن ناحية أخرى، بدأ بعض الشباب في تقلّد رموز السلام- أو السبح- تماشياً مع الموضه الهندية، أو حتى لأغراض روحية. وقد أشار مدرس سابق إلى ولع الطلبة في المدارس الثانوية، وفي الجامعات على وجه الخصوص، بموضة النظارات الشمسية المزينة بملصقات الزهور، وامتناعهم عن إزالة هذه النظارات حتى داخل أروقة الدراسة.

أما المرأة الفيتنامية في المدن فقد بدأت في ارتداء التنانير القصيرة في أواخر الستينيات، باعتبار ذلك مظهراً من مظاهر التمرد. وقد ظهر هذا التمرد بدرجة واضحة عند الفتيات اللائي بدأن يقبلن تشابك الأيدي علانية، أو الذهاب إلى حمامات السباحة، مع أن ذلك كان- من بين أشياء أخرى- يعتبر سلوكاً غير لائق بالنسبة لمرأة صغيرة السن في بداية العقد. وقد كان المكان الوحيد- في بعض المدن- الذي يمكن فيه لطفل مراهق أن يقترب من فتاة يتمثل في الواقع في أحد الجسور المحلية التي يجتمع عليها مجموعة من الناس في ليلة صيف حارة بغية التبرد بفعل المياه (وكان من المعتاد أن يتبع الولد إحدى الفتيات في طريقها إلى البيت، ويقوم بإطلاق تعليقات عليها، أو يصيح بطريقة لا يمكن وصفها إلا بأنها نوع من أنواع الدعاية المتجرئة. وفي حالة عودة تلك الفتاة إلى الجسر في الليلة التالية، يعلم الولد بذلك أن الفرصة متاحة أمامه كي يتعرف عليها بشكل أفضل).

وقد أوضح لين يوتانج (Lin Yutang)، أحد الكتاب والمحللين البارزين في الصين في منتصف القرن العشرين، أن غرض الصينيين من ارتداء الثياب كان الستر، في حين أن الغرض من ارتدائه في دول الغرب كان التعري. ولا شك أن هذا الكلام ينطبق على

تلك التنانير القصيرة التي بدأت تروق للمرأة الفيتنامية. وإن كانت هناك أشكال أخرى من الثياب الغربية راحت تروق- أيضاً- لتلك المرأة. وكان من بين ضروب الموضة التي تفضلها فتيات مدينة سايغون في يوم زواجهن- في فترة السبعينيات- ارتداء الحجاب الغربي مع الثياب التقليدية، أو ما كان يطلق عليه اسم «أو داي» (ao dai) وهو عبارة عن فستان ضيق، يُلبس فوق البنطال، ويكون لونه أحمر، وهو رمز للحظ السعيد عند العرائس. وعلى عكس ذلك، ظلت العرائس في مدينة هيو- الأكثر تحفظاً- يرتدين الثياب وأغطية الرأس المعتادة لدى النساء.

وقد مال الشباب- في بداية عقد السبعينيات- إلى ارتداء موضة القلادات الضخمة التي كانت منتشرة في الغرب آنذاك، تقليداً للأُطقم التي كان يرتديها ألفيس بريسلي على المسرح، إضافة إلى بناطيل واسعة الأرجل، ضيقة عند الخاصرة (وصفها أحد التلاميذ السابقين بأنها كانت ضيقة جداً، لدرجة أن من يلبسها لا يستطيع وضع محفظة في جيوبها). وتدريجياً، اتسعت بناطيل النساء هي الأخرى، في حين أصبح الـ «أو داي» أقصر مما كان عليه بشكل يسير. وهكذا كان الشباب والشابات الفيتناميون في مدينة سايغون، وفي مدن أخرى، يغيرون- بعد ذلك في أثناء الحرب- من الطريقة التي يراهم الناس بها، ويرى بها كل منهما الآخر.

وعندما أنهى الشباب الجامعة، سعى المتفوقون منهم إلى أن يصبحوا مسؤولين حكوميين أو مهندسين أو مدرسين. وقد كانت الساحة السياسية تهمين عليها- ربما بشكل حتمي بسبب الحرب- الشخصيات العسكرية، وكان العمل في الحقل السياسي بالنسبة للمرأة على وجه الخصوص شيئاً نادراً. ففي عام 1968، أصبحت تران كيم ثاو، الأرملة البالغة من العمر خمسة وأربعين عاماً، السيدة الثالثة التي تُنتخب عضواً في المجلس الأدنى الفيتنامي الجنوبي البالغ عدد أعضائه 136 عضواً (وقد كانت مالكة لمكتب طباعة، تتمتع بخبرة سنوات عديدة من العمل في غرفة تجارة مدينة سايغون. أما السيدتان الأخريان اللتان انتخبتا لعضوية البرلمان، فإحداهما صحفية، والأخرى أرملة لأحد جنرالات الجيش). ولم تكن مهنة المحاماة منتشرة بين الشباب، فكان السائد بين طلبة الجامعة أنه من السهل دخول مجال القانون، بيد أنه من غير الممكن- واقعياً- التكيف معه، لأن العمل فيه مرهق وشاق جداً.

وكان مجال الطب بالنسبة للطلبة الراغبين في قضاء سنوات أطول في التعليم خياراً مفضلاً. وفي عقد الستينيات، بدأت الفتيات أيضاً– بشكل تدريجي– يطمحن إلى العمل في المجال الطبي، خاصة أنه كان من آثار الحرب زيادة الحاجة إلى توظيف ممرضات. وإضافة إلى ذلك، كان أكثر القطاعات نمواً في نشاطها في ذلك الحين الصيدليات التي تُطبق النمط الغربي (فقد أُنشِئت شركات أدوية فرنسية في فيتنام، هيمنت على سوق الأدوية الطبية). وفي فيتنام الجنوبية، وكذلك في مختلف أنحاء آسيا الرأسمالية، كانت جراحة التجميل بالنسبة للنساء تتزايد باستمرار، وغالباً ما تركّزت على تغيير شكل الجفون، لإعطاء شكل مستدير، وهو ما كان موضة «غربية». لكن ممارسي الطب كانت تختلف سمعتهم من ممارس لآخر. ففي عام 1968، كان هناك اقتراح بتوظيف زهاء 1,000 طبيب من كوريا الجنوبية، وذلك في إطار الالتزام واسع النطاق لكوريا الجنوبية تجاه فيتنام، الذي شمل أيضاً إرسال قوات برية إليها، بغرض منع الشيوعية من تحقيق مكاسب جديدة في آسيا. لكن إمكانية حدوث هذه المنافسة الأجنبية أقلقت الأطباء الفيتناميين، المعروفين– لدى العامة أو غيرهم– بـ «الجزارين»، أو بعبارة أخرى: الذين يُنظر إليهم على أنهم يتسمون بالطمع والجشع، فكأنهم يقطعون محفظات وجيوب المرضى الذين يعالجونهم، عن طريق تحصيل أتعاب باهظة منهم. وفي الواقع، كان من الطبيعي بين مواطني فيتنام الجنوبية عدم استدعاء الطبيب ما لم يكن الشخص مريضاً بدرجة خطيرة. أما غير ذلك من الأوجاع، فكانوا يتعاملون معها من خلال الذهاب إلى الصيدليات، أو تناول أدوية تقليدية.

وبالنسبة للشباب والشابات في عقد الستينيات، كانت فرص الحصول على أوقات للراحة محدودة. ففي الجامعة، كان طلبة السنة الأولى يأخذهم نظراؤهم من أيديهم، ويعلمونهم إحدى المهارات الاجتماعية الرئيسة، ألا وهي الرقص في القاعات المخصصة لذلك. ويحكي لنا أحد الطلبة الذي أتى إلى مدينة سايغون قادماً من مقاطعة «لونغ كسوين» (Long Xuyen) في عام 1971 أنهم قالوا له عندما أتى إلى الجامعة إن السبب الذي من أجله يدرس رقصة التشاتشاتشا (cha–cha–cha) ورقصة الرومبا (Rumba)، وحتى رقصة التانجو (Tango)، هو أنه سيتمكن من خلالها– أثناء سنوات الدراسة بالجامعة– من تجنب الملل والوحدة، اللتين قد تدفعانه لشرب الكحول أو الوقوع في الاضطرابات

الاجتماعية الأخرى.

وفي العادة، كان المراهقون والطلبة يتجمعون في المحلات، لشراء المشروبات الخفيفة، بدلاً من الجلوس في المقاهي (لكونها أماكن مخصصة لمن هم أكبر سناً). وفي أشهر الصيف على وجه الخصوص، كانت مجموعات الأصحاب تتجمع لشرب التشي، وهو توليفة من الفول الأحمر حلو الطعم ولبن بجوز الهند ومثلجات. وكانت هذه المحلات مفتوحة تزاول عملها حتى الساعة العاشرة مساء، ويستعمل بعضها موسيقا خلفية. كما انتشرت الأماكن المخصصة لتناول المثلجات، ولمنع ذوبانه، كان يوضع في كوب زجاجي، أو في قطعة بسكوت مخروطية الشكل. وكان «الفور سيزون» هو أكثر أنواع المثلجات شعبية لدى المواطنين، وهو عبارة عن مزيج من نكهة الشيكولاتة والفانيليا والأناناس والفراولة.

وبالنسبة لأولئك الواقعين في الغرام أو المغرمين بالموسيقا، كان المكان المناسب لهم هو صالات الشاي (كان من الطبيعي بالنسبة لتلك المنشآت أن تستخدم المصطلح الفرنسي «صالون الشاي»). وقد كانت تلك الصالات عبارة عن نوادٍ صغيرة يمكن فيها للشخص أن يشرب الجعة، أو مشروب «كوكا كولا» الشهير، أو يرقص في قاعات الرقص، أو يستمع إلى أحد المغنين، أو إحدى الفرق. وكانت أشهر صالتي شاي في مدينة سايغون هما «أو باكارا» (Au Baccara) و«كوين بي» (Queen Bee). أما صالة «أو باكارا»، فافتتحت بعد الحرب العالمية الثانية من أجل الجنود الفرنسيين، فغلب عليها الطابع الفرنسي. وتردد عليها في عقد الستينيات- وأوائل السبعينيات- المتزوجون حديثاً، بسبب وقوعها بعيداً عن الشوارع الرئيسة ويحيط بها جو رومانسي هادئ. وكانت تشير إعلاناتها في شهر مايو 1970 إلى أن عملاءها سيستمعون إلى الفرقة الشعبية المكونة من مغنيات شابات يعرفن باسم «كاتس تريو»، واستعراض تقدمه فرقة «بينك كلاودس»، وفرقة كوميدية تتبع أسلوب السخرية من الذات اسمها «نينكومبوب» (كان أعضاؤها ماي هانج، وكيم فونج، وبروسبر ثانج). وقد كان العرض المسائي يبدأ في السابعة والنصف وينتهي في الحادية عشرة والنصف.

أما صالة كوين بي، فافتتحت في منتصف الستينيات، في شقة في الطابق الثاني، في قلب مدينة سايغون. وكانت تعتبر مكاناً للاستماع إلى المغنية «خان لي»، التي تمتّعت بواحد

من أفضل الأصوات في الأغنية الشعبية في فيتنام الجنوبية في تلك الآونة، فقد كانت تقوم بتنظيم الحفلات، بينما يتولى جو مارسيل- ذو الجنسيتين الفرنسية والفيتنامية- الأمور التجارية. وعموماً، روّجت صالة كوين بي لنفسها على أنها مكان للاستماع إلى «الأصوات الشابة» التي تشدو بالأغاني الجذابة التي تروق للعشاق (جدير بالذكر أن هذه العبارة- الأصوات الشابة- شاعت في أواخر عقد الستينيات، ومطلع عقد السبعينيات، وقد كان هذا يعتبر تأكيداً صريحاً على بزوغ فجر جيل جديد له موسيقاه التي يتميز بها). وكان اسم الفرقة الموجودة في كوين بي «شوتجانز». ومن بين المؤدين فيها إلفيس فوانج، المشهور بعذوبة صوته- في أغانيه باللغة الفرنسية على وجه الخصوص- وبتقليده لألفيس بريسلي في تعبيرات وجهه. كما كانت فرقة «بينك كلاودس» تؤدي عروضها



هناك، وكذلك في «أو باكارا».

ومن التغييرات التي طرأت على حياة الليل وقضاء أوقات الترفيه في مدينة سايغون في عقد الستينيات، ظهور الأذواق والأصوات الأجنبية. وعلى الرغم من بقاء الثقافة الفرنسية بارزة– من حيث اللغة، والأدب وصناعة الأفلام والموسيقا– فإن ظهور الثقافتين اليابانية والكورية قد تزايد بشكل واضح منذ منتصف عقد الستينيات في مدينة سايغون على الأقل. فعلى قمة الأنشطة التجارية والترفيهية، تجد المطاعم ذات النكهة اليابانية أو الكورية، وأولئك الاستعراضيين– من أبناء هاتين الثقافتين– الذين يعملون في الحانات. وعلى سبيل المثال، أُعلن في يناير 1970 عن أن «جي جي سونغ»، التي تحمل الجنسية الكورية، ستظهر في حانة «تور ديلفوار» (المشهورة بأكلاتها الفرنسية–الصينية الطهي). ولعل سبب التأثير الياباني يرجع إلى أن الاقتصاد الياباني كان– وقتها– في ازدهار وتوسع في جنوب شرق آسيا (فقد انتشر هناك ما تنتجه اليابان من أجهزة التلفاز والمذياع وآلات التصوير، وبالطبع الدراجات البخارية التي أصبحت سمة بارزة في عقد الستينيات)، وأن كثيراً من القوات الأمريكية في فيتنام قد تعودوا على الأشياء اليابانية في أوقات الراحة والترفيه. أما التأثير الكوري، فربما يرجع سببه– في جزء كبير– إلى وجود قوات كورية في فيتنام. ويعتبر ما يسميه الفيتناميون «المكرونة الكورية» من بين التغييرات التي لوحظت في المأكولات عند مجيء هذه القوات، وهذا الاسم أطلق على أول مكرونة سريعة التحضير تُباع في السوق المحلي. وقد كانت توضع لوحات إعلانية عن هذه المكرونة في مختلف أنحاء فيتنام، وكان ذلك– بالطبع– شيئاً جديداً تماماً. ولعل ما يثير الدهشة إلى حد ما أنها كانت طعام الإفطار!

وقد كانت الإذاعة– آنذاك– المكان الذي يتلقى منه الناس الأخبار، ويستمتعون بالاستماع إليه، وكانت محطة الإذاعة الرئيسة– في مدينة سايغون– يتواصل بثها طوال اليوم. لذا، فمن السمات البارزة في المنازل أجهزة المذياع، ذات الشكل الأسطواني، التي تعدّ جزءاً من أثاث المنزل، وأجهزة الاستقبال أوروبية الصنع، ذات الماركات الشهيرة، مثل: فيليبس، وتليفانكن. ومن أكثر المحطات شهرة كانت تلك المحطات الإذاعية، المحلية، التي تذيع مباريات كرة القدم. ومن بين أهم المعلقين على هذه المباريات كان هوين فو، لاعب كرة القدم الأسبق، المعلق المدهش، الذي كان الناس عندما يستمعون

إليه يشعرون كأنهم بالفعل يسمعون صوت ركل اللاعبين للكرة. وقد كانت هناك فرق كرة قدم للأقاليم، وكذلك للقطاعات المهنية، مثل الجيش والشرطة، وكان الأقوى بينهم فريق مفتشي الجمارك. وبالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون دخول الاستاد الرئيس لمدينة سايغون المسمى «كونغ هوا» (أو تسلق إحدى الأشجار خارج الاستاد)، لمشاهدة المباريات، لم يكن أمامهم سوى الاستماع إلى التعليق على المباريات التي تذاع في المذياع، في عطلات نهاية الأسبوع. ويبدو أن المباريات قد استمرت طوال فترة الحرب، من دون أن تتعرّض الاستادات لأيّ قذائف، على الرغم من احتشاد زهاء 20000 فرد في المباريات الكبرى. ولعل من أهم الأسباب التي دفعت الناس للإقبال على هذه المباريات رغبتهم في الهروب من الإحساس بجو الحرب.

ويعد تران فان تراش (Tran Van Trach) من أشهر نجوم إذاعة فيتنام الجنوبية، وبرامجها الترفيهية، ومن أهم شخصياتها التي لا تنسى. وقد كان قصيراً سميناً، ينسدل شعره فوق كتفيه، يتمتع بطاقة جبارة، ويمتلك مواهب عديدة. فقد كان يكتب أغنياته الخاصة، ويشتهر بقدرته على التقليد الدقيق لأي صوت بشكل طبيعي، وكذلك بمونولوجاته المضحكة، إذ كان يستطيع إيجاد الفكاهة من أبسط الأشياء، حتى لو كانت موقفاً في قطار، أو نباح كلب، أو مشاهدة لأحد المنازل وهو يحترق بينما ينتظر الجميع وصول سيارة الإطفاء. وبشكل خاص، تركزت معظم فكاهاته حول الأزمات العادية التي يتعرض لها الأفراد العاديون. ولعل السبب الأبرز وراء شهرته بين الناس يرجع إلى أنه كان دائماً يدرج قيمة أخلاقية في تعليقاته الهزلية المضحكة.

وكان تران يقدم أيضاً برنامج الإذاعة الذي تُعلَن فيه نتيجة اليانصيب الوطني الأسبوعي. ففي تمام الثالثة عصراً من كل ثلاثاء، كان الكثير من الفيتناميين الجنوبين يستمعون إلى إذاعة اليانصيب الوطني الخاص بعملية إعادة الإعمار التي تتولاها الدولة، لأن هذا اليانصيب كان فيه عاملا جذب، الأول: أنه يحث على المساهمة في إعادة إعمار البلاد، والآخر: أنه يحمل لأحد الأشخاص– على الأقل– بشرى بأن يصبح مليونيراً في الحال (في عام 1973، كانت الجائزة الأولى تبلغ خمسة ملايين دونغ فيتنامي). ويحدث هذا، على الأقل، إذا اشترى شخص تذكرة أصلية بدلاً من واحدة من التذاكر المزيفة الكثيرة التي استطاع حاملوها في بعض الأحيان إقناع السلطات بقبولها على أنها صحيحة. وكان الروتين

الأسبوعي، المتمثل في شراء التذاكر، والانتظار لسماع أغنية اليانصيب الخاصة بتران، ثم سماع النتيجة (وعادة ما كانت تعقبها خيبة أمل مؤكدة)- جزءاً من الحياة بصرف النظر عن الحرب. وفي مدينة توي هانه، كان مشترو التذاكر ينتظرون بنفاد صبر طائرة المساء التي تحمل الصحف من مدينة سايغون، من أجل أن يحصلوا- فقط- على العمود الخاص بقراءة البخت، لمعرفة الأرقام سعيدة الحظ هذا الأسبوع.

وكما هي حال كثير من المجتمعات في عقدي الستينيات والسبعينيات، لعبت الموسيقا المسجلة دوراً متزايداً في الحياة اليومية للمواطنين مع تزايد إقبال الناس على شراء أجهزة المذياع والتسجيل. حتى إن الشباب كانوا يختارون المقاهي وفقاً للتصميم الداخلي الذي يريحهم، ونوع الموسيقا التي تشغلها المقهى. وكانت أنماط التسجيلات الغنائية المتاحة إما مسرحيات غنائية ذات طابع صيني، وإما الأغاني التراثية الشعبية، وإما الأغاني الشعبية الحديثة (فيتنامية وغربية). ومن أشهر المغنيات في الأسلوب الغنائي التقليدي ثاي ثانه، وكانت سيدة في العشرينيات من عمرها، تشدو بأغنيات مضمونها الشوق واللوعة على فقدان الأحبة. أما «ترينه كونغ سون» (Trinch Cong Son)، فأصبح مشهوراً بعد ذلك (أثناء الحرب)، بأغانيه التي ألفها بنفسه مستخدماً جيتاره، وكانت غالباً ما تنطوي على نبرة شجن على ما تركته الحرب من دمار. ومن هذه الأغاني: «نيران المدفعية تجعل الليل هادئاً»، و«غناء على جثث الموتى»، و«قصيدة غنائية لامرأة فقدت عقلها». وكانت تلك الأغنيات تصبح أكثر إثارة للمشاعر عندما تصدر عن صوت أجش أرهقته كثرة تناول المشروبات الكحولية والإفراط في تناول السجائر تميزت به المطربة «خان لي»، التي كانت تعمل في صالة كوين بي (وروجت لنفسها على أنها روح «ترينه كونغ سون»). ولم تتوقف المكانة الرفيعة التي حظي بها ترينش عند حدود فيتنام بل تجاوزتها بكثير، حتى إن جون بياز (Joan Baez)- واحدة من أبرز المغنين الشعبيين في أمريكا في عقد الستينيات- وصفته بأنه «بوب ديلان»[43] (Bob Dylan) الفيتناميين. ولا شك أن مخاوفه وقلقه على ضحايا الحرب هي التي أعطته سمعة بأنه معارض للحرب، ما جعله هدفاً للقمع وللرقابة من جانب قوات الشرطة. لكنه يتضح أنه لم يكن مؤيداً لشمال فيتنام

(43) «بوب ديلان» هو مغن وكاتب أغنيات وشاعر وفنان تشكيلي أمريكي أصبح رمزاً في الوسط الموسيقى الأمريكي على مدار خمسة عقود كاملة، ولد عام 1941.

(فقد وُلد في مقاطعة «دكلوك» وترعرع في مدينة «هيو» العاصمة الإمبراطورية سابقاً)، ولم يكن مؤيداً لأية جماعة تدعم العنف. وقد اختار دوماً العيش في فيتنام حتى عندما فرض الشيوعيون سيطرتهم الكاملة عليها عام 1975، وقضى عقداً من عمره وراء قضبان معسكر شيوعي لإعادة التأهيل.

وحتى أواخر عقد الستينيات، كانت أجهزة التلفاز شيئاً استثنائياً في حياة الناس، ذلك أنها لم تكن توجد- غالباً- إلا في المكاتب الحكومية والعسكرية. وكان من المعتاد أن يجد مَن يملك جهاز تلفاز عدداً كبيراً من جيرانه يحدقون- من خلال النوافذ والشبابيك- للمشاهدة في المساء. وقد كان بث قناة فيتنام الجنوبية في أوائل السبعينيات يبدأ من تمام السادسة مساء حتى منتصف الليل. وكان الجدول اليومي المعتاد يبدأ بعرض للأطفال في تمام السادسة مساء، تليه نشرة الأخبار والبرامج الحكومية في معظم أوقات المساء، ثم- على حسب اليوم- تُقدَّم دراما متلفزة، أو منوعات ترفيهية، يشترك فيها أناس من تران فان تراش. والطريف أنه كان من بين آثار الحرب أن أتيح لكثير من المواطنين شراء أجهزة تلفاز مستعملة من القوات الأمريكية، أو أية قوات عائدة إلى أوطانها. وسرعان ما بدأت أجهزة التلفاز الملون- في مطلع عقد السبعينيات- في منافسة التلفاز الأبيض والأسود القديم.

ويبدو أن الشعب الفيتنامي قد أخذ- غالباً- انطباعاته عن أمريكا والعالم الخارجي من خلال العروض المتلفزة والسنمائية. وقد كان هناك عدد قليل من الأفلام التي تناولت فيتنام الجنوبية في هذه السنوات، وأي فيلم صُوِّر خلال الستينيات، مثل فيلم «نريد أن نعيش»- وهو عبارة عن قصة تحكي هروب الشماليين من القمع- كان مليئاً بالدعاية المناهضة للشيوعية. وفي عام 1973، بلغ عدد دور العرض السينمائية 13 في مدينة سايغون، بما في ذلك سينما «ريكس» التي يرجع تاريخ إنشائها إلى منتصف عقد الستينيات، والتي كانت تعتبر- في الحقبة الأخيرة للسينما- «قصر الأحلام». وقد كانت هذه السينما تقع في وسط المدينة، ويأتيها جمهور بالمئات يقوم على توجيههم إلى مقاعدهم مرشدون- من الذكور والإناث- يرتدون زياً موحداً. ومن أجل متعة الأطفال والكبار على السواء، كان هناك باعة يبيعون الإسكتيمو (وهو الإسكيمو)، أحد أشهر أنواع المثلجات هناك. ولعلّ من زار «ريكس» يتذكر أنه بمجرد أن تضاء علامة «ممنوع التدخين»، يبحث كل الرجال

عن سيجارة! ومع سيادة الاتجاه العالمي في السبعينيات نحو دور السينما التي تحتوي على أكثر من شاشة عرض (على الرغم من أن هذه الشاشات كانت أصغر حجماً، وأقل تأثيراً)، أنشئت– بحلول عام 1973– سينما ريكس الصغيرة (أ)، وسينما ريكس الصغيرة (ب).

ولعل الشباب– على وجه الخصوص– اعتبروا السينما مكاناً للراحة من متاعب المجتمع، حيث كان الطلبة يشترون تذكرة ليوم كامل، ويقضون عدة ساعات في مشاهدة إعادة لنفس البرنامج الذي شاهدوه من قبل. وقد كانت معظم الأفلام صناعة صينية، وكانت بها بعض العناوين الفرعية باللغة الفيتنامية أو الإنجليزية أو الفرنسية. أما الأفلام الآتية من الغرب–بما فيها الأفلام التي يلعب دور البطولة فيها جون واين، أحد أشهر أبطال أفلام رعاة البقر– فقد كانت باللغة الفرنسية. كما كانت الفنون العسكرية لهونغ كونغ هي النمط السائد بشكل أكبر بين الشباب، وهذا أمر صحيح– أيضاً– على المستويات الشعبية. وقد تمثلت الأعمال الرئيسة، التي كانت تنشر في بادئ الأمر في الصحف، ثم أصبحت تباع لاحقاً في كتب ورقية، في مغامرات الكونغ فو للمؤلف الصيني لويس تشا.

وكان للمجتمع المتساهل وجود في دور العرض السينمائية وروايات فيتنام الجنوبية في سبعينيات القرن الماضي، على الرغم من انتشار تحديات قانونية في مطلع الستينيات في أوروبا والولايات المتحدة التي حضت على استمرار الرقابة على الإنتاج الثقافي الذي يتعامل مع الموضوعات الخاصة بالكبار، ومنها استخدام اللغة السوقية ووصف العنف ومناقشة المسائل الجنسية. لذلك ظهرت أبرز التغييرات الانقلابية فيما يعدّ العصر الذهبي لليبرالية في المجاهرة بالأمور الجنسية. فبدأ بعض الكُتاب الفيتناميين، كنظرائهم في أنحاء العالم، يعلقون بشكل أكثر علانية على الموضوعات المرتبطة بالجنس والرغبة. وكما سمحت الحريات القانونية الجديدة في أوروبا وأمريكا بعرض مجموعة كبيرة من الأفلام التي تتضمن مشاهد إباحية في ضواحي «سوهو» في لندن أو ميدان تايمز في نيويورك (برر المنتجون ذلك بأن الهدف من هذه الأفلام تعليمي على أقل تقدير)، كان بعض الكُتاب الشباب في مدينة سايغون يفتخر بعرض هذه الأفلام في الوقت عينه في سينما ريكس والسينمات الأخرى. ومن أمثلة تلك الأفلام التي لاقت رواجاً كبيراً في

عقد السبعينيات فيلم «إنجريد»، الذي أُعلن عنه على أنه «إنتاج ضخم تحت رعاية وزارة الصحة بجمهورية ألمانيا الاتحادية». وفي حوار مع مجموعة من الأطباء البارزين، أصرّت الوزارة على أن الهدف الوحيد من الفيلم هو مكافحة الجهل ومساعدة الشباب في فهم الحب. ومعلوم أنه من وجهات النظر الراسخة في الفلسفة الليبرالية تلك التي ترى أن الإباحية والتسامح يظهران قوة المجتمع المنفتح على خلاف أجواء السيطرة والتحكم اللتين تميلان الأنظمة الشيوعية والمحافظة إلى تفضيلهما. ويتضح هنا وجود دعم من قادة الحكومة في فيتنام الجنوبية أثناء الحرب لتبني بعض الإجراءات والتدابير الليبرالية. وما يدعو للسخرية هنا أن الجنود الأمريكيين كان يشاهدون الأفلام الإباحية في مدينة سايغون، في حين لا يمكنهم مشاهدتها في بعض الولايات الأمريكية في وطنهم الأم.

وبالنسبة للأفلام الأمريكية التي كانت تعرض– آنذاك– في فيتنام، نجد أنها كانت– في الغالب– قديمة ترجع لعقد سالف، أو عقدين. ففي الستينيات، تدفقت صور رعاة البقر الأمريكيين، وكان الشباب يفضلون راندولف سكوت، النجم الأعظم في الخمسينيات. ومن الأفلام الأخرى التي كان لها تأثير في ذلك الوقت– إلى جانب أفلام رعاة البقر– فيلما «ذهب مع الريح»، و«بن هير». وبالتالي كانت صورة أمريكا، سواء فيما يتعلق بدراما الجنوب أو «أوبرا رعاة البقر» أو الملاحم، قديمة بالنسبة للفيتناميين حين رأوها بالفعل. وقد عززت البرامج المتلفزة التي نفذتها القوات الأمريكية، والتي كانت متاحة على شبكة القوات الأمريكية، هذه الصورة المحافظة إلى حد كبير، والخيالية– أيضاً– للحياة الأمريكية (فهي في حد ذاتها وسيلة شديدة التحفظ). وقد كان الهدف من هذه الأفلام أن تقدم أنواعاً من الكوميديا والرومانسية المناسبة للطبقة المتوسطة، لكن ذلك لم يمنع بعض الجمهور الفيتنامي البسيط من الاطلاع على تلك الثقافة الأمريكية. وفي مطلع السبعينيات، عُرض الفيلم الرائع «إيزي رايدر» لدينيس هوبر في مدينة سايغون، لكن الطلبة الذين شاهدوه في ذلك الوقت شعروا بالاستياء منه، فقد توقعوا مشاهدة فيلم أمريكي من أفلام الحركة، وجلسوا طوال العرض منتظرين بدء المسدسات والمطاردات! وهم معذورون بالطبع، لأنه لم تكن لديهم المعارف الكافية لفهم الأفكار الأمريكية المتعلقة بالفضاء والحرية، التي يمثلها الطريق المفتوح، إذ أن شعورهم بالفضاء والحرية قصرته الحرب على شارع المدينة التي يعيشون فيها. وبالنسبة للقوات الأمريكية في مدينة

سايغون، كانت هناك دار عرض سينمائية بالقرب من صالة أو باكارا، اقتصر استخدامها عليهم، دون السماح للجمهور الفيتنامي بدخولها. وقد جعل ذلك- بالطبع- هذه الدار هدفاً واضحاً لقوات «فيتكونغ»، التي خططت لزرع قنبلة داخلها- على الأقل- في إحدى المناسبات. وقد كانت هناك محاولة أخرى- في مطلع السبعينيات- لنسف سينما «ريكس»، أكبر سينما في مدينة سايغون. ففي مساء يوم من أيام الأحد، عُثر على حقيبة إحدى السيدات- في نهاية العرض المسائي- ووجد أنها تحتوي على كيلوجرام- تقريباً- من المتفجرات البلاستيكية التي أرفقت بها ساعة مؤقتة. مع مراعاة أن مثل هذه المحاولة لنسف مكان ترعاه حكومة فيتنام بشكل كامل كان شيئاً نادراً.

وقد كان أمراً عادياً- في ذلك الوقت- أن ترى أمريكيين بشكل مستمر في مدينة سايغون، وحول القواعد الأمريكية. وبسبب أن هؤلاء الأمريكيين كانوا- غالباً- من الجنود الشباب، وكذلك بسبب الفجوة في اللغة، كان من الطبيعي بالنسبة للفيتناميين- بخلاف بنات الحانات والقوادين وبائعي المخدرات- أن يتجنبوا الاتصال المباشر بهم. وفي مدينة بالقرب من القاعدة الأمريكية الرئيسة، كان من المعتاد أن يأتي الجنود الأمريكيون والكوريون الجنوبيون كلهم- بين الساعة الرابعة والسابعة مساء- إلى المطاعم والحانات. كما كانت هناك أيضاً شاحنة تابعة للقوات الأمريكية، تعمل باعتبارها مكتباً متنقلاً يقوم بتغيير العملة خضراء الظهر، التي تتداولها القوات الأمريكية، إلى ما يُعرف بـ «الدولارات الحمراء». وحتى بعد عام 1970، عندما بدأت الحكومة الأمريكية- في ظل ما كان يُعرف بـ «نظرية نيكسون»- في خفض قواتها في فيتنام (إذ خُفِّض عدد القوات من 500,000 إلى 140,000 بنهاية عام 1971)، كانت لا تزال مدينة سايغون- على الأقل- مزدحمة بالأمريكيين.

وغالباً ما كان الشباب الفيتنامي يحقد على الأمريكيين، وعلى كثير مما رأوا أنه يمت بصلة وثيقة للثقافة الأمريكية (كان هذا الشعور نفسه سائداً بين الشباب الياباني، في الخمسينيات على وجه الخصوص). فقد قلد شباب فيتنام الأسلوب الأمريكي في الموضة والموسيقا، وحاولوا إظهار أنهم يسايرون هذه الموضة، من خلال تناول سجائر أمريكية (كان المنتج المحلي عبارة عن خليط خام من التبغ وأوراق الببو)، ويحلمون بركوب سيارة أمريكية، ويشتاقون إلى الثروة الأمريكية، وتكنولوجيا القوات العسكرية الأمريكية،

والمجتمع الأمريكي. ومن الطريف أن السيدات اللاتي كن يعملن في القواعد الأمريكية عاملات نظافة- أو لكيّ ملابس القوات الأمريكية- كن يحصلن على أجور أعلى من تلك التي يحصل عليها مسؤولو الحكومة في فيتنام. ولعل ذلك يكشف سر اكتظاظ السوق السوداء في فيتنام بالبضائع الآتية من الإمدادات المملوكة للقوات الأمريكية.

وعلى الرغم من تزايد سيطرة المصالح الأمريكية على الاقتصاد في فيتنام الجنوبية في الستينيات، فإن التأثير الثقافي الفرنسي ظل ملحوظاً. ويبدو أنه حتى إن كان الاستعمار الفرنسي قد هُزم في حرب عام 1950-1954، فإن ذلك لم يمنع كون كثير من المفكرين الفيتناميين قد تربوا ونشأوا على معرفة باللغة الفرنسية، وتقدير للأدب والموسيقا والقيم الفرنسية (وليس فقط للأفكار الخاصة بالحرية والأخوة). وبالتالي كان هناك الكثير من الرجال، من متوسطي وكبار السن، الذين يشجعون الأطفال والطلبة على تعلم اللغة الفرنسية. وفي مدينة سايغون، كانت هناك مدرستان من مدارس النخبة، ذات المستوى الرفيع، لا تزال تسيطر عليهما الحكومة الفرنسية، التي وفرت معظم طاقم التدريس لهما، وهما: مدرسة جان جاك روسو، ومدرسة ماري كوري. وكان من الأقوال الشائعة عن النجاح، وتحقيق طموحات الإنسان، في ذلك الوقت: «تناول الأطعمة الصينية، وعش في بيت فرنسي، وقُد سيارة أمريكية، وتزوج يابانية». وقد كان هناك جمهور دائم للسينما الفرنسية، ولعل ذلك يرجع للموجة الجديدة التي برزت في الخمسينيات والستينيات، وكذلك للموسيقا الفرنسية (وفي الغالب، كانت الجعة الشائع تناولها بين الشباب من صنف يُسمى (بيير 33)، التي تُصنّع في مدينة سايغون، وتُصدّر إلى الخارج). وهذا يوحي بأن النخب في فيتنام الجنوبية- أثناء الستينيات والسبعينيات- لم ترفض التأثير الفرنسي، واعتبرته حرية ثقافية، بل جزءاً من مفهوم العالمية (اللاقومية) الخاص بهم، غير القابل للنقاش.

ومن التغيرات التي طرأت على الحياة اليومية مباشرة بعد هجوم تيت ظهور أول سوق مركزية في فيتنام الجنوبية، وكان اسمها «نجوين دو»، ويقع في مدينة سايغون. وقد كان يرعى هذه السوق أحد رجال الأعمال المحليين، وهو السيد نجوين كاو كي، ذو الشخصية الجذابة، الذي كان نائباً لرئيس الجمهورية، ونائباً لقائد القوات الجوية سابقاً. وكان أول ملحق إخباري للسوق المركزية صحفي من إذاعة مدينة سايغون، ذكر- في عام 2006- أن

المشروع واجه معارضة في البداية، لأنه لم تكن هناك سوى بضاعة قليلة، وأكد أنه كان على وشك قضاء الخدمة العسكرية قبل أن يتمكن من العمل في ترويج هذا المفهوم الجديد إلى الجمهور. وقد ظل ذلك السوق المركزي- على الرغم من الصعاب التي واجهته- يؤدي عمله حتى عام 1975، ثم انضم إليه آخرون بعد ذلك تدريجياً. ومما يعلق بذاكرة سكان سايغون أن تلك الأسواق المركزية هي التي أوحت لهم بالفكرة المبتكرة الخاصة بالطعام المجمد. وقد كان ذلك تحدياً جوهرياً أمام الممارسات التقليدية، فقد كان الذهاب كثيراً إلى السوق لشراء طعام طازج هو ما تقوم به الزوجات في الصباح بشكل معتاد. لكن حالت حقيقة أن الثلاجات كانت لا تزال إحدى أدوات الرفاهية دون التحول نحو اللجوء إلى الطعام المجمد، وكان من بين الحلول التي توصلت إليها بعض البيوت حفر عين صغيرة في حديقة المنزل، ثم ملؤها بالمياه الباردة، ثم وضع الطعام فيها- بعد إدخاله في حقائب- للحفاظ عليه طازجاً.

وجدير بالملاحظة أن أسلوب التسوق الأمريكي كان جديداً ومتقلباً (انظر فيلم التجسس البريطاني الذي أُنتج في الستينيات تحت عنوان: «ملف ابريس»، للتعرف على ردود الأفعال في إنجلترا إثر ظهور محلات السوبر ماركت). فقد كان النمط الأكثر شيوعاً في أنحاء آسيا تُجسده منطقة الحي القديم في مدينة هانوي، المعروفة- على المستوى المحلي-بمنطقة «الـ 36». حيث كان يوجد بها شوارع كل منها مخصص لبيع منتج واحد، مثل: شارع الأسرة وشارع الأحذية وشارع المراوح، حتى إنه كان يوجد شارع لا يتعامل إلا في أوراق قداس الجنازات. وعلى النقيض، كانت فكرة السوبر ماركت تتمحور حول الملاءمة والسرعة والتركيز على عرض البضائع والخدمات وتقليل الاتصال البشري المباشر إلى أقصى حد.

وإضافة إلى السوبر ماركت، ظهر لأول مرة شكل حديث من أشكال التسوق- وهو المول أو المركز التجاري- في سايغون في أواخر الستينيات. وكان الاسم المستخدم له في ذلك الوقت هو «ساحة التسوق»، حيث أنشئت ثلاث ساحات قبل انهيار فيتنام الجنوبية (وقيل إنه كان هناك مبنى إسمنتي واحد في الدولة، إذ ظلّ التشييد المدني محدوداً بشكل عام بسبب نقص الإمدادات). وكانت إحدى هذه الساحات تسمى «إدن»، وقد تكونت في الغالب من طابقين، لكنها كانت مليئة بالمحال والمرافق من قبيل الاستراحات.

وباستثناء «هجوم تيت» عام 1968، لم تؤثر الحرب بشكل كبير على الحياة اليومية في المدن. لكن كانت هناك لحظات اندلعت فيها أعمال العنف المرتبطة بالحرب. ومع ذلك، كان هذا العنف عبارة عن تفجير قنابل تستهدف مسؤولي السلطة في نظام الحكم في فيتنام الجنوبية، أو إطلاق النار عليهم، أو إطلاق قذائف الهاون داخل المدينة، بما يسبب قدراً أكبر من الاضطراب. وعندما كان يحدث ذلك، لم تكن هناك أية ضمانات لأي فرد بأن يكون آمناً- سواء في منزله أو مكتبه أو مدرسته. ومع ذلك، لم يتوقع الناس العاديون الموت أو التعرض للأذى إن خرجوا من بيوتهم أو ذهبوا إلى التسوق أو دور السينما. وكان التأثير الأبرز للحرب على معظم المدنين هو تأثير اقتصادي بامتياز.

فقد زاد التضخم بالنسبة للطبقات الوسطى، والطبقات العاملة، عن 20٪ في عام 1968. وعلاوة على ذلك، أدى ظهور السوق السوداء- التي تغذيها البضائع الأمريكية المتحصل عليها من معسكرات الجيش، مثل: الأطعمة المعلبة ومنتجات النظافة- إلى ظهور طبقة جديدة من التجار الأثرياء الذين يعملون بعيداً عن رقابة الحكومة. وفي الوقت نفسه، أضعف تصاعد الأسعار دخل الفرد الذي يحصل عليه من الوظائف التي كانت تعتبر وظائف محترمة في السابق، مثل وظائف المسؤولين والمدرسين. فبالنسبة لهؤلاء، كان لا يمكنهم الوصول إلى ما يُطلق عليه قطاع التجارة وصناعة الخدمات الأمريكي، الخاص بالجيش الأمريكي. ومع بدء انسحاب القوات الأمريكية في عام 1970، وزيادة عبء قيادة الحرب على فيتنام الجنوبية، لم يزد الضغط إلا على الضرائب والأجور، في حين استمر تجار السوق السوداء في عملهم، وإن بمقدار قليل. وعندما حاول رجال الشرطة العسكرية محاصرة أولئك التجار، أوقفوا نشاطهم، واختبأوا، ثم عادوا بعد فترة زمنية قليلة. وقد كان الانخفاض السريع في وضع الطبقة المتوسطة مشكلة كبيرة تواجه الحكومة، وتهدد الحفاظ على الدعم العام. مع العلم أن الغالبية العظمى من الطلبة انتمت إلى الطبقة المتوسطة. وفي مواجهة هذه المشكلة، راح القانون يقصر أي نوع من التوظيف على هؤلاء الذين مُنحوا إعفاء من المصروفات أثناء الدراسة. لكن بات من الصعب جداً بالنسبة للطلبة أن يبقوا في الدراسة، في ظل معاناة الوالدين لكسب العيش. ومن ثم، بدأ الطلبة في بداية السبعينيات في التسرب من التعليم، والبحث عن عمل.

ويوحي الموقف في أواخر عام 1973، وبداية عام 1974، قبل سنة واحدة فقط من

زوال وجود فيتنام الجنوبية كدولة مستقلة بمزيج من الأمل والخوف. أما الأمل، فتمثل في أن الولايات المتحدة وافقت على اتفاقيات السلام لعام 1973 المنعقدة في باريس، وأن فيتنام الشمالية قد تساعد في الحد من العنف، على الرغم من أنها لن تقضي عليه نهائياً، وهو ما يتيح للجنوب فرصة إعادة البناء. وبالفعل، أُعلن رسمياً في سبتمبر 1973 عن إنشاء كلية جديدة لتخطيط المدن، في جامعة ثو دو بوليتكنيك، في سايغون. وكان المقرر أن تعمل هذه الكلية في 1975، وأن تقدم أفضل الأفكار الحديثة، لخدمة إعادة الإعمار الوطني للدولة. وبوصفه جزءاً من هذا العمل، كان من المقرر أن يُحَدَّثَ مطار



التفاؤل التجاري: خدمات جديدة من شركة إير فيتنام للطيران المدني – 1973 (صحيفة ذي سايغون بوست – سبتمبر 1973)

تان سون نهوت، في سايغون. وكانت شركة الطيران الوطنية (الخطوط الجوية الفيتنامية) متفائلة بشأن مستقبل التجارة في البلاد، لذا أعلنت في منتصف عام 1974 أنها اشترت ثلاث طائرات نفاثة إضافية من شركة «بان آم» الأمريكية، وأنها تقوم بتوسيع خدماتها إلى هونغ كونغ، وجنوب شرق آسيا. وللدلالة على أنها تدخل عصراً جديداً، أصدرت مجلة عن الطيران– اسمها «أو داي»– تحتوي على كل قصص وصور الجمال، والتاريخ، والثقافة الضرورية لجذب السياح المحليين والأجانب. حتى أنها بدأت في إدراج بعض مواقع الحرب في جدولها السياحي، فقد تضمن إعلان الشركة عن جولتها الشاملة التنقل والإقامة– وكانت هذه الجولة منظمة بسعر مخفض، في مدينة «هوي» القديمة، في سبتمبر 1973– النص على أن الفرد يمكنه أن يزور المقابر الإمبراطورية، ويسافر عبر نهر برفيوم، ويذهب إلى كوانج تري عبر الطريق المهجور الذي يُطلق عليه «طريق الرعب».

أما الخوف، فتمثل في علامات تداعي المجتمع التي بدأت تظهر في محيطين على الأقل هما: الشباب والاقتصاد. فقد أصبح الشباب أكثر ميلاً للانعزال. وللأمانة نقول إن هذا– في الواقع– كان لا يختلف عن المجتمعات الأخرى التي استسلمت فيها حركة الهيبي لإحساس اليأس، مما أدى– منذ منتصف السبعينيات– إلى انتشار ثقافة أقل مثالية، وإن اتسمت بالقدر عينه من الفوضوية. وقد أدى هذا الشعور بالعزلة إلى زيادة واضحة في تعاطي المخدرات في الولايات المتحدة، وأوروبا الغربية، وكذلك في فيتنام. لذلك، كانت هناك حملات مدنية في الأخيرة– في أواخر عام 1973– للحدّ من إدمان المخدرات. وفي سبتمبر من ذلك العام، كانت اللحظة المحيرة في هذه الحملة، عندما ألقى وزير الشباب والتعليم والشؤون الثقافية، نجو كاك تينه، خطاباً عاماً، ألقى فيه باللائمة على الحرب، والمخدرات، وحركة الهيبي، بوصفها المخرب لأخلاق الشباب. والطريف أن المكان الذي أُلقي فيه الخطاب– طبقاً لما ورد في صحيفة سايغون بوست، في العدد الصادر في 12 سبتمبر 1973– كان أحد أندية الهيبي!

وتمثلت استجابة الحكومة للأزمة الظاهرة في أخلاق الشباب في استحداث حركة وطنية للرياضة، بالتوافق مع نداءات من رؤساء الجامعات في فيتنام الجنوبية (على الرغم من أنهم قالوا إن زيادة بيوت الإيواء، وأماكن تقديم الطعام، تعتبر أمراً ضرورياً لتحسين حياة الطلبة وآمالهم). ولم يكن اللجوء للرياضة حلاً نهائياً، لكن الاعتقاد المقبول في

المدارس الحكومية البريطانية- وبين مجموعات مثل جمعية الشباب المسيحي- منذ القرن التاسع عشر كان «العقل السليم في الجسم السليم» (معلوم أن فكرة التحرر الأخلاقي من خلال الرياضة كانت طابعاً رئيساً للسينما الشعبية الأمريكية). لذلك، أعطى الوزير نجو تعليماته للمدارس الثانوية في فيتنام الجنوبية بالقيام بتعزيز تعليم وممارسة الرياضة. وعلى نحو متزايد، أضاف الوزير كرة البيسبول إلى القائمة الاعتيادية للرياضة الشعبية والمحببة، التي كانت تضم كرة القدم، والطائرة، وكرة الطاولة. ولا شك في أن هذا كان جراء تأثير الثقافة الأمريكية. وعلى أية حال، كان من المتوقع أن تُهزم فيتنام الجنوبية، حتى لو نجحت حكومتها في الإمساك بزمام الأمور.

ففي الوقت نفسه، كانت الحكومة المركزية تزيد من اتخاذ إجراءات صارمة بشأن احتجاجات الطلبة، مما أدى إلى القبض على الطلبة الناشطين سياسياً ومضايقتهم. واختار اتحاد الطلبة الكاثوليكيين- بسبب المستوى المتدهور الذي وصلت إليه الأوضاع- يناير 1975 ميعاداً لأول تظاهرة ينظمونها ضد الحكومة منذ عام 1971. ويبدو أن الاتحاد الكاثوليكي وجد أنه لم يجنِ أي شيء من دعم أي أيديولوجية تناهض الشيوعية، وأن الطلبة الكاثوليكيين ابتعدوا- بديهياً- عن الحركات البوذية المتطرفة التي كانت موجودة في أوائل السبعينيات. لذلك شعر الجميع- بحلول عام 1975- بأنهم لن يمكنهم الاستمرار في دعم حكومة فاشلة. وفي أثناء ذلك، كان هناك شباب فيتنامي آخر يذهب لتعلم اللغة في المركز الثقافي الفرنسي، إذ كان يلتحق المئات من هؤلاء الشباب- في أواخر عام 1973- كل يوم بالدورات فورية الدفع. ولا ريب في أن رحيل القوات الأمريكية- بالإضافة لخفض دعم واشنطن لفيتنام- كان له تأثير كبير في ذلك. كما أنه من المعروف ضمناً أن الشباب الفيتناميين ينظرون إلى فرنسا على أنها طريق نجاة محتمل للوصول إلى المستقبل.

وفي الواقع، لم تكن الحرب السبب الوحيد للمحنة الاقتصادية في فيتنام. كما أن فيتنام الجنوبية لم تكن البلد الوحيد الذي يعاني من التضخم المتصاعد، فقد وصل التضخم في الولايات المتحدة- على سبيل المثال- إلى أعلى مستوى له في الفترة بين 1973- 1974. ولعل ذلك يرجع بشكل كبير إلى صدمة البترول، والزيادة الهائلة في تكلفة الطاقة. ومع ذلك، فإن المرء لا يمكنه أن يتخلى- عند قراءة الصحف الصادرة عن سايغون في الفترة من 1973 إلى 1975- عن انطباعه أن الوضع في مجتمع فيتنام الجنوبية كان مشتعلاً حتى قبل

وصول الدبابات الخاصة بفيتنام الشمالية بشكل نهائي. وقد تمثلت إحدى أهم المشكلات في استمرار الاقتصاد المزدوج المتجسد في بضائع السوق القانونية، والسوق السوداء. ولا شك أن الأخيرة كلفت السلطات ملايين الدولارات، بسبب الضرائب التي لم يمكنها تحصيلها، وهو ما دفع الحكومة في مايو 1974 إلى تحذير الشركات في سايغون، وتهديدها بالغلق، إذا لم تتخلص من جميع البضائع المهربة.

وكان من المحتمل أن تكون نقطة الانهيار لمعنويات المدنيين في 1973. ففي ذلك الوقت، كانت المدن الرئيسة في سايغون تحصل على كميات قليلة جداً من الغذاء. وعلى الرغم من تخصيص لواء في الجيش لتنظيم إمدادات الطوارئ القادمة من المقاطعات الغربية، فإن الجيش- بشكل عام- لم يكن فعالاً في التعامل مع الأزمة. فقد وعد بجلب 120 ألف طن من الأرز- في الفترة الواقعة بين أغسطس وسبتمبر 1973، لكن الرقم الفعلي لما جُلِبَ توقف عند 40 ألف طن فقط. ولم يستطع السيطرة على الأوضاع في نها تانغ التي قفز فيها سعر بيع الأرز العادي- وليس الماركة الرائدة المعروفة بـ «ميس فراجرانس»- بنسبة تزيد عن 40٪. وقد ذهب بعض الناس إلى أنه يقع جزء من اللوم على الاضطرابات الناتجة عن الحرب، على الرغم من أن الأعمال العدائية انخفضت حدتها لعدة شهور. كما كان مقبولاً لديهم أن انخفاض المساعدات الأمريكية- إضافة إلى انخفاض حصة الأرز الأمريكي المستورد- قد ساعد بشدة في حدوث ذلك. وعلى أية حال، يبدو أن الاعتقاد المهيمن والسائد كان هو تجاهل المعارضين مهما بلغ عددهم، ورفع إصبع الاتهام في وجه المسؤولين في الحكومة، والتجار المحتكرين للأرز الذين تواطئوا لاستغلال السوق عن طريق تخزين الإمدادات، من أجل رفع الأسعار.

ولعل التأثير غير المباشر لارتفاع أسعار المواد الغذائية قد برز في التضخم الذي أصاب نواحي الحياة اليومية الأخرى. فعلى سبيل المثال، زادت تكلفة رزمة الورق- في أواخر عام 1973- بنسبة 50٪، لدرجة أنه أصبح من المكلف جداً إصدار الكتب أو المجلات. فضلا عن أن الجمهور المهتم بقراءة المجلات قد قلّ أصلاً، إذ أصبح الاستماع إلى المذياع، أو مشاهدة التلفاز، أكثر سهولة. فقد كان من مزايا التلفاز الممارسة القياسية- التي لا تزال موجودة حتى الآن- المتعلقة باختيار أكثر رجل وامرأة جذابين لقراءة الأخبار. وربما كان الليبراليون أكثر المتخوفين من ذلك، لأن وسائل الإعلام المطبوعة كانت- في وجهة

نظرهم- الساحة الرئيسة التي تدار المناقشات عليها، والقاعدة لما يطلق عليه الإطار العام الذي يجمع المدنيين المنخرطين في السياسة، ممن هم على علم بمجريات الأمور. ولا شك أن هذه القاعدة وتلك الساحة قد أصبحت مهددة بقوة في ظل التضخم والتغير التكنولوجي.

وبحلول يناير 1975، كانت تصر صحيفة «سونغ ثان» على جعل هذا العام عام اتخاذ القرار. ولم تكن تشير بشكل رئيس إلى الحرب، بل انصبّ اهتمامها على الاقتصاد، الذي وصفته بأنه في حالة «اختناق». وقد أطلقت تحذيراً من حالة الإفلاس التي يتجه نحوها الناس، وأشارت إلى أن «الطريق الوحيد لإنقاذ الاقتصاد الوطني هو السلام، ووجود اقتصاد يتعامل بشكل مباشر مع الأغنياء». كما أشارت إلى أنه لن يكون هناك أمل في أي شيء خلاف ذلك. ولعل المقصود من ذلك كان ضرورة وجود سوق حرة، مفتوحة، يمكن فيها لأي تاجر من فيتنام الجنوبية أن يتعامل مع دول العالم الغنية، ويزيد من دخله. لكن الصحيفة كانت- في إشارة إلى فقد الحكومة المركزية لسيطرتها على الاقتصاد- تحاول تجنب تكرار أزمة عام 1973، عن طريق ضمان القروض المقدمة لتجار الحبوب المعتمدين فقط، ومساعدة المزارعين على بيع محصولهم، وتشجيعهم على إنتاج الغذاء. وقد كان هذا فقط قبل أربعة أشهر من سقوط سايغون.

ولا شك في أن الدول يمكن أن تنهض أو تسقط، لكن في الحالتين يبقى الأفراد. لذا لم يكن عجيباً وسط انهيار الاقتصاد، وممارسة الحكومة للقمع، ودنو قوات فيتنام الشمالية، أن يحاول المدنيون العاديون ممارسة حياتهم بشكل طبيعي. ففي يناير 1975، كانت دور السينما في سايغون تعرض المزيج المعتاد من العروض الغربية والصينية، حيث يلعب جون واين دور راعي البقر في فيلم «المخادع الكبير» (مدبلج بالفرنسية)، وفيلم الإثارة في هونغ كونغ «سيد الحرب». وكانت هذه الدور تعرض- أيضاً- حدثاً نادراً، ألا وهو الفيلم الفيتنامي «الجمال والمهرج». ومن ناحية أخرى، استمرّت في صحيفة سايغون بوست الإعلانات الدورية عن نجوين ترونج، التي يقدم فيها نفسه على أنه «أفضل مدرس رقص في فيتنام»، وأنه مستعد لتعليم «الرقص الثنائي القديم- وهو أسلوب عالمي- في مكان مخصص لذلك، أو في المنزل». أما الشبان والفتيات في سايغون، في بدايات 1975، فظلوا- على الرغم من الحرب- يؤثرون الزواج. فها هي إحدى خريجات جامعة فان



مارس 1975: حفل زواج (سايغون) قبل شهر واحد من سقوط فيتنام الجنوبية

هانه تحيي ليلة زفافها في مارس 1975، مرتدية فستاناً أحمر يجلب الحظ (وهو فستان زفاف غربي)، وقد أحاطت بها أسرتها وأصدقاؤها. وكان في حفل الزفاف رموز الحب والإخلاص الثلاثة الضرورية: ورقة التنبول، وجوزة الأريقة، وبعض الليمون. وقد كانت الحرب تؤثر- بلا شك- على يوم الزواج، وهو ما بدا واضحا في ثلاث صور: الأولى، أن التضخم أدى إلى تقليل كمية الطعام، وعدد الهدايا، والثانية، أن باقة الورد التي تحملها العروس كانت من أردأ أنواع الزهور، لأنه لم يكن متاحاً الأفضل من ذلك، وأخيراً، أنه كان هناك قلق بشأن جودة الشموع، فقد كان من الصعب وجود شمعتين كبيرتين، مزخرفتين برموز الحظ السعيد، مشتعلتين طوال فترة الحفل. علاوة على أن نسبة الشحم في هذه الشموع كانت مرتفعة، مما يجعلها رديئة الجودة، ويؤدي إلى اشتعالها على نحو متقطع، أو انطفائها قبل انتهاء الحفل، وهو ما يعد فألاً سيئاً.

وبعد ثلاثين سنة من الزفاف، كانت تعيش العروس نفسها- التي كانت تنهض كل صباح عندما كانت طالبة يملؤها الحماس لليوم القادم- وسط المشتتين الفيتناميين في الغرب. وفي محاولة لإعادة تفسير رموز النجاح، كانت تعيش في بيت كبير يضاهي-

بحق- بيتاً فرنسياً من تلك البيوت التي كانت موجودة في فيتنام في فترة الستينيات، وكانت تقود سيارة يابانية (فعل العديد من الأمريكيين ذلك فيما بعد)، وكانت سعيدة تماماً مع زوجها الفيتنامي (مقارنة بالأزواج اليابانيين). أما الشيء الوحيد الذي كانت تفتقده- هي وغيرها بالطبع- فهو بيتها في فيتنام الجنوبية، وإن كان ذلك لا يمنع أنه بقي باستطاعتها أن تعود للزيارة، ورؤية أقاربها وأصدقائها، واستعادة الممتلكات التي تركتها هناك من سنين مضت. وعلى النقيض، فاز الشيوعيون في فيتنام بالحرب عام 1975، لكن كان يجب عليهم أن يهتموا بالاقتصاد والمجتمع، وأن يتوصلوا- أكثر فأكثر- إلى تسوية مع الرأسمالية. بيد أنه خلال فترة التمرد والحرب، أفضى بهم الأمر إلى نهاية واحدة حرمتهم من أشياء كثيرة تعطي قيمة لحياة الإنسان، لتبقى تلك المسألة المثيرة للجدل: هل استفاد أحد من حرب الفيتناميين ضد الفيتناميين؟

الهوامش

1. إحصائيات خاصة بتسجيل السيارات في عام 1967 و1968 في صحيفة ذي سايغون بوست العدد 15 سبتمبر 1968. وتكشف هذه الإحصائيات زيادة كبيرة في أعداد التسجيلات مقارنة بالشهور المماثلة من عام 1968 إلى 2613 سيارة على الرغم من أن الرقم المطلق يظل صغيراً.

2. Qui Due Nguyen, Where the Ashes Are: The Odyssey of a Viemamese Family (Reading, MA: Addison-Wesley, 1994), 2.

3. «Teenagers Go to War,» report in The Saigon post, 13 September 1968.

4. Buddhist conflict and student protests, The Saigon post, 5-7 and 10 May 1970. Remembering Life in Urban South Vietnam, circa 1965-1975 Nguyen 1994:35.

5. Election of Mrs. Tran Kim Thoa, The Saigon post, 10 September 1968.

6. A recent example of Cha' s fiction is The Deer and the Cauldron: A Martial Arts Novel (New York: Oxford University press, 1997).

7. Air Vietnam package tour to Hue, The Saigon Post, 22 September 1973.

8. Rice scarcity and inflation 1973, reports in The Saigon post, 6, 10, 13, and 20 September 1973.

9. Song Than editorial quoted in The Saigon post, 2 January 1975.

10. تقول الأسطورة الشهيرة إن عروساً تزوجت من رجل له أخ أصغر منه. وفي يوم تحدثت خطأً إلى الأخ الأصغر على أنه زوجها. فأراد الأخ الأصغر أن يجنب أخاه الأكبر العار والغضب، فخرج من القرية وفي طريقه أصابه المرض وتوفى على ضفاف أحد الأنهار وتحول جسده إلى ليمونة. فخرج الأخ الأكبر يبحث عنه وذهب إلى النهر نفسه فجلس على الليمونة وتوفى هو الآخر وتحول إلى شجرة أريقة (Areca). وخرجت الزوجة الشابة أيضاً تبحث عنهما فوصلت إلى النهر ذاته. فجلست على الليمونة في ظل شجرة الأريقة فماتت وتحولت جسدها إلى نبتة تنبول متسلقة (betel vine)، ولفت نفسها برقة وحب حول شجرة الأريقة.

مراجع مختارة

ينبني هذا الفصل بشكل عام على مجموعة من اللقاءات الموسعة مع مواطنين فيتناميين مدنيين، وزُوِّدَ بمقالات من صحيفة «ذي سايغون بوست» الفيتنامية الصادرة عن بوي فونج منذ عام 1963. ويعتبر الغرض من الموارد التالية ليس استخدامها كمصادر لهذا الفصل وإنما كإضافات لملء الفراغات المتعددة في هذا الموضوع.

Karnow, Stanley. Vietnam: A History. New York: Viking press, 1983.

رواية شاملة لحرب فيتنام من أحد المراسلين الأمريكيين أصحاب الشهرة الواسعة في تغطية الشأن الآسيوي في خمسينيات وستينيات القرن العشرين. انظر سلسلة WGBH المتميزة بعنوان: Vietnam: A Television History (1983) التي عمل Karnow كبيراً للمستشارين فيها.

Logan, William S. Hanoi: Biography of a City. Sydney: University of New South Wales press, 2000.

الكاتب هو أكاديمي ومستشار لدى منظمة اليونسكو وعضو سابق في فريق مساندة معني بالمساعدة في عملية تحديث هانوي (Hanoi). ويسلط هذا الكتاب الضوء على التاريخ الاجتماعي والثقافي للمدينة منذ العصور قبل الاستعمارية وحتى العصر الحديث، والكتاب مزود بمجموعة متميزة من الصور والرسوم التوضيحية والخرائط.

Chapter 5,«Under American Bombs,»explains life in Hanoi during the Vietnam War.

Nguyen, Qui Duc. Where the Ashes Are: The Odyssey of a Vietnamese Family. Reading, MA: Addison- Wesley, 1994.

إحدى الروايات النادرة المتوافرة باللغة الإنجليزية لشاب فيتنامي في أواخر ستينيات القرن العشرين. وكان والد نجوين موظف حكومي رفيع في مدينة «دا نانج». وتغطي الفصول الأولى مرحلة شباب الكاتب في الفترة بين 1968 و1975 وتشمل وصفاً للحياة في مدينة «هيو» أثناء هجمات تيت (Tet) وبعدها.

«Trinh cong So'n. » http://www.trinh-cong-son.com

معلومات من إنتاج المجتمع الفيتنامي في الولايات المتحدة عن أحد المغنين وكتاب الأغاني الرائدين في جنوب فيتنام في وقت الحرب.

Trullinger, James Walker. Village at War: An Account of Revolution in Vietnam. New York: Longman, 1980.

كان الكاتب عامل إغاثة لاجئ في دا نانج في ذروة حرب فيتنام. وفي عامي 1974—1975، عاش الكاتب في قرية بالقرب من مدينة هيو (Hue). وفي هذا الكتاب الاستثنائي، يشرح الكاتب أثر الحرب على حياة العديد من القرويين من الفلاحين إلى حراس المستودعات وتجار الأرز ومسؤولي المجالس القروية.

Young, Marilyn B.,ed. The Vietnam War: A History in Documents. New York: Oxford University Press, 2002.

مجموعة مفيدة من السجلات تتناول طيفاً واسعاً من الموضوعات خلال حرب فيتنام، اختِيرت وعُرِضَت ووضِّحت بعناية.

بيبليوغرافيا مختارة

This chapter is based almost entirely on extensive interviews with Vietnamese civilians, supplemented by articles from the Vietnamese newspaper *The Saigon Post,* published by Bui Phuong Thé from 1963. The references below are intended less as sources for the chapter and more as additions to fill in various gaps.

Karnow, Stanley. *Vietnam: A History.* New York: Viking Press, 1983.
A comprehensive account of the Vietnam war from one of America's most respected Asia correspondents of the 1950s–1960s. See also the excellent WGBH series *Vietnam: A Television History* (1983), for which Karnow was chief consultant.

Logan, William S. *Hanoi: Biography of a City.* Sydney: University of New South Wales Press, 2000.
The author is a scholar, advisor to UNESCO, and former member of an aid team to assist in the modernization of Hanoi. This is a wide-ranging social and cultural history of the city from precolonial times to the present, extensively illustrated with photographs and maps. Chapter 5, "Under American Bombs," explains life in Hanoi during the Vietnam war.

Nguyen, Qui Duc. *Where the Ashes Are: The Odyssey of a Vietnamese Family.* Reading, MA: Addison-Wesley, 1994.
One of the few civilian memoirs in English of a Vietnamese youth from the late 1960s. Nguyen's father was a senior government official based at Da Nang. The first few chapters cover the author's youth from 1968 to 1975 and include a description of life in the city of Hue during and after the Tet Offensive.

"Trịnh Công So'n." http://www.trịnh-cong-son.com.
Information generated by the Vietnamese community in the United States about one of the leading singer-songwriters of wartime South Vietnam.

Trullinger, James Walker. *Village at War: An Account of Revolution in Vietnam.* New York: Longman, 1980.
The author was a refugee relief worker in Da Nang at the height of the Vietnam War. In 1974–1975, he lived in and researched a village near the city of Hue. In this exceptional book he explains the disruption of war in the lives of diverse villagers, from farmers to warehousemen, rice merchants to village officials.

Young, Marilyn B., ed. *The Vietnam War: A History in Documents.* New York: Oxford University Press, 2002.
A useful collection of records on diverse subjects throughout the Vietnam War, carefully selected, carefully set out, and well illustrated.

نبذة عن المؤلف:

أستاذ التاريخ الاجتماعي لشرق آسيا في كلية «يونيفرستي كوليدج» بجامعة «نيوساوث ويلز» بأستراليا. من أبرز أعماله: «أول حرب حديثة لليابان: الجيش والمجتمع في صراع مع الصين 1894-1895» (1994) إضافة إلى «الجيش والإمبراطورية والسياسة في عصر ميجي باليابان» (2000).

نبذة عن المترجم:

تخرج أحمد لطفي في جامعة حلوان (بالعاصمة المصرية القاهرة) عام 2002 وبدأ حياته المهنية بالعمل مترجماً تحريرياً بعدد من الصحف المصرية ومؤسسات القطاع الخاص. ثم مترجماً فورياً في عدد من المؤتمرات المتخصصة إلى أن انتقل للعمل مراسلاً صحفياً بالعاصمة القطرية الدوحة.

التحق أحمد لطفي بالقسم الاقتصادي بمجلة «قطر توداي» الصادرة باللغتين العربية والإنجليزية في الدوحة. وشارك بصفة مراسل صحفي في عدة مؤتمرات دولية من مختلف بلاد المنطقة منها المغرب والأردن وعمان ومصر. وله إسهامات صحفية شهرية في عدد من المجلات الإقليمية المتخصصة. منها على سبيل المثال مجلة The Middle East اللندنية و«فوربس العربية» وغيرهما.

من ترجماته كتاب «أقنعة الثقافة العربية». تأليف د. منى فياض عن دار الثقافة المصرية.

مدنيو آسيا في زمن الحرب

منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي- الذي يعد نقطة البداية الأساسية لهذا الكتاب- كانت مجتمعات شرق آسيا مرغمة وبشكل متزايد على تغيير قيمها وممارساتها. وتتمثل نقطة التحول هنا في هجوم الحكومة البريطانية على الصين بين عامي 1839 و1842، ذلك الهجوم الذي عُرف باسم «حرب الأفيون الأولى». ونتيجة لهزيمة الصين في هذه الحرب وفي حروب تالية، وقيام القوى الغربية بفرض الحكم الاستعماري والاتفاقيات الجائرة على آسيا، نشأ نظام ثقافي واجتماعي جديد من نوعه. في هذا السياق، كان بقاء الأمة يعتمد في البداية على إنشاء دولة (من خلال التعليم الجماعي لمعرفة القراءة والكتابة وتطوير وسائل إعلام جديدة) وبناء أساس اقتصادي واجتماعي يسمح ببناء الجيش.

كتاب يقدم تفاصيل حياة هؤلاء المدنيين في آسيا وثوراتهم وحروبهم التي عاشوها وعاصروها.


9 789948 018667



